

الملل والنحل

دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الاسلامية

(١)

الكتاب:	بحوث في الملل والنحل - الجزء ٥
المؤلف:	جعفر السبحاني
الناشر:	لجنة إدارة الحوزة العلميّة بقم المقدّسة
الطبعة:	الأولى
المطبعة:	مهر - قم
المطبوع:	٢٠٠٠ نسخة
التاريخ:	ذوالحجّة الحرام ١٤١٢ المطابق لشهر خرداد ١٣٧١

بحوث في الملل والنحل

دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية

الجزء الخامس

يتناول تاريخ الخوارج
نشأتهم، عقائدهم، فرقهم وشخصياتهم

تأليف

جعفر السبحاني

(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه وآله وعلى رواة سنته
وحملة أحاديثه وحفظة كلمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين .

أما بعد: فهذا هو الجزء الخامس من موسوعتنا في الملل و النحل، والمقارنة بين المذاهب الاسلامية، نقدّمه إلى القراء الكرام، راجين منهم التنبيه والارشاد إلى مواضع الزلّة والخطأ، فإنّ المؤمن مرآة المؤمن، وأحبّ الاخوان من أهدى إلى أخيه عيوبه^(١) .

ويتناول هذا الجزء دراسة إحدى الفرق الإسلامية القديمة أعني فرقة الخوارج من خلال المواضيع التالية:

الف - نشأتهم.

ب - تاريخهم السياسي الذي يتضمّن المواجهات التي خاضوها مع

١. اقتباس عن الكلمة المروية عن الامام الصادق عليه السلام حيث قال: أحبّ اخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي (لاحظ: تحف العقول ٣٦٦).

مخالفهم أولاً، ومحاولاتهم للاستيلاء على البلاد الإسلامية ثانياً، وزوالهم والقضاء عليهم ثالثاً .

ج - طوائفهم وفرقهم .

د - عقائدهم و أفكارهم .

هـ - شخصياتهم البارزة والآثار الأدبية التي خلفوها .

والخوارج - كما قلنا - من أقدم الفرق الإسلامية بل أول فرقة ظهرت في المجتمع الإسلامي، وهو أول اختلاف حدث بين المسلمين، بعد اختلاف الأمة في مسألة الإمامة، وقد تكوّنت في العقد الرابع من القرن الأول بعدما نشبت الحرب بين الإمام علي عليه السلام ومعوية بن أبي سفيان، وقد تحدّث عنهم و عن نشأتهم وتاريخهم طائفتان:

١ - أصحاب التواريخ: فقد ذكروا عنهم شيئاً كثيراً حسب التسلسل الزمني كالطبري في تاريخه، والمبرّد في كامله، واليعقوبي في تاريخه، والمسعودي في مروجه، والجزري في كامله، وابن كثير في كتابه، ولكن اکتفوا بنقل الحوادث من دون تحليل عللها ونتائجها وغاياتها ومن دون استنتاج شيء يُعدّ درساً أو عبرة، ومن دون قضاء بشيء في حقهم، كأنهم قصاصون ليس لهم شأن سوى سرد القصة .

وبما أنّهم ذكروا حوادث تلك الفرقة في فصول مختلفة - كما هو مقتضى سرد الحوادث حسب السنين والقرون - لا يمكن للإنسان أن يقف على تاريخ تلك الفرقة دفعة واحدة في موضع واحد، بل عليه السبر وتتبع الحوادث وضمّ حلقة إلى حلقات أخرى، حتى يكون على اطلاع على تاريخهم عن كثب .

٢ - مؤرّخو العقائد: أعني أصحاب علم الملل والنحل فقد اهتموا بذكر فرقهم، وبيان

لكيف من عقائدهم، من دون تركيز على كيفية نشأتهم، والحروب

التي مارسوها طيلة سنين، قرناً بعد قرن .

نعم هناك جماعة من المتأخرين أفردوا تاريخهم بالتأليف، وهم بين كاتب مسلم، ومؤلف مستشرق، ولكل غايته المتوخاة، وإليك الإشارة إلى بعض ما ألف في ذلك المضمار:

١- ملخص تاريخ الخوارج: تأليف محمد شريف سليم، المطبوع في القاهرة عام ١٣٤٩

هـ - ق .

٢- الخوارج في الاسلام: تأليف عمر أبي النصر، المطبوع في بيروت عام ١٣٦٩ هـ ق

الموافق لعام ١٩٤٩ م .

٣- أدب الخوارج: تأليف الكاتبة سهير القلماوي، والكتاب رسالتها الأولى لنيل درجة

الماجستير وقد نشرتها عام ١٣٦٥ هـ - ق وتناولت الرسالة البحث عن شعراء الخوارج وقد ذكرت منهم عمران بن حطان و قطري بن الفجاءة، والطرماح بن حكيم وهو غير طرماح بن عدي الذي كان موالياً لعلي عليه السلام .

٤- وقعة النهروان: تأليف الخطيب الهاشمي الحائري، المطبوع في طهران عام ١٣٧٢ هـ

- ق .

٥- الخوارج في العصر الأموي: تأليف الدكتور نايف معروف، وقد طبع في بيروت مرتين

أخيرتها في عام ١٤٠١ هـ .

٦- الخوارج و الشيعة: تأليف يوليوس فلهوزن، وقد نقله إلى العربية عبدالرحمن بدوي،

طبع في الكويت للمرة الثالثة عام ١٩٧٨ م. ومن جنيات المؤلف على تاريخ الشيعة في الكتاب قوله: «إنّ الشيعة و الخوارج تكوّنا في وقت واحد»^(١) والمسكين جاهل بتاريخ الشيعة - فإنّها تكوّنت في العصر الذي تكوّن فيه الاسلام، و الشيعة عبارة عن لفيف من المسلمين الأول من المهاجرين

١. يوليوس فلهوزن: الخوارج و الشيعة ١١٢، ترجمة عبدالرحمن بدوي، من الألمانية الى العربية.

والأنصار، الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول ﷺ فاتَّبَعُوا سُنَّتَهُ ولم يعدلوا عنها قيد شعرة، فأخذوا في مسألة الخلافة بالنص، وتركوا الاجتهاد في مقابله .
وأما الخوارج فقد نشأت في أعقاب حرب «صُفَّين» كما سيوافيك بيانه، فعَدَّهما عدلين وفي صفٍّ واحد جهل بتاريخ الشيعة وتاريخ الاسلام، أو تجاهل، وليس ذلك ببعيد عن المستشرقين المجتمعين على موائد الاستعمار .

هذا بعض ما أُلِّف حول تاريخ الخوارج والكل كما ترى أُلِّف بيد خصمائهم ولا يمكن الاحتجاج بهذه الكتب عليهم إلا إذا تضافر النقل وحصل الاطمئنان بصدقها، ولأجل رفع تلك النقيصة والتزاماً منا بالموضوعية التي يجب أن يتَّصف بها البحث والباحث، بذلنا الجهد للحصول على آثار تلك الفرقة في التاريخ والعقائد والفقه والتفسير وتقف على أسمائها في «قائمة المصادر» للكتاب. فإنَّ الخوارج انقرضت بعامَّة فرقها ولم يبق منهم ما يعبأ به إلا فرقة الاباضية وهي الفرقة المعتدلة منهم، وهي المذهب الرسمي في عَمَّان، وقد قامت وزارة التراث القومي والثقافة لسلطنة عمان، بنشر آثار الاباضية في مجالات مختلفة، فلا بد للباحث من الرجوع إليها.

نسأل الله سبحانه أن يوفِّقنا في تبیین نشأة تلك الفرقة وتاريخها وعقائدها لما هو الحق والصدق، مجانين عن كل فكرة ونظرية مسبقة في حقهم .

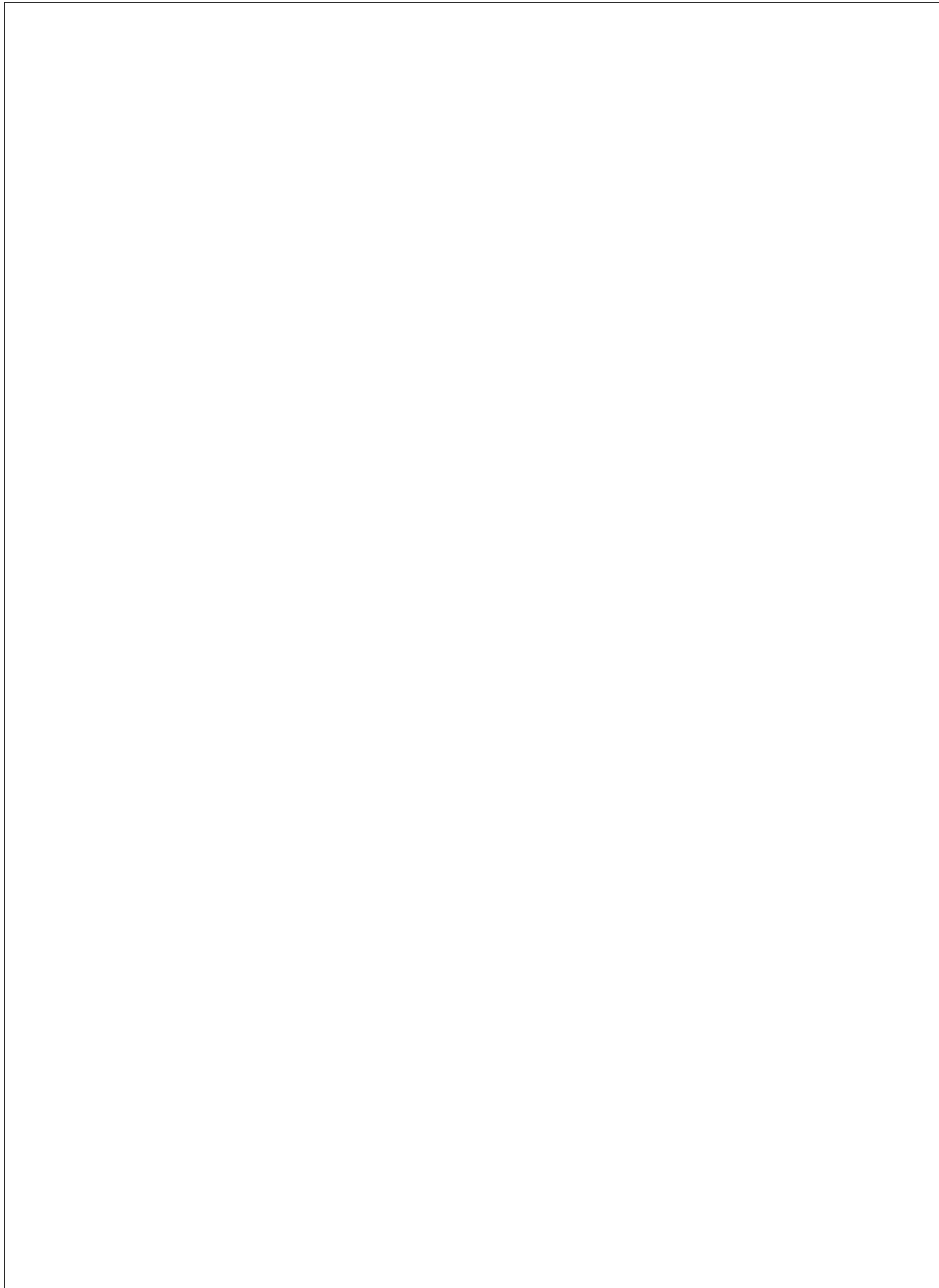
قم - مؤسسة الامام الصادق عليه السلام

جعفر السبحاني

١٤١١/١٢/٢٠ هـ

الفصل الأول

بداية الاختلاف بعد رحلة الرسول ﷺ



ارتحل النبي الأكرم ﷺ ملبياً دعوة ربّه في العام الحادي عشر من هجرته، بعد ما بذل كل جهده لتوحيد الأمة ورص صفوفها، منادياً فيهم بقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١) وهو ﷺ كما دعا إلى كلمة التوحيد دعا إلى توحيد الكلمة بأمر منه سبحانه في الذكر الحكيم حيث قال: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿أَنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات، وقد كان ﷺ يُحذّر المجتمع الاسلامي من التفرّق و التشرذم، وقد وصف التحزّب والتعصّب لقوم دون قوم «دعوى متنتنة»^(٤).

وقد خاطب معشر الأنصار بقوله: «الله الله أبدعوى الجاهلية و أنا بين

١. الأنبياء: ٩٢.

٢. آل عمران: ١٠٣.

٣. الحجرات: ١٠.

٤. ابن هشام: السيرة النبوية ٣/٣٠٣.

أظهركم بعد أن هداكم الله بالاسلام، وأكرمكم به، وقطع به أمر الجاهلية و استنقذكم من الكفر، وآلف به بين قلوبكم»^(١).

ومع كل هذه الأوامر العديدة و التحذيرات الشديدة نرى - ياللاسف- أن المسلمين اختلفوا بعد وفاته - وجثمانه بعد لم يُوار - إلى فرقتين يجمعهما الاتفاق في سائر الأصول و يفرقهما الخلاف في مسألة الخلافة والولاية وهاتان الفرقتان هما:

١- فرقة تبنت مبدأ التنصيب على الشخص المعين و قالت إنَّ الرسول ﷺ نصَّ على خلافة علي و ولايته في مواضع عديدة و مناسبات كثيرة، أعظمها و أشهرها يوم الغدير في منصرفه عن حجة الوداع في العام العاشر، فقال في محتشد عظيم: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهمَّ وال من والاه و عاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» وقد بلغ الحديث في كل عصر حدَّ التواتر بل تجاوز حدّه، ومن المتبئين لهذه الفكرة، أكابر بني هاشم وشخصياتهم البارزة كعباس بن عبدالمطلب وعقيل بن أبي طالب وغيرهما ولفيف من الأصحاب، كسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وأبي التيهان، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم من المهاجرين و الأنصار، الذين شايعوا علياً، و نفذوا ما أوصى به النبي الأكرم في حق وصيّيه، وهؤلاء هم نواة الشيعة وهم جزء من المسلمين الأول، فقد بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول .

٢- فرقة تبنت فكرة الشورى، وإنَّ لها اختيار القائد، وانتهت تلك الفكرة بعد مشاجرات ومشاغبات بين متبئيه إلى خلافة أبي بكر بن أبي قحافة، و تمت البيعة له في سقيفة بني ساعدة، ببيعة عدّة من المهاجرين، كعمر بن الخطاب

١. ابن هشام: السيرة النبوية ٢ / ٢٥٠.

وأبي عبيدة الجراح، وبيعة الأوسيين من الأنصار، وهؤلاء قد نسوا أوتناسوا النصّ النبوي يوم الغدير فقدّموا الاجتهاد على النص، ورجّحوا المصلحة المزعومة على التعيين الإلهي، والعجب أنّ أصحاب هذه الفكرة من بين المهاجرين و الأنصار كانوا يستدلّون على مبدئهم في سقيفة بني ساعدة بأدلة و مقاييس كانت سائدة في الجاهلية، والتي لاصلة لها بالكتاب و السنّة: مثلاً: إنّ الأنصار رأوا أنّهم أولى من غيرهم بالخلافة، لأنّهم آووا رسول الله ﷺ ونصروه في حروبه في زمان أخرجه قومه فيه من موطنه وخذله، وقال خطيبهم الحباب بن المنذر بقوله: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم فأنتم أحقّ بهذا الأمر منهم، فإنّه بأسيا فكم دان الناس بهذا الدين.

هذا منطق الأنصار، وهلم معي نستمع منطق المهاجرين فقال أبوبكر ناطقاً عنهم: إنّ المهاجرين أقرباء النبي و عترته، ودعّمه عمر فقال ردّاً لمنطق الأنصار: والله لا ترضى العرب أن تؤمّركم ونبّيها من غيركم ولا تمنع العرب أن تولّي أمرها من كانت النبوة منهم، من ينازعنا سلطان محمد و نحن أولياؤه و عشيرته؟

تري أنّه ليس في منطق كل من المرشّحين أيّ استناد إلى الكتاب و السنّة فهذه تستدل بايوائهم رسول الله و نصرتهم إيّاه، وتلك تستند إلى قرابته منه، مع أنّه كان من اللازم عليهم الفحص عن قائد لائق عارف بالكتاب و السنّة، مدير ومدبّر يملك كافّة المؤهّلات اللازمة في القيادة سواء أكان من المهاجرين أم من الأنصار أو من طائفة أخرى

كل ذلك يعرب عن أنّ الفكرة كانت غير ناضجة أولاً، وإنّ الانتخاب والاختيار لم يكن صادراً عن مبدأ الاسلامي ثانياً .

هذا و إنّ طائفة من الأنصار أعنى الأوس بايعوا أبابكر بحجة أنهم إن لم يبايعوه ليكون للخزرج عليهم فضيلة^(١).

وهكذا ظهرت فرقتان بعد وفاة الرسول ﷺ والمبدأ الذي اختلفتا فيه هو: مسألة الخلافة و قيادة الأمة، وكان المترقب بعد هذا الشقاق والاختلاف، طرؤ حروب دامية بين الطرفين، ولولا القيادة الحكيمة للامام علي عليه السلام ومساهمته مع الخلفاء في مهام الأمور، والتنازل عن حقه لأنجر الأمر في حياة الخلفاء إلى الهلاك و الدمار، خصوصاً أنّ المنافقين كانوا يترصدون تلك الفرصة ويؤلبون احدى الطائفتين على الأخرى ليصطادوا في الماء العكر، وفي التاريخ شواهد تؤيد ذلك وإنّ القيادة الحكيمة لصاحب النص أعني الامام علياً أفشلت تلك الخطط الشيطانية نكتفي منها بما يلي:

روى الطبري: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبوسفیان وهو يقول: «والله إنّي لأرى عجاجة لا يدفها إلّا دم، يا آل عبد مناف فيما أبوبكر من أموركم؟ أين المستضعفان أين الأذلان علي والعبّاس؟ وقال: «أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك» فأبى علي عليه السلام فجعل أبوسفیان يتمثل بشعر المتلمّس:

ولن يقيم على خسف يراد به
إلا الأذلان غير العير و الودد
هذا على الخسف معكوس برمته
وذا يشجّ فلا يبيكي له أحدى^(٢)

قال: فزجره علي عليه السلام وقال: «إنك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة وإنك والله طالما بغيت للاسلام شرّاً، لا حاجة لنا في نصيحتك».

كان الامام معتقداً بشرعية امارته وخلافته، ويرى نفسه خليفة

١. الطبري: التاريخ ٢/ ٤٤٦. ابن قتيبة: الامامة و السياسة ٩/ ١.

٢. الطبري: التاريخ ٢/ ٤٤٩. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٢٢٠.

رسول الله ﷺ وقد سبقت البيعة له في يوم الغدير وغيره، وكان يحتج به وبغيره من النصوص على استحقاقه لها و يعترف نفسه و أهل بيته بقوله: «ولهم خصائص حقّ الولاية وفيهم الوصية والوراثة»^(١).

ومع ذلك رأى أنّ في مواجهة هذا الانحراف في تلك الظروف العصبية مفسدة أعظم من فوت الولاية فتنازل عن الأمر فسدل دونه ثوباً، وطوى عنه كشحاً، وهو يصف الحال في بعض خطبه ويقول: «ولا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنّهم منحّوه عني من بعده، فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون إلى محق دين محمد ﷺ فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل، يزول منهما ما كان كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمئن الدين و تنهنه»^(٢).

قام أبوبكر بأعباء الخلافة، وحارب أصحاب الردّة، إلى أن مضى لسبيله، فأقام مكانه عمر بن الخطاب وهو أيضاً سار بسيرة من قبله، وكان المسلمون يجتازون البلاد، و يفتحون القلاع، ويسيطرون على العالم بفضل الدين والايمان، حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة من قريش وزعم أنّ رسول الله مات وهو عنهم راض وهؤلاء هم: عليّ، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وقال: رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم، ثم نظر إلى كل واحد من هذه الستة إلى أن نظر إلى

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٢. الرضي: نهج البلاغة الكتاب ٦٢.

عثمان وقال: كأني بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إياك فحملت بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس، أثرتهم بالفيء فثارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبّحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن ثم أخذ بناصيته فقال: فاذا كان ذلك فاذكر قولي فإنّه كائن^(١).

فلما دفن عمر، اجتمع أصحاب الشورى في بيت فتكلّموا فتنزعوا، غير أنّ تركيب الأعضاء منذ عيّنها الخليفة كان يعرب عن حرمان علي و نجاح غيره و لأجل ذلك تمّ الأمر لصالح عثمان، فقام بالأفعال التي تنبأ بها عمر بن الخطاب، وأحدث أمراً نقم بها عليه، وأوجدت ضجّة بين المسلمين ومن أبرز معالمها انحرافه عن الحق وإليك صورة من أعماله التي ثارت لأجلها ثورة الأنصار والمهاجرين:

١- تعطيل الحدود الإلهية:

شرب الوليد بن عقبة الخمر فسكر فصلّى بالناس الغداة ركعتين أو أربع ركعات، فانتزع خاتمه من يده وهو لا يشعر من سكر، وقد قدم رجل المدينة وأخبر عثمان ما شهده من الوليد فضربه عثمان، فكثرت الشكوى على عامله بالكوفة ولم ير بُداً من عزله ولم يجرّ الحد على الوليد، فقال الناس: عطّلت الحدود وضربت الشهود^(٢).

٢- عطياته الهائلة لبني أميّة من بيت المال:

بين ليلة وضحاها صارت جماعة من بني أميّة بفضل خلافة عثمان،

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١٨٦/١.

٢. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٠٤. أبو الفرج الاصبهاني: الاغانى ١٨٨ / ٤.

أصحاب الضياع العامرة والثروات الطائلة منهم: مروان بن الحكم، وعبدالله بن أبي سرح، ويعلى بن أمية، والحكم بن العاص، والوليد بن عقبة وأبي سفيان، وقد حفظ التاريخ صورة عطيات الخليفة لهم ولغيرهم، ومن أراد التفصيل فليرجع الى مظانه (١).

ويكفيك أنه أعطى مروان بن الحكم - ابن عمه و صهره - خمس غنائم أفريقية، وكانت تقدّر بمليونين و نصف مليون دينار، وفي ذلك يقول الشاعر:

واعطيت مروان خمس العبا دِ ظملاً لهم و حميت الحمى (٢)

٣- تأسيس حكومة أموية:

كان الخليفة يبذل غاية جهده في تأسيس حكومة أموية في العواصم الاسلامية فنرى أنه عزل سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة وولّاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان أخا عثمان لأُمّه.

وفي سنة ٢٧ من الهجرة عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر و استعمل عليه عبدالله بن أبي سرح وكان أخاه من الرضاعة .

وعزل أبا موسى الأشعري فولّى مكانه على البصرة عبدالله بن عامر وهو ابن خال عثمان (٣).

وأبقى معاوية على ولايته على الشام، ولمّا كثرت الشكوى على عامله

١. الأميني: الغدير ٩ / ٢٣٦ - ٢٩٠.

٢. ابن قتيبة: المعارف ١١٣ ط دار الكتب العلمية. ابن كثير: التاريخ ١٥٧/٤.

٣. الدينوري: الأخبار الطوال ١٣٩. ابن الاثير: الكامل ٨٨/٣ - ٩٩.

(١٧)

بالكوفة، الوليد بن عقبة، عزله ووَلَّى مكانه سعيد بن العاص ^(١) حتى قيل إنّ خمساً و سبعين من ولاته كانوا من بني أُمَيَّة ^(٢).

٤ - مواقف العدائية تجاه الصحابة:

كان للخليفة مواقف غير مرضية مع أصحاب رسول ﷺ فقد سَيَّر أباذر إلى الربذة وهي أرض قاحلة ليس فيها ماء ولا كلاء، فهناك لفظ آخر أنفاسه غريباً فريداً ^(٣) وأمر بضرب عبدالله بن مسعود فكسر ضلع من أضلاعه ^(٤) كما أنه ضرب عمّار بن ياسر حتى غشي عليه بحجّة أنّه انتقد عمل الخليفة في بيت المال ^(٥).

٥ - إيوأؤه طريد رسول الله:

طرد رسول الله الحكم بن عاص مع ابنه مروان إلى الطائف، فردّهما إلى المدينة أيام خلافته.

يقول الشهرستاني: ردّ الحكم بن أُمَيَّة إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله ﷺ وكان يسمّى طريد رسول الله وبعد أن تشفّع إلى أبي بكر و عمر (رضي الله عنهما) أيام خلافتهم فما أجابا إلى ذلك، نفاه عمر من

١. الطبري: التاريخ ٣ / ٣٢٥.

٢. الندوي: المرتضى: ولا حظ للوقوف على أسماء عمال عثمان في السنة التي قتل فيها، تاريخ الطبري ٣ / ٤٤٥.

٣. البلاذري: الانساب ٥٤/٥. الطبري: التاريخ ٣٣٥/٣.

٤. البلاذري: الانساب ٣٦/٥.

٥. البلاذري: الانساب ٤٨/٥.

مقامه باليمن أربعين فرسخاً^(١).

إلى غير ذلك من الأمور التي أغضبت جمهور المسلمين وأثارتهم، حتى اجتمع المسلمون من المصريين والكوفيين والبصريين، وجمهور المهاجرين والأنصار للاحتجاج عليه بتبيين سوء مواقفه وأعماله وجنایات عمّاله في البلاد، ولكن كان ردّ فعله تجاه هاتيك الاحتجاجات، سلبياً فلم يستجب لطلباتهم، بل غضب على كل من احتجّ عليه بسوء فعله أو فعل ولاته، ولكن كثرة السخط والنقد على الخليفة، شحنت النفوس نقمة وغضباً، فانفجرت ثورة عارمة لم تجمد إلا بقتله في عقرداره .

قتل الخليفة عثمان:

والمهاجرون والأنصار ومن تبعهم باحسان بين مجهز عليه، أو مؤلّب ضده، أو مستبشر بمقتله، أو صامت رهين بيته، محايد عن الطرفين^(٢).

إنّ هذه الأحداث الكبيرة لو اتفقت في أيّ عصر من العصور التي يسود فيها الحكم الاسلامي لأثّرت نفس الأثر الذي خلّفته في عهد عثمان ولعلبت الأمور رأساً على عقب. ومع ذلك ترى أنّ بعض المؤرخين يريدون تبرير عمل الخليفة وإنّ الثورة ضدّ الخليفة لم تكن ثورة شعبية دينية نابعة من أوساط المهاجرين والأنصار ومن تبعهم باحسان في مصر والعراق، ويزعمون أنّ عبدالله بن سبأ هو الذي جهّز المصريين وكذّر الصفو على الخليفة، وأنّه وأتباعه كانوا وراء قتل الخليفة

١. الشهرستاني: الملل والنحل ٢٦/١.

٢. الطبري: التاريخ ٣٩٩/٣.

ولكن هذا من مختلقات بعض المؤرخين^(١) الذين جرّهم حبّهم واخلاصهم للخلافة والخليفة الى اسناد هذه الثورة الى رجل مزعوم (عبدالله بن سبأ) لم يثبت وجوده أوّلاً، وعلى فرض وجوده لم تثبت له تلك المقدرة الهائلة التي تثير الحواضر الاسلامية وعقلية المهاجرين والأنصار على الخليفة المفترض طاعته^(٢).

فلو كان لعبدالله بن سبأ تلك المقدرة وانه كان يجول في البلاد لتحريض الناس على الخليفة فلماذا لم يتمكن الخليفة ولا عمّاله من القبض عليه ليسجنوه أو يطردوه من الحواضر الاسلامية الى نقطة لا ماء فيها ولا كلاء كما طردوا أباذر إلى الربذة، وسيروا صلحاء الكوفة إلى أمكنة أخرى.

قال الأميني: لو كان ابن سبأ بلغ هذا المبلغ من إلقاء الفتن، وشقّ عصا المسلمين وقد علم به وبعيثة أمراء الأمة وساستها في البلاد، وانتهى أمره الى خليفة الوقت، فلماذا لم يقع عليه الطلب؟ ولم يُلَقَّ القبض عليه، والأخذ بتلكم الجنايات الخطرة، والتأديب بالضرب والاهانة، والزجّ الى أعماق السجون؟ ولا آل أمره الى الاعدام، المريح للأمة من شرّه وفساده، كما وقع ذلك كله على الصلحاء الأبرار الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهتاف القرآن الكريم يرنّ في مسامع الملأ الديني: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣)^(٣).

١. الطبري: التاريخ ٣/٣٧٨.

٢. لاحظ عبدالله بن سبأ لمرضى العسكري فقد اغرق نزاعاً في التحقيق فلم يبق في القوس منزعا.

٣. الأميني: الغدير ٩/٢١٩.

اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعة علي:

قتل الخليفة بمرأى و مشهد من الصحابة، وتركت جنازته في بيته، واجتمع المهاجرون والأنصار في بيت علي، وطلبوا منه بإصرار بالغ قبول الخلافة، إذ لم يكن يوم ذاك رجل يوازيه ويدانيه في سبق الى الاسلام، والزهد في الدنيا، والقربة من رسول الله ﷺ، والعلم الوافر بالقرآن والسنة، والامام يصف اجتماعهم في بيته ويقول: «فتداكوا علي تداك الابل الهيم، يوم وردها، وقد أرسلها راعيها وخلعت مثانيها، حتى ظننت أنهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لدي»^(١).

وفي كلمة أخرى له عليه السلام يقول واصفاً هجوم المهاجرين والأنصار على بيته لبيعته: «وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداكتم علي تداك الهيم على حياضها يوم وزدها حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطيء الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم أيائي، أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت اليها الكعاب»^(٢).

فلما عرضوا عليه مسألة الخلافة و القيادة الاسلامية أجابهم بجد وحماس: «دعوني فالتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت له العقول»^(٣).

فلما أحس منهم الإلحاح و الإصرار المؤكد وأنه لا بد من البيعة ورفع علم الخلافة قال عليه السلام: إذا كان لا بد من البيعة فلنخرج إلى المسجد حتى تكون بمرأى ومسمع من المهاجرين والأنصار، وجاء الى المسجد فبايعه

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٤.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٩.

٣. الطبري: التاريخ ١٥٦/٣.

المهاجرون والأنصار وفي مقدمتهم الزبير بن العوام و طلحة بن عبيدالله ولم يتخلف من البيعة إلا قليل لا يتجاوز عدد الأنامل كأسماء بن زيد، و عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص ونظائرهم^(١).

وقد عرفه التاريخ بأنه كان رجلاً زاهداً غير راغب في الدنيا ولا مقبلاً على الرئاسة وأنما قبل البيعة لأنه تمت الحجة عليه وكان المسلمون يومذاك بحاجة الى قيادته وخلافته وهو يصف أمره: «والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتوني اليها وحملتوني عليها»^(٢).

كل ذلك صار سبباً لقيام علي بالزعامة والخلافة وتدير الأمور، ولم يكن هدف المبايعين إلا ارجاع الأمة الى عصر الرسول، ليقضي على الترف والبذخ، ويرفع راية العدل والقسط، ويهدم التفاضل المفروض على الأمة بالقهر والغلبة، وينجي المضطهدين والمقهورين من الفقر المدقع، ولما تمت البيعة خطبهم في اليوم التالي وبين الخطوط العريضة للسياسة التي ينوي الالتزام بها طيلة ممارسته للخلافة فعلى الصعيد المالي قال في قطاع عثمان التي قطعها الخليفة لأقربائه وحاشيته: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء و ملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»^(٣).

قال الكلبي: ثم أمر علي عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره مما تقوى به على المسلمين، فقبض وأمر بقبض نجائب كانت في داره من ابل الصدقة فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير

١. الطبري: التاريخ ١٥٦/٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٥.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٥.

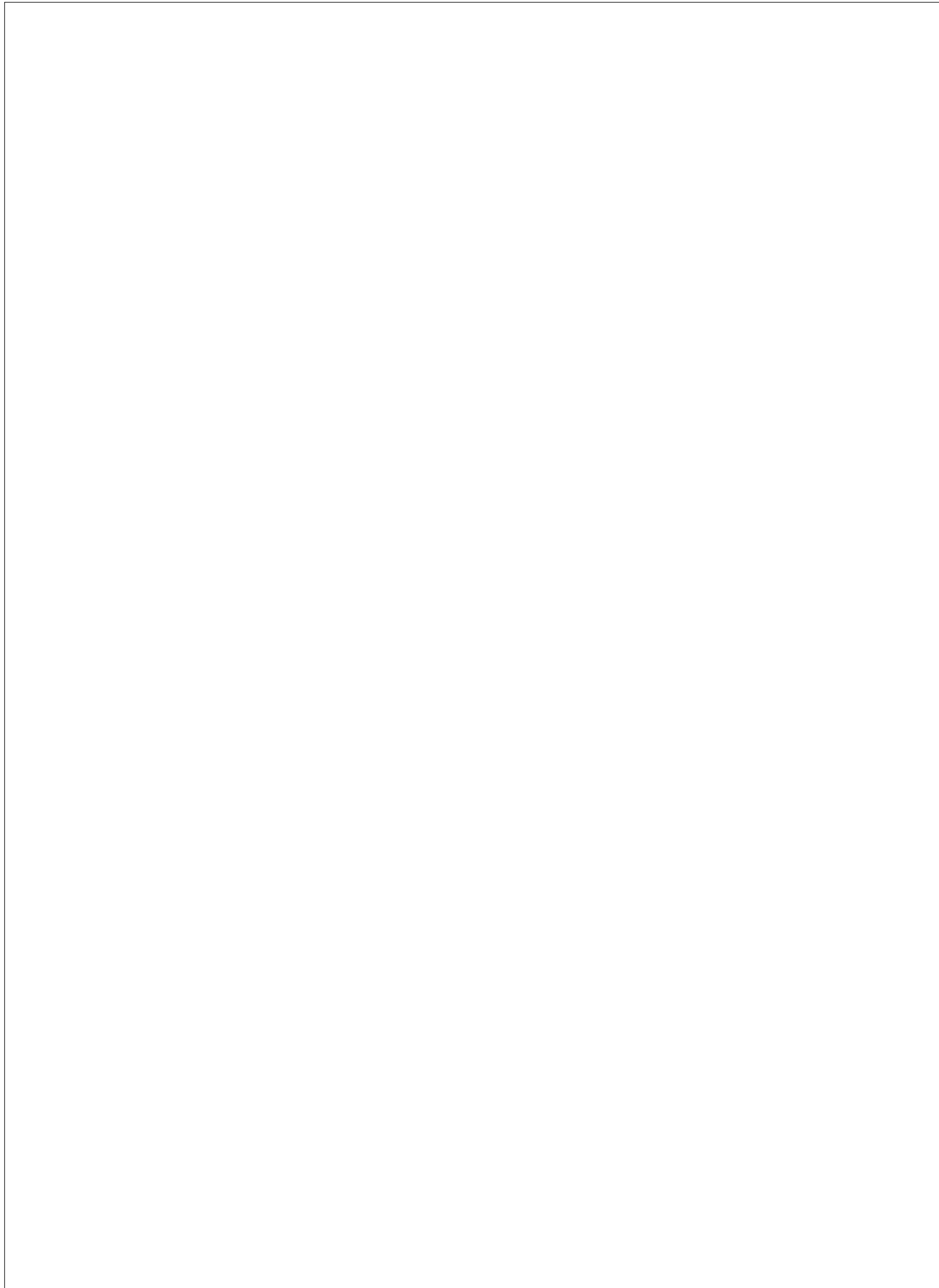
داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أُصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بـ «أيلة» في أرض الشام، أتاهها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب الى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع اذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تُقشر عن العصا لحاها^(١).

ما مارسه الامام لتحقيق المساواة من خلال ردّ قطائع عثمان كان جرس الانذار في أسماع عبدة الدنيا وأصحاب الأموال المكدّسة، أيام خلافة الخليفة الثالث، فوقفوا على أنّ علياً لا يساومهم بالباطل، على الباطل ولا يتنازل عن الحق لصالح خلافته.

وعند ذلك بدأوا يتآمرون على خلافته الفتية في نفس المدينة المنورة وفي مكة المكرمة والشامات، وقد كان هؤلاء متفرّقين في تلك البلاد.

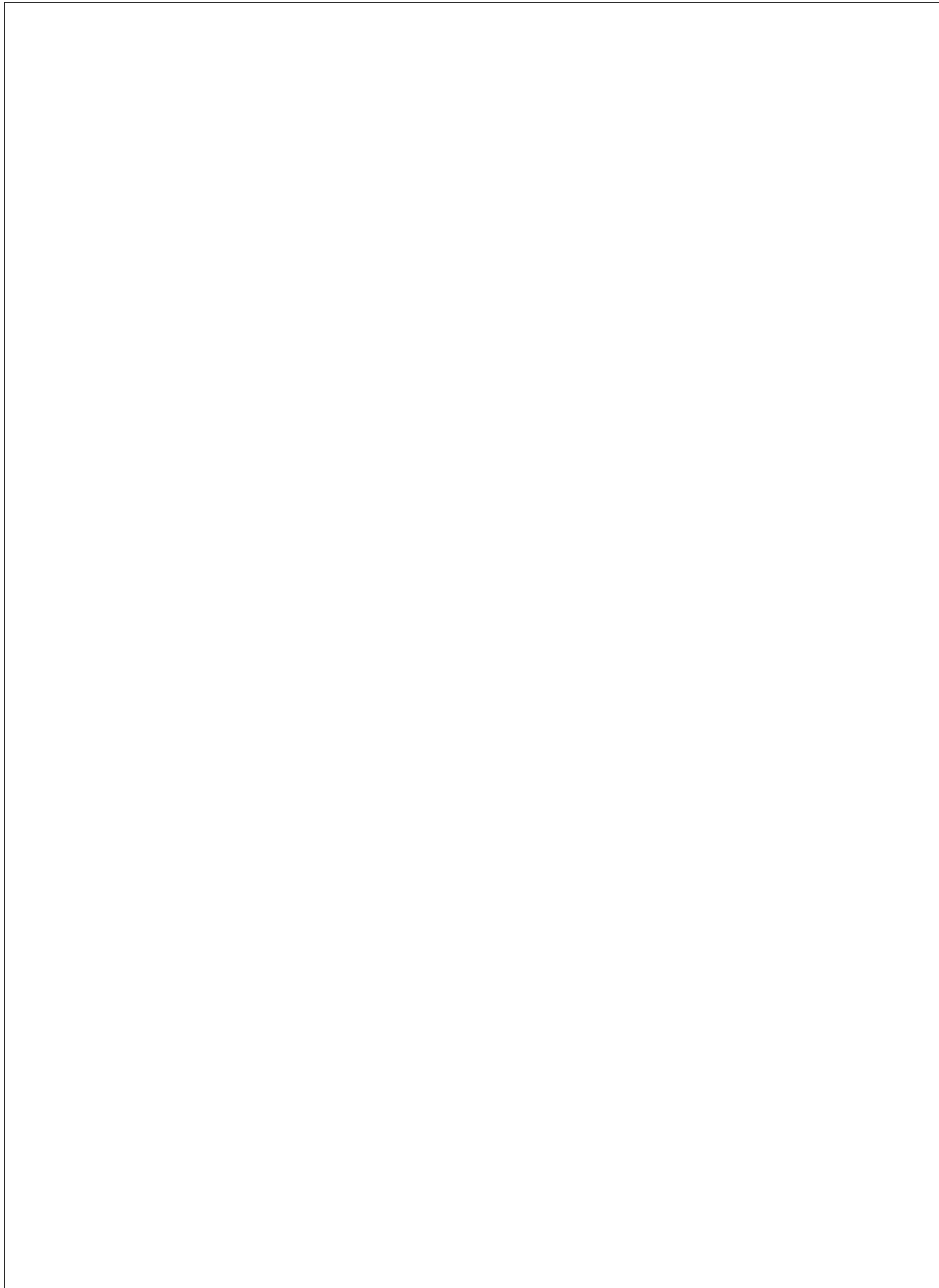
وهذا هو الموضوع الذي نطرحه في الفصل التالي، وستعرف أنّ ظهور الخوارج في الساحة الاسلامية من مخلفات هذا التآمر الذي رفع راياته الناكثون والقاسطون.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢٧٠/١.



الفصل الثاني

حوادث وطوارئ مريّة في عصر الخلافة العلوية



نهض الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالأمر، بعد قتل الخليفة عثمان، وقد عمّت
الفتن والتمزّق والاضطراب الأمة الإسلامية، وحق بهم البلاء، وصاروا شيعاً، المعنّيون منهم
ذوو أهواء وميول.

فمن مسلم واع يرى بنور الإيمان خروج قياده الإسلامية عن الجادة المستقيمة، وليس
لها جمالها الموجود في العهد النبوي، ولا بعده إلى وفاة الشيخين، وهم الذين ثاروا على السلطة،
وقتلوا الخليفة، ولم يدفنوه، حتى راحوا إلى رجل ليقوم بالأمر ويقيم الاود، ويصلح ما فسد، ولم
يكن هذا الرجل إلّا الإمام المعروف بالورع والتقى، وقوّة القلب، ورباطة الجأش.

إلى متوغّل في لذائذ الدنيا وزخارفها، ادّخر من غنائمها وفرّاً، وجمع من بيضائها وصفرائها
ثروة طائلة، واقتنى ضياعاً عامرة، ودوراً فخمة، وقصوراً شاهقة، يخضمون مال الله خضم الابل
نبتة الربيع، كأنّ الدنيا خلقت لأجلهم، فهؤلاء - بعد قتل الخليفة - لا يرضون خروج الأمر من
أيديهم ووقوعه في يد رجل لا تأخذه في الله لومة لائم والأمة الإسلامية عنده سواسية.

إلى انتهازيّ لا يهتمّ شيء سوى طعمته في الملك والمال، كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها.

فقام الإمام بالأمر، وهذا وصف مجتمعه، وهم إلى الشدة والقسوة أقرب إلى الصلاح والفلاح. وأوّل من جهر بالخلاف وألب المخالفين على عليّ، هو معاوية بن أبي سفيان فقد كان واقفاً على أنّ عليّاً لا يساومه بأيّة قيمة ولا يبقيه في مقامه الذي كان عليه من عصر الخليفة الثاني إلى يوم بويح عليّ بالخلافة، فقام بتأليب بعض الصحابة على الامام وإغرائهم على الخلاف، بحجّة أنّه أخذ البيعة لهم من أهل الشام، وهذا نص رسالته إلى الزبير بن العوام وقد وقف على أنّه بايع عليّاً بملاً من الناس، وفيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، فأنّي قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنّه لاشيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيدالله من بعدك فظاهر الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما».

ولما وصل هذا الكتاب إلى الزبير، أعلم به طلحة فلم يشكّ في أنّ معاوية ناصح لهما واجمعا عند ذلك على خلاف عليّ عليه السلام (١).

كانت الغاية الوحيدة من أخذ البيعة من رعاي الناس في الشام للزبير وطلحة وإعلامهما لذلك، هو تشجيعهما على مخالفة الإمام عليه السلام بحجّة أنّهما خليفتان مترتان، وأنّه يجب على عليّ أن يترك الخلافة جانباً، وبذلك أراد أن يحدث صدعاً في صفّ الذين بايعوا الإمام، ويفتح باب الخلاف ونكت البيعة، أمام الآخرين.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢٣١/١.

كانت تلك الرسالة تحمل شروراً إلى الأمة الإسلامية وقد اغتر الشيخان بكلام ابن أبي سفيان فتأمرا على الخلاف ونكث البيعة على وجه يأتي شرحه.

ولم يكن نكث البيعة منهما نهاية الخلاف، بل كانت فاتحة لشرّ ثانٍ وهو تجرؤ معاوية على عليّ وبغيه على الإمام المفترض طاعته، بالحرب الطاحنة، وكان الإمام على أعتاب النصر والظفر حتى نجم شرّ ثالث وهو خروج طائفة من أصحاب الإمام عليه بحجة واهية تحكي عن سذاجة القوم وقلة وعيهم: وهي مسألة التحكيم، وبذلك خاض الإمام في خلافته القصيرة التي لا تتجاوز عن خمسة أعوام، حروباً دامية، يحارب الناكثين تارة، والقاسطين أخرى، والمارقين ثالثة، وفي ذلك يقول الإمام: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم خليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها^(١).

قام الإمام بفقاً عين الفتنة بعد انتهاء حرب صفين - وبالأأسف - ولم يمض زمن إلى أن أُغْتِيلَ بيد أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود^(٢) - حسب تعبير النبي الأكرم - وبذلك طويت صحيفة عمره ولقى الله تعالى بنفس مطمئنة، وقلب سليم، وقد تنبأ النبي الأكرم بحروبه الثلاثة، وأنّه سيقا تل طوائف ثلاثة وهم بين ناكث وقاسط ومارق من الدين.

روت أم سلمة أنّ عليّاً عليه السلام دخل على النبي الأكرم في بيتها فقال النبي ﷺ مشيراً إلى علي: هذا والله قاتل الناكثين

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٣.

٢. الصدوق: عيون أخبار الرضا ٢٩٧.

والقاسطين والمارقين من بعدي^(١).

وروى علي^{عليه السلام}، عن النبي الأكرم: أمرني رسول الله ^{صلى الله عليه وآله وسلم} بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين^(٢).

هذا مجمل تلك الحوادث المريرة في خلافته، وكانت فتنة الخوارج نتيجة الحربين الطاحتين: الجمل وصفين، فلأجل اجلاء الحقيقة ورفع السترن وجهها نعرضهما على القارئ، على وجه خاطف، والتفصيل على عاتق التاريخ.

١. ابن كثير الشامي: البداية والنهاية ٣٠٥/٧، وقد جمع أسانيد الحديث ومتونه .

٢. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٣٤٠/٤.

قتال الناكثين

(١)

حرب الجمل

النكث في اللغة هو نقض البيعة والمراد من قتال الناكثين: قتال الشيخين: الزبير وطلحة اللذين نكثا ببيعة الإمام وتبعهما طوائف من الناس، بترغيب وترهيب، وكان بدأ الخلاف انّ طلحة والزبير جاءا إلى عليّ وقالاه: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كنّا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلّها، وعلمت رأي عثمان في بني أميّة، وقد ولّاك الله الخلافة من بعده، فؤلنا بعض أعمالك، فقال لهما: إرضيا بقسم الله لكم. حتى أرى رأيي، واغلما أنّي لا أشرك في أمانتي إلّا من أَرْضى بدينه، وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته . فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس فاستأذناه في العمرة^(١) .

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢٣١/١ - ٢٣٢ .

خرجا من عنده وهما غاضبان ويحتالان للخروج عن بيعته ونكثها، وفي ذلك الظرف القاسي، وصل إليهما كتاب معاوية يدعوهما إلى نكث البيعة وأن أهل الشام بايعوا لهما إمامين مترتبين، فاغترّا بالكتاب^(١) وعزما النكث بجد.

ثم دخلا على عليّ فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وأنما تريدان الغدرة، ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولانكث بيعته يريدان وما رأيهما غير العمرة، فقال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعاداهما بأشد ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما فلما خرجا من عنده قال لمن كان حاضراً: والله لاترونهما إلّا في فتنة يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين فمُر بردهما عليك. قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً^(٢).

خروج عائشة إلى مكة:

غادرت عائشة المدينة المنورة عندما حاصر الثوار بيت عثمان، ونزلت في مكة، ووصل خبر قتل الخليفة إليها وهي فيها، وكانت على تطلّع إلى أين انتهت الثورة وإلى من آلت إليه الخلافة، فغادرت مكة إلى المدينة فلما نزلت «سرف» لقيها عبد ابن أمّ كلاب فقالت له: «مهميم؟» قال: قَتَلُوا عثمان فمكثوا ثمانية، قال: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب، فقالت: و الله إنّ هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، رُدّوني رُدّوني، فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنّ بدمه، فقال لها ابن أمّ كلاب: ولم؟ فوالله إنّ أوّل من أَمَالَ حرفه لأنت، ولقد كنت

١. تقدم نص الكتاب.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢٣١/١ - ٢٣٢.

تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه، ثم قتلوه، ولقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول، فقال لها: ابن أمّ كلاب:

منك البداء و منك الغير	و منك الرياح و منك المطر
و انتِ أمرتِ بقتل الإمام	و قلتِ لنا أنه قد كفر
فهبنا اطعناك في قتله	و قاتله عندنا من أمر
و لم يسقط السيف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا و القمر

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت الجحر وسترته، واجتمع إليها الناس فقالت: يا أيها الناس ان عثمان قد قتل مظلوماً والله لأطلبن بدمه^(١).

ثم إن طلحة والزبير بعدما استأذنا علياً غادرا المدينة ونزلا مكة، وكانت بينهما وبين عائشة صلة وثيقة يتآمرون ضد علي فلما بلغ علياً مؤامرة الزبير وطلحة وأنهما نكثا إيمانهما وعلى أهبة المكافحة معه، أشار بعض أصحابه أن لا يتبعهما فأجاب علي بقوله: «والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللد، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكن أضرب بالمقبل إلى الحق، المدبر عنه، وبالسامع المطيع، العاصي المريب أبداً، حتى يأتي عليّ يومي»^(٢).

مغادرة الشيخين وعائشة مكة:

اتفق المؤامرون ومعهم جماعة من أعداء الامام، على أن يرتحلوا إلى البصرة، ويتخذوها مقراً للمعارضة المسلحة.

١. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٤٩/١. الطبري: التاريخ ٤٧٧/٣.

٢. الرضي: نهج البلاغة، خطبة ٦.

وقد كان عبدالله بن عامر، عامل عثمان على البصرة، هرب منها حين أخذ البيعة لعلي بها على الناس، جارية بن قدامة السعدي، ومسير عثمان بن حنيف الأنصاري إليها على خراجها من قبل علي .

وانصرف عن اليمن عامل عثمان وهو يعلى بن متيه فأتى مكة وصادف بها عائشه وطلحة والزبير ومروان بن الحكم في آخرين من بني أمية، فكان ممن حرض على الطلب بدم عثمان وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربع مائة ألف درهم وكراعاً وسلاحاً وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى «عسكراً». وكان شراؤه عليه باليمن مائتي دينار فأرادوا الشام فصدهم ابن عامر، وقال لهم: إن معاوية لا ينقاد اليكم ولا يعطيكم من نفسه النصفه، لكن هذه البصرة لي بها صنائع وعدد.

فجهزهم بألف ألف درهم، ومائة من الابل وغير ذلك، فسار القوم نحو البصرة في ستمائة راكب، فأنتهوا في الليل إلى ماء لبني كلاب، يعرف بـ«الحوأب» عليه أناس من بني كلاب فعوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجملها: «الحوأب»، فاسترجعت، وذكرت ما قيل لها في ذلك^(١) وقالت: رُدوني إلى حرم رسول الله، لاحتاجة لي في المسير، فقال الزبير: تالله ما هذا «الحوأب»، ولقد غلط في ما أخبرك به، وكان طلحة في ساقه الناس فلحقها فأقسم بالله إن ذلك ليس بالحوأب وشهد معهما خمسون رجلاً ممن كان معهم .

فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان بن حنيف فمانعهم وجرى بينهم قتال، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب إلى قدوم علي، فلمّا كان في

١. ورد في حديث روته عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: ليت شعري إيتكنّ تنبجها كلاب الحوأب سائرة إلى الشرق في كتيبة!

بعض الليالي، بيتوا عثمان بن حنيف فأَسْرَوْه وضربوه ومنتفوا لحيته، ثم إنَّ القوم استرجعوا وخافوا على مخلفيهم بالمدينة من أخيه: سهل بن حنيف وغيره من الأنصار، فخلوا عنه وأرادوا بيت المال فمانعهم الخُزَّان والموكلون به فقتل منهم سبعون رجلاً من غير جرح، وخمسون من السبعين ضربت أعناقهم صبراً من بعد الأسر، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى وكان من سادات عبد القيس، وزهَّاد ربيعة ونُساكها و تشاح طلحة والزبير في الصلاة بالناس، ثم اتَّفَقوا على أن يصليَّ بالناس عبدالله بن الزبير يوماً ومحمد بن طلحة يوماً في خطب طويل كان بين طلحة والزبير.

مسير علي إلى جانب البصرة:

وقف الامام على أنَّ المتأمرين خرجوا من مكَّة قاصدين البصرة، فاهتم الامام بايقافهم في الطريق قبل الدخول إليها فسار من المدينة بعد أربعة أشهر من بيعته في سبعمائة راكب، منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار، منهم سبعون بدريةً وباقيهم من الصحابة، وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري، فانتهى إلى الربرة بين مكَّة والكوفة، وكان يترقَّب إلقاء القبض على رؤوس الفتنة قبل الدخول الى البصرة، لكن فاته ما يترقَّب لأنَّهم سبقوا الامام في الطريق ولحق بعلي من أهل المدينة، جماعة من الأنصار، فيهم خزيمة بن ثابت ذوالشهادتين وأتاه من طيِّ ستمائة راكب^(١).

خرج عثمان بن حنيف من البصرة، وقدم على علي عليه السلام بالربرة، وقد نتفوا رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين بعثني ذا لحية،

١. المسعودي: مروج الذهب ١٠٣/٣ - ١٠٤ طبعة بيروت. الطبري: التاريخ ٤٨٥/٣. واللفظ للأول، وفي لفظ الطبري زيادات تركناها روماً للاختصار.

وجئتكَ أمرد، فقال: أصبتَ خيراً وأجراً^(١).

واتصلت بيعة علي بالكوفة: وغيرها من الأنصار، وكانت الكوفة أسرعها إجابة إلى بيعته، وأخذ له البيعة على أهلها - على كره - أبو موسى الأشعري حين تكاثر الناس عليه، وكان عاملاً لعثمان عليها^(٢).

لما وقف الامام على ماجرى على عثمان بن حنيف وحرسه، بعث بعض أصحابه بكتاب إلى أبي موسى الأشعري يطلب منه استنهاضه للناس، ولكنه تهاون في الأمر ولم يقم بواجبه بعدما أخذ البيعة له، واعترف بإمامته، وقال للناس: إنها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقضان، واليقضان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وأووا المظلوم و المضطهد حتى يلتئم هذا الأمر، وتتجلى هذه الفتنة.

ولما بلغ علياً خذلان أبي موسى الأشعري، وإنه يصف محاربة الناكثين بالفتنة، بعث هاشم بن هاشم المرقال وكتب الى أبي موسى: «إني لم أولئك الذي أنت به إلا لتكون من أعواني على الحق....»

وكان أبو موسى من أول الأمر عثمانى الهوى وقد أخذ البيعة لعلي على الناس بعد اكثار الناس عليه - كما تقدم - فلأجل ذلك بقى على ما كان عليه من الحياد، ولم ينهض الناس، واستشار السائب بن مالك الأشعري فأشار هو باتباع الإمام ومع ذلك لم يقدم عليه^(٣).

فكتب هاشم إلى علي، امتناع أبي موسى من الاستنفار.

١. الطبري: التاريخ ٣/٤٩٥.

٢. المسعودي: مروج الذهب ٣/٩٧.

٣. الطبري: التاريخ ٣/٥٠٣.

ولما تمت الحجة عند الإمام أنّ الرجل ليس على وتيرة صحيحة، عزله عن منصبه فولّى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصاري و كتب إلى أبي موسى اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً، فما هذا أول يومنا منك و إنّ لك فينا لهنات وهنات.

وسار علي فيمن معه حتى نزل بذي قار وبعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفران الناس، فسارا عنها و معهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف، وقيل ستة آلاف وخمسائة وستون رجلاً منهم الأشتر.

فانتهى علي إلى البصرة وراسل القوم وناشدهم فأبوا إلّا قتاله^(١).

قد وصلنا إلى أعتاب الحرب الطاحنة المعروفة بحرب «الجمل» وقبل الخوض في تفصيلها نشير إلى نكات تستفاد فيما سردناه من المقدمات، ثم نخوض في صلب الموضوع حسب اقتضاء المقام.

١ - إنّ الزبير و طلحة بايعا عن طوع ورغبة ولكن بايعا لبغية دنيوية وطمعاً في المال و المقام، ولم يمض زمان من بيعتهما إلّا وقد أتيا عليّاً يسألانه اشتراكهما في بعض أعماله، وكان لهما هوى في ولاية الكوفة والبصرة، وكانت ديانة علي عليه السلام تصدّه عن الاجابة، إذ لم يكونا صالحين لما يطلبانه، وقد أثبتنا ذلك - قبل اشعال نار الحرب - بنكثهما وتحريضهما الناس على النكث وقتلهم الأبرياء من الموكّلين وحرس بيت المال، وقد انتهى الأمر بسفك دماء آلاف من المسلمين.

كل ذلك يعرب عن أنّ مقاومة علي، تجاه طلبهما كانت أمراً صحيحاً يرضي به الربّ ورسوله، ولم يكن لعلي هوى إلّا رضى الله سبحانه ورضى رسوله.

١. المسعودي: مروج الذهب ١٠٤/٣.

٢- إنَّ أبا موسى الأشعري الذي قَلَّبَ الأمور على عليٍّ في قضية التحكيم، كان من أوَّل الأمر غير راض ببيعة الإمام ولم يأخذ البيعة له إلَّا بعد اكثار الناس، ولمَّا أمره الإمام باستنهاض الناس و استنفارهم خذَّل الناس عن علي .

والعجب أنَّه كان يتمسك في نفس الواقعة برواية سمعها من النبي أنَّه قال: ستكون فتنة: القاعد فيها خير من النائم، والنائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب^(١) .

نحن نفترض أنَّه سمع من النبي ذلك الكلام، ولكنَّه هل يمكن له تسمية مبايعة المهاجرين و الأنصار فتنة، فلو صحَّ ذلك - ولن يصحَّ حتى لو صحَّت الأحلام - لماذا لا تكون مبايعتهم السابقين من الخلفاء فتنة، يكون القاعد فيها خيراً من القائم، مع أنَّ أبي موسى كان فيها من القائمين، وقد قبل الولاية في عصر الخليفين، الثاني والثالث، حتى اعتنق بيعة الإمام بعد اكثار الناس.

ومن بايع رجلاً على الإمامة والقيادة، كان عليه الذبُّ عن إمامه و حياض سلطته.

٣- إنَّ الإمام عليه السلام أشار بقوله: «فما هذا أوَّل يومنا منك و أنَّ لك فينا لهنات و هنات» إلى الجناية التي سوف يرتكبها أبو موسى في قضية التحكيم حيث يخلع عليّاً عن الإمامة والخلافة كما سيوافيك تفصيله.

٤- إنَّ في منازعة الشيخين: الزبير وطلحة في أمر جزئي كالإمامة في الطلاة، يعرب عن طويتهم وما جبَّلا عليه من التفاني في الرئاسة، انظر إلى الرجلين يريدان أن يقودا أمر الجماعة ويكونا امامان للمسلمين وهذه نزعتهم.

١. الطبري: التاريخ ٣/ ٤٩٨.

على أعتاب حرب الجمل:

سار عليّ حتى نزل الموضع المعروف بالزاوية، فصلّى أربع ركعات، وعفر خديه على التراب وقد خالط ذلك بدموعه ثم رفع يديه يقول: اللهم ربّ السماوات وما أظلت، وربّ العرش العظيم، هذه البصرة، أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرّها، اللهم انزلنا فيها خير منزل، وأنت خير المنزلين، اللهم إنّ هؤلاء القوم قد بغوا عليّ وخلعوا طاعتي ونكثوا بيعتي، اللهم أحقن دماء المسلمين .

ثمّ بعث إليهم من يناشدهم الله في الدماء، وقال: «علام تقاتلونني؟» فأبوا إلّا الحرب، فبعث إليهم رجلاً من أصحابه يقال له مسلم، معه مصحف يدعوهم إلى الله تعالى فرموه بسهم فقتلوه، فحمل إلى علي قتيلاً .

فأمر عليّ أصحابه أن يصفوهم ولا يبدؤهم بقتال ولا يرموهم بسهم، ولا يضربوهم بسيف، ولا يطعنوهم برمح. حتى جاء عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي من الميمنة بأخ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمي بسهم فقتل، فقال عليّ: اللهم اشهد. أعذروا إلى القوم، ثم قام عمّار بن ياسر بين الصّفين فقال: أيّها القوم ما أنصفتُم نبيّكم حين كففتُم عقائلكم في الخدور، وأبرزتم عقيلته للسيوف، وعائشة على الجمل في هودج من دفوف الخشب، قد ألبسوه المسوحَ وجلودَ البقر، وجعلوا دونه اللبود، وقد غشى على ذلك بالدروع، فدنا عمّار من موضعها فناداها: إلى ماذا تدعين؟ قالت: إلى الطلب بدم عثمان، فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي و الطالب لغير الحق، ثم قال: أيّها النّاس إنكم لتعلمون أيّنا الممالى في قتل عثمان، ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبال:

فمنك البكاء و منك العويل و منك الرياح و منك المطر

و أنت امرت بقتل الإمام و قاتله عندنا من امر

وتواتر عليه الرمي فاتصل فحرك فرسه، وزال عن موضعه وأتى علياً عليه السلام فقال: ما تنظر يا أمير المؤمنين وليس عند القوم إلا الحرب .

خطبة علي يوم الجمل:

فقام علي في الناس خطيباً ورافعاً صوته يقول: أيُّها النَّاسُ إذا هَزَمْتُمُوهم فلا تُجْهِزُوا على جريحٍ ولا تُقْتُلُوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مُدْبِراً، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا سترًا، ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح، أو كراع، أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث ورثتهم على كتاب الله .

ثم إنَّ علياً نادى كلاً من الزبير وطلحة وكلمهما وأتمَّ عليهما الحجة فقال للأوَّل: أما تذكر قول رسول الله عندما قلت له: إِنِّي أَحْبُّ عَلِيًّا، فأجابك إنَّكَ والله ستقاتله وأنت له ظالم، وقال للثاني: أما سمعت قول رسول الله يقول: اللَّهُمَّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأنت أوَّل من بايعتني ثم نكثت، وقد قال الله عزوجل: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكِثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ .

ثم رجع علي إلى موضعه، وبعث إلى والده محمد بن الحنفية وكان صاحب رايته وقال: «احمل على القوم» فلم يرمنه النجاح والظفر فأخذ الراية من يده، فحمل و حمل الناس معه فما كان القوم إلا كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصفٍ وأطاف بنوضبة بجمل عائشة وأقبلوا يرتجزون.

نحن بنوضبة اصحاب الجمل رُدُّوا علينا شيخنا ثم بجل
ننعي ابن عفان باطراف الأسل والموت أحلى عندنا من العسل

وقطع على خطام الجمل سبعون يداً من بني ظبّة، منهم: كعب بن سور القاضي، كلّما قطعت يد واحد منهم فصرع، قام آخر فأخذ الخطام، ورمي اليهودج بالنبل، حتى صار كأنّه قنفذ، وعُزِّقَ الجمل ولمّا سقط ووقع اليهودج، جاء محمّد بن أبي بكر فأدخل يده، فقالت: «من أنت؟» فقال: أخوك، يقول أمير المؤمنين هل أصابك شيء، قالت: «ما أصابني إلّا سهم لم يضرّني» فجاء علي حتى وقف عليها و ضرب اليهودج بقضيب وقال: «يا حميراء أرسول الله ﷺ أمرك بهذا، ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك، والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا حلائلهم، وأبرزوك» وأمر أخاها محمداً، فأنزلها دار صفية بنت الحارث بن طلحة .

ولمّا وضعت الحرب أوزارها جهّز علي عليه السلام عائشة للخروج إلى المدينة فقالت له: «إنّي أحب أن أقيم معك فأسير إلى قتال عدوّك عند مسيرك» فقال: «ارجعي إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله» فسأله أن يؤمّن ابن اختها عبدالله بن الزبير، فأمنه، وتكلّم الحسن و الحسين في مروان، فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة، وولد عثمان و غيرهم من بني أمية و آمن الناس جميعاً، وقد كان نادى يوم الوقعة «من ألقى سلاحه فهو آمن، و من دخل داره فهو آمن» .

وكانت الوقعة في الموضع المعروف بالخريبة و ذلك يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ وخطب على الناس بالبصرة بخطبة، وقد قتل فيها، من أصحاب علي عليه السلام خمسة آلاف و من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألف رجل، وكان بين خلافة علي ووقعة الجمل خمسة أشهر وواحد وعشرون يوماً .

وولّى على البصرة، عبدالله بن عباس، وسار إلى الكوفة فدخل إليها في

الثاني عشر من رجب شهر سنة ٣٦ (١) .

ولكن الإمام عبده، نقل أنه قتل سبعة عشر ألفاً من أصحاب الجمل و قتل من أصحاب علي ألف و سبعون (٢) .

وعلى كل تقدير فهذه الضحايا كانت خسارة عظيمة في الإسلام، وقد عرقلت خطاه، وشلت الزخوف الإسلامية في أول عهدها في الفتوح، ولولا هذه الحروب الداخلية، لكان للعالم حديث غير هذا، ولو كان الإمام هو القابض لزمام القيادة في جو هاديء، لكان الوضع السائد على الإسلام، غير ما هو المشاهد - وبالأسف - .

«ما كل ما يتمنى المرء يدركه» .

وقد حفظ التاريخ من الامام يوم ذاك عواطف سامية وسماحة ورحب صدر على حد لم يسبق إليه أحد، غير النبي الأكرم ﷺ عندما فتح مكة، فلم يأخذ من أهل البصرة شيئاً سوى ما حواه العسكر. و كان هناك جماعة يصرون على أن يأخذ الامام منهم، عبيداً وإماءً فاسكتهم الإمام بقول: أيكم يأخذ أم المؤمنين في سهمه (٣). وقد علم الامام بسيرته كيفية القتال مع البغاة من أهل القبلة.

١. المسعودي: مروج الذهب ١٠٧/٣ - ١١٧. بتلخيص: لاحظ الطبري: التاريخ ٥٤٣/٣.

٢. الإمام عبده: شرح نهج البلاغة ٤٠.

٣. وسائل الشيعة ٥٩/١١ - ٦٠.

قتال القاسطين

(٢)

حرب صفين

قد تعرفت على أنّ النبي الأكرم أخبر علياً بأنه سيقا تل القاسطين بعد الناكثين، وقد وقفت على مأساة حرب الناكثين وعرفت نواياهم وجنایاتهم عن كذب، التي ارتكبوها في طريق التسنّم على عرش القيادة، وأراقوا دماء بريئة حتى يُسمّوا أمير المؤمنين وما أجرأهم على حرّ مات الله وما أشقاهم.

هلمّ معي نقرأ مأساة قتال القاسطين الذين حادوا عن الحق، والطريق المهيع، وحاربوا الإمام المفترض طاعته، يقودهم معاوية بن أبي سفيان ابن آكلة الأكباد، ولاغرو فإنّ أباه هو العدو الأوّل للنبي الأكرم ﷺ الذي حزّب الأحزاب على الإسلام و المسلمين .

(٢٣)

الخلافة كانت الامنية القصوى لمعاوية:

إنّ الخلافة كانت أمنية في نفس معاوية، ولكن تقلّد الإمام للخلافة، أفسد عليه الأمر، ولم يكن باستطاعته منافسة الإمام علي عليه السلام ولأجل ذلك حاول إحداث الصدع في صف الأمة، فأطمع الشيخين في طلب الخلافة، وقد قُتِلَا خائبين فلم يجد مناصاً إلا أن يقوم في وجه الامام تحت ستار أخذ ثأر الخليفة المظلوم.

كان معاوية - يطلب من الإمام - طول محاربته - اقراره على ولاية الشام كإقرار الخليفين له حتى يُسلم له الأمر و يعترف بخلافته، ولكن الإمام علياً لم يرض ببقائه في الحكم لعلمه بسوء عمله خلال ولايته .

وقد أشار إلى ابقائه المغيرة بن شعبة، وقال: واترك معاوية، فإنّ لمعاوية جرأة فهو في أهل الشام يُسمع منه ولك حجة في اثباته لأنّ عمر بن الخطاب ولاءه الشام كلّها، ولكن الإمام لم يقبل اقتراحه، وقال: «لا والله لا استعمل معاوية يومين أبداً»^(١).

بعث الإمام جريراً إلى ولاية الشام ليأخذ منه البيعة، فأتى معاوية جريراً في بيته فقال: يا جرير إنّي قد رأيت رؤياً، فقال: هات، قال: اكتب إلي صاحبك ليجعل لي الشام و مصر، جباية، فإذا أحضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي، وأسلم له هذا الأمر واكتب إليه بالخلافة، فقال جرير: اكتب بما أردت، فكتب معاوية بذلك إلى علي، فلمّا وصل كتاب جرير مع كتاب معاوية، فكتب علي إلى جرير: أمّا بعد فإنّما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحبّ^(٢)، وأراد أن يريّثك حتى يذوق أهل الشام،

١. الطبري: التاريخ ٤٦١/٣.

٢. سيأتي التصريح بذلك في كتاب معاوية إلى الإمام قرب ليلة الهير، والامام تفتن بذلك بنور الله الذي ينظر به المؤمن .

وأنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن استعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة، فأبيت ذلك عليه ولم يكن الله يراني أتخذ المضلّين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فاقبل ^(١).

كتب معاوية إلى علي مرة أخرى قبل ليلة الهيرير بيومين أو ثلاثة يسأله اقراره على الشام، وذلك أنّ عليّاً قال: لأنجزنهم مصباحاً، و تناقل الناس كلمته، ففزع أهل الشام لذلك، فقال معاوية: قد رأيت أن اعاودَ عليّاً وأسأله اقراره على الشام، فقد كنت كتبت إليه ذلك، فلم يجب إليه ولا كُتِبَ ثانية، فألقي في نفسه الشك و الرقة، فكتب إليه:

«أمّا بعد....وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمني لك بيعة و طاعة، فأبيت ذلك عليّ فأعطاني الله مامنت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس...» .

فكتب في جوابه: «...وأمّا طلبك إليّ الشام فإنّي لم أكن لأعطيك اليوم مامنتك أمس» ^(٢).

هذه الكتب وغيرهما من القرائن والشواهد، تعرب عن أنّ الغاية الوحيدة لابن أبي سفيان، هو الولاية على الشام وبقاؤه في الحكم، مادام عليّ على قيد الحياة، ثم السيطرة على جميع البلاد الاسلامية، وأمّا طلب ثار عثمان، والقصاص من قتلته، فكُلّها كانت واجهة لما كان يضمّره ويخفيه، ولأجل ذلك نرى أنّه لمّا تمّ الأمر لصالحه، تناسى قتلة عثمان وتناسى الأخذ بثأره، وليس هذا ببعيد من الساسة الذين لا يتحلون بالمبدئية في سلوكهم، ويرفعون عقيرتهم بشعارات خادعة من أجل تحقيق أطماعهم الشخصية.

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٢.

٢. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١٠٩/١. ابن مزاحم: وقعة صفين ٤٧٠.

وبذلك تقف على مؤامراته وخططه الشيطانية، حيث كان شعاره منذ أن خالف: يالشارت عثمان.

وقد ردّ الإمام عليه في بعض كتبه إليه وفي بعضها مانصّه:
«قد أكثر في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل الناس، ثم حاكم القوم إليّ، أحمك وإياهم على كتاب الله»^(١).

إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة أنّ الأمانة الكبرى لمعاوية من تسعير نار الحرب، هو البقاء على السلطة، وتقلد الخلافة العامة بعد علي، ولم يكن له أيّ إربة في ما يدعيه، وينشره من أخذ الثأر وغيره، فلزم عندئذ أن نتعرّف على خططه في تلك الحرب الطاحنة التي سعى بها بآنائه .

مخططات معاوية:

كانت صحابة النبي الأكرم من أوّل يوم تقلّد الإمام علي الخلافة، وراءه يؤيدونه بالسنتهم وأيديهم، إلا نفر قليل لم يبايعوه وهم لا يتجاوزن عدد الأصابع^(٢) ولم يكن لمعاوية ما كان لعلي من سبق في الإسلام، والجهاد في سبيل الله، والقراة الوثيقة من النبي الأكرم، فلم يكن له بدّ من التخطيطات الشيطانية حتى يقف سدّاً في وجه علي، وإليك تخطيطاته:

١- الاتصال بعمر بن العاص:

أنّ عمرو بن العاص، كان داهية العرب، وقد اتّصل به معاوية وكان منحرفاً عن عثمان لأنّه عزله عن ولاية مصر، وولّاها غيره، فلمّا بلغ إليه خبر

١. الرضي: نهج البلاغة، قسم الكتب برقم ٦٤. المبرّد: الكامل ١٩٤/١.

٢. ابن الأثير: الكامل ٩٨/٣ وقد ذكر أسماءهم.

بيعة الناس لعلي، كتب إلى معاوية يهزّه ويشير إليه بالمطالبة بدم عثمان، وكان فيما يكتب به إليه: «ما كت صانعاً إذا قُشِرَتْ من كل شيء تملكه؟ فاصنع ما أنت صانع» فبعث إليه معاوية فسار إليه، فقال له معاوية: بايعني، قال: «لا والله لا أعطيك من ديني»^(١) حتى أنال من دنياك». فقال: «سل»، قال: «مصر طعمة»، فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتاباً، فقال عمرو بن العاص في ذلك:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنياً فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصرأ فأربح بصفقة أخذت بها شيخاً يضرّ وينفع^(٢)

٢- قميص عثمان المخضّب بالدم:

قدم النعمان بن بشير بكتاب زوجة عثمان وقميصه المخضّب بالدم، إلى معاوية فلمّا قرأ معاوية الكتاب سعد المنبر وجمع الناس، ونشر عليهم القميص، وذكر ماصنعوا بعثمان، فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم أن تزهق، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه، فقام إليه أهل الشام، فقالوا: هو ابن عمك وأنت وليّه، ونحن الطالبون معك بدمه... فبايعوه أميراً وبعث الرسل إلى كور الشام، حتى بايعه الشاميون قاطبةً إلا من عصمه الله^(٣).

٣- الاستنصار بالشخصيات المرموقة:

وجّه عليّ عند مغادرته البصرة إلى الكوفة كتاباً إلى معاوية يدعوه إلى

١. اظن ان الرجل باع مالا يملك ولم يكن له أي دين في ذاك اليوم، وقد نهى رسول الله عن بيع مالا يملكه الرجل. وقال: لا تبع مالا ليس عندك.

٢. المسعودي: مروج الذهب ٩٨/٣. الطبري: التاريخ ٥٦٠/٣.

٣. ابن الاثير: الكامل ١٤١/٣. ذكر ابتداء وقعة صفين.

(٤٧)

بيعته ويذكر فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكت طلحة والزبير، وما كان من حربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته (١).

ولما قرأ معاوية كتاب علي استشار عمرو بن العاص، فأشار إليه بقوله: «إِنَّ رَأْسَ أَهْلِ الشَّامِ شَرْحِبِيلُ بْنُ السَّمْطِ الْكَنْدِيُّ، وَهُوَ عَدُوٌّ لَجَرِيرِ الْمَرْسَلِ إِلَيْكَ، فَارْسِلْ إِلَيْهِ وَوَطَّنْ لَهُ ثِقَاتَكَ فليَفْشُوا فِي النَّاسِ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ عَثْمَانَ وَلِيَكُونُوا أَهْلَ الرِّضَا عِنْدَ شَرْحِبِيلِ فَإِنَّهَا كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لَكَ أَهْلَ الشَّامِ عَلَى مَا تَحِبُّ، وَإِنْ تَعَلَّقَتْ بِقَلْبِ شَرْحِبِيلِ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا».

فكتب معاوية إلى شرحبيل أن جرير بن عبدالله قدّم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر فظيع، فاقبل .

فلما قدم كتاب معاوية على شرحبيل وهو بحمص، استشار أهل اليمن (المتواجدين في حمص) فاختلفوا فيه ولكن عبدالرحمن بن غنم الأزدي أشار إليه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُكَ خَيْرًا مَذْهَبًا إِلَى الْيَوْمِ، وَإِنَّهُ لَا يَنْقُطُ الْمَزِيدُ مِنَ اللَّهِ حَتَّى يَنْقُطَ الشُّكْرُ مِنَ النَّاسِ، ﴿وَلَا يُغَيِّرُ اللَّهُ مَا بَقِيَ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَانَفْسِهِمْ﴾، إِنَّهُ قَدْ أُلْقِيَ إِلَيْنَا قَتْلُ عَثْمَانَ وَإِنَّ عَلِيًّا قَتَلَ عَثْمَانَ، فَإِنْ يَكُ قَتَلَهُ فَقَدْ بَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَهُمْ الْحُكَّامُ عَلَى النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَتَلَهُ فَعَلَامُ تَصُدِّقُ مُعَاوِيَةَ عَلَيْهِ، لَا تُهْلِكَ نَفْسَكَ وَقَوْمَكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ أَنْ يَذْهَبَ بِحَظِّهَا جَرِيرٌ، فَسِرْ إِلَى عَلِيٍّ، فَبَايَعِهِ عَلَى شَامِكَ وَقَوْمِكَ، فَأَبَى شَرْحِبِيلُ إِلَّا أَنْ يَسِيرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ».

لم يكن عبدالرحمن بن غنم الأزدي الرجل الوحيد الذي نصحه بل اجتمع هو مع جرير، فقال له جرير أما قولك إن علياً قتل عثمان، فوالله ما في

١. الطبري: التاريخ ٥٦٠/٣ - ٥٦١.

يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ولكنك ملّت إلى الدنيا^(١).

كان مبعوث الإمام يحاول أن يرد شرحبيل عن دَعْم فكرة معاوية، فكتب إليه أيضاً كتاباً ضمّنه قصيدة، فلما قرأه شرحبيل ذعر وفكّر وقال: هذه نصيحة لي في ديني ودنياي، والله لأعجل في هذا الأمر بشيء.

فلما بلغ معاوية تردّد زاهد الشام وناسكه لفّف له الرجال، يدخلون إليه ويخرجون ويُعْظَمون عنده قتل عثمان، ويرمون به عليّاً ويقيمون الشهادة الباطلة، والكتب المختلفة، حتى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه، وصار معاوية يملك قلوب الشاميين بواسطة هذا الرجل المتخبط، ولما استنهضهم للقتال قاموا جملة واحدة.

٤- رسائل معاوية إلى الشخصيات:

قام معاوية بإرسال رسائل إلى شخصيات إسلامية كانوا محايدين، فكتب إلى عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، يدعوهم إلى الثورة على علي، فكتب إلى ابن عمر بقوله: «لم يكن أحد من قريش أحبّ إليّ أن يجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك، ثم ذكرتُ خذلك إياه، وطعنك على أنصاره، فتغيّرتُ لك، وقد هوّن ذلك عليّ خلافاً لك على عليّ، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنا يرحمك الله - على حق هذا الخليفة المظلوم، فإنّي لست أريد الإمارة عليك، ولكنّي أريدها لك، فإن أبيت كانت شوري بين المسلمين^(٢)».

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص: أما بعد فإنّ أحق الناس بنصرة عثمان، أهل الشام والذين أثبتوا حقّه واختاروه على غيره^(٣) وقد نصره طلحة والزبير،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٥ - ٤٨.

٢. نفس المصدر: ٨٠.

٣. يريد بذلك سعد بن أبي وقاص حيث نصر عثمان في الشورى المعقودة لتعيين الخليفة بعد قتل عمر، بأمره.

وهما شريكاك في الأمر والشورى، وناظراك في الاسلام...

وكتب إلى محمد بن مسلمة يتهمه بخذلان عثمان ويقول «...فهلّا نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً أوترى أنّ عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين...»^(١).

فهذه الأمور تعرب عن تخطيطاته الخادعة التي حفظ التاريخ بعضها فكان يُعْمِي الأبصار والقلوب بأكاذيبه ورسائله، فتارة يبائع الزبير وطلحة، ولما فشل أمرهما، صار يُقدّم عبدالله بن عمر في أمر الخلافة لولا أنّه خذل عثمان ولم ينصره، كل ذلك لعكر الصفو وإحداث الصدع. إنّ ابن عمر - مع سذاجته - وقف على نوايا معاوية، فكتب إليه بكلمة صادقة، وقال: ما أنا كعلي في الإسلام، والهجرة، ومكانه من رسول الله.

وبجيب سعد بن أبي وقاص رسالة معاوية بقوله: إنّ أهل الشورى ليس منهم أحقُّ بها من صاحبه غير أنّ عليّاً كان من السابقة، ولم يكن فينا مافيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلّنا بالخلافة.

وبجيب محمد بن مسلمة، كتاب معاوية ويفشي سرّه ويقول بعد كلام: «ولئن نصرت (يا معاوية) عثمان ميّتاً، لقد خذّلتَه حيّاً»^(٢).

جهود علي ومساغيه لإخماد الفتنة:

بلغ عليّاً سعي معاوية لإثارة الفتنة بنشر الأكاذيب بين الشاميين وتعمية القلوب، فعمد إلى إخمادها قبل اشتعالها وكان الإمام على بيّنة من ربّه، وكيف لا وهو الإمام المنتخب ببيعة الأنصار والمهاجرين، والخارج عليه، خارج على

١. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ٩٢/١ - ٩٣.

٢. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ٩٣/١ - ٩٤.

الإمام المفترض الطاعة^(١) فلما أراد المسير إلى الشام جمع من كان حوله من المهاجرين والأنصار فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد: فإنكم ميامين الرأي، ومراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركوا الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم، فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عباد، وخزيمة بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري يحثون علياً عليه السلام على قطع جذور الفتنة.

فقال عمار: يا أمير المؤمنين، إن استطعت أن لا تُقيم يوماً واحداً فافعل. اشخص قبل استعار نار الفجرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، واذهبهم إلى رشدهم، فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا ضربنا، فوالله إن سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة فيه. وقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك ونحن كف يمينك.

إلى كلمات محرّضة وجمل حاثّة إلى الكفاح واخماد النار قبل اشتعالها. فلما سمع الإمام هذه الكلم النابعة من صميم الإيمان والنصح للإسلام، قام خطيباً على منبره فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: سيروا إلى أعداء الله، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار^(٢).

يقول المسعودي: كان مسير علي عليه السلام من الكوفة إلى صفين

١. أين الذين يقولون «ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتن» لا حظ

مقالات الاسلاميين ٣٢٣، للإمام الأشعري.

٢. ابن مزاحم: وقعة صفين ٩٢ - ٩٣.

لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين، واستخلف على الكوفة أبا مسعود، عُقبة بن عمرو الأنصاري، فاجتاز في مسيره بالمدائن، ثم أتى الأنبار حتى نزل الرقة فعقد له هنالك جسر فعبّر إلى جانب الشام، وقد اختلف في مقدار من كان معه من الجيش، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً.

وسار معاوية من الشام إلى جانب صفين، وقد اختلف من كان معه، والمتفق عليه من قول الجميع خمسة وثمانون ألفاً^(١).

خروج معاوية إلى صفين:

خرج معاوية من الشام وقدم صفين وغلب على الماء، ووكل أبا الأعور السلمي بالشرية في أربعين ألفاً، وبات علي وجيشه في البرّ عطاشى، قد حيل بينهم وبين الورد، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إنّ عليّاً لا يموت عطشاً ومعه تسعون ألفاً من أهل العراق دعهم يشربون ونشرب، فقال معاوية: لا والله أويموت عطشاً كما مات عثمان.

استعادة الشريعة من جيش معاوية:

دعا علي بالأشتر فبعثه في أربعة آلاف من الخيل والرجالة، ثم سار علي وراء الأشتر بباقي الجيش، فما ردّ وجهه أحد حتى هجم على عسكر معاوية، فأزال أبا الأعور عن الشريعة، وغرق منهم بشراً وخيلاً. وتراجع جيش معاوية عن الموضع الذي كان فيه، فقال معاوية لعمر بن العاص: أترانا ليمنعنا الماء كمنعنا إياه، فقال له عمرو: لا، لأنّ الرجل جاء لغير هذا، فأرسل إليه معاوية يستأذنه في ورود مشرعه واستقائه الماء في طريقه، ودخول رُسله في عسكره،

١. المسعودي: مروج الذهب ١٢١/٣.

فأجاب علي إلى كل ما سأل وطلب منه ^(١) .

نزل الإمام علي منطقة صفين في أوليات ذي الحجة عام ٣٦، والشهر من الأشهر الحرم، وبعث إلى معاوية يدعوهُ إلى إجتماع الكلمة والدخول في جماعة المسلمين، فطالت المراسلة بينهما فاتفقوا على المودعة إلى آخر محرّم سنة سبع وثلاثين.

ولما انقضى شهر محرّم، بعث علي إلى أهل الشام إنّي قد احتججت عليكم بكتاب الله تعالى، ودعوتكم إليه، وإنّي قد نبذت إليكم على سواء، إنّ الله لا يهدي كيد الخائنين. فما كان جوابهم إلّا قولهم: السيف بيننا وبينك حتى يهلك الأعجز منا.

أصبح علي يوم الأربعاء وكان أول يوم من شهر صفر، فعبا الجيش وأخرج الأشر أمام الجيش، فأخرج إليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وكان بينهم قتال شديد وأسفر عن قتلى بين الفريقين جمعياً.

امتدت الحرب كل يوم إلى عاشر ربيع الأول عام سبع وثلاثين وكان النصر حليفه في كل يوم إلى أن لم يبق للعدو إلّا النفس الأخير، فعنداك قام علي ينادي:

يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا الله، يا الله، اللهم إليك نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج، اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، ثم قال:

سيروا على بركة الله، ثم لا إله إلّا الله، والله أكبر، كلمة التقوى.

١. ابن مزاحم: وقعة صفين ١٥٧ - ١٦٢.

قال الراوي: لا والله الذي بعث محمداً ﷺ بالحق ماسمعنا برئيس قدم منذ خلق الله السموات والأرض، أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب. إنه قتل فيما ذكره العادون زيادة على خمسمائة من أعلام العرب^(١).

ثم قام علي خطيباً وقال: أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا اقتبلت اعتُبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين، حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا عاد عليهم بالغداة، أحاكمهم إلى الله عز وجل.

فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فقال: يا عمرو أنما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفصيل، فما ترى؟ قال: إن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله، هو يقاتلك على أمر، وأنت تقاتله على غيره. أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم، ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم فإنني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه، فعرف ذلك معاوية، فقال صدقت^(٢).

يقول تميم بن حذيم: لما أصبحنا من ليلة الهرير، نظرنا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام فلما أسفرنا فإذا هي مصاحف قد ربطت أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعاً، وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم، يمسكه عشرة رهط، وقال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبلوا علياً بمائة مصحف، ووضعوا في كل مَجَنَّبَةٍ مائتي مصحف، وكان

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٧٧.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٤ - ٥٤٨.

جميعها خمسمائة مصحف. قال أبوجعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال علي وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة، ثم نادوا:....يا معشر العرب، الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأترار وأهل فارس غداً إذا فنيتم؟ الله الله في دينكم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال علي: اللهم إني أعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم، إنك أنت الحكيم الحق المبين. فاختلف أصحاب علي في الرأي. فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب وقد دُعينا إلى حكم الكتاب. فعند ذلك بطلت الحروب ووضعت أوزارها، فقال محمد بن علي: فعند ذلك حكم الحكمان.

وقد أثرت تلك المكيدة في همم كثير من جيش علي عليه السلام حيث زعموا أن اللجوء إلى القرآن لأجل طلب الحق ولم يقفوا على أنها مؤامرة ابن النابغة وقد تعلم منه ابن أبي سفيان، وأنها كلمة حق يراد بها باطل وأن الغاية القصوى منها، هو إيجاد الشقاق والنفاق في جيش علي وتثبيط هممهم حتى تخدم نار الحرب التي كادت أن تنتهي لصالح علي وجيشه، وهزيمة معاوية وناصريه.

ولكن الخديعة كانت قد وجدت لها طريقاً في جيش العراق حتى سمع من كل جانب: المودعة إلى الصلح والنازل لحكم القرآن، فلما رأى علي عليه السلام تلك المكيدة وتأثيرها في السدج من جيشه قام خطيباً وقال: «أيها الناس إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمر بن العاص، وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة، وابن أبي سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل: إنهم والله ما رفعوها لأنهم

يعرفونها ويعلمون بها، ولكنّها الخديعة والمكيدة. أعيروني سواعِدكم وجماعكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلّا أن يقطع دابر الذين ظلموا»^(١).

وقد كان لخطاب علي أثر إيجابي في قلوب المؤمنين الواعين حيث أدركوا ماذا خلف الكواليس من مؤامرات وفتن، وحجبت البساطة فهم ذلك على قلوب القشريين من أهل البادية، الذين ينخدعون بظواهر الأمور، ولا يتعمّقون ببواطنها، ففوجئ علي عليه السلام بمجيب زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي سيوفهم وقد اسودّت جباههم من السجود يتقدّمهم مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه بإسمه لا بأمرة المؤمنين وقالوا: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت وإلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

فقال الإمام لهم: «ويحكم أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله، وأوّل من أجاب إليه، وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني أن أدعّي إلى كتاب الله فلا أقبله، إنّي إنّما قاتلتهم ليدِينوا بحكم القرآن، فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنّهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون» قالوا: فابعث إلى الأشر ليأتيّنك، وقد كان الأشر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله.

فلم يجد علي عليه السلام بداً من بعث رسول إلى الأشر ليأتيّه، فأرسل إليه علي، يزيد بن هاني أن ائتني، فأتاه، فأبلغه، فقال الأشر: اتّه فقل له ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقعي، أنّي قد رجوت الفتح فلا تعجلني، فرجع يزيد بن هاني إلى علي عليه السلام فأخبره، فما هو إلّا أن

١. ابن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٠. الطبري: التاريخ ٣٤/٤ - ٣٥.

علت الأصوات من قبل الأشر وظهت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والادبار لأهل الشام فقال القوم لعلي عليه السلام: والله ما نراك أمرته إلّا بالقتال، قال علي عليه السلام: أرأيتموني ساررت رسولي إليه؟ أليس إنّما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلّا فوالله اعتزلناك، فقال الإمام: ويحك يا يزيد قل له اقبل فإنّ الفتنة قد وقعت، فأتاه فأخبره.

فقال الأشر: أبرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنّها حين رفعت ستوقع خلافاً وفرقة أنّها من مشورة ابن النابغة، ثم قال ليزيد بن هاني: ويحك ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا ونصرف له؟ فقال له يزيد أتحبّ أنّك ظفرت ها هنا وأنّ أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه، ويسلم إلى عدوّه؟ قال: سبحان الله، لا والله الا أحبّ ذلك، قال: فإنّهم قد قالوا له وحلفوا عليه لئلا يسلن إلى الاشر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيا فكذا قتلنا عثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك.

فأقبل الأشر حتى انتهى إليهم، فصاح: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم وظنّوا أنّكم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سنّة من أنزلت عليه، امهلوني فواقاً، فإنّي قد أحسست بالفتح؟ قالوا: لا نهملك، فقال: أمهلوني عدوة الفرس، فإنّي قد طمعت في النصر؟ قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك.

فسبّوه وسبّهم، وضربوا بسياطهم وجهه دابّته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم وصاح عليّ بهم فكفّوا، وقال الأشر يا أمير المؤمنين احمل الصف على الصف، يصرع القوم، فتصايحوا: إنّ أمير المؤمنين قد قبل الحكومة

ورضي بحكم القرآن، فقال الأشر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضى، فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين.

فأقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وهو ساكت لا يبض بكلمة، مطرق إلى الأرض^(١).

ثم قام فسكت الناس كلهم فقال: «أيها الناس إن أمري لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، إلا أنني قد كنت أمس أمير المؤمنين فصرت مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتكم البقاء وليس لي أن أحملك على ما تكرهون»^(٢).

قال نصر بن مزاحم: ثم تكلم رؤساء القبائل فكل قال ما يراه ويهواه، فقام كردوس بن هاني البكري يدعوا الناس إلى تسليم الأمر إلى علي، كما قام شقيق بن ثور البكري يدعوا الناس إلى الصلح والموادعة ويقول: وقد أكلتنا هذه الحرب ولا نرى البقاء إلا في الموادعة^(٣).

هذه الحوادث المؤلمة التي أسفرت عن مؤامرة خبيثة يراد منها إيقاع الفتنة والخلاف في جيش علي عليه السلام إلى النزول إلى حكم القوم كرهاً بلا اختيار، واضطراً لا عن طيب نفس.

فبعث علي قراء أهل العراق، وبعث معاوية قراء أهل الشام، فاجتمعوا بين الصفيين فنظروا فيه وتدراسوه واجمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن، وأن يميئوا ما أمات القرآن، ثم رجع كل فريق إلى أصحابه، وقال الناس: «قد رضينا

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٠ - ٥٦٤.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢١٩ - ٢٢٠. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥٣.

٣. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥٤.

بحكم القرآن» .

فرض التحكيم أولاً، وفرض المحكم ثانياً:

ولقد بلغ القوم في قلة الحياء وشكاسة الخلق إلى حد أنهم فرضوا نفس التحكيم على الإمام المفترض طاعته بيعة المهاجرين والأنصار، ولم يبق بينه وبين الفتح والظفر على العدو إلا قاب قوسين أو أدنى أو بمقدار عدوة الفرس كما قاله الأستر.

إنهم - قبح الله وجوهمهم - لم يكتفوا بهذا الحد في قلة الأدب، بل فرضوا عليه المحكم، فإن الإمام لما لم ير بداً من قبول التحكيم فاقترح عليهم أن يكون المحكم من جانبه أحد الرجلين: ابن عمه - عبدالله بن عباس - أو الأستر.

ولكنهم رفضوا كل ذلك وأبوا إلا نيابة أبي موسى الأشعري الذي خذل علياً (عليه السلام) في بداية خلافته، ولم يبايعه إلا باكثر الناس ولم يشجع أهل الكوفة على نصره بل سكت.

يقول ابن مزاحم: قال اهل الشام: فإنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، فقال الأشعث والقرّاء الذين صاروا خوارج فيما بعد: فإنّا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعري، فقال لهم علي (عليه السلام): «إنّي لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه» فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فذكي في عصابة من القرّاء: أنا لا نرضى إلا به، فإنّه قد حدّثنا ما وقعنا فيه، قال علي (عليه السلام): «فإنّه ليس لي برضى ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك، قالوا: والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، قال علي: فإنّي أجعل الأستر، فقال الأشعث: وهل سحر الأرض علينا غير الأستر.

حتى أنّ عليّاً اقترح عليهم الأحنف بن قيس فأبوا أن يقبلوه، وقالوا: لا يكون ألاّ أبا موسى، وقد كان معروفاً بأنّه قريب القعر، كليل الشفرة، فلم ير عليّاً (عليه السلام) بداً من قبول أبي موسى، وقد كان الإمام عارفاً ببساطته وسذاجته، وكانت في ذلك خسارة عظيمة لحزب علي (عليه السلام) وأشياعه إلى حدّ وصفها الشاعر بقوله:

لو كان للقوم رأي يُعصمون به من الظلال رَمَوكم بآبن عباس
لله درُّ أبويه أيُّما رجل ما مثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أن يخلُ عمروبه، يقذفه في لجج يَهوي به النجمُ تَيْساً بين أتياس
ابـلـغ لـديـك عـليّاً غـير عـاتـبه قول امرئ لا يرى بالحق من بأسٍ^(١)

لقد كان عليّاً (عليه السلام) واقفاً على انحراف أبي موسى عنه، وإنّ هواه مع غيره، ومع ذلك لم يجد بداً عن الرضا بما فرض عليه البسطاء من جيشه، وهذا هو الأحنف بن قيس من أصدقاء علي (عليه السلام) وخُلص شيعته، فقد امتحن أبا موسى بعد ما نُصِبَ حَكماً من قبل علي (عليه السلام) فقال له ممتحناً: «فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فخّيره أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شائوا فإنّهم يولّونا الخيار فنختار من نريد، وإن أبوا فليختار أهل الشام من قريش العراق من شائوا، فإن فعلوا كان الأمر فينا، فقال أبو موسى: قد سمعت ما قلت، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علي (عليه السلام) فرجع الأحنف إلى علي (عليه السلام) فقال له: أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه في أوّل مخضة. لا أرانا إلّا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعتك، فقال علي (عليه السلام): الله

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٧٥ - ٥٧٦.

غالب على أمره^(١) .

إنَّ الإمامَ خاطبَ أبا موسى - عندما بعثه إلى دُومَةِ الجندلِ حكماً - بقوله: احكم بكتاب الله ولا تجاوزه، ولمَّا ودَّعَ أبا موسى وغادر المجلس، قال الإمام: كَأَنِّي به وقد خدع، فقال عبيدالله بن أبي رافع: لماذا تبعته وهو على هذه الفكرة؟ فقال الإمام عليه السلام لو عمل الله في خلقه بعلمه، ما احتجَّ عليهم بالرسَل ^(٢) .

صياغة اتفاقية الصلح:

إنَّ القومَ فرضوا على الإمام التحكيم والمحكم، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا عليه ما كان الخصم يطلبه في تحرير وصياغة اتفاقية الصلح، ولمَّا اتفق الطرفان على كتابة الصلح وإيقاف الحرب إلى أن يحكم الحكمان دعا علي عليه السلام كاتبه ليكتب صحيفة الصلح على النحو الذي يمليه الإمام، فقال الإمام: اكتب: «هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين» فقال معاوية: بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته، وقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، إنَّما هو أميركم، وأمَّا أميرنا فلا. فلمَّا أُعيد إليه الكتاب أمر بمحوه، فقال الأحنف: لا تمح اسم امرة المؤمنين عنك، فإنِّي أتخوَّفُ إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضاً. فأبى ملياً من النهار أن يمحوها، ثمَّ إنَّ الأشعث بن قيس جاء، فقال: امح هذا الاسم. فقال علي: لا إله إلا الله والله أكبر، سنَّة بسنَّة، أما والله لعلى يدي، دار هذه الأمر يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم: «هذا ما تصالح عليه

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٦١٧. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٤٩.

٢. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب ٢/٢٦١.

محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: لا أجيبك إلى كتاب تسمي (فيه) رسول الله ﷺ ولو أعلم أنك رسول الله لم أفاتلك إنني إذا ظلمتك إن منعتك أن تطوف ببيت الله وأنت رسول الله ولكن اكتب «محمد بن عبدالله» أجبك، فقال محمد ﷺ: «يا علي إنني لرسول الله، إنني لمحمد بن عبدالله، ولن يمحو عني الرسالة كتابي إليهم» «محمد بن عبدالله»، فكتب: محمد بن عبدالله، فراجعني المشركون في هذا إلى مدة، فاليوم اكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله ﷺ إلى آبائهم سنة ومثلاً. فقال عمرو بن العاص: «سبحان الله، ومثل هذا شبّهتنا بالكفار ونحن مؤمنون؟» فقال له علي عليه السلام: يا ابن النابغة، ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً وهل تشبه إلا أمك التي وضعت بك. فقام عمرو فقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم، فقال علي: والله إنني لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك^(١).

اتفاقية الصلح أو وثيقة التحكيم:

تنازل علي عليه السلام عن حقه المشروع ورضى، كما رضي رسول الله ﷺ أن يكتب اسمه مجرداً عن توصيفه بامرة المؤمنين فأملى علي صحيفة الصلح بالنحو التالي وفيها عبر ونكات وتشتمل على بنود ربما نرجع إليها في المستقبل:

١- هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ قضية علي على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب وقضية

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٢ - ٥٨٣.

معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب. إننا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم، وأن نقف عند أمره فيما أمر، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك، وإننا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيا ما أحيا ونميت ما أمت، على ذلك تقاضيا، وبه تراضيا.

٢- إن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبدالله بن قيس^(١) ناضراً ومحاكماً، ورضى معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناضراً ومحاكماً.

٣- على أنهما أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد في خلقه، ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثا له، لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً. ومالم يجدها مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله ﷺ الجامعة، لا يتعمدان لهما خلافاً، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى، ولا يدخلان في شبهة.

٤- وأخذ عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره، وأنهما أمانان في حكومتهم على دمائهما وأموالهما وأهلهم ما لم يعدوا الحق، رضى بذلك راض أو أنكره منكر وإن الأمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل.

٥- فإن توفى أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمر شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً، لا يألون عن أهل المعدلة والاقساط، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق، والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وله مثل شرط صاحبه، وإن مات أحد الأميرين قبل القضاء فلشيعته أن يولوا مكانه يرضون عدله. وقد وقعت القضية

١. هو أبو موسى الأشعري.

ومعها الأمن والتفاوض ووضع السلاح والسلام والموادعة.

٦- وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه ألا يألوا اجتهداً، ولا يتعمداً جوراً، ولا يدخلوا في شبهة، ولا يعدوا حكم الكتاب وسنة رسول الله ﷺ. فإن لم يفعلوا برئت الأمة من حكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمة. وقد وجبت القضية على ما قد سُمي في هذا الكتاب من مواقع الشروط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيداً، وأدنى حفيظاً، والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل والسلاح موضوع والسبل مخلاة والغائب والشاهد من الفريقين سواء في الأمن.

٧- وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً بين أهل الطرق وأهل الشام ولا يحضرهما فيه إلا من أحبّ، عن ملاء منهما وتراض. وإن المسلمين قد أجلوا القاضيين إلى انسلاخ رمضان^(١)، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجهها له عجّلاً، وإن أرادتا خيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم فإن ذلك إليهما.

٨- فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب. ولا شرط بين واحد من الفريقين. وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب. وهم يد على من أراد فيه إلحاداً وظلماً أو حاول له نقضاً. ثم إنه شهد بما في الكتاب من أصحاب الطرفين أكابرهما فمن أصحاب علي، عبدالله بن عباس، والأشعث بن قيس، والأشتر مالك بن الحارث، والحسن والحسين ابنا علي وطائفة أخرى يبلغ عدد الشهود سبعة وعشرين شخصاً وفيهم من الصحابة الكبار، نظير خباب بن الارت وسهل بن حنيف وعمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدي، كما شهد من أصحاب معاوية أبو الأعور

١. أي رمضان سنة تحرير الاتفاقية وهي سنة ٣٧، وقد كتب الكتاب في صفر هذه السنة كما سيوافيك.

وبسر بن أرطاة وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكتبت لثلاث عشر ليلة بقيت من صفر سنة ٣٧^(١).

ونلاحظ أنّ في الميثاق تصريحاً بأنّه من اللازم على الحكمين الإدلاء برأييهما إلى انقضاء موسم الحج من عام ٣٧ وهما أدليا برأييهما في شعبان تلك السنة كما سيوافيك. وما نقله الطبري عن الواقدي أنّ اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ٣٨ من الهجرة غير صحيح^(٢).

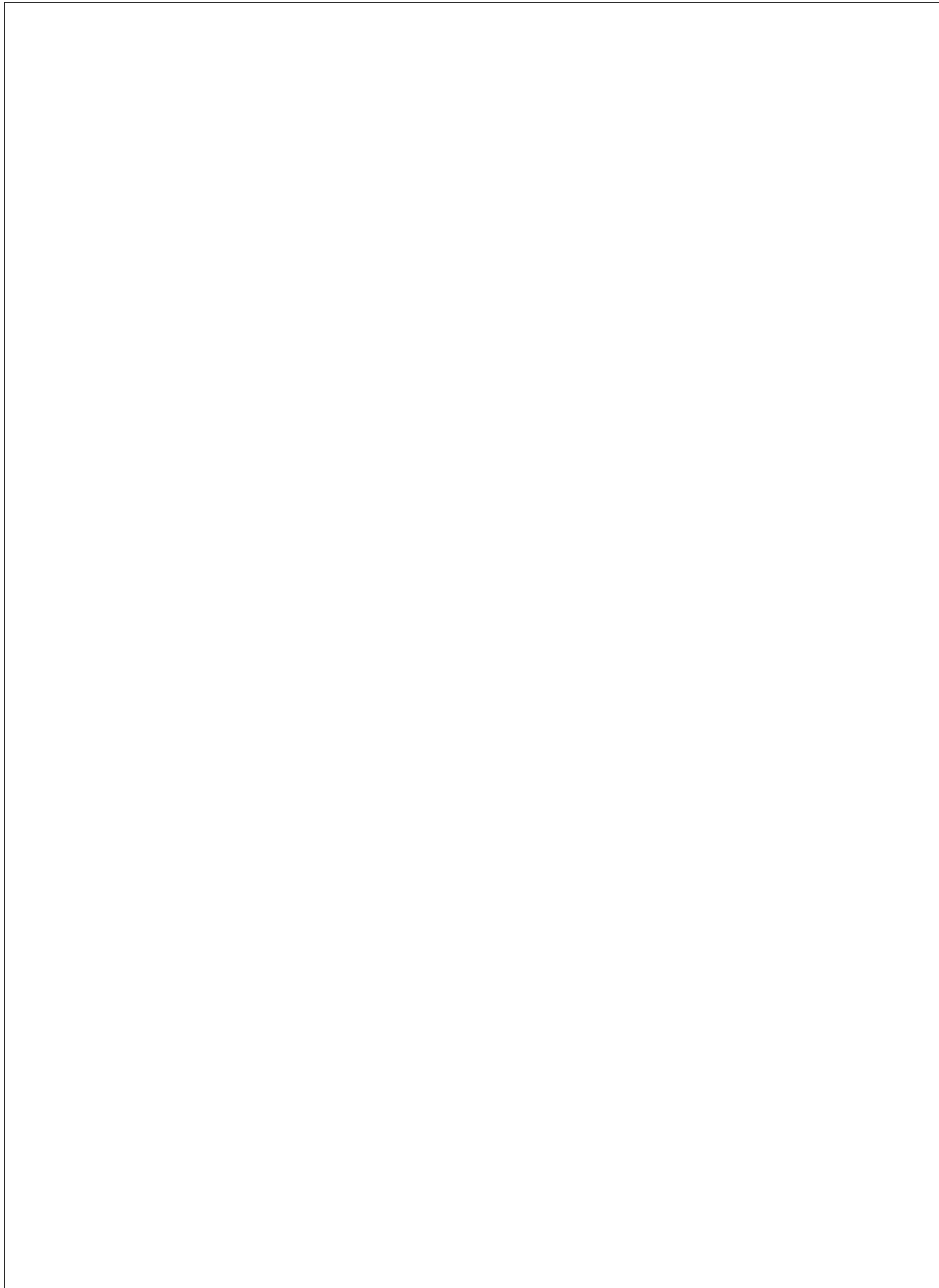
صورة أخرى لوثيقة التحكيم:

ثم إنّ ابن مزاحم نقل صورة أخرى لوثيقة التحكيم يتّحد مع ماسبق لبّاً ويختلف في بعض الموارد عبارة فمن أراد فليرجع إلى مصدره وفي ذيلها: «وكتب عميرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين وأتّعد الحكمان (اذرح)^(٣) وأن يجيء علي بأربعمائة من أصحابه، ويجيء معاوية بأربعمائة من أصحابه فيشهدون الحكومة.

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٢.

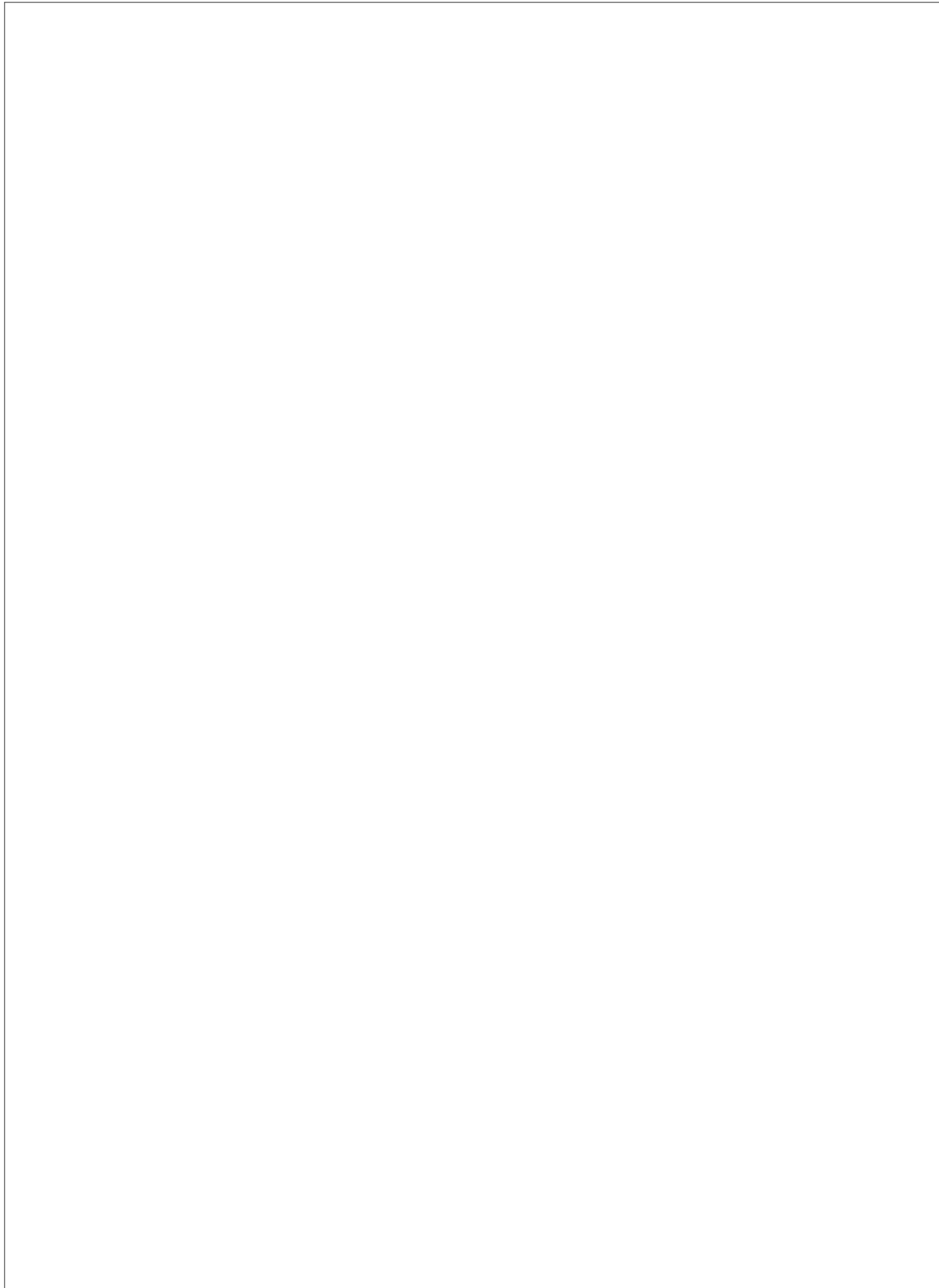
٢. الطبري: التاريخ ٥٢/٤.

٣. اذرح - بضم الراء - بلد في أطراف الشام مجاور لأرض الروم.
(٦٥)



الفصل الثالث

نشوء الخوارج عند مخالفتهم لمبدأ التحكيم



إنّ الذين حملوا عليّاً عليه السلام على الموادعة والرضوخ للتحكيم، رجعوا عن فكرتهم وزعموا أنّ أمر التحكيم على خلاف الذكر الحكيم حيث يقول «ان الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»^(١) فحاولوا أن يفرضوا على عليّ عليه السلام أمراً رابعاً وهو القيام بنقض الميثاق ورفض كتاب الصلح بينه وبين معاوية، فجاء هؤلاء قائلين: «لا حكم إلا لله، الحكم لله يا علي لالك، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. إنّ الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا وأن يدخلوا في حكمنا عليهم وقد كانت منّا زلة حين رضينا بالحكمين، فرجعنا وتبنا، فارجع أنت يا علي كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا، وإلا برئنا منك. فقال علي: وَيُحْكَم، أبعِد الرضا(والميثاق) والعهد نرجع؟ أو ليس الله تعالى قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: فأبى علي أن يرجع، وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه، وبرئت من علي عليه السلام، وبرئ

١. الأنعام: ٥٧. وقد ورد في سورة يوسف أيضاً مرتين، لا حظ الآية ٤٠ و ٦٧ من هذه السورة.

منهم^(١).

وقال الطبري: لما أراد عليّ أن يبعث أبا موسى إلى الحكومة أتاه رجلان من الخوارج: زرعة بن برج الطائي وحر قوص بن زهير السعدي^(٢)، فدخلوا عليه فقالا له: لا حكم إلا لله، فقال علي^{عليه السلام}: لا حكم إلا لله، فقال له حر قوص: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا، فقال لهم علي: قد أردتكم على ذلك فعصيتُموني وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهدنا ومواثيقنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. فقال له حر قوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه، فقال علي: ما هو ذنب ولكنّه عجز من الرأي وضعف من الفعل وقد تقدّمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه، فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه، فقال له علي: بؤسا لك ما أشقاك كأنّي بك قتيلاً تسفى عليك الريح. قال: وددت أن قد كان ذلك، فقال له علي: لو كنت محقاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا. إنّ الشيطان قد استهواكم فاتّقوا الله عز وجل إنّّه لا خير لكم في دنيا تقاتلون عليها فخرجوا من عنده يُحكّمان^(٣).

روى ابن مزاحم عن شقيق بن سلمة قال: جاءت عصابة من القرّاء قد

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٩ - ٥٩٠.

٢. إنّ الاباضية - الفرقة الباقية من الخوارج - يقولون المحكمة الأولى نظراء: زرعة، وحر قوص، والراسبي مُحَقَّقُونَ بحجة أنّهم أرادوا أن لا يحكم الرجال فيما حكم فيه سبحانه وهو قتال أهل البغي حتى يفيثوا، ولكنهم لا يذكرون شيئاً من أنّهم كانوا هم الأساس لمسألة التحكيم، وهم الذين فرضوا على الإمام، هذا الأمر. فلتكن على ذكر من هذا النقل حتى يحين وقت دراسة الموضوع.

٣. الطبري: التاريخ ٥٢/٤ - ٥٣.

سَلُّوا سيوفهم واضعيتها على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تنظر بهؤلاء القوم إن نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم بالحق؟ فقال لهم علي: قد جعلنا حكم القرآن بيننا وبينهم ولا يحل قتالهم حتى ننظر بهم يحكم القرآن. (١)

وهذا يعرب عن أنَّ الأكرثية الساحقة كانت مَصْرَة على التصالح وإنَّ عصابة منهم، كانوا متوقِّفين في بدء الأمر، ثمَّ بدا لهم أن ينصروا الإمام في وقت، تَمَّت الاتفاقية بين الطرفين وأعطى الإمام العهد بالعمل بها.

هذه الكلمة الجارحة التي صدرت من زرعة الطائي وحر قوص بن زهير السعدي ونظائرها كانت تصدر من الخوارج أونة بعد أخرى، وذلك لأنَّهم يتَّهمون علياً بارتكاب الإثم ولزوم التوبة بنقض الصحيفة، وفي مقابل ذلك سطر التاريخ مواقفاً جريئة وحرّة صدرت عن ثلّة من أصحاب علي عليه السلام.

هذا هو سليمان بن صرد من أصحاب علي أتاها بعد كتابة الصحيفة ووجهه مضروب بالسيف فلمّا نظر إليه علي عليه السلام قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ فأنت ممّن ينتظر وممّن لم يبدل، فقال يا أمير المؤمنين: أما لو وجدتُ أعواناً ما كتبت هذه الصحيفة أبداً. أما والله لقد مشيتُ في الناس ليعودوا إلى أمرهم الأوّل فما وجدت أحداً عنده خير إلّا قليلاً. وقام إلى علي عليه السلام محرز بن جريش بن ضليع، فقال: يا أمير المؤمنين: ما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ فإنّي لأخاف أن يُورث ذلّاً، فقال علي عليه السلام أبعد أن كتبناه ننقضه؟ إنَّ هذا لا يحلّ.

وقام فضيل بن خديج مخاطباً علياً لما كتبت الصحيفة: إنَّ الأُشتر لم يرض بما في هذه الصحيفة ولا يرى إلّا قتال القوم، فقال علي عليه السلام:

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٩.

بلى إنَّ الأشتر ليرضى إذا رضيت، وقد رضيت ورضيتكم، ولا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار إلَّا أن يعصى الله ويتعدَّى ما فيه كتابه.

فلما رأى علي عليه السلام تكرر تلك المواقف قام خطيباً ليزيل الشكوك والأوهام عن قلوب شيعته فخطب وقال: «إنَّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق، ولا يجيبوا إلى كلمة السوء، حتى يُزَمَّوا بالمناسر، تتبعها العساكر، وحتى يُرَجَموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلادهم الخميس، يتلوه الخميس، وحتى يدعوا الخيل في نواحي أرضهم، وبأحناء مساربهم ومسارحهم وحتى تشن عليهم الغارات من كل فج، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلَّا جداً في طاعة الله، وحرصاً على لقاء الله، ولقد كنَّا مع رسول الله ﷺ نقتل آبائنا وأبناءنا وأخواننا وأعمامنا. ما يزيدنا ذلك إلَّا إيماناً وتسليماً، ومُضِيّاً على اللقم وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان متصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون مرّة لنا من عدونا ومرّة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقياً جرّانه، ومتبوّئاً أو طانه، ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتكم، ما قام للدين عمود، ولا اخضر للإيمان عود، وإيم الله لتحتلبنّها دماً ولتتبعنّها ندماً^(١).

وقد أعرب الإمام في خطبته هذه عن السبب الحقيقي للفصل والوهن الذي واجه جيشه مع كثرة عددهم وعدّتهم، وما هذا إلَّا لأنّهم عصوا إمامهم، واغترّوا بظواهر الأمور، وحسبوا أنّ اللجوء إلى كتاب الله شيء يدين به الخصم،

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٦. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٩٧ - ٥٩٨ وبين المنقول في المصدرين اختلاف في اللفظ، ورجحنا نقل الرضي.

فترضوا على علي عليه السلام التحكيم والحكم، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرناها آنفاً، فصار القائد مقوداً والإمام مأموماً والمطاع مطيعاً.

تنبؤ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفتنة الخوارج:

روى ابن هشام عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: جاء رجل من بني تميم - في غزوة هوازن - يقال له ذوالخويصرة فوقف عليه وهو يعطي الناس فقال: يا محمد، قد رأيتُ ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجل، فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت، قال: فغضب النبي، ثم قال: ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا أقتله؟ فقال: لا دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون ^(١) في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ^(٢)

١. المراد من التعمق كثرة السؤال والاعتراض على الأوامر الصادرة من القيادة ويؤيد ذلك الحديث المشهور: سأل رجل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وقال: رجل يأتي السوق فيشتري جبة فراء، ولا يدري أذكية هي أم غير ذكية؟ أيسلّي فيها؟ فقال: نعم ليس عليكم المسألة. أن أبا جعفر عليه السلام كان يقول: إن الخوارج ضيقوا على أنفسهم بجهالتهم، أن الدين أوسع من ذلك. (الصدوق: من لا يحضره الفقيه ١/١٦٧، الباب ٣٩، الحديث ٣٨).

ويظهر ذلك مما روي عن علي من قصار الكلمات قال: الكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماء عن الحق، نهج البلاغة قسم الحكم ٣١. فمعنى التعمق هنا لا يتنافى مع ما سنذكره من أن البساطة والسذاجة والظاهرية كانت سمة من سماتهم.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٤٩٦. ابن الأثير: الكامل ٢/١٨٤. ورواه البخاري في باب «المؤلفة قلوبهم على وجه التفصيل، فمن أراد فليرجع إلى صحيحه».

تحليل لكارثة التحكيم:

إنّ هناك أسئلة تطرح نفسها ونحن نجيب عنها مستنديين إلى متون الروايات الواردة حولها:

الأول: لماذا اغتر المحكّمة بظواهر الأمر وزعموا أنّ رفع المصاحف على رؤوس الأسنة لأجل اللجوء إلى القرآن، واجراء حكمه بين الطرفين، مع أنّ عليّاً وكثيراً من أصحابه نبّههم على أنّ ذلك خدعة ومكيدة. والجواب: إنّ الذي حملهم على قبول التحكيم في بادئ ذي بدء أمران:

١ - إنّ الخسارة البشرية الفادحة التي ألحقها الحرب بالعراقيين (مع أنّ خسائر الشاميين كانت أكثر) كانت عاملاً نفسياً مهماً لقبول التحكيم ودافعاً لهم إليه وفي كلام الإمام علي عليه السلام إشارة إلى ذلك:

قال ابن مزاحم: ذكروا أنّ الناس ماجوا وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال، وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلنا هم عليه أمس، ولم يقل هذا إلا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة وثارت الجماعة بالموادعة فقام علي أمير المؤمنين فقال: «إنّه لم يزل أمري معكم على ما أحبّ إلى أن أخذت منكم الحرب، لقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوّكم فلم تترك، وإنّها فيكم أنكى وأنّهمك...وقد أحببتكم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون»^(١).

ولعل النجاشي يشير إلى ذلك العامل في قصيدته إذ يقول:

غشيناهم يومَ الهَريرِ بِعُصْبَةٍ يمانيّة كالسيل سيلِ عِرانِ
فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآنِ

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥٣ - ٥٥٤.

ونادوا^(١): علياً، يا ابن عمّ محمّد أما تتقي أن يهلك الثقلان
فمن للذراري بعدها ونسائنا ومن للحريم أيها الفتيان^(٢)

٢- إنّ البساطة والسذاجة من الأمور التي تسود أهل البادية حيث لا يملكون الوعي
الفكري والتجربة الاجتماعية، وجلّ القبائل التي كانت تحارب تحت لواء عليّ من القاطنين في
البادية غير متمدّنين، فطبيعة عيشتهم هو الصدق والصفاء والإيمان بظواهر الأمور دون أن
يتعمّقوا فيها لمعرفة ما يدور خلف الستار من خفايا، ولأجل ذلك اغتروا بظاهر الأمر وزعموا أنّ
رفع المصاحف على الأستة لأجل الاستتلال في ظلّه والعيش تحت رايته.

غير أنّ الإمام والواعين من قادة جيشه علموا أنّ خلف هذا العمل مؤامرات وتفرّسوا بأنّ
واري هذا ليس إلّا الفتنة، ولأجل ذلك لمّا بعث عليّ عليه السلام أحد النخعيين إلى الأشر لايقاف الحرب
ورجوعه إلى معسكر الإمام، فسأله الأشر عن سبب الفتنة، وقال: «الرّفع هذه المصاحف؟» قال
نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنّها حين رفعت ستوقد اختلافاً وفرقة^(٣).

٣- إنّ عيشة القوم كانت عيشة قبيلة والنظام القبلي يفرض على كافة أفراد القبيلة، الطاعة
العمياء لرئيسها فإذا أصرّ الرئيس بالرأي، فالباقون بحكم الأغنام يتبعونه من دون تفكّر ووعي،
ولمّا كان في جيش عليّ عليه السلام رؤوس البطون، وخضعوا للتحكيم، لم يبق مجال لغيرهم في القبول
والرفض، ولأجل ذلك صار التحكيم فرضاً من جانب عشرين ألفاً مقتّعين بالحديد، ومن البعيد
جداً أن يكون حكم كلّ واحد من هؤلاء صادراً عن وعي وإمان.

١. يعني أهل العراق.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٦٠٢.

٣. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٢.

الثاني: لماذا رجعوا عن التحكيم بعد فرضه على علي عليه السلام؟

إنّ القوم لم يكونوا أهل فكر واجتهاد، وما كانوا يصدرّون عن مبدأ عقلي في المواقف الصعبة والحرّجة، فكما أنّهم اغتروا برفع المصاحف على الأسنة، اغتتر الكثير برأي بعض القراء حيث ردّ التحكيم بقوله سبحانه: ﴿أَنَ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

قال ابن مزاحم: إنّ الأشعث خرج في الناس بذلك الكتاب يقرأه على الناس ويعرضه عليهم ويمرّ به على صفوف أهل الشام، وراياتهم، حتى مرّ برايات عنزة فقرأه عليهم. قال فتیان منهم: لا حكم إلّا لله، ثمّ حملا على أهل الشام بسيوفهما (فقاتلا) حتى قتلا على باب رواق معاوية، وهما أوّل من حكم (أي أنكر مبدأ التحكيم) ثم مرّ بها على مراد فقال صالح بن شقيق وكان من رؤسائهم:

ما لعلّي في الدماء قد حكم
لو قاتل الأحزاب يوماً ما ظلم
لا حكم إلّا لله ولو كره المشركون.

ثمّ مرّ على رايات بني راسب فقرأها عليهم، فقالوا: لا حكم إلّا لله ولا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله، ثم مرّ على رايات بني تميم فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: «لا حكم إلّا لله، يقضي بالحق وهو خير الفاصلين» وخرج عروة بن أدية فقال: أتحكمون الرجال في أمر الله؟ لا حكم إلّا لله: فأين قتلانا يا أشعث؟^(١).

فزعموا أوّلاً: أنّ حكم الله مضى في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمهم وأنّ إيقاف الحرب والتنازل إلى المواعدة خلاف حكم الله

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥٨. وجاء في ذيل كلامه أنّ هؤلاء المخالفين أو بعضهم كانوا من المصريين على التحكيم في بدء الأمر وأنما رجعوا عن فكرتهم عند عرض الكتاب.

سبحانه.

ثانياً: إنّ هذا تحكيم للرجال في دين الله، وهو يضادّ النصّ الصريح في الذكر الحكيم أعني قوله تعالى: ﴿أَنِ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وكلا الوجهين موجودان في كلامهم يوم حاولوا فرض نقض الميثاق وطلبوه من علي عليه السلام يقول ابن مزاحم: فنادت الخوارج في كلّ ناحية:

لا حكم إلا لله، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله.

قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم^(١).

ثالثاً: زعموا أنّ قبول التحكيم يستلزم أنّهم كانوا ضالّين في نضالهم وجهادهم ضد معاوية طيلة شهور، ونتيجة ذلك أنّ ما أريق من الدماء، وما قدموا في ذلك الطريق من الشهداء كانت على غير وجه الحق ولأجل ذلك لما قرأ الأشعث صحيفة الصلح على تميم، قالوا: أتحكمون الرجال في أمر الله لا حكم إلا لله، فأين قتالنا يا أشعث^(٢).

رابعاً: قالوا: إنّك نهيت عن الحكومة أولاً ثم أمرت بها ثانياً، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً، وبأمرك مخطئاً، وإن كانت حسنة كنت بنهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً، فلا بد من خطئك على كلّ حال.

هذه الوجوه الأربعة ممّا اغترّ به القوم، وأرادوا فرض نقض التحكيم والميثاق على علي وهي تكشف عن بساطة القوم في المقام، وإليك تحليل كل واحد من هذه الوجوه:

أما الوجه الأول: فإنّه وإن كان قد مضى حكم الله في معاوية وأصحابه أن

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٩٤.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٨.

يقتلوا أو يدخلوا في حكم الإمام المفترض طاعته، وكان الواجب على الإمام محاربتهم حتى تتحقق إحدى الغايتين ولكن التكليف بالمحاربة، مرهون بالقدرة وعدم المانع من تحقيق التكليف، والقوم سلبوا القدرة عن الإمام القائد، حيث جاءوا إليه في عشرين ألفاً مقنعين في الحديد، شاكي سيوفهم على عواتقهم يدعونه باسمه ويقولون: أجب إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

أفي هذا الموقف الحرج يتصور أن تكون المحاربة تكليفاً شرعياً على الإمام أو يكون الحكم مرفوعاً بارتفاع قدرته على مواصلة الحرب، إذ كانت نتيجة مواصلة الحرب هو قتل الإمام أو تسليمه إلى العدو مكفوف اليدين، وكان الذل والوهن عندئذ أكبر وأفدح.

نعم، رجعت القدرة إلى الإمام بعد ندامتهم على التحكيم واستعدادهم لمواصلة الحرب بعد الصلح وأخذ الموائيق، ولكن كانت الندامة في غير محلها وندموا ولم ينفعهم الندم حيث ضاعت الفرصة الذهبية، إذ كما أن من حكمه سبحانه مواصلة حرب الطغاة وقد نطق بها الذكر الحكيم، كذلك الإيفاء بالموائيق، واحترام العقود والعهود من أحكام القرآن والسنة المطهرة. ولأجل ذلك أجاب علي عن اصرارهم على مواصلة الحرب بقوله: «ويحكم، أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع؟ أوليس الله تعالى قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

ولكن القوم كانوا بعيدين عن المنطق، قريبي القعر، سمعوا أدلة الإمام ولم يجيبوا عنها بشيء إلا بتضليله والبراءة منه. وسوف نرجع إلى تحليل هذا

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٩.

الوجه عند البحث عن الاباضية.

وأما الوجه الثاني: أعني كون هذا تحكيمياً للرجال في دين الله: وهو خطأ. إنَّ الإمام وأصحابه لم يحكّموا الرجال في دين الله بل حكّموا القرآن والذكر الحكيم فيما اختلفوا فيه ولكن القرآن شجرة يانعة وحجة صامته لا تجتني ثمرته ولا يعلم مقاصده إلا بمن ينطقه وإلى ذلك يشير الإمام في بعض خطبه:

«إِنَّا لَمْ نَحْكَمْ الرِّجَالَ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ، هَذَا الْقُرْآنُ أَنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا بَدَنٍ لَهُ مِنْ تَرْجَمَانٍ، وَأَنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ، وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمَ إِلَى أَنْ نَحْكُمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمَتَوَلَّى عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَرَدَّهِ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بَكِتَابِهِ، وَرَدَّهِ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حَكَمَ بِالْصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهِ»^(١).

وفي كلام آخر له:

«فَإِنَّهُ حَكَمَ الْحُكْمَانَ لِيُحْيِيَ مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ وَيُمِيتَ مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْإِفْتِرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَزَّأَ الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ، اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَزَّهْمُ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا، فَلَمْ أَتْ - لَا أَبَا لَكُمْ - بُجْرًا وَلَا خَتْلُتْكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَسْتُه عَلَيْكُمْ، أَنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَأْكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا إِلَّا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ»^(٢).

وقد جاء في نفس الميثاق الذي أملاه على التصريح بأنَّ الحكم هو القرآن، وإنَّ دور الحكمين هو انطاق القرآن في محلّ النزاع وقد جاء في

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٥.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

الميثاق قوله:

«وان كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحیی ما أحیا القرآن ونمیت ما أمات القرآن فان وجد الحکمان ذلك في كتاب الله اتبعناه، وإن لم يجدها أخذنا بالسنة العادلة غير المفارقة»^(١).

وبعد هذه الكلم الواضحة، المعربة عن حقيقة الحال، كان اصرارهم على نقض الميثاق صادراً عن جهل وعجز في الرأي.

وأما الوجه الثالث: أي أنه يستلزم من قبول التحكيم كونهم ضالين في نضالهم وجهادهم طيلة شهور، وإنّ الدماء التي أريقّت، إنّما أريقّت في غير وجه الحق، فهو أوهن من الوجهين السابقين، وذلك لأنّه سبحانه كما أمر بالقتال والنضال في كتابه وقال:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾^(٢).

وقال سبحانه:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾^(٣)

كذلك أمر بالصلح والسلم في غير واحد من آياته، وقال:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾^(٤)

وقال سبحانه:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ

١. الطبري: التاريخ ٣٨/٤.

٢. التوبة: ٢٩.

٣. الأنفال: ٣٩.

٤. الأنفال: ٦١.

وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^(١)

الصلح والايقاف ليسا دليلاً على أن الدماء التي أُرقيت إنما أُرقيت في غير وجه الحق، وعلى ذلك فكل من الحرب والصلح، والنضال والموادعة حكم من أحكام القرآن، يطبق كل في موردته وذلك حسب ما يراه الحاكم الإسلامي وعلى ذلك جرت سيرة الرسول الأكرم، فقد ناضل قريشاً في بدر وأحد وقاتلهم في الأحزاب، وقد أُرقيت من دماء المسلمين ما لا يستهان بها، ومع ذلك فقد صالح قريشاً في الحديبية، وكتب بينه وبينهم ميثاق الصلح على ما مر الإيعاز إليه في كلام علي عليه السلام حتى إن قريشاً أبوا أن يكتب «رسول الله» إلى جانب اسمه، وألزموه بتجريد اسمه عن الرسالة كما أبى معاوية وعمرو بن العاص إلا أن يكتب اسم علي مجزئاً عن الإمارة، فكان في ذلك اقتداء بالنبي، فالدماء التي أُرقيت في ساحات القتال إذا كانت لوجه الله فلا تنقلب عمماً عليه، وأصحابها شهداء، أحياء عند ربهم يُرزقون، ولا يابى ذلك أن يصلح القائد الإسلامي إذا اقتضت المصلحة لظروف مختلفة، مع العدو وكلا الحكمين حكم الله.

وأما الوجه الرابع: فقد أجاب عنه الإمام بعد ما قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد؟ فصفق عليه إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

«هذا جزاء من ترك العقدة^(٢) أما والله لو أنني حين أمرتكم به، حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن ابستم تداركتكم، وكانت الوثقى، ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن

١. الحجرات: ٩.

٢. العقدة: الرأي الوثيق.

أدواي بكم وأنتم دائي»^(١).

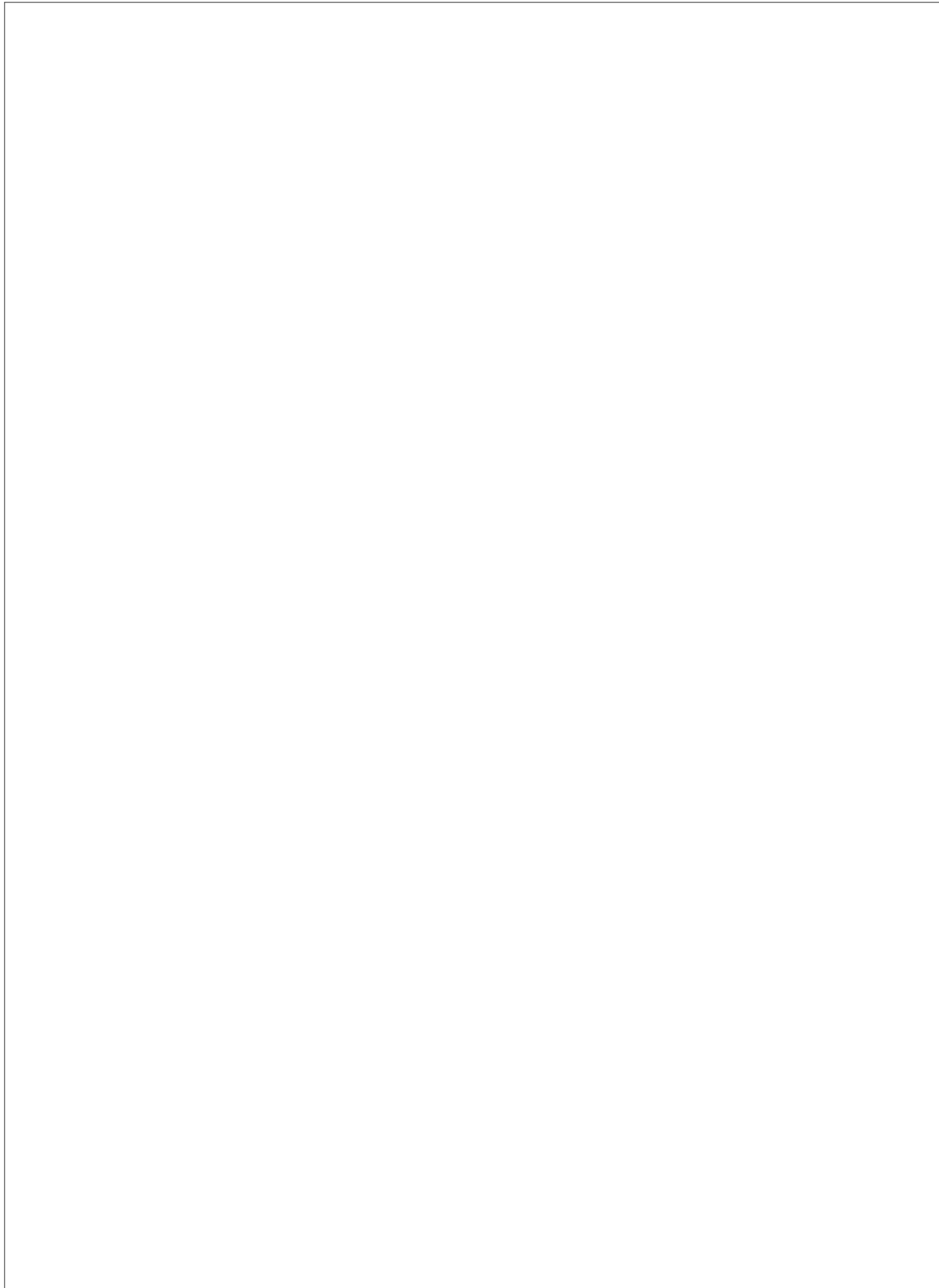
أقول: إنَّ القوم كانوا بُعداء عن التفكير الصحيح فزعموا أنَّ هنا تناقضاً في الرأي، مع أنَّه لا منافاة بينهما بعد فرض اختلاف ظرف الحكمين، ففيما كان الإمام قائداً مُطاعاً، كان الحق هو مواصلة الحرب، ولذلك كان يصرُّ على المواصلة، وعند ما عُصِيَ، وخُوْلِفَ، لم يكن بدّ من التنازل إلى الحكم الآخر، فلا الإيقاف يبطل حكم القتال وأجر الشهداء ولا الحكم بالقتال يلازم بطلان الهدنة وعدم صحّته إذا اقتضت المصلحة ذلك وفقاً لا اختلاف الظروف.

* * *

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢١.

الفصل الرابع

تحرّكاتهم السياسيّة بعد مبدأ التحكيم



لَمَّا تَمَّتْ الْإِتِفَاقِيَّةُ، وَشَهِدَ عَلَيْهَا شُهَدَاؤُهُ، وَقُرِئَتْ عَلَى النَّاسِ، انْسَحَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى جَانِبِ الشَّامِ، وَتَوَجَّهَ الْإِمَامُ نَحْوَ الْكُوفَةِ مَعَ جَيْشِهِ وَأَصْحَابِهِ وَرَافِقِهِ الْمَعْتَرِضِينَ عَلَى التَّحْكِيمِ الَّذِينَ عَرَفُوا بِالْمُحَكَّمَةِ، فَدَخَلَ الْإِمَامُ الْكُوفَةَ دَارَ هِجْرَتِهِ وَامْتَنَعَتِ الْمُحَكَّمَةُ عَنِ الدُّخُولِ، وَذَهَبُوا إِلَى قَرْيَةٍ «حُرُورَاءَ» كَمَا ذَهَبَ قِسْمٌ مِنْهُمْ إِلَى مَعْسُكِرِ نَخِيلَةٍ اعْتِرَاضاً عَلَى عَلِيٍّ وَحُكْمِهِ. وَقَدْ أُعْرِبُوا بِعَمَلِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ مُتَخَلِّفُونَ عَنْهُ، وَعَنْ أَوَامِرِهِ، وَخَارِجُونَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَلَقَدْ كَانَ لَهُمْ أَلْوَانٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي مُخَالَفَتِهِمْ وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ يَشْتَرِكُونَ فِي كَوْنِهَا رَدُودٌ فَعَلَ لَمَّا آلَ لَهُ التَّحْكِيمَ وَنَذَرَ أُبْرَزَهَا:

١- التظاهر ضد علي عليه السلام بقولهم «لا حكم إلا لله» في المسجد وخارجه خصوصاً عند قيام الإمام بالقاء الخطب.

٢- تكفير علي عليه السلام وأصحابه الذين وفوا بالميثاق.

٣- تأمين أهل الكتاب وارهاب المسلمين وقتل الأبرياء.

وَأَمَّا مَا قَامَ بِهِ الْإِمَامُ فِي مُقَابَلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ فَكُلُّهَا يَنْبَغُ عَنْ عَطْفِهِ وَحَنَانِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَصَبْرِهِ الْجَمِيلِ تَجَاهَ الْمَآسِي، وَإِلَيْكَ بَيَانُهُ:

١ - قام عليّ عليه السلام بتبيين موقفه من كتاب الصلح وإنه ما أمضاه إلّا باصرار منهم وإرهاب ضده.

٢ - التعامل معهم كسائر المسلمين في الجوائز والعطايا.

٣ - بعث شخصيات كبيرة لهدايتهم، وارجاعهم عن غيهم.

٤ - محاولة أخذ الثأر من قتلة عبدالله بن خباب بن الارت وزوجته عندما قتلوا بايدي سفلة الخوارج وإليك بيان الجميع:

الف - التظاهر ضدّ عليّ عليه السلام:

روى الطبري: «لَمَّا وَقَعَ التَّحْكِيمَ وَرَجَعَ عَلِيٌّ مِنْ صَفِيِّينَ، رَجَعُوا مُتَبَايِنِينَ لَهُ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى النَّهْرِ أَقَامُوا بِهِ، فَدَخَلَ عَلِيٌّ فِي النَّاسِ الْكُوفَةَ وَنَزَلُوا بِحُرُورٍ وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَرَجَعَ وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ فَكَلَّمَهُمْ^(١) حَتَّى وَقَعَ الرِّضَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَدَخَلُوا الْكُوفَةَ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَحَدَّثُوا أَنَّكَ رَجَعْتَ لَهُمْ عَنْ كُفْرِكَ، فَخَطَبَ النَّاسَ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ فَذَكَرَ أَمْرَهُمْ فَعَابَهُ، فَوَثَبُوا مِنْ نَوَاحِي الْمَسْجِدِ يَقُولُونَ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَاسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاضِعاً إصْبَعَهُ فِي أُذُنِهِ، فَقَالَ: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيُخْطِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». فَقَالَ عَلِيٌّ: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ»^(٢).

وبالي ورد في بعض المصادر: إنّ الرجل صاح بالآية و الإمام في اثناء الصلاة، فأجابه الإمام بتلاوة الآية التي عرفتها.

١. سيوافيك ما تكلم به معهم في خاتمة المطاف .

٢. الطبري: التاريخ ٥٤/٤.

ب - تكفير عليّ وأصحابه:

أكبر كلمة كانت تصدر من أفواه الخوارج هو تكفير عليّ لأجل قبول التحكيم وكأنّه خطيئة وارتكاب الخطيئة عندهم كفر، كما هو أحد أصولهم التي نبحت عنها عند عرض عقائدهم، ويكفي في ذلك ما نقله الطبري في مذاكرة علي مع حرقوص بن زهير السعدي، وزرعة بن برج الطائي ومرّ النصّ في أوّل الفصل السابق.

وإلى هذا يشير الإمام في بعض كلامه حيث قال لهم:

«أصابكم حاصِبٌ»^(١) ولا بقی منکم أبْر^(٢)، أبعد إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله ﷺ أشهدُ على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذأ وما أنا من المهتدين، فابوا شرّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب، أما أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً و سيفاً قاطعاً وإثرة^(٣) يتخذها الظالمون فيكم سنّة^(٤).

ج - قتل الأبرياء:

و المدهش من أخبارهم أنّهم كانوا يقتلون المسلمين ويجيرون المشركين و أهل الكتاب. روى المبرّد في كامله: إنّ القوم مضوا إلى النهروان، وقد كانوا أرادوا المضي إلى المدائن فأصابوا في طريقهم مسلماً و نصرانياً، فقتلوا المسلم، لأنّه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني وقالوا:

١. الحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء.

٢. الأبر: الذي يأبر النخل أي يصلحه.

٣. الاثرة: الاستبداد عليهم بالفئ و الغنائم، قال: النبي للأَنْصار: «ستلقون بعدي إثرة فاصبروا حتى تلقوني».

٤. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨.

احفظوا ذمّة نبيّكم.

قال المبرّد: وحدث أنّ واصل بن عطاء أقبل في رفقةٍ فاحشوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب. فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت و أصحابك فقال: قوم مشركون مستجيرون بكم ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده. قالوا: قد أجرناكم، قال: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين فقد صرتم اخواننا. فقال: بل تبلغوننا مأمنا. لأنّ الله تعالى يقول: «وإنّ أحد من المشركين استجاركَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ»^(١) فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فصاروا معهم بجمعهم حتّى ابغوهم المأمّن^(٢).

ومع ذلك قتلوا عبدالله بن خباب بن الارت - كما سوافيك بيانه في الفصل القادم - وبقروا بطن زوجته المتم.

وأما السياسة الحكيمة التي مارسها الإمام ازاء أعمالهم قبل تحرّكاتهم العسكرية فقد وقفت على رؤوسها، وإليك الإيعاز إليها ثانياً ليقع مقدمة للشرح والتبيين.

١ - تبين موقفه في مسألة التحكيم، وإنه لم يكن راضياً به وفرض عليه بارهاب.

٢ - التعامل معهم كسائر المسلمين.

١. التوبة: ٦.

٢. المبرّد: الكامل ١٢٢/٢ مكتبة المعارف بيروت، وابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٨١، والمبرّد متهم - عند ابن أبي الحديد - بالميل إليهم، ولكننا سبرنا كامله، فلم نر شيئاً يدلّ عليه، غير أنّه سرد تاريخهم وفي بعض الموارد طعن بهم.

٣ - بعث الشخصيات لارجاعهم عن غيهم.

و إليك بيان كل ذلك.

١ - الإمام يبيّن موقفه من التحكيم:

قام الإمام بتبيين موقفه في مسألة التحكيم وإنه لم يكن ضاللاً في نفسه ولا كان الإمام مخادعاً، فقال في بعض كلماته:

«فلم آت لأباً لكم بجرّاً، ولا ختلتكم عن أمركم، ولا لبستكم عليكم، وإنما اجتمع رأي مَلئكم على اختيار رجلين...»^(١).

هذا نموذج من كلماته حول التحكيم حيث بيّن فيها موقفه في هذه المسألة وإنه كان طبق الكتاب و السنة فلنكتف بذلك و لنرجع الى ما بقى من السياسة الحكيمة التي مارسها معهم.

٢ - التعامل معهم كسائر المسلمين:

تعامل الإمام مع الخوارج كسائر المسلمين ولم ينقص من حقوقهم شيئاً مادام لم يشنوا الحرب عليه، روى الطبري عن كثير الحضرمي قال: قام عليّ في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل من جانب المسجد: لا حكم إلا لله، و قام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدّة رجال يحكمون، فقال عليّ: الله أكبر كلمة حقّ يراد بها باطل أما إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، و لانمنعكم الفياء مادامت أيديكم مع أيدينا، ولانقاتلكم حتّى تبدؤنا، ثمّ رجع إلى مكانه الذي كان من خطبته^(٢).

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٢. الطبري: التاريخ ٥٣/٤.

٣- بعث الشخصيات لإرجاعهم عن غيّهم:

قام الإمام بإرسال أكابر أصحابه رجاء هداية بعضهم، فبعث عبدالله بن عباس الى معسكرهم فجرى بينه و بينهم مفاوضات ذكرها المؤرّخون، قال المبرّد: إنّ أمير المؤمنين لمّا وجّه إليهم عبدالله بن عباس لينظرهم قال لهم: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين، قالوا له: قد كان للمؤمنين أمير، فلمّا حكم في دين الله خرج من الإيمان، فليتب بعد اقراره بالكفر نَعُدْ إليه، قال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك ان يقر على نفسه بالكفر، قالوا: إنّ حكمه، قال: إنّ الله أمر بالتحكيم في قتل صيد فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾^(١) فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟ فقالوا إنّ حكمه عليه فلم يرض، فقال: إنّ الحكومة كالإمامة، متى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لمّا خالفا نبذت أقاويلهما، فقال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاج قريش حجة عليهم، فإنّ هذا من الذين قال الله فيهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٢) وقال جلّ ثناءه: ﴿وَلْتُنْذِرْ بِهِ قَوْمًا لَدَا﴾^(٣).

إنّ حوار ابن عباس معهم كان حجة دامغة فقد احتجّ عليهم بالقرآن فما أجابوه بشيء . والعجب أنّهم كانوا يرون التحكيم على خلاف الكتاب و السنّة وإنّ الرضا به بمنزلة الكفر، ومع ذلك كانوا يصرون على أنّه يجب على الإمام أن يخضع لنتيجة التحكيم، فإنّ الحكمين لمّا عزلاه عن مقام الحكومة يجب عليه التنازل. فما هذا التناقض بين المبدأ والنتيجة، والتحكيم عندهم كفر وزندقة ولكن

١. المائدة: ٩٥.

٢. الزخرف: ٥٨.

٣. مريم: ٩٧.

الأخذ بنتيجته عين التوحيد و التدبّين، كل ذلك يعرب عن وجود العمى في القلوب و الصمم في الأسماع .

ثم إنّ الإمام لم يكتف ببعث ابن عمه بل قام بنفسه بهذا الأمر الخطير، فركب عليّاً إلى حروراء، فخطبهم بقوله: ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لمّا رفعوا المصاحف، قلت لكم إنّ هذه مكيدة ووهن، و أنّهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لآتوني وسألوني التحكيم؟ أفتعلمون أنّ أحداً كان أكره للتحكيم منّي؟ قالوا: صدقت، قال: فهل تعلمون أنّكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه، فاشتترطت أنّ حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه، فأنا و أنتم من ذلك براء، و أنتم تعلمون أنّ حكم الله لا يعدوني، قالوا: اللهم نعم، قال: و كان معهم في ذلك الوقت ابن الكواء (قال: و هذا من قبل أن يذبخوا عبدالله بن خباب، وأنما ذبحوه في الفرقة الثانية بـ «كسكراه») فقالوا له: حكمت في دين الله برأينا ونحن مقرّون بأنّا كنّا كفرنا، و لكنّا الآن تائبون فأقِرّ بمثل ما أقررنا به، وتب ننهض معك إلى الشام، فقال: «أما تعلمون أنّ الله تعالى قد أمر بالتحكيم في شقاق بين رجل وامرأته»، فقال سبحانه: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وفي صيد اصيب كأرنب يساوي نصف درهم فقال ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ .

فقالوا له: فإنّ عمراً لمّا أبى عليك أن تقول في كتابك: «هذا ما كتبه عبدالله علي أمير المؤمنين» محوت اسمك من الخلافة و كتبت «علي بن أبي طالب» فقد خلعت نفسك، فقال: لي في رسول الله ﷺ أسوة حين أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب: «هذا كتاب كتبه محمّد رسول الله ﷺ و سهيل بن عمرو» وقال له: لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك، ولكنّي أقدمك لفضلك، فاكتب «محمّد بن عبدالله»

فقال لي: يا علي، امح «رسول الله» فقلت: يا رسول الله لا تسخو نفسي على محو اسمك في النبوة فقال: قفني عليه، فمحاه بيده، ثم قال: «اكتب محمد بن عبدالله» ثم تبسم إليّ وقال: يا عليّ، أما أنتك ستسام مثلها فتعطي، فرجع معه منهم ألفان من حروراء وقد كانوا تجمّعوا بها فقال لهم عليّ عليه السلام مانسميكم؟ ثم قال: أنتم الحرورية، لاجتماعكم بحروراء^(١).

وللامام خطبة أخرى بيّن فيها شبهة الخوارج و أجاب عنها بشكل واضح، فمن أراد فليرجع إلى «نهج البلاغة»^(٢).

هذا بعض ما مارسه الإمام تجاه غيهم و كلّها تكشف عن سعة صدره، وقوّة صبره، و إخلاصه في الدين، و لكنّ القوم تمادوا في طغيانهم و أعادوا في خواتيم أمرهم، ما تظاهروا به في بدء غوايتهم، غير أنّهم لم يكتفوا به فأراقوا دماء طاهرة، فلم يكن بدّ للامام من قطع مادة الفساد، فما قام بالمواجهة المسلّحة إلّا بعدما بذل كل ما في وسعه من النصّح و الإرشاد، و بعد أن بلغ السيل الزبى، فردّ الحجر من حيث جاء.

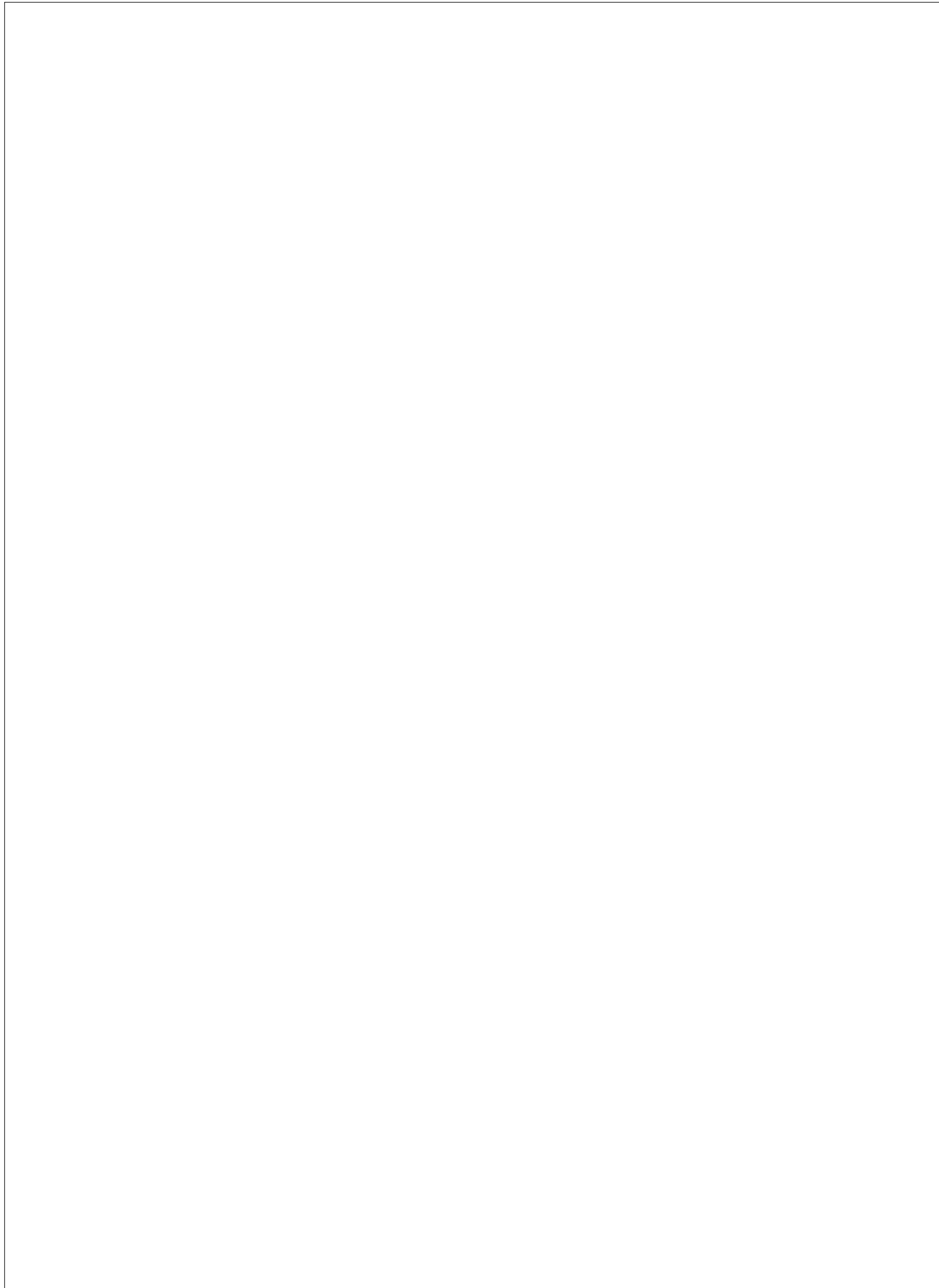
١. المبرّد: الكامل ١٣٥/٢-١٣٦ ط مكتبة المعارف و له كلام معهم ذكره المبرّد أيضاً في ١٥٦/٢. نأتي به عند محاكمة

الأشعث فانتظر، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢٧٤/٢-٢٧٥.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

الفصل الخامس

موقف الإمام من رأي الحكمين



لقد صالح الامام معاوية و أوكل الأمر الى الحكمين في ثلاثة عشر خلت من شهر صفر عام ٣٧ من الهجرة، و اتفقا على أن الحكمين يجتمعان بدومة الجندل ليرفعا ما رفع القرآن، و يُخَفِّضَا ما خَفَّضَ القرآن، وقد اجتمعا هناك في شعبان ذلك العام، و كانت النتيجة أن خلع أبو موسى الإمام عن الخلافة، و نصب عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان إماماً للمسلمين، كل ذلك بخداع معروف في التاريخ، حيث اتفقا سراً على أن يخلعا علياً و معاوية عن الحكم حتى يولي المسلمون لأنفسهم والياً، ولمّا أرادا الإدلاء برأييهما خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري فقال له: تقدّم وأدل برأيك، فقال: يا أيّها الناس إنّنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرأصلح لأمرها، و لا ألّمّ لشعثها من أمر قد جمع رأيي ورأي عمرو عليه، و هو أن نخلع علياً و معاوية و تستقبل هذه الأمة الأمر فيولّوا منهم من أحبّوا عليهم، وائي قد خلعت علياً و معاوية فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً، ثم تنحّى و أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمدالله و أثنى عليه و قال: إنّ هذا قد قال ما سمتعم و خلع صاحبه و أنا أخلع صاحبه كما خلعه و أثبتّ صاحبي معاوية فإنّه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه

والطالب بدمه و أحقّ الناس بمقامه، فقال أبو موسى: مالك لا وفّقك الله غدرت و فجرت^(١) إنّما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنّما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، و حمل شريح بن هاني على عمرو فقنعه بالسوط و حمل على شريح ابن لعمر و فضربه بالسوط، و قام الناس فحجزوا بينهم، وكان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهر مأتى، و التمس أهل الشام أبا موسى فركب راحلته و لحق بمكة، قال ابن عباس: قبح الله رأي أبي موسى حذرته و أمرته بالرأي فما عقل، فكان أبو موسى يقول: حذرني ابن عباس غدره الفاسق و لكنّي إطمأننت إليه و ظننت أنّه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة، ثم انصرف عمرو و أهل الشام الى معاوية و سلّموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس و شريح بن هاني الى علي عليه السلام و كان إذا صلى الغداة يَفْتَنُ فيقول: اللَّهُمَّ إِنْ عِنَ مُعَاوِيَةَ وَ عَمْرًا وَ أَبَا الْأَعْوَرِ السَّلْمِيِّ وَ حَبِيبًا وَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ وَ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ وَ الْوَلِيدَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَكَانَ إِذَا قَنَتَ لَعَنَ عَلِيًّا وَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَ الْأَشْثَرَ وَ حَسَنًا وَ حُسَيْنًا.

وزعم الواقدي أنّ اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ٣٨ من الهجرة^(٢). لمّا بلغ علياً ما جرى بين الحكمين من الحكم على خلاف كتاب الله و سنّة رسوله و غدر عمرو بن العاص و انخداع أبي موسى قام خطيباً، رافضاً ما حكم به الحكمان الجائران، وقال:

١. هذا من الصحابة العدول عند القوم، فاقض ما أنت قاض فهذا الصحابي يصف زميله بالفجور و الغدر، و الجمهور يصفون الجميع بالتقى و العدل .

٢. الطبري: ٥١/٤-٥٢. و ما نقله عن الواقدي غير صحيح لما عرفت سابقاً: أنّه كان اللازم على الحكمين الإدلاء برأيهما قبل انقضاء موسم الحج و قد اتفق الطرفان في صفر عام ٣٧. فكيف يكون الاجتماع عام ٣٨؟.

«الحمد لله و إن أتى الدهر بالخطب الفادح، و الحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، و أن محمداً عبده و رسوله، صلى الله عليه».

أمّا بعد: فإنّ معصية الناصح، الشفيق العالم، المجرب، تورث الحسرة، و تعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، و نخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، و المنابذين العصاة، حتّى ارتاب الناصح بنصحه، و ضنّ الزنّد بقُدّحه، فكنت أنا و إياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلّا ضحى الغد^(١)

صدق الإمام، إنّ من الخطب الفادح، و الحدث الجليل، خلع صديق الأمة و أول من آمن برسالة النبي الأكرم و صدّق به و بات في فراشه، دفعاً لريب المنون، و جاهد في سبيل الله بنفسه و نفيسه و شهد المعارك كلها إلّا تبوك، (و كان ذلك بأمر النبي)، الى غير ذلك من فضائل و مناقب و مآثر جمّة اعترف بها الصديق و العدو و القريب و النائي .

إنّه من المصائب العظام نصب معاوية بن أبي سفيان الطليق بن الطليق، ابن آكلة الأكباد، للخلافة و الزعامة الإسلامية، و أنّى هو من الإسلام، و هو ثمرة الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن، أو ليس هذا من أدهى الدواهي؟ ولاجل ذلك نرى أنّ الإمام يصف تلك الحادثة المريرة، بالخطب الفادح و الحديث الجليل.

هذا ما يرجع الى نفس الخلع و النصب وأمّا ما كان يرجع الى الحكمين فكان عليهما قبل ادلاء الرأي في حقّ عليّ و معاوية، دراسة الأسباب التي أدّت

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٣٥.

الى إشعال نار الفتنة و اراقه الدماء الطاهرة حيث أسفرت حرب صفين عن مقتل خمسة وأربعين ألف نفر من جيش معاوية، و شهادة خمسة و عشرين ألف نفر من جيش الإمام علي بن أبي طالب^(١) كل ذلك لأجل الأخذ بثأر شخص واحد، أفصح في ميزان العدل و النصفة أن تزهد هذه النفوس كلها مقابل ذلك؟ فهل كان الأساس لشنّ الحروب على عليّعليه السلام هو حكم القرآن الكريم و السنّة النبويّة؟ وهل هما يسوّغان لأخذ ثأر انسان واحد، ارتكاب تلك الجنايات الهائلة؟ أو أنه كان أخذ الثأر واجبة لما يطمح إليه معاوية من دفع الإمام عن مقامه و ركوبه منصّة الخلافة، أو إلجاء عليّ إلى ابقاء ابن الطلقاء في المقام الذي كان يُشغله طيلة خلافة الخليفين كما طلبه من الإمام قبل الحرب و خلالها؟

كان على الحكمين دراسة المواضيع التالية حتى يتبين من له الحق عمّن عليه و هي:

- ١ - دراسة الأسباب التي أدّت الى قتل الخليفة عثمان، وهل كان هناك مبرر لقتله أو لا؟
- ٢ - إنّ قيادة الإمام بعد قتل عثمان هل كانت قيادة قانونية و شرعية، حيث بايعه المهاجرون و الأنصار و تمت البيعة له في مسجد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بمراي و مسمع من الناس من دون أيّ جبر و إكراه؟! و لم تكن هناك بيعة أصلاً، أو كانت البيعة عن إكراه لاعن اختيار؟
- ٣ - اذا خرج الباحث من دراسة الأمر الثاني بأنّ قيادة الإمام كانت قيادة شرعية هل كان هناك مبرر لمعاوية لرفض بيعة المهاجرين و الأنصار، و تأخير بيعته الى أن يقوم بأخذ الثأر، ويدفع الإمام إليه قتلة الخليفة و كأنّه هو الخليفة

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٦٤٣.

- معاوية :-؟ و هل يكون معاوية بعمله و رفضه و خروجه باغياً على الإمام المفترض طاعته و قد جاء حكم الباغي في الذكر الحكيم^(١).

أو كان على معاوية أن يدخل في جماعة المسلمين و لا يشق عصاهم بالتقاعس عنه، ثم يرفع الخصومة الى صاحب البيعة فيرى رأيه.

٤ - اذا ثبت أنّ عثمان قتل مظلوماً في عقر داره و أنّه يجب أخذ ثاره من قتلته، فعندئذ يقع الكلام في أنّ أخذ الثار هل هو وظيفة الخليفة أو وظيفة معاوية أو لا هذا ولا ذاك، وإِنّما هو راجع الى ولد عثمان؟

٥ - نفترض أنّ أخذ الثار وظيفة الإمام، فهل كان - صلوات الله عليه - قادراً على تنفيذ حكم القصاص أو كانت الظروف السائدة لا تسمح بذلك؟

٦ - اذا كان طلحة و الزبير في نكث البيعة، و في اخراج زوجة الرسول من بيتها - وقد امرت بالمكث فيه - وفي اخراج عامل الإمام من البصرة و قتل حرسه الى غير ذلك من الأمور التي أدّت الى حرب الجمل، اذا كانا في هذه الأمور معذورين، مجتهدين، و ان كانا مخطئين، فهل يصحّ تبرير عمل قتلة عثمان بالخطأ في الاجتهاد أو لا؟

٧ - و على فرض لزوم الاقتصاص و رفض اجتهادهم فهل لخليفة العصر، العفو عن القصاص و ابداله بالدية كما فعله عثمان في حقّ عبيدالله بن عمر حين قتل هرمزان، و جفينة بنت أبي لؤلؤ بلا ذنب؟^(٢).

هذه هي المواضع الهامة التي كانت دراستها أمراً مفروضاً على الحكمين حتّى يخرجوا مرفوعي الرأس محيين ما أحياه القرآن و مميتين ما أمت، غير أنّ الحكمين - يالأسف - لم يَنبَسا فيها ببنت شفة ومراً عليها مرور اللثام و لكن

١. الحجرات: ٩.

٢. الطبري: التاريخ ٣/٣٠٥.

لا محيص للباحث المحقق عن قيمة رأي الحكمين من دراستها، ولأجل ذلك نبحت عنها بإيجاز، حتّى يقف القارئ على أنّ رأي الحكمين كما وصف أمير المؤمنين كان خطباً فادحاً و اليك دراستها:

إنّ دراستها على وجه التحقيق تحوجنا الى تأليف مفرد لايناسب وضع الكتاب، غير أنّا نشير إليها إشارة عابرة، و نلمع إليها إلماعاً بسيطاً.

أولاً: قد تعرّفت على بعض الأسباب التي أدّت الى قتل الخليفة و الفتك به، و إنّ الاستبداد بالرأي، و تسليط بني أميّة على رقاب الناس، و تخصيص كمّيّة هائلة من بيت المال لأصحاب الترف و البذخ من أبناء بيته، و تسيير صلحاء الأمّة من الصحابة و التابعين عن المدينة المنورة إلى منافيهم، و أخيراً تعدّي عمّاله و ولاته في العراق و مصر على الطبقات الوسطى، و الفقيرة من المجتمع و.... كل هذه أدّت إلى انتشار السخط و الغضب على الخليفة و عمّاله إلى أن جنى ثمرة عمله فقتل في عقر داره و بين أبنائه و نسائه بمرأى و مسمع من المهاجرين و الأنصار، و هم بين مجهز عليه، و مؤلّب و راض و محايد. و القضاء في مثل هذه المسألة من صلاحية لجنة عارفة بالكتاب و السنّة، واقفة على حياة الخليفة و ما قام به من الأعمال، و ما نجم عليه من الأفعال حتى تصدر - بعد سماع حجج الثائرين - عن مصدر قويم و مثل هذه المشكلة لا تحل عقدتها في ساحة الحرب، بل في جوّ هادئ، يكون القاضي فيه مستقلاً في الرأي، و حرّاً في التفكير و التعبير، و نحن لاندخل في هذه المعركة الخطيرة، نترك القضاء فيها إلى تلك اللجنة الخبيرة و نعطف عنان البحث إلى الموضوع الثاني.

ثانياً: إنّ من سبر التاريخ يقف على أنّ بيعة الإمام كانت بيعة شعبية جماهيرية، ولم يكن لها مثيل في تاريخ الخلافة الإسلامية، فإذا قلت:

لم يكن لها مثيل في تاريخ الخلافة فإنّما أقولها عن بيّنة و دليل فإنّ الخليفة

الأول قد خرج عن السقيفة ببيعة لفيف من المهاجرين من الأنصار و تخلف عن بيعته بنو هاشم و الخزرجيون عامة.

كما انّ عمر بن الخطاب تسنّم منصة الخلافة بإيضاء من الخليفة و لم يكن هناك للناس أيّ رأي ولا اختيار.

و قد كانت خلافة عثمان بانتخاب الشورى التي عيّن أعضاها الخليفة الثاني ولم يكن للمهاجرين و الأنصار أيّ نظر في تعيين تلك الشورى .

فإذا كان كلّ ذلك معطياً للخلافة، الصبغة القانونية، فبيعة المهاجرين و الأنصار عليّاً هاتفين بأنّهم لا يختارون غيره و فيهم الرعيل الأول من صحابة الرسول و التابعين لهم بإحسان، أولى بأن تكون شرعية و قانونية. و اتفق الباحثون عن كيفية انعقاد الامامة لرجل، على انّ بيعة أهل الحل و العقد من أهل المدينة حجة على عامّة المسلمين.

يروى الطبري عن محمد بن الحنفية قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان رضي الله عنه فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول الله فقالوا: إنّ هذا الرجل قد قتل، ولا بدّ للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، ولا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: لا تفعلوا، فإنّي أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتّى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خفيّة، ولا تكون إلّا عن رضى المسلمين، قال: سالم بن أبي الجعد: فقال عبدالله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه، فأبى هو إلّا المسجد، فلمّا دخل، دخل عليه المهاجرون و الأنصار فبايعوه ثم بايعه الناس^(١).

وقد حفظ التاريخ أسماء المتخلفين عن بيعة علي وهم نفر يسير لا يتجاوز

١. الطبري: التاريخ ٤٥٠/٣.

العشرة و هذا يدل على أنّ جوّ البيعة كان هادئاً حراً، ولم يكن هناك أيّ ضغط و إجبار، فبايعت الجماهير، و تخلّفت عدة قليلة كانت عثمانية الهوى كحسان بن ثابت، و كعب بن مالك، و مسلمة بن مخلد، و زيد بن ثابت، و النعمان بن البشير، و محمّد بن مسلمة، و رافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، و كعب بن عجرة.

يقول الطبري: أمّا حسان فقد كان شاعراً لا يبالى ما يصنع، وأمّا زيد بن ثابت فلولاه عثمان الديوان و بيت المال فلمّا حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين، فقال أبو أيّوب: ما تنصره إلا أنّه أكثر لك من العضدات، فأمّا كعب بن مالك فاستعمله على صدقة المدينة و ترك مأخذ منهم له^(١).

ولاأظن أنّه يوجد على أديم الأرض انتخاب جماهيري لقائد، لا يوجد فيه مخالف شاذ يأبى عن البيعة لدوافع شخصيّة.

وقد تعرفت فيما سبق على كلمات الإمام و نزيد في المقام قوله مخاطباً طلحة و الزبير: والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتوني إليها و حملتموني عليها^(٢).

ثالثاً: إذا خرجنا بهذه النتيجة: إنّ بيعة الإمام كانت بيعة شرعية قانونية أطبق عليها المهاجرون و الأنصار، فلاي مبرر يرفض معاوية عليّ و يؤخّر البيعة و يرفع قميص عثمان مطالباً بالثار؟ ولأجل ذلك نرى الإمام يُنذّده و يبيّن موقفه من بيعته و يكتب اليه قائلاً: إنّّه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر و عمر و عثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، إنّما الشورى للمهاجرين و الأنصار، فإن اجتمعوا على رجل و سمّوه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه،

١. الطبري: التاريخ ٤٥٢/٣.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.

فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى^(١).

رابعاً: لو خرج الباحث بهذه النتيجة و هو أن عثمان قتل مظلوماً في عقر داره، وأنه يجب أخذ ثأره من قَتَلْتَهُ، فلا شك أن ذلك حق وليّ الدم، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾^(٢) فهل كان معاوية وليّ الدم، أو أن وليّ الدم أولاد المقتول و إن نزلوا. إن معاوية حسب المقاييس الشرعية لم يكن وليّ الدم و إنما أولياؤه ولده فلهم حق القصاص، ولكن لا ينالون حقهم إلا برفع الأمر الى المحكمة الصالحة لتنظر في أمرهم. ولو عجزت المحكمة، فلهم الاستنجد بغيرهم، لا في بدء الأمر، ولأجل ذلك نرى أن الإمام يُنَدِّد بقيامه بأخذ الثأر ولا يراه صالحاً لهذا الأمر ويكتب الى معاوية: «زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان»: ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، و ما كان الله ليجمعهم على ضلال، ولا ليضربهم بالعمى و بعد فما أنت و عثمان، إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ^(٣).

وفي لفظ ابن قتيبة: أمّا قولك ادفع إليّ قتلة عثمان، فما أنت وذاك؟ وهاهنا بنو عثمان، و هم أولى بذلك منك، فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم فارجع الى البيعة التي لزمته و حاكم القوم إليّ^(٤).

خامساً: إذا خرجنا بهذه النتيجة، أن أخذ الثأر و إن كان حقاً ثابتاً لأولياء

١. الرضي: نهج البلاغة قسم الكتب برقم ٦ وفي ذيل الكتاب إشارة الى قوله سبحانه ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾...

النساء: ١١٥.

٢. الاسراء: ٣٣.

٣. الميرد: الكامل ١٩٤/١ مكتبة المعارف بيروت.

٤. ابن قتيبة: الامامة والسياسة ٨٨/١.

الدم، لكنهم لا يقومون بأخذ حقهم مباشرة، بل اللازم عليهم رفع الشكوى الى المحاكم الصالحة التي أقامها وليّ المسلمين أعني الخليفة المفترض طاعته، وإلا فلو قام وليّ الدم بالقصاص و أخذ الحق مباشرة، لزم الفوضى في المجتمع، كما هو واضح لكل من له إلمام بالمسائل الاجتماعية، فإذا كان هذا حقاً ثابتاً للإمام، فهل كان الإمام قادراً على تنفيذ حكم القصاص في حق أولئك الثائرين، أو كانت الظروف لا تساعد إجراء الحكم، ولا تعلم حقيقة الحال إلا بدراسة الموضوع تاريخياً، فإنه يشهد على أنّ الثائرين لم يكونوا أشخاصاً معيّنين، بل كانت هناك انتفاضة شعبية مختلطة من الكوفيين والبصريين والمصريين، والمدنيين، وقد حاصروا بيت الخليفة قرابة أربعين يوماً، ولم يكن في وسع أصحاب النبي رفع هذا الحصار أو تقويضه إلى أن حدثت حوادث مريعة أدّت إلى الهجوم العنيف على داره، وقد بلغ المهاجمون من الكثرة ما لا يحصيه أحد، ويعلم صحّة ذلك من الأمر التالي:

إنّ أبا مسلم الخولاني قام إلى معاوية في أناس من قرّاء أهل الشام قبل مسير أمير المؤمنين إلى صفين فقالوا له: يا معاوية علامَ تقاتل عليّاً وليس لك مثل صحبتته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟ قال معاوية لهم: ما أقاتل عليّاً وأنا أدعي أنّ لي في الإسلام مثل صحبتته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ولكن خبروني عنكم: أستم تعلمون أنّ عثمان قتل مظلوماً؟ قالوا: بلى. قال: فليدع إلينا قتلته، فنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه. قالوا: فاكتب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا، فكتب إلى عليّ هذا الكتاب مع أبي مسلم الخولاني فقدم به على عليّ ثم قام أبو مسلم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد فإنّك قد قمت بأمر وتوليّته، والله ما أحبّ أنّه لغيرك، أن أعطيت الحق من نفسك، إنّ عثمان قتل مسلماً، محرماً، مظلوماً، فادفع إلينا قتلته، و أنت أميرنا، فإن خالفك أحد من

الناس كانت أيدينا لك ناصراً، وألسنتنا لك شاهداً، و كنت ذا عذر وحجة.

فقال له علي: اغدُ عَلَيَّ غداً، فخذ جواب كتابك، فانصرف ثم رجع من الغد ليأخذ جواب كتابه فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه، فلبست الشيعة أسلحتها ثم غدوا فملأوا المسجد و أخذوا ينادون: كلنا قتل ابن عفان، وأكثرنا من النداء بذلك، وأذن لأبي مسلم فدخل على علي أمير المؤمنين فدفع إليه جواب كتاب معاوية، فقال له أبو مسلم: قد رأيت قوماً مالك معهم أمر. قال: وما ذاك؟ قال: بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان، فضجوا و اجتمعوا و لبسوا السلاح و زعموا أنهم كلهم قتلة عثمان، فقال علي: والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين، لقد ضربت هذا الأمر أنفه و عينيه، مارأيتَه ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك.^(١)

نحن نفترض ان بعض من لبس السلاح في هذه الواقعة لم يكونوا من المهاجمين، أو المؤلّبين، أو المجهزين، لكن تواجد هذه الكمية الهائلة من المتبئين لهذه الفكرة في الكوفة، فضلاً عن أبناء جلدتهم في البصرة و المدينة، المؤيدين المتفرقين في بلادهم، يدل على أنّ المسألة صارت أزمة اجتماعية معقدة، ولم يكن الإمام متمكناً من دفع من قام بالقتل إلى ولي الدم.

ويعرب عن ذلك كلام الإمام للناكثين، فقد دخل طلحة و الزبير في عدة من الصحابة، فقال: يا عليّ إنّنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلّوا بأنفسهم، فقال لهم: يا اخوتاه، إنّني لست أجعل ما تعلمون، ولكنني كيف أصنع بقوم يملكونا، ولا نملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم، يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء ممّا تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٩٥-٩٧.

والله لا أرى إلّا رأياً ترونه إن شاء الله (١).

فعلى هذا فلم تكن للإمام يوم بويح ولا بعده ولا بعد شهر، أية مقدرة على القاء القبض على القاتلين، وإلا لثارت تلك الجماهير على عليّ وخلافته الفتيّة، وكانت المصيبة أعظم.

سادساً: لاشكّ أنّ طلحة و الزبير نكثا البيعة و أخرجوا زوجة رسول الله من بيتها، وقد دخلوا البصرة بعنف وقتلوا حرس القصر، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يشكّ فيها أيّ ملّم بالتاريخ، ولكن القوم يذكرون الرجلين بخير و صلاح و يسترحمون عليهما و يرونهما من العشرة المبشرة بالجنة ولا يرون أعمالهم الإجرامية مخالفة لطهارتهما، ويبررون أعمالهم بالاجتهاد كما يبررون به عمل معاوية و غيرهم من المجرمين الطغاة حتى عمل مسلم بن عقبة ذلك الطاعي الذي أباح أعراض نساء المدينة لجيشه ثلاثة أيام.

فلو صحّ ذلك التبرير فلماذا لا يصحّ في حق هؤلاء الذين هاجموا بيت الخليفة و أجهزوا عليه؟ فكانوا مجتهدين في الرأي، مخطئين في النتيجة، فلهم أجر واحد، كما أنّ للمصيب أجرين؟. ولكن لا نرى أية كلمة حول هؤلاء يبرر بها عملهم، فما هذا التفريق بين المتماثلين؟ ولماذا تُقيّم الأمور بمكيالين.

سابعاً: نقل المؤرّخون أنّه لما قتل عمر، وثب عبيدالله بن عمر فقتل الهرمزان و ابنة أبي لؤلؤ، فلما بلغ الخبر عمر، قال: إذا أنا متّ فاسألوا عبيدالله البيّنة على الهرمزان، هل هو قتلني؟ فإن أقام البيّنة فدمه بدمي، و إن لم يقدّم البيّنة فأقيدوا عبيدالله من الهرمزان، فلما ولي عثمان رضي الله عنه قيل له: ألا تمضي وصيّة عمر رضي الله عنه في عبيدالله؟ قال: و من وليّ الهرمزان؟ قالوا:

أنت يا أمير المؤمنين قال: قد عفوت عن عبيد الله بن عمر^(١).

إنِّي لا أريد أن أحوم حول هذه القصة، كيف وقد نقم به على الخليفة حيث عطّل القصاص إذ قتل عبيد الله رجلاً يصلي وصيبة صغيرة، ومع ذلك عفى عنه الخليفة لسبب عاطفي أو غيره، فلم لا يجوز ذلك للإمام علي^(عليه السلام) وقد رأى أنّ في القود مفسدة عظيمة على الاسلام و المسلمين؟ وإنّ جبر دم الخليفة بالدية أصلح من القصاص و القود.

هذه هي المواضيع الهامة التي كانت من المفترض دراستها و القضاء فيها، ثم الخروج بنتيجة صحيحة عن الحكومة، غير أنّ الحكمين جعلها وراء ظهورهما، ولم ينبس فيها ببنت شفة، بل كان هوى أبي موسى الأشعري مع عبدالله بن عمر، و كان هوى عمرو بن العاص مع معاوية، فلنتعرف على عبدالله بن عمر، ثم عمرو بن العاص:

أمّا عبدالله بن عمر فكفى في ضعف نفسه أنّه لمّا وليّ الحجاج الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان جاءه ليلاً لبياعه، فقال له الحجاج ما أعجلك؟ فقال: سمعت رسول الله يقول: من مات بغير امام مات ميتة جاهلية^(٢) فقال له: إنّ يدي مشغولة عنك، و كان يكتب، فدونك رجلي، فمسح على رجله و خرج، فقال الحجاج: يا أحمق. تترك بيعة علي بن أبي طالب و تأتيني مبايعاً في ليلة؟ و ما هذا إلّا أنّ الخوف من السيف جاءك إلى هنا^(٣).

وأمّا عمرو، و ما أدراك ما عمرو؟ ذلك الانسان الذي عزّفه الامام بقوله:

١. البيهقي: السنن الكبرى ٦١/٨. ولاحظ الطبري: التاريخ ٣٠٣/٣.

٢. الهيثمي: مجمع الزوائد ٢١٨/٥. الطيالسي: المسند ٢٥٩ وللحديث صور أخرى.

٣. أبو جعفر الاسكافي: المعيار و الموازنة ٢٤. وابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢٤٢/١٣. عبدالله المامقاني: تنقيح المقال برقم ٦٩٨٩.

متى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً^(١)، فكان هواه مع معاوية لموعدة وعدها إِيَّاه وهي ولاية مصر و قد تحدّث عنها المؤرّخون في قصّة طويلة حيث قال معاوية له: وهلمّ فبايعني، فقال عمرو: لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك. قال معاوية: سل، تعط، قال: مصر طعمة^(٢).

وروى ابن مزاحم قال: قال معاوية لعمرو: إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربّه، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة وقطع الرحم.

قال عمرو: إلى من؟ قال: إلى جهاد عليّ، قال: فقال عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعلي بعلمي بعير، مالك هجرته ولا سابقته، ولا طول جهاده، ولا فقهه، ولا علمه، والله إنّ له ذلك حدّاً وجداً و حظاً و حظوةً، وبلاءاً من الله حسناً، فما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغرر و الخطر؟ قال: حكمك. قال: مصر طعمة، قال: فتلكاً عليه معاوية.

قال نصر: وفي حديث آخر، قال: قال له معاوية: يا أبا عبد الله، إني أكره أن يتحدّث العرب عنك أنّك إنّما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. قال: دعني عنك. قال معاوية: إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت. قال عمرو: لا لعمراً لله، ما مثلي يخدع، لأنّا أكيّس من ذلك. قال له معاوية: أدن منّي برأسك أسارك. قال: فدنامنه عمرو يسارّه. فعضّ معاوية أذنه و قال: هذه خدعة، هل ترى في بيتك أحداً غيري وغيرك؟^(٣).

قال ابن أبي الحديد بعد هذا: «قلت: قال شيخنا أبو القاسم البلخي رحمته الله: قال عمرو: «دعنا عنك» كناية عن الإلحاد بل تصريح

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٣.

٢. ابن قتيبة: الامامة والسياسة ٩١/١. مضى النص فلاحظ تعليقنا عليه.

٣. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٣.

به، أي دع هذا الكلام الذي لا أصل له فإنّ الاعتقاد بالآخرة وأنها لا تباع بعرض من الدنيا، من الخرافات. قال ﷺ: «وما زال عمرو بن العاص ملحداً ما تردّد قط في الإلحاد و الزندقة، و كان معاوية مثله و يكفي في تلاعبهما بالإسلام حديث السرار المروي^(١) وإنّ معاوية عضّ أذن عمرو، أين هذا من أخلاق علي عليه السلام و شدّته في ذات الله، و هما مع ذلك يعيبانه بالدعابة^(٢)».

خلاصة البحث:

ما كانت دراسة جميع هذه المواضيع أمراً صعباً على الحكمين، بل في دراسة الموضوع الأول من المواضيع السبعة كفاية للإدلاء بالحق، وذلك إنّه إذا كانت خلافة الإمام خلافة قانونية شرعية، فالخارج عليها باغ على الإمام يجري عليه حكم البغاة أولاً و تابع لغير سبيل المؤمنين، و خارق للإجماع ثانياً، وقد قال سبحانه في حق هؤلاء:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣).

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾^(٤).

ولا عجب بعد ذلك أنا نرى أنّ الإمام يصف حكم الحكمين بقوله: «فقد خالفنا كتاب الله و اتّبعنا أهواءهما بغير هدى من الله فلم يعملوا بالسنة ولم ينفذوا للقرآن حكماً»^(٥).

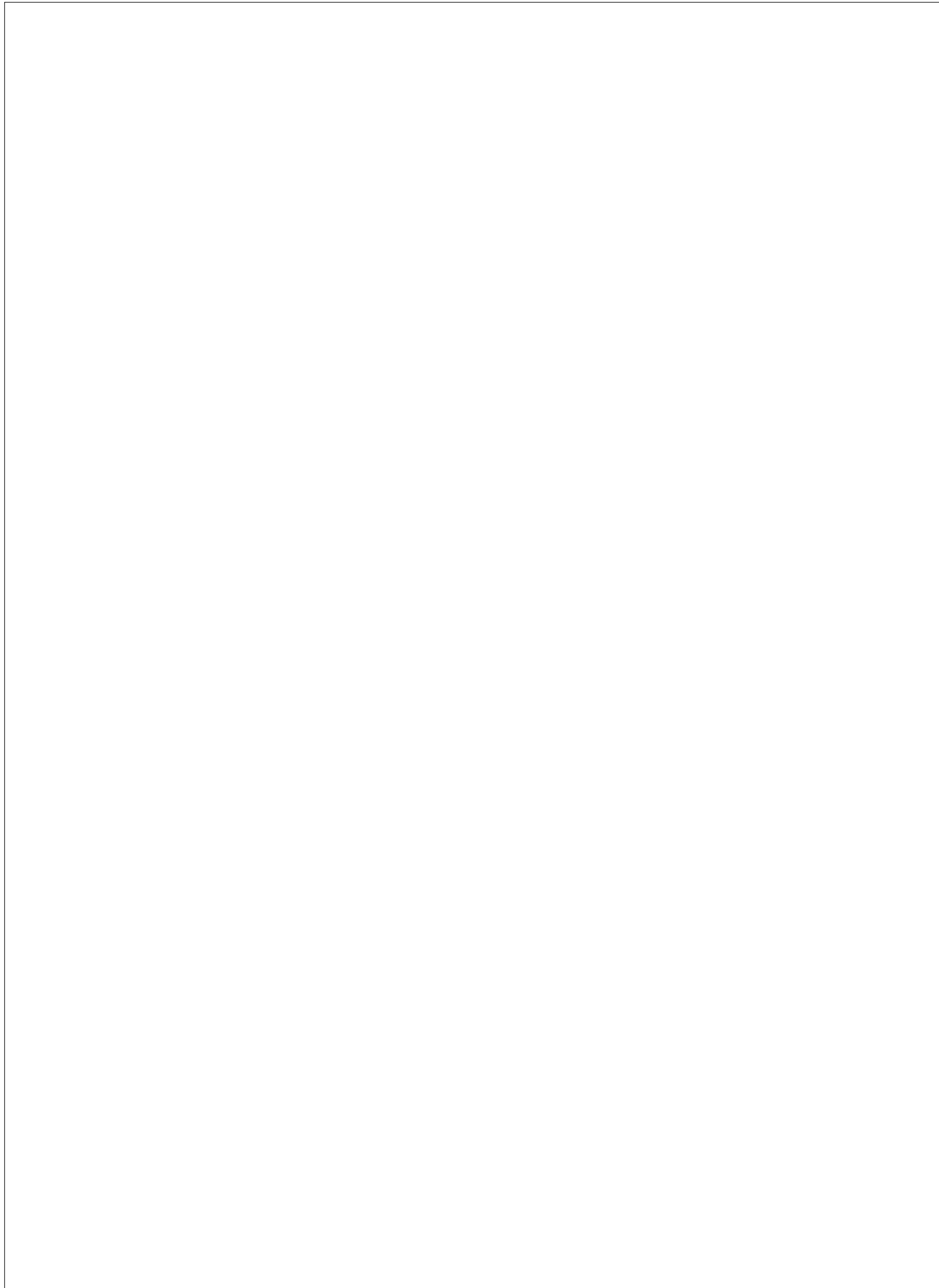
١. المراد ما سبق في كلام ابن مزاحم.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٦٤-٦٥.

٣. النساء: ١١٥.

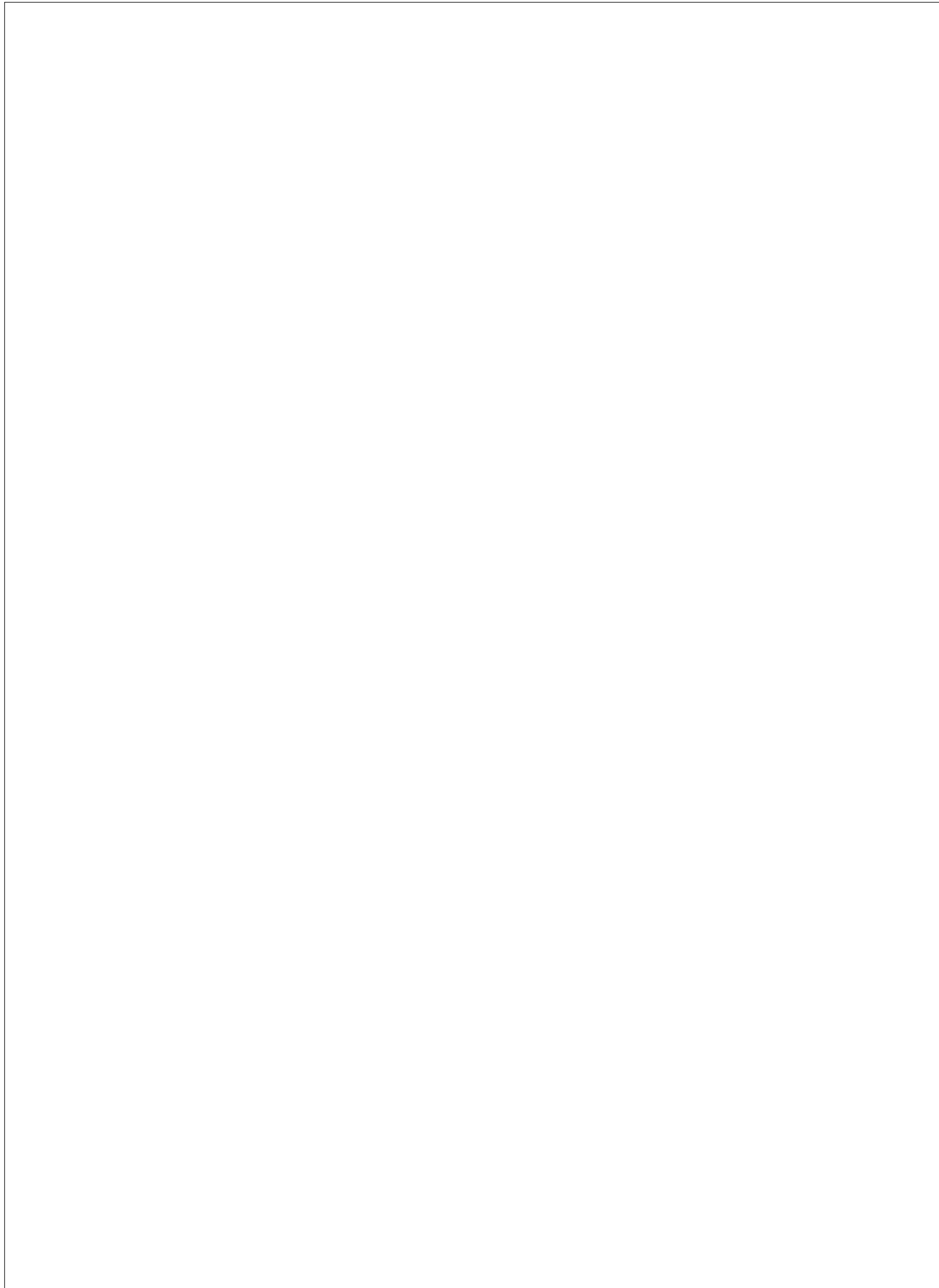
٤. الحجرات: ٩.

٥. الطبري: التاريخ ٤/٥٧.



الفصل السادس

تحرّكاتهم العسكرية بعد صدور رأي الحكمين



ولمّا بلغ الإمام ما حكم به الحكمان من الحكم الجائر، قام خطيباً وقال ألا أنّ هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن، واتّبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بيّنة، ولا سنّة ماضية، و اختلفا في حكمهما، و كلاهما لم يرشدا، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. استعدّوا وتأهبوا للمسير إلى الشام، واصبحوا في معسكركم إن شاء الله، ثم نزل وكتب إلى الخوارج بالنهر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله علي أميرالمؤمنين إلى زيد بن حصين^(١) وعبدالله بن وهب و من معهما من الناس. أمّا بعد فإنّ هذين الرجلين الذين ارتضينا حكمهما، قد خالفا كتاب الله، واتّبعوا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملوا بالسنّة، ولم ينفّذا للقرآن حكماً، فبرىء الله ورسوله

١. وهذا الرجل من الذين فرضوا التحكيم على الإمام و جاء هو مع مسعر بن فدكي بزهاء عشرين ألفاً مقلّعين في الحديد، شاكي السلاح، سيوفهم على عواتقهم وقد اسودّت جباههم من السجود... نادوا الامام باسمه لا يا ميرة المؤمنين: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه... لاحظ: وقعة صفين ٥٦٠ وقد مرّ النصّ أيضاً.

منهما والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا، فإنّا صائرّون إلى عدوّنا وعدوّكم، ونحن على الأمر الذي كنّا عليه، والسلام»^(١).

كان المترقّب من الخوارج إجابة علي عليه السلام والخروج معه إلى قتال معاوية لأنّهم هم الذين كانوا يقولون لعلي عليه السلام: «تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدوّنا نقاتلهم حتى نلقى ربّنا»^(٢).

ولكنّهم - يا للأسف - لم يستجيبوا إلى دعوة علي عليه السلام وكتبوا إليه: «أمّا بعد فإنّك لم تغضب لربّك، إنّما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء. إنّ الله لا يحبّ الخائنين». فلما قرأ كتابهم آيس منهم فرأى أن يدعهم و يمضي بالناس إلى أهل الشام حتّى يلقاهم فيناجزهم، فنزل بالنخيلة، وقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد فإنّه من ترك الجهاد في الله، وادهن في أمره كان على شفا هلكة، إلا أن يتداركه الله بنعمة، فاتّقوا الله وقاتلوا من حادّ الله وحاول أن يطفئ نور الله. قاتلوا الخاطئين، الضالّين، القاسطين، المجرمين، الذين ليسوا بقراء للقرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو ولّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل. تيسّروا وتهيؤا للمسير إلى عدوّكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى اخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله^(٣).

ثمّ إنّّه لبيّ دعوته من البصرة وحوالي الكوفة جمع كبير وقد اجتمع تحت

١. الطبري: التاريخ ٥٧/٤.

٢. المصدر نفسه ٥٢.

٣. المصدر نفسه ٥٨.

رايته ثماني وستين ألفاً ومائتي رجل، واستعدّ للمسير إلى الشام.

إستعدّ الإمام لمواجهة العدوّ بالشام، لكنّه فوجيء بما بلغ إليه من الناس أنّهم يقولون: لو سار الإمام بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم. فقام في الناس وحمدالله وأثنى عليه، فأجاب دعوتهم خصوصاً بعد ما بلغ إليه أنّهم ذبحوا عبدالله بن خباب على ضفة النهر، وبقروا بطن أمّ ولده، وهم على أهبة الخروج، وإليك تفصيله:

إنّ الخوارج اجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب الراسبي، فقال في خطبة له: أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن، و ينيبون إلى حكم القرآن، أن تكون هذه الدنيا التي الرضا بها و الركون إليها والايثار إيّاها عناءً وتباراً^(١) أثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق و... فخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال، أو إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضرة. ثمّ خطب بعده، حرقوص بن زهير و قال بمثل ما قال: وقال حمزة بن سنان الأسدي: يا قوم: إنّ الرأي ما رأيتم، فولّوا أمركم رجالاً منكم، فإنّه لا بدّ لكم من عماد و سناد، وراية تحفّون بها، وترجعون إليها، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعلى حمزة بن سنان و شريح بن أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبدالله بن وهب فقال: هاتوها، أما والله لاأخذها رغبة في الدنيا، ولا ادعها فرقاً من الموت، فبايعوه لعشر خلون من شوال و كان يقال له ذوالثفّات.

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي فقال ابن وهب: اشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنّكم أهل الحق. قال شريح: نخرج

١. التبار: الهلاك.

إلى المدائن فنزلها ونأخذ بأبوابها ونخرج منها سكّانها ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة، فيقدمون علينا. فقال زيد بن حصين: إنكم إن خرجتم مجتمعين أثبتتكم ولكن اخرجوا وحداناً مستخفين، فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة، قالوا: هذا هو الرأي.

وكتب عبدالله بن وهب إلى من بالبصرة منهم يعلمهم مااجتمعوا عليه، ويحثهم على اللحاق بهم وأرسل الكتاب إليهم، فأجابوه أنهم على اللحاق به.

فلما عزموا على المسير^(١)، تعبّدوا ليلتهم وكان ليلة الجمعة، ويوم الجمعة، وساروا يوم السبت فخرج شريح بن أوفى العبسي، وهو يتلو قول الله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدِينٌ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ^(٢).

ثم إن الخوارج تقاطرت من البصرة والكوفة حتى نزلوا جسر نهروان، فصاروا جيشاً عظيماً العدد والعُدّة، وكانت الأخبار عن أفعالهم الشنيعة تصل إلى الناس ففشى الرعب فيهم، ولأجل ذلك ألحّ الواعون من ضباط علي على مناجزة هؤلاء ثم المسير إلى الشام، فأجابهم الإمام، وإليك بيان ما ارتكبوا من الجرائم.

روى الطبري عن أبي مخنف عن حميد بن هلال: إن الخارجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من إخوانها بالنهر فخرجت عصاة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه فدعوه فتهدّدوه وافزعوه وقالوا له من أنت؟ قال: أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ

١. المقصود الخوارج المتواجدون في الكوفة وأطرافها أعني الحرورية.

٢. القصص: ٢١-٢٢. الطبري: التاريخ ٥٤/٤-٥٥.

ثمّ أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض وكان سقط عنه لمّا افزعوه، فقالوا له: افزعناك؟ قال: نعم. قالوا له: لاروع عليك، فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي ﷺ لعلّ الله ينفعنا به. قال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ: إنّ فتنة تكون، يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً، ويصبح كافراً، ويمسي فيها مؤمناً. فقالوا: لهذا الحديث سألناك.

فما تقول في أبي بكر و عمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان في أوّل خلافته وفي آخرها؟ قال: إنّ كان محقّقاً في أوّلها وفي آخرها. قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنّ أعلم بالله منكم، وأشدّ توقّياً على دينه، وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنّك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً، فأخذه فكثّفوه ثمّ أقبلوا به وبامراته وهي حُبلى متمّ، حتى نزلوا تحت نخلة موافر، فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فكدّف بها في فمه، فقال أحدهم: بغير حلّها وبغير ثمن؟ فلفضها وألقاها من فمه، ثمّ أخذ سيفه فأخذ يمينه، فمرّ به خنزير لأهل الذمّة فضربه بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره.

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، فما علّي منكم بأس إنّي لمسلم ما أحدثت في الاسلام حدثاً ولقد آمنتموني. قلتّم: لاروع عليك. فجاءوا به فأضجعوه فذبّحوه، وسال دمه في الماء وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: إنّما أنا امرأة ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها. وقتلوا ثلاث نسوة من طيّ وقتلوا أمّ سنان الصيداوية، فبلغ ذلك علّياً و من معه من المسلمين من قتلهم عبدالله بن خباب واعتراضهم الناس، فبعث

إليهم الحارث بن مرّة العبدى ليأتيهم فينظر فيما بلغ عنهم ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسألهم، فخرج القوم إليه فقتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينهم صرنا إلى عدونا من أهل الشام، فقبل علي فنادى بالرحيل، ولمّا أراد علي المسير إلى أهل النهر من الأنبار، قدم قيس بن سعد بن عبادة وأمره أن يأتي المدائن فينزلها حتى يأمره بأمره، ثمّ جاء مقبلاً إليهم ووافاه قيس وسعد بن مسعود الثقفي بالنهر وبعث إلى أهل النهر: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثمّ أنا تارككم وكاف عنكم حتى نلقى أهل الشام، فعمل الله يقلب قلوبكم، ويردّكم إلى خير ممّا أنتم عليه من أمركم، فبعثوا إليه وقالوا: كلنا قتلناهم وكلنا نستحلّ دماءهم ودماءكم. ولمّا وصل على جانب النهر وقف عليهم فقال:

أيّتها العصابة التي أخرجها عداوة المرء واللجاجة، وصدّها عن الحقّ الهوى...إنّي نذيركم ان تصبحوا تليفكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان بين، ألم تعلموا أنّي نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أنّ طلب القوم إيّاها منكم دهن ومكيدة لكم، ونبتأتكم أنّ القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنّي أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالاً ورجالاً، فهم أهل المكر والغدر، وأنكم إن فارقتم رأيي، جانبتم الحزم، فعصيتُموني حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلمّا فعلت شرطت واستوثقت، فأخذت على الحكّمين أن يحييا ما أحيا القرآن و أن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة، فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأوّل فما الذي بكم؟ ومن أين أتيتم؟ قالوا: إنّنا حكمنا فلمّا حكمنا أثمنا وكنا بذلك

كافرين، وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعك وإن أبيت فاعتزلنا، فأنّا منابذوك على سواء، إنّ الله لا يحب الخائنين، فقال عليّ: أصابكم حاصب، ولا بقي منكم وابر. أبعد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، ثمّ انصرف عنهم^(١).

ولم يكتف الإمام بهذا الأمر، بل كلّهم في معسكرهم بما يلي: «أكلّمكم شهد معنا صفّين؟ فقالوا: منّا من شهد ومنّا من لم يشهد. قال: فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد صفّين فرقة، ومن لم يشهدها فرقة، حتى أكلّم كلّاً منكم بكلامه، ونادى الناس، فقال:

امسكوا عن الكلام، انصتوا لقولي، واقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها.

ثمّ كلّهم ﷺ بكلام طويل، من جملة: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلةً وغيلةً ومكرراً وخديعةً: اخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراموا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم، والتنفيس عنهم؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان، وباطنه عدوان، وأوله رحمة، وآخره ندامة. فأقيموا على شأنكم، وألزموا طريقكم وعضوا على الجهاد، بنواجذكم، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق، إن أجيب أضلّ وإن ترك ذلّ^(٢).

ولمّا أتمّ الإمام الحجة عليهم، ورأى أنّ آخر الدواء الكي، فعبّأ الناس فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شيب بن ربعي، أو

١. الطبري: التاريخ ٤/٦٠-٦٣. المسعودي: مروج الذهب: ٣/١٥٦. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٣٦.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢١.

معقل بن قياس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيّوب الأنصاري، وعلى الرجال أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة وهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل، قيس بن سعد بن عبادة. وعبّأت الخوراج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى العبسي، و على خيلهم حمزة بن سنان الأسدي وعلى الرجال حرقوص بن زهير السعدي.

الحرص على صيانة نفوسهم:

ثم إنّ الإمام توخّياً لحفظ الدماء وصيانة الأنفس، بعث الأسود بن يزيد في ألفي فارس حتى أتى حمزة بن سنان وهو في ثلاثمائة فارس من خيلهم ورفع عليّ راية أمان، مع أبي أيوب فناداهم أبو أيوب: من جاء هذه الراية منكم ممّن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن و خرج من هذه الجماعة فهو آمن - أنّه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم.

لقد كان هذا التخطيط و السياسة الحكيمة مؤثراً في تفرّق القوم وصيانة دمائهم فانصرف فروة بن نوفل الأشجعي ^(١) في خمسمائة فارس، وخرجت طائفة أخرى متفرّقين، فنزلت الكوفة، وخرج إلى علي عليه السلام منهم نحو من مائة، وكانوا أربعة آلاف وكان الذين بقوا مع عبدالله بن وهب منهم ألفين وثمانمائة، وزحفوا إلى علي عليه السلام .

وقدم على الخيل دون الرجال وصفّ الناس وراء الخيل صفّين، وصفّ

١. سيأتي خروجه على معاوية في الفصل الثامن فانتظر.

المرامية أمام الصفّ الأوّل، وقال لأصحابه: كفّوا عنهم حتى يبدأوكم^(١).

قال المبرّد: لمّا وافقهم عليّ^(٢) بالنهروان، قال: لا تبذوهم بقتال حتى يبدأوكم. فحمل منهم رجل على صف عليّ^(٣) فقتل منهم ثلاثة، فخرج إليه عليّ^(٤) فضربه فقتله... ومال ألف منهم إلى جهة أبي أيوب الأنصاري، وكان على ميمنة عليّ، فقال عليّ^(٥) لأصحابه: احمّلوا عليهم، فوالله لا يقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة. فحمل عليهم فطحنهم طحناً قتل من أصحابه^(٦) تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية^(٧).

قال ابن الأثير: لمّا قال عليّ لأصحابه «كفّوا عنهم حتى يبدأوكم» نادى الخوارج: الرواح إلى الجنة، وحمّلوا على الناس، وافترقت خيل^(٨) علي فرقتين، فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة واستقبلت الرماة وجوهمهم بالنبل، وعطفت عليهم الخيل. من الميمنة و الميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فمالبثوا أن أناموهم^(٩).

ثم إنّ علياً يحدث أصحابه قبل ظهور الخوارج أنّ قوماً يخرجون يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، علامتهم رجل مُخدج اليد، سمعوا ذلك منه مراراً، فلمّا فرغ من قتالهم، أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدج، فوجدوه في حفرة على شاطئ النهر في خمسين قتيلاً، فلمّا استخرجوه نظروا إلى عضده

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٦٤.

٢. المبرّد: الكامل ١٣٩/٢ - ١٤٠. الطبري: التاريخ ٤/٦٣ - ٤/٦٤ والمسعودي: مروج الذهب ٣/١٥٧ وقال: وكان من جملة من قتل من أصحاب عليّ، سبعة، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة وأتى على القوم وهم أربعة آلاف، ولعل لفظة «إلا» زائدة.

٣. هكذا في الأصل وقد سقط لفظ «عليّ».

٤. كلّ مشوه الخلق في أحد أعضائه فهو مخدج.

فإذا لحم مجتمع كثدي المرأة، وحلمة عليها شعرات سود... فلما رآه قال: الله أكبر لا كذبت ولا كذبت.

وقال حينما مرّ بهم وهم صرعى: بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم، قالوا: يا أمير المؤمنين: من غرّهم، قال: الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، غرّتهم بالأمانى، وزينت لهم المعاصي، نبأتهم أنّهم ظاهرون ^(١) قال علي: خذوا ما في عسكرهم من شيء، قال: فأما السلاح والدواب و ما شهدوا به عليه الحرب فقسمة بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والاماء فإنه حين قدم، ردّه على أهله، ونقل الطبري أيضاً: إنّ علياً أمر بطلب من به رمق منهم، فكانوا أربعمئة، فأمر بهم علي، ودفعوا إلى عشائريهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فاذا برأوا، فوافوا بهم الكوفة ^(٢).

فَقَّأُ عَيْنِ الْفِتْنَةِ:

كانت الخوارج من أهل القبلة وأهل الصلاة والعبادة، و كان الناس يستصغرون عبادتهم عند صلواتهم، فلم يكن قتالهم واستئصالهم أمراً هيئناً، ولم يكن يجترئ عليه غير علي عليه السلام ولأجل ذلك قام بعد قتالهم، فقال: أمّا بعد حمدا لله والثناء عليه، أيّها الناس فإنّي فقّأت عين الفتنة، ولم يكن ليجتريء عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيبيها واشتدّ كلبها ^(٣). ^(٤) قال ابن أبي الحديد: إنّ الناس كلّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة،

١. المسعودي: مروج الذهب ١٥٨/٣. ابن الأثير: الكامل ١٧٥/٣ - ١٧٦.

٢. الطبري: التاريخ ٦٦/٤.

٣. الغيبة: الظليمة والمراد بعد ما عمّ ظلالها فشمّل فكّنى عن الشمول بالتموّج، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أماكن كثيرة، كما أنّ المراد من قوله واشتدّ كلبها، أي شرّها وأذاها.

٤. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٩٣.

ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون مولّيتهم أم لا؟ وهل يجهّزون على جريحهم أم لا؟ وهل يقسمون فيّئهم أم لا؟ وكانوا يستعظمون قتال من يؤدّن كأذنانا، ويصليّ كصلاتنا، واستعظموا أيضاً حرب عائشة وحرب طلحة و الزبير لمكاتتهم في الاسلام، وتوقّف جماعة منهم عن الدخول في تلك الحرب، كالأحنف بن قيس وغيره، فلو لا أنّ عليّاً اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحد عليها^(١).

تنبؤ للإمام بعد استئصال الخوارج:

لما قتل الخوارج وأفلت منهم من أفلت، قال بعض أصحاب الإمام: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم، فقال:

«كلاً والله انّهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نجم منهم قرن قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلابين»^(٢).

ذكر المؤرّخون قضايا وحوادث تعرب عن أنّ القوم صاروا بعد ذلك لصوصاً سلابين، فإن دعوة الخوارج اضمحلّت، ورجالها فنيت حتّى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قطاع طرق متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض، وإليك نماذج:

خرج في أيام المتوكّل، ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة، فقطع الطريق وأخاف السبيل، فحاربه أبو سعيد الصامتي فقتل كثيراً من أصحابه، وأسر كثيراً منهم، فمدحه أبو عبادة البحتري وقال:

كنا نكفر عن أمية عصبه طلبوا الخلافة فجرةً وفسوقاً

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤٦/٧.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٩.

ونلوم طلحة والزبير كليهما
ونقول تيم أقرب وعدّيها
وهم قريش الأبطحون إذا انتموا
حتّى غدت جشم بن بكر تبتغي
جاءوا براعيهم ليتّخذوا به
وعنّف الصديق والفاروقا
أمرأ بعيداً حيث كان صعيقا
طابوا أصولاً في العلا وعروقا
ارث النبي وتدعيه حقوقا
عمداً إلى قطع الطريق طريقاً^(١)

ثمّ ذكر أنّه خرج بأعمال كرمان وجماعة أخرى من أهل عمان لانباهة لهم، وقد ذكرهم أبو إسحاق الصابي في الكتاب «التاجي» وكلّهم بمعزل عن طرائق سلفهم وأنما وكدهم، وقصدهم، إخافة السبيل والفساد في الأرض، واكتساب الأموال من غير حلّها.
ثمّ أتى يذكر المشهورين بنظر الخوارج الذين تمّ بهم صدق قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنّهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء» وأشهرهم:

- ١ - عكرمة مولى ابن عباس.
- ٢ - مالك بن أنس الأصبحي.
- ٣ - المنذر بن الجارود العبدي.
- ٤ - يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج .
- ٥ - صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق.
- ٦ - جابر بن زيد^(٢).
- ٧ - عمرو بن دينار.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧٤/٥ - لاحظ بقية الآيات.

٢. كونه منهم موضع تأمل وإن كانت الاباضية ترى أنّه الأصل لهم في الحديث والفقه، تولّد بين عامي ١٨ - ٢٢ وتوفي في العقد الأخير من القرن الأوّل أو أوائل الثاني، تقرأ ترجمته في فصل خاص.

(١٢٤)

٨ - مجاهد.

٩ - أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي .

١٠ - اليمان بن رباب.

١١ - عبدالله بن يزيد.

١٢ - محمّد بن حرب .

١٣ - يحيى بن كامل.

وهؤلاء الثلاثة الأخيرة كانوا من الأباضية، كما أنّ اليمان كان من البيهسيّة، وأبو عبيدة من الصفريّة، وسيوافيك أسماء مشاهيرهم ^(١) في فصل خاص.

كلمة أخيرة للإمام في حقّ الخوارج:

وللإمام عليّ كلمة في حقّ الخوارج ألقاها بعد القضاء عليهم وقال :

«لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه» ^(٢).
هذه الكلمة تعرب عن أنّ انحراف الخوارج عن الحقّ لم يكن شيئاً مدبراً من ذي قبل،
وإنّما سذاجة القوم وقرب قعرهم، جرّهم إلى تلك الساحة، وكانوا جاحدين للحقّ عن جهل
ممزوج بالعناد، فكانوا يطلبون الحقّ من أوّل الأمر، لكن أخطأوا في طلبه ودخلوا في حبال
الشیطان والنفس الأمّارة، وهذا بخلاف معاوية وجيشه، فإنّهم كانوا يطلبون الباطل ويركبون
الغّي عن تقصير وعلم، وقد عرفت أنّه لم يكن لمعاوية مرمى من أوّل الأمر سوى إزاحة عليّ
عن منصبه وغصب الخلافة، وإنّ دم عثمان وقميصه وكونه قتل مظلوماً في

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧٤/٥ - ٧٦.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٦٠.

عقرداره كانت واجهة استخدمها لجلب العواطف، يطلب بها إغواء رعاي الناس، ولأجل ذلك لما قتل علي وصالحه الحسن وأخذ بزمام الأمر، لم يبحث عن قتلة عثمان.

قال ابن أبي الحديد في شرحه:

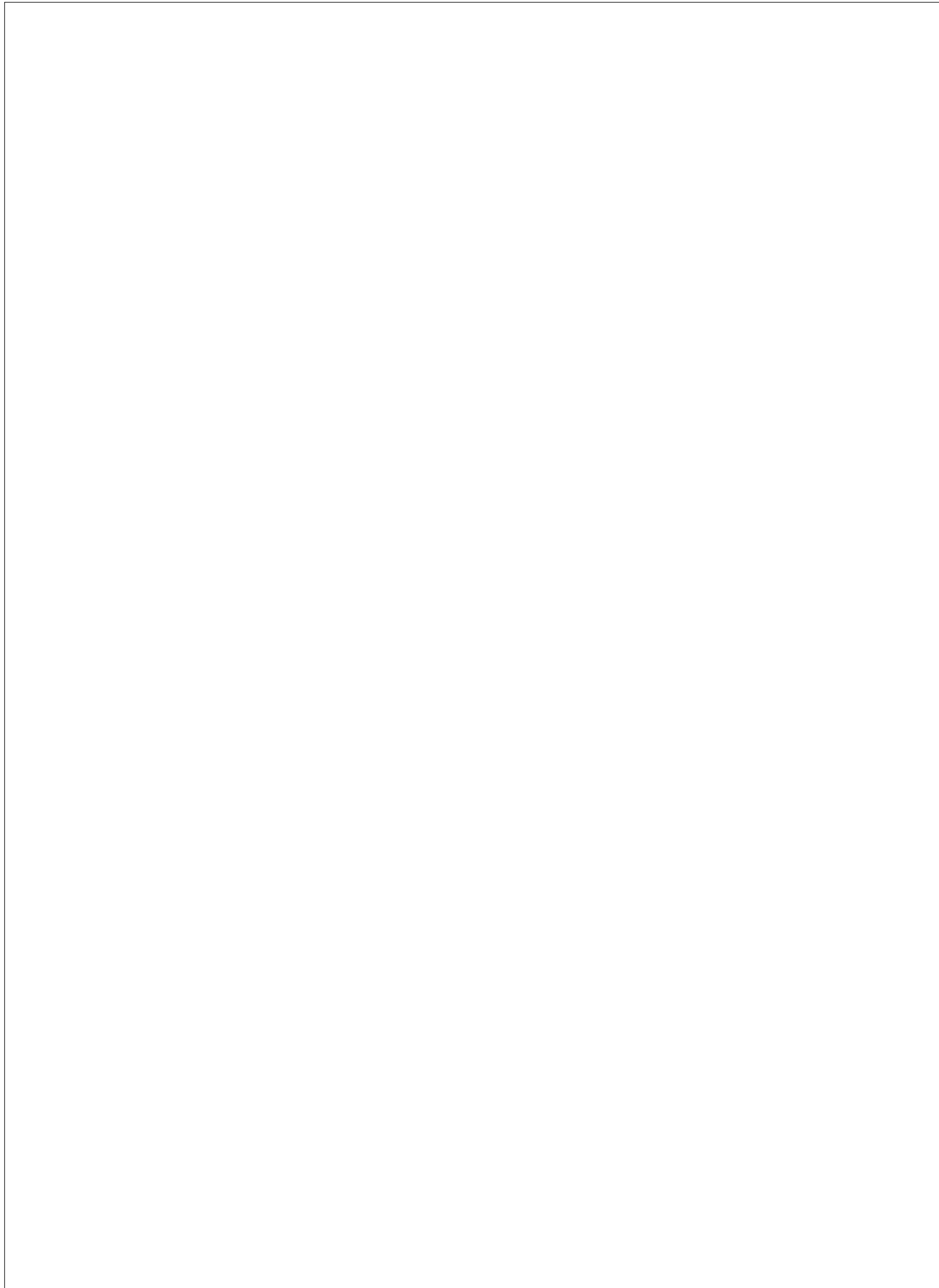
«مراده أنّ الخوارج ضلّوا بشبهة دخلت عليهم، و كانوا يطلبون الحق، ولهم في الجملة تمسّك بالدين، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، وإن اخطأوا فيها، وأمّا معاوية فلم يكن يطلب الحق، وإنّما كان ذا باطل لا يحامي عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدلّ على ذلك، فإنّه لم يكن من أرباب الدين، ولا ظهر عنه نسك، ولا صلاح حال، وكان مترفاً يذهب مال الفئ في مآربه، وتمهيد ملكه، ويصانع به عن سلطانه، وكانت أحواله كلّها موزنة بانسلاخه عن العدالة، وإصراره على الباطل، وإذا كان كذلك لم يجوز أن ينصر المسلمون سلطانه، وتحارب الخوارج عليه، وإن كانوا أهل ضلال، لأنّهم أحسن حالاً منه، فإنّهم كانوا ينهاون عن المنكر ويرون الخروج على أئمة الجور واجباً^(١).

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧٨/٥.

الفصل السابع

انتفاضات الخوارج بعد حرب النهروان

في العهد العلوي



كانت حرب الإمام في النهروان، حرباً طاحنةً، قتل رجال العيث والفساد، واستأصل شافتهم، وقضى على رؤوسهم، ولكن لم يكن الخوارج كلهم متواجدين فيها، بل كانوا متفرقين في البصرة، والنقاط المختلفة من العراق، فقاموا بانتفاضات ضدّ عليّ وعمّاله، وكانت الحسرة والخيبة نصيبهم، وإليك ما وقعت منها في العهد العلوي صلوات الله عليه.

١- خروج الخريت بن راشد الناجي^(١):

جاء الخريت بن راشد الناجي إلى عليّ فقال له - وقد جرّده من إمارة المؤمنين -: «يا عليّ، والله لأطيع أمرك ولأصلي خلفك، وإنّي غداً مفارق لك، وذلك بعد تحكيم الحكمين». فناظره علي وحاول اقناعه، فلم

١. ذكر خروج الخريت الناجي، الطبري في تاريخه ٨٦/٤ - ١٠٠، وابن هلال الثقفي في غاراته ٢١، والمسعودي في مروج الذهب ١٥٩/٣، والجزري في تاريخه ١٨٣/٣ - ١٨٧، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١٢٨/٣ - ١٤٨، ولما كانت القصة طويلة لا تناسب بحث الملل والنحل نقلناها ملخّصاً وقد لخصّها الدكتور نايف معروف في كتابه: الخوارج في العصر الأموي ١٠٠ - ١٠١، وأتبعنا تلخيصه.

يرتدع. وسار بجمع من أصحابه فالتقى في طريقه رجلاً مسلماً فسأله عما يقوله في علي، فأثنى عليه وقدمه. فحملت عليه عصابة من أصحاب الخريت فقطّعوه بأسيافهم، بينما التقوا يهودياً فخلّوا سبيله. أرسل علي في أثرهم زياد بن خضعة البكري في عدد قليل من العساكر فأدركهم في أرض المذار، فدعا زياد صاحبهم الخريت، فسأله عما نقمه من أمير المؤمنين، فأخبره بأنه لا يرضى بعلي إماماً، فطلب إليه تسليمه قتلة الرجل المسلم، فأبى عليه ذلك. فاقتتلوا قتالاً شديداً دون أن يتمكن أحدهما من الآخر، حتى جاء الليل فحجز بينهما، و تحت جنح الظلام تنكر الخريت وأصحابه واتّجهوا صوب الأهواز، وكتب زياد إلى علي بما جرى بينهما. فانتدب علي معقل بن قيس الرياحي في جيش قوامه أربعة آلاف رجل، وبعث به في طلب الخريت الذي كان قد اجتمع إليه كثير من قطاع الطرق والخارجين على النظام ممن كسروا الخراج كما انضمت إليه طائفة من الأعراب كانت ترى رأيه، وتمكنوا من بعض مناطق فارس وأخرجوا عاملها لعلي سهل بن حنيف، ثم كان اللقاء بين الفريقين قرب جبل من جبال رامهرمز، فخرج الخريت من المعركة منهزماً حتى لحق بساحل بحر فارس.

ولكن الخريت لم يلق سلاحه، بل استمرّ بجمع الناس حوله، فكان يأتي من يرى رأي الخوارج فيسر إليهم: «إني أرى رأيكم، وإنّ علياً ما كان ينبغي له أن يحكم الرجال في دين الله» ثم يأتي لمن يرى رأي عثمان وأصحابه، فيقول لهم: «أنا على رأيكم، وإنّ عثمان قتل مظلوماً معقولاً» كما كان يجيء مانعي الصدقة فيقول: «شدّوا على صدقاتكم ثم صلوا بها أرحامكم، وعودوا إن شئتم على فقرائكم، وهكذا كان يعمل على إرضاء كلّ طائفة من الناس بضرب من القول يتفق وهوامهم. وبذلك استطاع أن يستهوي كثيراً من الأقوام من مختلف الميول والاتجاهات. ولمّا علم معقل بموقعه بساحل البحر بفارس، عبأ جنده وزحف

نحو الخريت وأصحابه، وهزمهم هزيمة منكرة قتل فيها الخريت، وتفرق من بقي من أتباعه هنا وهناك.

هكذا، انتهت حياة الخريت الناجي الذي لم تعرف هويته الفكرية على حقيقتها، إذ وجدناه تارة يحارب إلى جانب علي عليه السلام وطوراً يخرج على إمامته ويشدد النكير عليه، ومرة يزعم أنه من الخوارج وأخرى يتأمر على حياة زعمائهم فيستعدي علياً على عبدالله بن وهب الراسبي وزيد بن حصين ليقتلهم، ويقول المسعودي: إنَّ الخريت ارتدَّ مع أصحابه إلى النصرانية^(١).

٢ - لما خرج أهل النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني على علي «بالدسكرة» في مائتين ثم سار إلى الأنبار، فوجه إليه علي عليه السلام الأبرش بن حسان في ثلاثمائة وواقعه فقتل أشرس في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين .

٣ - ثم خرج هلال بن علفة ومعه أخوه مجالد فأتى «ماسبذان» ووجه إليه علي معقل بن قيس الرياحي فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من مائتين، وكان قتلهم في جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين .

٤ - ثم خرج الأشهب بن بشر و قيل الأشعث وهو من «بجيلة» في مائة وثمانين رجلاً، فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلّى عليهم و دفن من قدر عليه منهم، فوجه إليهم علي جارية بن قدامة السعدي وقيل حجرين عدي، فأقبل إليهم الأشهب فاقتلوا «جرجرايا» من أرض «جوخا»

١. المسعودي: مروج الذهب: المطبوع في سبعة أجزاء ٥٩/٣. ويظهر منه أنه كان من أصحاب علي ولم يكن من الخوارج وإنما انفصل عنه، عندما عسكر الإمام بالنخيلة ليذهب بالناس إلى حرب معاوية ثانياً فعند ذلك جعل أصحابه يتسللون ويلحقون بأوطانهم فلم يبق منهم إلا نفر يسير، ومضى الخريت بن راشد الناجي في ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية.....

فقتل الأشهب و أصحابه في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين.

٥ - ثم خرج سعيد بن قفل التميمي في رجب «البندجين» و معه مائتا رجل فأتى «درزنجان» وهي من المدائن على فرسخين، فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ثمان و ثلاثين.

٦ - ثم خرج أبو مريم السعدي التميمي فأتى «شهرزور» وأكثر من معه من الموالي، وقيل لم يكن معه من العرب غير ستة نفر هو أحدهم، واجتمع معه مائتا رجل وقيل أربعمائة، وعاد حتى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة، فأرسل إليه علي يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة، فلم يفعل، قال: ليس بيننا غير الحرب، فبعث إليه علي شريح بن هاني في سبعمائة، فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا، وبقي شريح في مائتين فانحاز إلى قرية، فتراجع بعض أصحابه، ودخل الباقون الكوفة، فخرج علي بنفسه و قدم بين يديه جارية بن قدامة السعدي، فدعاهم جارية إلى طاعة علي، وحذرهم القتل فلم يجيبوا، ولحقهم علي أيضاً فدعاهم فأبوا عليه و على أصحابه، فقتلهم أصحاب علي ولم يسلم منهم غير خمسين رجلاً استأمنوا فأمّنهم، وكان في الخوارج أربعون رجلاً جرحى فأمر علي بادخالهم الكوفة ومداواتهم حتى برئوا، وكان قتلهم في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين، وكانوا من أشجع من قاتل من الخوارج ولجراتهم قاربوا الكوفة^(١).

جريمتهم الكبرى أو آخر سهم في كنانة الخوارج:

قتل الإمام رؤوس الخوارج واستأصلهم، وقد نجت فئة منهم وتواروا في البلاد كما ان من كان به رمق منهم، دفعهم الإمام إلى عشائهم ليداووهم، ولكن

١. ابن الأثير: الكامل ١٨٧/٣ - ١٨٨.

كان للقوم في البصرة ونواحيها أنصار وموالون في الطريقة وكان للهالكين في ساحة القتال من ينتمي إليهم بشيء من النسب والسبب، فكانوا ينتهزون الفرصة لأخذ ثأرهم من الإمام علي عليه السلام قال: المبرّد: فلما قتل علي أهل النهروان وكان بالكوفة زهاء ألفين ممّن لم يخرج مع عبدالله بن وهب وقوم ممّن استأمن إلى أبي أيوب الأنصاري، فتجمّعوا وأمروا عليهم رجالاً من طي، فوجّه إليهم علي عليه السلام رجالاً وهم بالنخيلة فدعاهم ورفق بهم، فأبوا فعاودهم، فأبوا فقتلوا جميعاً، فخرجت طائفة منهم نحو مكة فوجّه معاوية من يقيم للناس حجّهم فناوشه هؤلاء الخوارج فبلغ ذلك معاوية، فوجّه بسر بن أرطاة أحد بني عامر بن لؤي، فتوافقوا وتراضوا بعد الحرب بأن يصلي بالناس رجل من بني شيبه لئلا يفوت الناس الحج، فلما انقضى نظرت الخوارج في أمرها، فقالوا: إنّ علياً ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى حقّه، وقال رجل من أشجع: والله ما عمرو دونهما، وإنّه لأصل هذا الفساد، فقال عبدالرحمن بن ملجم: أنا أقتل علياً، فقالوا: وكيف لك به؟ قال: أغتاله. فقال الحجاج بن عبدالله الصريمي وهو البرك: وأنا أقتل معاوية، وقال زادويه مولى عمرو بن تميم: وأنا أقتل عمرو، فأجمع رأيهم على أن يكون قتلهم في ليلة واحدة فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين^(١) من شهر رمضان، وخرج كل واحد إلى ناحية، فأتى ابن ملجم الكوفة، فأخفى نفسه وتزوّج امرأة يقال لها قطام بنت علقمة من تيمم الرباب وكانت ترى رأي الخوارج، ويروى أنّها قالت: لا أقنع منك إلا بصدّق أسميّ لك، وهو ثلاث آلاف درهم وعبدٌ وأمة، وأن تقتل علياً، فقال لها: لك ما سألت. فكيف لي به؟ قالت: تروم ذلك غيلة، فإن سلمت أرحت الناس من شرّ وأقمت مع أهلك، وإن أصبت صرت إلى

١. تفرّد المبرّد بنقله، والصحيح ليلة التاسعة عشر.

الجنة ونعيم لا يزول فانعم لها وفي ذلك يقول:

ثلاثة آلاف وعبد وقِيْنُهُ وضرب عليّ بالحسام المصمّم

فلا مهر أعلى من عليّ وإن علي ولا فتك إلا فتك ابن ملجم

ويروى أنّ الأشعث نظر إلى عبدالرحمن متقلّداً سيفاً في بني كندة فقال: يا عبدالرحمن أرني سيفك. فأراه فرأى سيفاً حديداً، فقال: ما تقلّدك السيف وليس بأوان حرب؟ قال: فقال: إنّي أردت أن أنحر به جزور القرية. فركب الأشعث بغلته و أتى عليّاً فخبّره، فقال له: قد عرفت بسالة ابن ملجم وفتكه، فقال علي: ما قتلني بعد.

ويروى أنّ عليّاً رضوان الله عليه - كان يخطب مرّة ويذكر أصحابه، وابن ملجم تلقاء المنبر، فسمع وهو يقول: والله لأريحنّهم منك، فلمّا انصرف علي - صلوات الله عليه - إلى بيته أتى به ملبياً^(١) فأشرف عليه، فقال علي: ماتريدون؟ فخبّروه بما سمعوا، فقال: ما قتلني بعد فخلّوا عنه.

ويروى أنّ عليّاً كان يتمثّل إذا رآه بيت عمرو بن معدي كرب في قيس بن مكشوح المرادي:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

ف قيل لعلي: كأنك قد عرفته و عرفت ما يريد بك. أفلا تقتله؟ فقال: كيف اقتل قاتلي؟ .

فلمّا كان ليلة احدى و عشرين من شهر رمضان خرج ابن ملجم وشبيب الأشجعي فاعتورا الباب الذي يدخل منه عليّ - رضي الله عنه - وكان مُعَلَّساً ويوقظ الناس للصلاة، فخرج كما كان يفعل فضربه شبيب فأخطاه

١. أي مأخوذاً بتلايه.

وأصاب سيفه الباب، وضربه ابن ملجم على صَلَعتِهِ ^(١) فقال علي: فزت ورب الكعبة، شأنكم بالرجل. فيروى عن بعض من كان بالمسجد من الأنصار، قال: سمعت كلمة عليّ ورأيت بريق السيف، فأما ابن ملجم فحمل على الناس بسيفه فأخرجوا له وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب بقطيفة فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض، فقعد على صدره، وأما شبيب فانتزع السيف منه رجل من حضرموت وصرعه وقعد على صدره وكثر الناس فجعلوا يصيحون: عليكم صاحب السيف، فخاف الحضرمي أن يكتنوا عليه ولا يسمعوا عذره فرمى بالسيف، وانسلّ شبيب بين الناس فَدَخَلَ على عليّ فاومر فيه، فاختلف الناس في جوابه فقال علي: «إن أعش فالأمر إليّ، وإن أصب فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وإن تعفوا أقرب للتقوى»....ومات عليّ - صلوات الله ورضوانه عليه ورحمته - في آخر اليوم الثالث [واتفقوا على القصاص] فدعا به الحسن - رضي الله عنه - [فقال ابن ملجم له]: إن لك عندي سرّاً فقال الحسن - رضوان الله عليه - أتدرون ما يريد؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعضّ أذني فيقطعها. فقال: أما والله لو أمكنني منها لاقتلعتها من أصلها. فقال الحسن: كلاً والله لأضربنك ضربة تؤدّيك إلى النار ^(٢).

هذا ما ذكره المبرّد في كامله ووافقه عدّة من المؤرّخين غير أنّ أهل البيت أدري بما في البيت، والصحيح أنّه قتل في المحراب وهو يصلّي الفجر وأنّه ضرب في ليلة التاسعة عشر من شهر رمضان واستشهد في ليلة الحادية والعشرين منه: وإليك كلمة عن الإمام الرضا عليه السلام في ذلك المجال

١. العبارة تعرب عن كونه مقتولا في باب المسجد ولكنّه مردود بقول أئمة أهل البيت على أنّه قتل في محراب عبادته.

٢. المبرّد: الكامل ١٤٨/٢. الطبري: التاريخ ١١٠/٤ - ١١٢. ابن الأثير: الكامل ١٩٤/٣ - ١٩٥. الدينوري: الأخبار الطوال ٢١٤. المسعودي: مروج الذهب ١٦٦/٤.

لَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَلْجَمٍ - لَعْنَهُ اللَّهُ - أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ مَعَهُ آخِرُ فَوْقَعَتِ
ضَرْبَتِهِ عَلَى الْحَائِطِ، وَأَمَّا ابْنُ مَلْجَمٍ فَضَرَبَهُ فَوْقَعَتِ الضَّرْبَةَ وَهُوَ سَاجِدٌ عَلَى رَأْسِهِ ^(١).

١. الطوسي: الأمالي ٢٣٣. المجلسي: البحار ٢٠٥/٤٢ - ٢٠٦.

(١٣٦)

خاتمة المطاف:

ماهي أسباب النكسة في أعقاب حرب صفين

لم يختلف اثنان في أنّ النصر كان حليف الإمام طوال مدّة الحرب، ولكن لما طرأت فتنة التحكيم واغتربها بعض قادة جيشه وخاصة قراؤهم، بدأ الضعف يدبّ في معسكر الإمام، واختلفوا إلى فرقتين، فرقة تنادي بالصلح والموادعة، وفرقة أخرى - وكانت في الظاهر قليلة - تصرّ على مواصلة الحرب، ولا جرم أنّ الغلبة كانت للطائفة الأولى، ثمّ إنّ نفس تلك الطائفة تراجعت عن فكرتها وحاولت أن تفرض على علي عليه السلام نقض ميثاق التحكيم، ولكنها لم تنجح وانتهى إلى ما عرفت من خروج المحكمة بصورة قوّة معارضة للإمام إلّا أنّ الإمام استأصل شأفتهم، وقطع جذورهم، فلم يبق في القوم إلّا حشاشات شكّلت نواة للانتفاضات والأعمال الاجرامية حيث استطاعت اغتيال الإمام واعطاء الفرصة لمعاوية، لتحقيق طموحاته التي طالما راودته في

حياته السياسية.

وكان من نتائج تلك الفتنة، أنَّ الإمام لم يتمكّن من عزل معاوية عن سلطته في الشام، وضمّ الشامات إلى حكومته، بل خرجت بعض المناطق التي كانت تحت يده عن سلطته، فاستولى عمرو بن العاص على مصر، وقتل عامل الإمام محمد بن أبي بكر فيها حتى أصبح العراق مطمعاً لمعاوية من خلال الغارات التي قامت بها كتائبه.

كلّ ذلك، مانصفه بالنكسة تارة، والهزيمة أخرى، ويطيب لنا بيان أسبابه في خاتمتنا هذه، وربّما يتخيّل القارئ أنَّ هذا البحث خارج عن موضوع هذا الجزء (الخوارج)، ولكنّه إذا اطّلع عليه يقف على أنَّ له الصلة التامة بالموضوع وإليك البيان.

إنّ السبب الحقيقي لوقوع النكسة كان أمرين:

الأول: سيادة نزعة الاعتراض على قرّاء الكوفة:

كان جيش الإمام خليطاً من طائفتين طائفة صالحة مطيعة لأمر القيادة إلى حدّ التضحية بكلّ ما تملك لتنفيذ أوامرها من دون أيّ اعتراض، و من نماذج تلك الطائفة مالك الأشتر، وعدي بن حاتم وعبدالله بن عباس، وعمار بن ياسر، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدي الكندي، وسهل بن حنيف، وسليمان بن صرد، إلى غير هؤلاء من صلحاء الأمة وأتقيائها التابعين للإمام تبعية الضل لذي الضل.

وطائفة تطعّى عليها نزعة الاعتداد بالرأي والاستبداد في الأمر، والتدخل في شؤون القيادة، وكانوا يتصوّرون أنّه ليس بينهم وبين القائد، فرق حتى بقدر الأنملة، وهذا الشعور كان ظاهراً منهم في جميع مواقفهم من

حين انضمامهم لرأية الإمام إلى خروجهم عليه، ومن نماذج هؤلاء، حرقوص بن زهير المعروف بذي الثدية، ومُسعر بن فدي، وزيد بن حصين، وشريح بن أوفى بن يزيد بن ظاهر العبسي، ونافع بن الأزرق، وعبدالله بن وهب الراسبي إلى غير ذلك من رؤوس تلك الطائفة الذين صاروا خوارج من بعد.

وبما أنّ أصحاب هذه الطائفة كانوا يكثرّون قراءة القرآن والصلاة والتهجد في الليل حتى اسودّت جباههم من السجود، وأصبحت لهم ثفّنات كثفّنات البعير، فكان لكلامهم نفوذ وتأثير كبير في جيش الإمام، خاصّة أولئك الذين كانوا من قبائلهم وكتائبهم و هم كثيرون. والذي يدلّنا على سيادة تلك النزعة فيهم (نزعة الاعتراض على القيادة والمتولّين لشؤون الحكومة) مانقرأه في تاريخ حياتهم وإليك بيانه:

١ - ما سمعت من حديث النبي في حقّ رأس الخوارج (ذي الخويرة) حيث وقف على رسول الله وهو يقسم غنائم خيبر فقال له: ما عدلت منذ اليوم، فقال رسول الله: ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟! فقال عمر: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال رسول الله: إنّه سيكون لهذا ولأصحابه نبأ، وقال: تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم، وصوم أحدكم في جنب صيامهم، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، وقال سيخرج من ضئىء هذا الرجل، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة (١).

٢ - ما رواه الطبري عن محمّد بن راشد عن أبيه في حرب الجمل قال: كان من سيرة عليّ: أن لا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترأ ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: ما يحلّ لنا دماءهم ويحرّم علينا أموالهم؟ فقال

١. نقله أهل السير ونقله أصحاب الصحاح والمسانيد، ورواه البخاري أيضاً في صحيحه لاحظ الجزء ٦ تفسير سورة البراءة تفسير قوله سبحانه: والمؤلفة قلوبهم ص ٦٧.

عليّ: القوم أمثالكم من صفح عتّا فهو متّا و نحن منه، ومن لجّ حتى يصاب، فقتاله متّي على الصدر والنحر، وإنّ لكم في خمسه لغنى، فيومئذ تكلمت الخوارج (١).

وقد ذكر الطبري قصة الاعتراض على وجه الإجمال ولكن غيره ذكره على وجه التفصيل، قالوا: نقتل الخوارج على عليّ عندما قرب منهم في النهروان وأرسل إليهم أن سلّموا قاتل عبدالله بن خباب، فأجابوه بأنّا كلّنا قتله، ولئن ظفرنا بك قتلناك، فأتاهم عليّ في جيشه، وبرزوا إليه بجمعهم، فقال لهم قبل القتال: ماذا نقتلهم مني؟ فقالوا له: أوّل ما نقتلنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل، فلمّا انهزم أصحاب الجمل، أبحت لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال، ومنعتنا من سبي نسائهم و ذراريهم، فكيف استحلت مالهم دون النساء والذرية؟ فقال: إنّما أبحت لكم أموالهم بدلاً ممّا كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم، والنساء والذرية لم يقاتلونا، وكان لهم حكم الإسلام، بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردّة عن الإسلام ولا يجوز استرقاق من لم يكفر، وبعد لو أبحت لكم النساء، أيكم يأخذ عائشة في سهمه؟ فحجل القوم من هذا (٢).

وما ذكره الطبري، وإن وقع في سنده سيف بن عمر، وهو ضعيف في الرواية، ولكن مانقله البغدادي نقّي السند مضافاً إلى أنّه تضافرت الروايات على نقله من الفريقين .
روى الشيخ الطوسي في تهذيبه عن مروان بن الحكم قال: لمّا هزّمتنا عليّ بالبصرة ردّ على الناس أموالهم، من أقام بيّنة أعطاه، ومن لم يقم بيّنة أحلفه،

١. الطبري: التاريخ ٥٤٥/٣.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٧٨.

قال: فقال له قائل: يا أمير المؤمنين اقسم الفئ بيننا والسبي، قال: فلما أكثروا عليه، قال: أَيْكُمْ يَأْخُذُ أَمْ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَهْمِهِ؟ فَكَفُّوا (١).

٣ - روى الطبري أيضاً: لما فرغ عليّ من بيعة أهل البصرة، نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة وقال: لكم إن أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى اعطياتكم، وخاض في ذلك السبائية وطعنوا على عليّ من وراء وراء (٢).

كل ذلك يعرب عن طغيان نزعة الاعتراض على القوم، وأنهم كانوا يرون لأنفسهم حق التدخل في شؤون القيادة.

٤ - إنا نرى أنّ الأشعث لما قرأ وثيقة التحكيم على الشاميين، استقبلوه برضى ولما عرضها على رايات عنزة وغيرهم من العراقيين، قابله بالاعتراض والسيوف.

قال ابن مزاحم: إنّ الأشعث خرج في الناس بذلك الكتاب يقرأه على الناس ويعرضه عليهم، ويمرّ به على صفوف أهل الشام وراياتهم، فرضوا بذلك، ثم مرّ به على صفوف أهل العراق وراياتهم يعرضه عليهم حتى مرّ برايات عنزة - وكان مع عليّ من عنزة بصفين أربعة آلاف مجفف - فلما مرّ بهم الأشعث فقرأه عليهم، قال فتیان منهم: لا حكم إلّا لله. ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما (فقاتلا) حتى قتلا على باب رواق معاوية. وهما أول من حكم، واسماهما معدان وجعد، اخوان، ثم مرّ بها على مراد، فقال صالح بن شقيق وكان من رؤسائهم:

ما لعلّي في الدماء قد حكم لو قاتل الأحزاب يوماً ما ظلم

١. الحرّ العاملي: وسائل الشيعة ١١ الباب ٢٥ الحديث ٥ و ٧ ص ٥٨.

٢. الطبري: التاريخ ٥٤٤/٣. والمراد من السبائية: الخوارج، فإنّه كثيراً ما يطلقها عليهم.

(١٤١)

لاحكم إلّا الله ولو كره المشركون. ثم مرّ على رايات بني راسب فقرأه عليهم فقالوا: لاحكم إلّا الله، لانرضى ولا نحكم الرجال في دين الله، ثم مرّ على رايات بني تميم فقرأها عليهم فقال رجل منهم: لاحكم إلّا الله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين، فقال رجل منهم لآخر: أمّا هذا فقد طعن طعنة نافذة. وخرج عروة بن اديّة أخو مرداس بن اديّة التميمي، فقال: أتحكمون الرجال في أمر الله، لاحكم إلّا الله، فأين قتلانا يا أشعث. ثم شدّ بسيفه ليضرب به الأشعث، فأخطأه وضرب به عجز دابّته ضربة خفيفة فاندفعت به الدابة وصاح به الناس: أن امسك يدك. فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه (١).

٥ - إنّ بعض من صار من الخوارج كانوا متواجدين في الكوفة أيّام خلافة عثمان، وكانوا يعترضون على عمّاله مثل سعيد بن العاص، فكتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان فأمر بتسييرهم من الكوفة، ونرى بين المعترضين، حرقوص بن زهير السعدي، وشريح بن أوفى بن يزيد بن ظاهر العبسي، وزيد بن حصين الطائي وهم رؤوس الخوارج وكانوا ملتجئين حول الأشر النخعي، وكانوا يعدّون من أصحابه، حتى كتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان وقال: إنّي لا أملك من الكوفة مع الأشر وأصحابه الذين يدعون القرّاء - وهم السفهاء - شيئاً فكتب إليه: أن سيّرهم إلى الشام (٢).

نعم اجتمع مع الأشر غيرهم، من الرجال الصالحين والعباد الناسكين كزيد وصعصعة بن صوحان وكعب بن عبده وعدي بن حاتم الطائي، ويزيد بن قيس الأرحبي (الذي كان له مواقف مشكورة في حرب صفين)، وعمرو بن الحمق، وكميل بن زياد النخعي، وحاترث بن عبدالله الأعور الهمداني،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٧ - ٥٨٨.

٢. الغدير: ٥ / ٣١ نقلاً عن الأنساب للبلاذري: ٣٩/٥.

وغيرهم من الصلحاء، وذلك يكشف عن وجود نزعة الاعتراض في قراء الكوفة ورؤسائهم، نعم كون هؤلاء محققين في اعتراضهم على عامل الخليفة الثالث وحتى الخليفة نفسه لا يكون دليلاً على أنهم محققون كذلك في مسألة التحكيم وما خلف من الآثار السيئة، ولا دليل على تلك الملازمة، فرب انسان يكون محققاً في دعوى ومبطلاً في دعوى أخرى، والامعان في حقيقة الاعتراضين - الاعتراض على عامل الخليفة الثالث والاعتراض على أمير المؤمنين علي - يكفي في تصديق ما ذكرنا.

نعم إنَّ الإسلام لا يخالف سياسة الانتقاد وحرية التعبير عن الرأي، ولا يريد للأمة أن تكون كقطيع من الماشية بل أنه يدعو إلى النقد إذا كان لأجل طلب الحق، مثلاً إذا بدا للانسان أن قول القائد لا يماثل عمله فله السؤال والنقاش ولكن بأسلوب بناء، لغاية الوصول إلى الحق، وهذا ما يدعو إليه الإسلام خصوصاً فيما إذا كان القائد انساناً غير معصوم، بل نجد ذلك في عصر المعصوم أيضاً، روى أصحاب السيرة لما توفي عبدالله ولد النبي بكى عليه وجرت دموعه على خديه، فاستظهر بعض الصحابة أن عمل النبي هذا ينافي ما أوصى به من عدم البكاء على الميّت، فاجابه النبي وأرشده إلى الحق وقال ﷺ : لا، ولكني نهيت عن صوتين احمقين وآخرين: صوت عند مصيبة، وخمش وجوه، وشق جيوب، ورنه شيطان، وصوت عند نعمة لهو، وهذه رحمة ومن لا يزحم لا يزحم (١).

نعم إذا كانت الغاية مجرد إبداء الرأي، وحبّ الاعتراض، فهذا ما يعده الكتاب والسنة من المجادلة بالباطل ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا

١. برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية ٣/٣٩٥.

يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ^(١) وقال سبحانه: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾^(٢).

نحن نرى تلكما النزعتين متجسدتين في الأشر والملتقين حوله من الصلحاء من جهة، وحرقوق وزملائه من جهة أخرى، وإن اشتركوا في حقبة من الزمن في صبغة الاعتراض. فالنزعة الأولى: كانت نابعة عن روح صادقة لاعتن هوى نفسي، ولأجل ذلك بقوا على اعتراضهم ومخالفتهم لعامل الخليفة إلى أن قُتِلَ عثمان، لأنهم أدركوا أن عمل الخليفة وعماله يفارق مبادئ الإسلام، وتحملوا التسيير والتباعد عن الوطن، ولكن لما واجهوا علياً ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة من أنه القائد الإلهي الذي يعمل لأجل الله، سلّموا إليه مقاليد أمورهم. والنزعة الثانية: كانت نابعة عن روح مكابرة تريد فرض ما تحب وترى، سواء أكان حقاً أم باطلاً، ونذكر هنا نموذجاً للقسمين:

قال ابن مزاحم: قيل لعلي لما كتبت الصحيفة: إن الأشر لم يرض بما في هذه الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم، فقال علي: بلى إن الأشر ليرضى إذا رضى، وقد رضى ورضيتهم، ولا يصلح الرجوع بعد الرضا، ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله ويتعدى ما في كتابه^(٣). وإي تسليم أعلى وأنبل من تسليم الأشر لأمر القيادة، فقد كان النصر حليفاً له ولم يبق بينه وبين تحقيقه إلا عدوة الفرس، أو قاب قوسين أو أدنى، فلما وقف على أن مواصلة الحرب ولو فترة قليلة سيؤدي إلى القضاء

١. غافر: ٤.

٢. الكهف: ٥٦.

٣. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٩٨.

على حياة الإمام، تراجع عن ساحة القتال، ورجع طائعاً مذعناً لما أمره به الإمام عليه السلام وخاطب أولئك الذين وقفوا بوجه الإمام، وقال خُذِعْتُمْ وَاللَّهِ فَاخْذَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ فَأُجِبْتُمْ، يَا أَصْحَابَ الْجَبَابَةِ السُّودَ كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ صَلَاتَكُمْ زُهَادَةً فِي الدُّنْيَا، وَشَوْقاً إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ، فَلَا أَرَى فِرَارَكُمْ إِلَّا إِلَى الدُّنْيَا مِنَ الْمَوْتِ، أَلَا فَقَبْحاً يَا أَشْبَاهَ النَّيْبِ الْجَلَّالَةِ، مَا أَنْتُمْ بِرَائِيْنَ بَعْدَهَا عِزّاً أَبَداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون ^(١).

هذا هو الأشتر وهذه طاعته للإمام الحق، وأما الخوارج فسَلَّ عن عنادهم ولجاجهم في وجه الحق، فقد احتجَّ عبدالله بن عباس على صحَّة مبدأ التحكيم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالْتَّحْكِيمِ فِي قَتْلِ صَيْدٍ» فقال: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» فكيف في الإمامة...، فلمَّا سمعت الخوارج تلك المعارضة قال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاج قريش حجة عليهم، فإنَّ هذا من الذين قال الله فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لَدَّا﴾ ^(٢).

إلى هنا وقفت على العامل الأول لظهور هذه النكسة، وإليك بيان العامل الثاني:

الثاني: وجود العملاء في جيش الإمام:

كان في جيش الإمام عملاء لمعاوية يعملون لصالحه، حيث كانوا يضمرون العداء لعلي، ويتحينون الفرص للقضاء على حكومته وحياته، كأمثال الأشعث بن قيس، وقد عرفت أنَّه خطب في أوان طلوع فكرة إنهاء الحرب وقال: من لذارينا ونسائنا إن قُتِلنا؟ يقول هذا والخوارج بمرأى

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٣.

٢. المبرّد: الكامل ١٢٢/٢ طبع مطبعة المعارف بمصر.

ومسمع منه، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: «كل فساد كان في خلافة عليّ عليه السلام وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث» (١).

وإليك الشواهد على صحة تلك النظرية:

١ - كان الأشعث عاملاً لعثمان على أذربايجان، وقد كان عمرو بن عثمان تزوج ابنة الأشعث بن قيس، ولما بويع عليّ عليه السلام كتب إليه مع زياد ابن مرحب الهمداني رسالة ذكر فيها بيعة طلحة والزبير ونقضهما البيعة وقال: «وإنّ عملك ليس لك بطعمة ولكنّه أمانة، وفي يديك مال من مال الله، وأنت من خزّان الله عليه حتى تسلّمه إليّ». فلما قرأ كتاب علي قال لبعض أصحابه: «إنّه قد أوحشني وهو أخذ بمال أذربايجان» وأراد اللّحوق بمعاوية فمنعه بعض أصحابه حتى قدم على عليّ، وهو معزول عن الولاية (٢).

قال المسعودي: وبعث إلى الأشعث بن قيس يعزله عن أذربايجان وأرمينية وكان عاملاً لعثمان عليها، وكان في نفس الأشعث على عليّ ما ذكرنا من العزل وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال (٣).

٢ - كانت رئاسة قبيلتي كندة وربيعة للأشعث فانتزعها عليّ عليه السلام منه وولّى حسان بن مخدوع عليهما، ثمّ بعد هن وهنات أشركه في الرئاسة (٤) وقد أثار ذلك حفيظة الأشعث على عليّ وإن لم يظهر ذلك.

٣ - كان الأشعث متّهماً بالتنسيق مع معاوية خلال فترة الحرب، يقول ابن مزاحم: إنّ ابن ذي الكلاع أرسل إلى الأشعث رسولاً فقال له: «إنّ ابن عمّك

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٧٩.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٢٩.

٣. المسعودي: مروج الذهب ٣/١١٧.

٤. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ١٥٣.

ذي الكلاع يقرئك السلام ورحمة الله، وإن كان ذوالكلاع قد أصيب وهو في الميسرة، فتأذن لنا فيه» فقال له الأشعث: اقرأ صاحبك السلام ورحمة الله، وقل له: إنني أخاف أن يتهمني علي، فاطلبه إلى سعيد بن قيس فإنه في الميمنة، فذهب إلى معاوية فأخبره وكان منع ذلك منهم، وكانوا في اليوم والأيام يتراسلون^(١).

٤ - أرسل معاوية بن ابي سفيان أخاه عتبة بن أبي سفيان، فقال: الق الأشعث، فإنه إن رضي رضيت العامة، فخرج عتبة فنادي الأشعث بن قيس، فقال الناس: هذا الرجل يدعوك، فقال الأشعث: سلوه من هو؟ فقال: أنا عتبة بن أبي سفيان، فقال الأشعث: غلام مترف ولا بد من لقائه، فخرج إليه، فأبلغه دعوة معاوية^(٢).

وهذا يعرب أن معاوية كان يحاول إيجاد موطأ قدم له في ساحة علي عليه السلام من خلال كسب رضا الأشعث، وقد نجح الرجل في ذلك بعض النجاح وقد كانت نتيجة هذه الدعوة أنه قال في جواب معاوية: أما البقية فلستم بأحوج إليها منّا، وسنرى رأينا فيها إن شاء الله.

فلما بلغ معاوية كلام الأشعث، أيقن بأن الأشعث قد جنج للسلم، وشاعت نتيجة المفاوضة في صفوف الجيشين، إلى أن اجترأ الأشعث على ابداء رأيه في الحرب والطلب من علي إنهاءها رحمة بالذراري والنساء وهذا ماتقرأه فيما يلي:

٥ - إن الأشعث قام ليلة الهرير في أصحابه من كندة، فألقى خطاباً يتوخم منه تشييط العزائم وإيقاف الحرب لصالح معاوية، وكانت امارات النصر لعلي

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٣٤١.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٦٥.

ظاهرة، وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الأسنة في نهار تلك الليلة، فقال في خطابه: «قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط، إلا فليبلغ الشاهد الغائب، أنا إن نحن توافقنا غداً أنه لفناء العرب وضیعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكني رجل مسنّ اخاف على النساء والذراري غداً إذا فنيانا.

قال صعصة: فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث، فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا، ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم، وأنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهي، اربطوا المصاحف على أطراف القنا.

فصار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق من لذراريينا إن قتلتمونا ومن لذراريكم إن قتلناكم، الله الله في البقية. فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل... (١).

٦- إن رفع المصاحف أوجد الفوضى في جيش علي عليه السلام وفرّقهم إلى فرقتين، فمنهم من يطلب مواصلة الحرب كعمرو بن الحمق وغيره، ومنهم من يصرّ على إنهاؤها، ومنهم الأشعث فقام خطيباً مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحقّ به منهم، وقد أحبّ الناس البقاء وكرهوا القتال (٢).

٧- وبعدما رضي الإمام بالتصالح لأمر تقدّمت، وتوافق الطرفان على أن يبعث كلّ واحد حكماً، اختار الإمام أن يكون الحكم من قبيله، ابن عباس،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٩ - ٥٥٠.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥١.

فلم يقبله الأشعث، وقال: والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر، قال علي: إنني اجعل الأستر، قال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا غير الأستر^(١).

٨ - كان الأشعث يتبجح بكتاب الصلح ولما تمت كتابته وشهد عليه شهود من الطرفين أخذ به ومر به على صفوف أهل الشام والعراق يعرضه عليهم، واستقبله أهل الشام بالرضا، وأما أهل العراق فقد أوجد فيهم فوضى فممنهم من رضى ومنهم من حمل عليه هاتفاً بقوله: لا حكم إلا لله^(٢).

ومما ذكرنا يظهر أن الرجل وإن لم يكن من الخوارج لكنه إما كان عميلاً لمعاوية، كما هو الظاهر مما سردناه عليك، أو كان في نفسه شيء يجزه إلى أن يتخذ موقفاً خاصاً مناوئاً لعلي ولأجل ذلك كان ما ألقاه من كلام حول إيقاف الحرب فرصة لما يرومه معاوية من انتهاء الحرب وإيجاد الفوضى، وبذلك تقف على صحة ما ذكره ابن أبي الحديد: من أن كل فساد كان في خلافة علي فأصله الأشعث.

يقول اليعقوبي: لما رفعوا المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله، فقال علي: إنها مكيدة وليسوا بأصحاب قرآن، فاعترض الأشعث بن قيس الكندي، - وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه - فقال: قد دعوا القوم إلى الحق، فقال علي عليه السلام: إنهم إنما كادوكم وأرادوا صرفكم عنهم، فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهم انصرفت عنك، ومالت اليمانية مع الأشعث، فقال الأشعث: والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه أو لندفعنك إليهم

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٧٢.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٨.

برمتك. (١).

ويؤيد ذلك ما ذكره المبرّد في كامله: لمّا استقرّت الخوارج في حروراء بعث عليّ عليه السلام إليهم صعصعة بن صوحان العبدي وزياد بن النضير الحارثي مع عبدالله بن عباس فقال لصعصعة: بأيّ القوم رأيتمهم أشدّ إطاقة؟ فقال: يزيد بن قيس الأرحبيّ، فركب عليّ إليهم إلى حروراء، فجعل يتخلّلهم حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس، فصلّى فيه ركعتين، ثم خرج فاتكأ على قوسه، وأقبل على الناس، فقال: هذا مقام من فلج (٢) فيه فلج يوم القيامة، ثمّ كلمهم وناشدهم، فقالوا: أنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم، وقد تبنا، فتب إلى الله كما تبنا نعدلك، فقال عليّ عليه السلام: أنا استغفر الله من كلّ ذنب، فرجعوا معه وهم ستّة آلاف، فلمّا استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليّاً عليه السلام رجع عن التحكيم، وراه ظلالاً وقالوا: إنّما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع (٣) وتجنّى الأموال، ثمّ ينهض بنا إلى الشام، فأتى الأشعث عليّاً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيت الحكومة ضلالاً والاقامة عليها كفرًا، فقام عليّ عليه السلام يخطب، فقال: من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالاً فقد ضلّ، فخرجت حينئذ الخوارج من المسجد فحكّمت (٤).

قال ابن أبي الحديد: إنّ الخوارج لمّا قالوا لعليّ: تب إلى الله ممّا فعلت كما تبنا، ننهض معك إلى حرب الشام، فقال لهم عليّ: كلمة مجملّة مرسلّة

١. اليعقوبي: التاريخ ١٧٨/٢ طبعة النجف.

٢. فلج فيه، من الفلج: وهو الظفر.

٣. الكراع: اسم للخيل.

٤. المبرّد: الكامل ١٥٥/٢، وفي المصدر: فقال الصعصعة والصحيح ما أثبتناه.

يقولها الأنبياء و المعصومين وهي قوله:

«استغفر الله من كلّ ذنب» فرضوا بها وعدّوها اجابة لهم إلى سؤالهم، وصفت له عليه السلام نياتهم، واستخلص بها ضمائرهم، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب فلم يتركه الأشعث، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال وهاتكاً ستر التورية والكناية، فانتقض ما دبره، وعاد الخوارج إلى شبهتهم الأولى، وراجعوا التحكيم والمروق ^(١).

هل العصبية القبلية دفعت الأشعث إلى المخالفة؟

من هذا البحث انصافاً تقف على قيمة ما يذكره البعض وهو أنّ العصبية القبلية أثّرت في انحراف الأشعث عن علي، بل مهّدت لنشوء الخوارج وظهورهم في الساحة، وذلك بحجة أنّ الأشعث اعترض على ترشيح عبدالله بن عباس ممثلاً لعليّ، وقال: لا والله لا يحكم فيها مُضريّان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله من أهل اليمن، إذا جعلوا (أهل الشام) رجلاً من مضر. فقال علي: إنّني أخاف أن يُخدع يَمَنِيّكُمْ، فإنّ عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في امر هوى، فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكرهه وأحدهما من أهل اليمن أحبّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ في حكمهما وهما مضرّيان ^(٢).

إنّ تحليل انحراف الأشعث عن عليّ عليه السلام وإيجاده الفوضى في قسم كبير من جيشه بهذا العامل النفسي ضعيف جداً، ولاننكر أن يكون لهذا العامل أيضاً رصيذاً في ما كان يضمّره ويعمله.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٨٠.

٢. الدكتور نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ٢٥ وما نقله عن الأشعث، ذكره ابن مزاحم في وقعة صفين ٥٠٠.

وأبعد من ذلك تحليل نشوء الخوارج في ساحة القتال بالعصبية القبلية، أنّها أنجبت حركة الخوارج فصارت عصبيتهم الموجهة ضدّ قريش وسلطانها المتجسّد في الحكومة العلوية يومذاك، سبباً لتلك الحركة الهدّامة بشهادة أنّا لانجد في صفوف الخوارج قرشياً واحداً بل على العكس من ذلك فإنّهم كانوا يحملون لواء التمرد على قيادتها^(١).

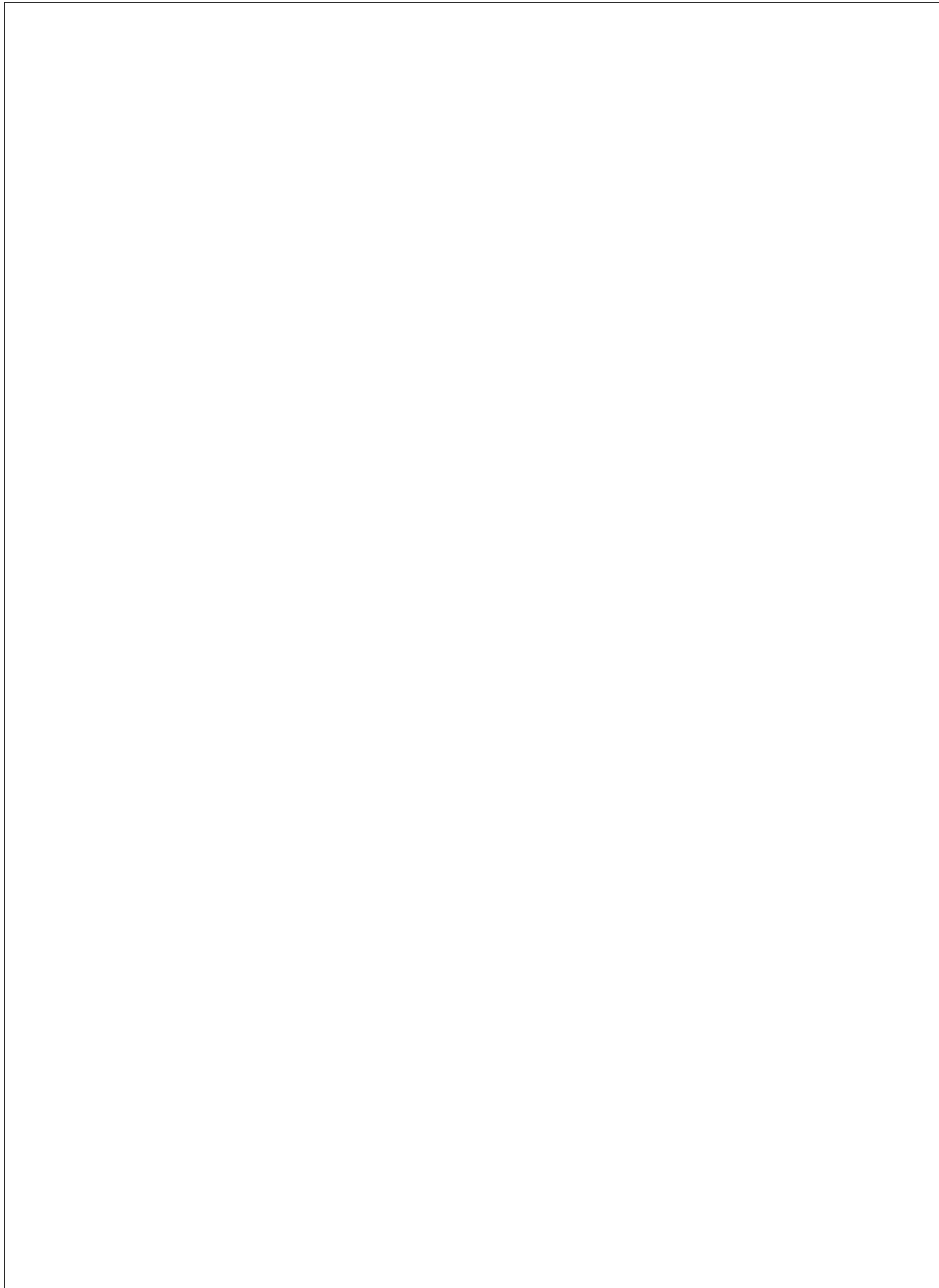
إنّ تحليل هذه الحركة الكبيرة من بدئها إلى نهايتها بهذا العامل النفسي أشبه بتعليل الهزّة الكبيرة الموجبة لانهدام المدن والقرى، بسقوط صخرة من أعلى الجبل إلى هوة سحيقة، نعم لا يمكن انكار العصبية القبلية بين جميع القبائل العربية، خصوصاً بين قبيلتي تميم وقريش، ولكنّه ليس بمعنى أنّه الباعث والعامل المحدّث لهذه الضجّة الكبيرة التي شغلت بال المسلمين والخلفاء طوال قرون، بل العامل لحدوث هذه الحركة هو ما عرفته في المقام وفي الفصل الثالث عند البحث عن نشوء الخوارج.

١. الدكتور نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ٢٨.

الفصل الثامن

الخوارج في عصر معاوية بن أبي سفيان

(١٥٣)



قد تعرّفت على مأساة التحكيم وما خلف من آثار ونتائج سيئة في جيش الإمام وأصحابه حيث فرّقهم وشقّ شملهم، فانقلب الاخوان أعداءً، وأصبح الأنصار معارضين، إلى أن أدّى ذلك إلى حروب دامية ضدّ إمامهم أمير المؤمنين ولم يبرحوا حتى قضوا على حياته حيلة وغيلة. لقد بذر معاوية تلك البذرة في جيش الإمام، ولم يدر بخلده أنّ هذه البذرة سوف تنمو وتكون أشواكاً تعكّر عليه صفو خلافته، وتشغل باله عشرين سنة إلى العام الذي هلك فيه، فحصد مازرع ووقع بالحفرة التي حفرها، وسوف نذكر الحروب والانتفاضات التي جرت في عهد معاوية بعد أن تسنّم عرش الخلافة من عام ٤١ إلى ٦٠ من الهجرة.

نعم لم تقف انتفاضاتهم بهلاك معاوية، بل استمرّت بعد هلاكه، وعلى طول عهد بني أميّة، غير أنّا نكتفي بما جرى في عهد معاوية وبعده بقليل، ليكون نموذجاً لسائر الثورات التي قاموا بها إلى أواخر العصر الأموي. فكانوا مثلاً لقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

وقبل ذلك نلفت نظر القارئ إلى هذه الانتفاضات من زاوية أخرى، فالخوارج وإن قاموا في وجه الطغاة اللئام من بني أمية فثاروا عليهم هنا وهناك بصورة عشوائية ومتفرقة، فأسهروا عيونهم وزعزعوا كيانهم، ولكنهم أيضاً ذاقوا وبال أمرهم لأنهم عصوا إمامهم، وقلبوا الأمور عليه، وأوجدوا الفوضى في عصره، فصدق فيهم قول الامام وهو يخاطبهم: «أما أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيافاً قاطعاً، يتخذها الظالمون فيكم سنة»^(٢).

وهذا الكلام تنبؤ من الإمام عن مستقبلهم المظلم، ويحق له هذا التنبؤ، كيف وهو باب علم النبي ﷺ، نعم احتمل ابن أبي الحديد أن يكون دعاء أيضاً وقال: وهذه المخاطبة لهم وهذا الدعاء عليهم، وهذه الأخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإن الله تعالى سلط على الخوارج بعده الذل الشامل، والسياف القاطع، والاثرة من السلطان، وما زال حالهم يضمحل حتى افناهم الله تعالى وافنى جمهورهم.

ثم إن ابن أبي الحديد ذكر في أخبارهم شيئاً كثيراً وأطنب الكلام في سيف المهلب بن أبي صفرة وبنيه على الخوارج وأن نتيجته كانت الحتف القاضي، والموت الزؤوم للخوارج. إن موسوعتنا هذه موسوعة تاريخ العقائد، لا تاريخ الأقوام، ولأجل ذلك ضربنا صفحاً عن نقل جميع الانتفاضات التي أقامها الخوارج في الشهود المختلفة، وفي أماكن متفرقة، واكتفينا بمقاموا به في العصر الأموي، وخصصنا بالذكر خصوص ما يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان زارع هذه

١. التغابن ٥.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨.

البذرة، وحاصد نتائجها الدنيوية، وحافر تلك الحفرة والواقع فيها، وطلباً للكمال نشير إلى الانتفاضات الواقعة بعد عهد معاوية بوجه موجز.

اغتيال الإمام علي عليه السلام بيد أشقى الأولين والآخرين على ما وصفه الرسول الأعظم ﷺ في حديثه ^(١) وقضى نحبه فبويع الحسن خليفة بعد أبيه وتمت له البيعة في رمضان سنة أربعين، وكان معاوية يتحين الفرص ليسيطر على العراق كما سيطر على مصر ويأخذ بمقاليد الحكم، وقد أعطاه قتل الإمام فرصة لبسط نفوذه على العراق وخلع الحسن عن الحكم، فقدم أمامه عبدالله بن عامر ليفتح الطريق إلى معاوية، ثم غادر هو الشام متوجّهاً إلى العراق.

ولما وقف الحسن على خطة معاوية وأنه بصدد مواجهته بالقوة العسكرية قدّم كتائب من جيشه وعلى رأسهم كتيبة قيس بن سعد بن عباد، وخرج هو من الكوفة حتى نزل المدائن مستعداً لمواجهة معاوية، غير أنّ الحوادث المربرة - التي ليس المقام مناسباً لذكرها - خيبت أمله، فلم ير بداً من التنازل عن الحكم وتسليم الأمر إلى معاوية من خلال وثيقة الصلح، وكيف لا يكون مضطراً إلى التصالح وقد أعرب عن اضطهاده وتخاذل أصحابه ونهب ماله قبل مواجهة العدو، فقام خطيباً وقال: «يا أهل العراق أنّه سخى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي وانتهابكم متاعي» ^(٢).

أخذ معاوية بمقاليد الحكم وكان يتبجح بأنّه أزال جميع الموانع التي

١. سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص ١٥٨.

٢. الطبري: التاريخ ١٢٢/٤ وقد ذكر الطبري صورة وثيقة الصلح في ذلك المقام ولكن ما ذكره لا يشمل على جميع بنود الصلح ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين.

كانت تقف في طريقه لتولي سدة الحكم، لكنّه كان غافلاً عن أنّ البذرة التي بذرها في صقّين لأجل إيجاد الفرقة في صفوف جيش عليّ (عليه السلام) سوف تنمو ويأكل من ثمرها وتكون عليه ضدّاً، فإن تسليم الحسن الحكم لمعاوية، ومبايعة أهل العراق له قد أغضب رؤوس الخوارج المختفين في جيش الحسن والمتفرّقين في البلاد، إذ شعروا أنّ هذا التصالح خطر على كيانهم ووجودهم، ولأجل ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم لمحاربة النظام الجديد كما حاربوا النظام السابق، فالخوارج كانوا ينظرون إلى عليّ (عليه السلام) ومعاوية بمنظار واحد بعد قضية التحكيم وإن كان عليّ (عليه السلام) في نظرهم إماماً عادلاً محقّقاً قبل التحكيم .

وإليك بعض حروبهم في عصر معاوية على وجه الإجمال:

١- خروج فروة بن نوفل: يقول الطبري: وفي هذه السنة سنة ٤١ خرجت الخوارج التي اعتزلت أيام عليّ (عليه السلام) بـ «شهرزور» على معاوية، فلمّا قدم معاوية العراق قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة فقالت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بـ «شهرزور» مع فروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شكّ فيه، فسيروا إلى معاوية نجاهده، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة فأرسل اليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفّوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منّا، أليس معاوية عدوّنا وعدوّكم، دعونا حتى نقاتله وإن أصبناه كنّا قد كفيناكم عدوّكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله اخواننا

من أهل النهر هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع^(١) صاحبهم فروة وكان سيد القوم واستعمل الخوارج عليهم عبدالله بن أبي الحر^(٢)، رجلاً من طي، فقاتلوهم، فقتلوا^(٣). ومما يذكره المؤرخون من حديث معركة النخيلة: إن قبيلة اشجع تمكنت من أخذ فروة بن نوفل من بين أصحابه الخوارج، فولّى الخوارج عليهم عبدالله بن أبي الحرياء، فقتل في أثناء المعركة، فولّى الخوارج عليهم حوثره بن وداع بن مسعود الأسدي، فعاد إلى النخيلة، فأرسل إليه معاوية أباه، لعله يرده وقال له:

أخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك.

فخرج إليه وكلمه وناشده وقال:

ألا أجيئك بأبنك؟ فلعلك إذا رأيته كرهت فراقه.

فقال حوثره: إني إلى طعنة من يد كافر يرمح القلب فيها ساعة، أشوق مني إلى ابني .

فرجع أبوه وأخبر معاوية بقوله.

فأرسل معاوية إليهم جنداً فقتلوهم جميعاً^(٤) .

٢- خروج شبيب بن بجرة: كان شبيب مع ابن ملجم حين قتل علياً، فلما دخل معاوية الكوفة أتاه شبيب المتقرب وقال: أنا و ابن ملجم قتلنا علياً، فوثب معاوية من مجلسه مذعوراً حتى دخل منزله وبعث إلى أشجع،

١. اسم قبيلة من قبائل الكوفة، والمراد أن القبيلة التي كانت تحمي معاوية أخذت فروة بن نوفل رئيس الخوارج.

٢. وفي الكامل لابن الاثير (عبدالله بن أبي الهوساء) ٣٠٥/٣ - ٣٠٦.

٣. الطبري: التاريخ ١٢٦/٤.

٤. عمر ابو النضر: الخوارج في الإسلام ٣١.

فقال: لئن رأيت شبيباً أو بلغني أنه ببابي لأهلككم، أخرجوه من بلدكم، وكان شبيب إذا جنّ عليه الليل خرج فلم يلق أحداً إلا قتله، فلما ولي المغيرة بن شعبة الكوفة، خرج عليه بالطفّ قريب الكوفة، فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها خالد بن أرفطة، وقيل معقل بن قيس، فاقتتلوا فقتل شبيب وأصحابه (١).

هذه عبرة خاطفة عن ثورات الخوارج في الكوفة، قبل أن يولى المغيرة بن شعبة من قبل معاوية، وبعدهما تولى هو الكوفة كانت لهم ثورات أحمدها المغيرة بدهائه وسيفه وإليكمها مجملتها:

الخوارج والمغيرة بن شعبة والي معاوية في الكوفة:

غادر معاوية الكوفة إلى الشام واستعمل عبدالله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاه المغيرة بن شعبة فقال له: استعملت عبدالله على الكوفة، وأباه على مصر، فتكون أميراً بين نابي الأسد، فعزله عنها واستعمل المغيرة على الكوفة، ولما بلغ عمرو ما قاله المغيرة، دخل على معاوية فقال: استعملت المغيرة على الخراج فيغتيال المال ولا تستطيع أن تأخذه منه، استعمل على الخراج رجالاً يخافك ويتقيك، فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة.

فلقى المغيرة عمرو، فقال عمرو: أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به في عبدالله؟ قال: نعم. قال: هذه بتلك (٢) وكان المغيرة يمثل

١. ابن الاثير: الكامل ٢٠٦/٣.

٢. الطبري: التاريخ ١٢٧/٤. ابن الاثير: الكامل ٢٠٦/٣. هؤلاء هم الصحابة العدول الذين يؤخذ عنهم الدين والفتوى!!.

سياسة معاوية مع الخوارج فيقاتلهم تارة ويعفو عنهم أخرى، يقول الطبري: بعث معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى فيقال له: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج، فكان يقول: قضى الله أن لا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده في ما كانوا فيه يختلفون، فأمنه الناس^(١). وإليك بعض مواجهاته مع الخوارج.

٣- **خروج معين الخارجي:** بلغ المغيرة أن معين بن عبدالله يريد الخروج فأرسل إليه وعنده جماعة فأخذ وحبس، وبعث المغيرة إلى معاوية يخبره أمره، فكتب إليه: إن شهد أنني خليفة فخلّ سبيله، فأحضره المغيرة وقال له: أتشهد أن معاوية خليفة و أنه أمير المؤمنين؟ فقال: أشهد أن الله عزّوجلّ حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من في القبور، فأمر به فقتل^(٢).

٤- **خروج أبي مريم مولى بني الحرث بن كعب:** ثم خرج أبو مريم مولى بني الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيلة، وكان أول من أخرج معه النساء، فعاب ذلك عليه أبو بلال بن أديه، فردّه أبو مريم بأنه قد قاتل النساء مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام، وسأردّهما، فردّهما، فوجّه إليه المغيرة جابر البجلي، فقاتله فقتل أبو مريم وأصحابه ب «بادوريا»^(٣).

٥- **خروج أبي ليلي:** وكان أبو ليلي رجلاً أسود طويلاً، فأخذ بعضادتي

١. الطبري: التاريخ ١٣٢/٤.

٢. ابن الاثير: الكامل ٢٠٦/٣.

٣. ابن الاثير: الكامل ٢٠٦/٣ - ٢٠٧.

باب المسجد بالكوفة وفيه عدّة من الأشراف، وحكم بصوت عال، فلم يعرض له أحد، فخرج وتبعه ثلاثون رجلاً من الموالي، فبعث إليه المغيرة معقل بن قيس الرياحي فقتله بسواد الكوفة سنة اثنتين وأربعين^(١).

٦- خروج المستورد: إنّ الخوارج في أيام المغيرة بن شعبة فزعوا إلى ثلاثة نفر، ١- المستورد بن علفة التيمي ٢- حيان بن ظبيان السلمي ٣- معاذ بن جوين الطائي، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان فتشاوروا فيمن يولّون عليهم، فبايعوا المستورد لأنّه أسنّ الثلاثة واستعدّوا للخروج في غرة هلال شعبان سنة ٤٣^(٢).

ثمّ إنّ قبيصة بن الدمون أتى المغيرة وكان على شرطته، فأخبر أنّ الخوارج قد اجتمعوا في منزل حيّان بن ظبيان، وقد اتّعدوا أن يخرجوا إليك في غرة شعبان، فقال المغيرة: سرّ بالشرطة حتّى تحيط بدار حيّان بن ظبيان فأتني به، وهم لا يرون إلّا أنّه أمير تلك الخوارج، فسار قبيصة بالشرطة وفي كثير من الناس، فلم يشعر حيّان بن ظبيان إلّا والرجال معه في داره نصف النهار وإذا معه معاذ بن جوين و نحو من عشرين رجلاً من أصحابهما، فاستسلموا فانطلق بهم إلى المغيرة بن شعبة، فقال لهم المغيرة: ما حملكم على ما أردتم من شقّ عصا المسلمين، قالوا له: أمّا اجتماعنا في هذا المنزل فإنّ حيّان بن ظبيان أقرأنا القرآن، فنحن نجتمع عنده في منزله، فنقرأ القرآن عليه، قال: فاذهبوا بهم إلى السجن، فلم يزلوا فيه نحواً من سنة^(٣).

١. ابن الاثير: الكامل: ٢٠٧ / ٣.

٢. الطبري: التاريخ ١٣٣/٤ - ١٣٤.

٣. الطبري: التاريخ ١٣٨/٤. ابن الاثير: الكامل ٢١٠/٣ - ٢١٢.

(١٦٢)

وأما المستورد، فقد ذكر الطبري في تاريخه ^(١) وابن الأثير في كامله ^(٢) ثورته على وجه التفصيل و نحن نذكر ملخصها حسب ما قام به الدكتور نايف معروف في كتابه «الخوارج في العصر الأموي»: وأما المستورد، فإنه نزل داراً في الحيرة بعيداً عن أعين الحزاس. ولكن لما أخذت الخوارج تفد عليه، وانكشف أمره، أمر أصحابه بالرحيل عنها، فتحولوا إلى دار سليم بن مخدوج العبدي، في بني سلمة من عبد القيس، وكان صهراً للمستورد لا يرى رأييه في الخروج. ولما شاع خبر تحرك الخوارج، أدرك المغيرة خطورة الأمر، فجمع رؤساء القبائل و خطبهم فقال: فليكيفن كل امرئ من الرؤساء قومه، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحولنّ عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون فلا يلزم لأئمة إلا نفسه، وقد أعذر من أنذر.

أخذ زعماء القبائل انذار المغيرة موضع جدّ واهتمام، فعادوا إلى قبائلهم وبادروا في البحث عن مثيري الفتنة في صفوفهم، وجاء صعصعة بن صوحان إلى عبد القيس، فحذّرهم من إيواء هؤلاء المارقة، فتراجع كثيرون عن اللحاق بالخوارج.

ولما علم المستورد بتهديد المغيرة لرؤساء القبائل، وتجنباً لاجراج أصحابه بالرحيل، فخرجوا عن ديار عبد القيس، وساروا إلى الصراة ومنها إلى «بهرسير» وعزموا على دخول المدينة العتيقة التي كانت بها منازل كسرى فردّهم عنها عاملها سماك بن عبيد الأزدي العبسي. ثم حاول أن يردهم عن خروجهم، ويأخذ لهم الأمان، فأبى المستورد، وعبر «جراجرايا» ومضى بأصحابه إلى أرض جوحى، حتى بلغ المذار، ونزلوا

١. الطبري: التاريخ ١٣٨/٤ - ١٦١.

٢. ابن الأثير: الكامل ٢١٢/٣ - ٢١٧.

هناك.

فبعث إليهم المغيرة جيشاً، قوامه ثلاثة آلاف رجل من نقاوة الشيعة، على رأسهم معقل بن قيس الرياحي التميمي الشيعي، فأرسل معقل في أثرهم أبا الرواغ الشاكري في ثلاثمائة من الفرسان، فلحقهم حتى أدركهم في أرض المذار. وحينئذ استشار أصحابه في قتالهم أو انتظار قدوم معقل عليه، فاختلف أصحابه بين مؤيد ومعارض. وأخيراً تنحى جانباً. ثم تقدم معقل في سبعمائة من فرسانه والتقى الخوارج فانهزم كثيرون من أصحابه ولم يثبت سوى معقل وأبي الرواغ في نحو مائتين من الفرسان. ووصلت مؤخرة الجيش وتوافقوا للقتال. وفي تلك الأثناء جاءت الخوارج الأخبار بأن شريك بن الأعور قد أقبل في ثلاثة آلاف من أهل البصرة، فاقترح المستورد على أصحابه أن ينحازوا ثانية، عن أرض البصرة وأن يعودوا إلى أرض الكوفة، لأن البصريين لا يحاربون خارج دائرتهم، فانسحبوا من مواقعهم وتسللوا إلى أرض الكوفة حتى بلغوا جراجرايا، وقد أصاب حدسهم، فإن البصريين رفضوا اللحاق بهم، فمضى الخوارج في طريقهم وعبروا دجلة ونزلوا في أرض بهرسير. وهناك بالقرب من ساباط كان اللقاء الحاسم فاشتد القتال بين الفريقين، وكادت الدائرة تدور على أهل الكوفة لولا ثبات معقل في عدد من فرسانه، ونجدة أبي الرواغ الذي كان أبعد المستورد عن ساحة المعركة بحيلة حربية، أما المستورد، فإنه نادى معقلاً ودعاه للمبارزة، فحاول أصحابه منعه من ذلك، فأبى وخرج إليه معقل، فاختلعا ضربتين، فقتل كل واحد منهما صاحبه. وكان قد أوصى بالامارة من بعده إلى عمرو بن محرز ابن شهاب التميمي، الذي أخذ الراية بعد مقتله و حمل على الخوارج

فقتلوهم ولم ينج منهم إلا بضعة رجال فرّوا من أرض المعركة (١).

٧- خروج الموالي لصالح الخوارج: إنّ الموالي في العصر الأموي كانوا تحت الضغط يحقّرون بأنّهم غير عرب، فلأجل ذلك لا عجب إذا رأينا صلة بينهم وبين الخوارج فإنّهم وإن كانوا لا يتبنّون مبادئ الخوارج ولكن كانوا يلتقون معهم بعدائهم للحكومة الأموية، ولأجل ذلك نجد أنّ عصابة من الموالي خرجت من الكوفة فبعث إليهم المغيرة رجلاً من بجيلة، فقاتلهم وقضى عليها، وهؤلاء أوّل خارجة خرج فيها الموالي (٢).

٨- خروج حيان بن ظبيان السلمي: وفي سنة خمسين توفّي المغيرة بن شعبة، وهو ابن سبعين، وقد سجن كثيراً من الخوارج وقد أفرج عنهم بعد موته، ولمّا ولي على الكوفة عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أمّ الحكم، أخت معاوية بن أبي سفيان عادوا للخروج. يقول الطبري: إنّ حيان بن ظبيان السلمي، جمع إليه أصحابه، فدعاهم إلى الجهاد، وأدعم رأيه معاذ بن جوين الطائي، وباع القوم حيان بن ظبيان، ثم اجتمعوا في منزل معاذ بن جوين بن حصين الطائي، فقال لهم حيان: عباد الله أشيروا برأيكم أين تأمروني أن أخرج؟ فقال له معاذ: إنّني أرى أن تسير بنا إلى «حلوان» فلم يقبله حيان، فقال له: عدوّك معاجلك قبل اجتماع الناس إليك، ورأى الخروج إلى جانب الكوفة، ولم يرض به أصحابه، فقال لهم معاذ بن جوين: سيروا بنا فلننزل بـ«انقيا» فخرجوا فبعث إليهم جيش فقتلوا جميعاً، وذلك في عام تسعة و خمسين .

ويقول الطبري: وفي هذه السنة اشتدّ عبيدالله بن زياد على الخوارج

١. د- نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ١١٨ - ١١٩.

٢. اليعقوبي: التاريخ ٢٢١/٢.

وقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبراً، عروة بن ادية أخو أبي بلال مرداس بن ادية^(١).

الخوارج في البصرة:

لم تكن الكوفة وضواحيها هي المركز الوحيد لحركة الخوارج وثوراتهم في أوائل العصر الأموي، فقد كانت البصرة مثل الكوفة مركزاً لنشاطهم وخروجهم.

فقد خرج حمران بن أبان على البصرة في عام ٤١ فبعث معاوية بسر بن أرطاة فقتله وأحمد الثورة، ثم عزله معاوية واستعمل مكانه عبدالله بن عامر فخرج في عصره سهم بن غالب الهجيني في سبعين رجلاً، فخرج إليه ابن عامر ففرّق شملهم حتّى اضطرّوا إلى الأمان.

ولمّا ولّى معاوية زياداً على البصرة في سنة ٤٥، فوجدها تعج من الخوارج، وكانت لهم انتفاضات واحدة بعد أخرى ولكن لم يكن النجاح حليفاً لهم^(٢) ونذكر هنا أهمّها على وجه الاجمال:

٩- خروج الخطيم الباهلي وسهم بن غالب الهجيني: خرج سهم إلى الأهواز فأحدث وحكم ثم رجع فاخفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد وطلبه حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه. وأمّا الخطيم فسيّره إلى البحرين، ثمّ أذن له فقدم، ولمّا أخلّ بما أمره به زياد أمر بقتله وألقي في عشيرته (باهلة)^(٣).

١. الطبري: التاريخ ٢٣١/٤.

٢. الطبري: التاريخ ١٧٢/٤.

٣. الطبري: التاريخ ١٧٢/٤. ابن الاثير: الكامل ٢٢٥/٣.

١٠- خروج قريب بن مرة وزحاف الطائي: خرج هذان الرجلان في أمانة زياد بالبصرة فاعترضا الناس فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة فقتلاه، فخرج رجل من بني قطيعة من الأزدي وفي يده السيف، فناداه الناس من ظهور البيوت الحرورية: أنج بنفسك، فنادوه (قريب وزحاف و من معهما): لسنا حرورية، نحن الشرط، فوقف فقتلوه. ثم جعل لا يمران بقبيلة إلا قتل من وجدا.

حتى مرّا على بني علي بن سود من الأزدي وكانوا مائة فرموهم رمياً شديداً فصاحوا: يا بني علي، البُقيّا، لارمّاء بيننا، قال رجل من بني علي :

لا شيء للقوم سوى السهام مشحودة في غلس الظلام

ففرّ عنهم الخوارج، إلى أن واجهوا بنو طاحية من بني سود، وقبائل من مزينة وغيرها، ووقع الحرب، فقتل الخوارج عن آخرهم، وقتل قريب وزحاف وقد كان عمل هؤلاء منفراً على حدّ، تبرأ عنهم بعض الخوارج، ونقل ابن أبي الحديد عن أبي بلال مرداس بن أدية أنّه قال: قريب، لاقرّبه الله، وزحاف لا عفا الله عنه، ركبها عشواء مظلمة - يريد اعتراضهما الناس - ونسب الطبري هذا القول إلى سعيد بن جبير^(١).

وقال الجزري: واشتد زياد في أمر الخوارج فقتلهم، وأمر سمرة بذلك فقتل منهم بشراً كثيراً، وخطب زياد على المنبر وقال: والله لتكفّنني هؤلاء، أو لأبدأنّ بكم، والله لأن أفلت منهم رجل، لا تأخذون العام من عطياتكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوه^(٢).

١١- خروج زياد بن خراش العجلي: خرج زياد بن خراش العجلي في

١. الطبري: التاريخ ١٧٦/٤ - ١٧٧. ابن أبي الحديد: الشرح ١٣٥/٤. المبرد: الكامل ١٨٠/٢.

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٢٩/٣.

ثلاثمائة فارس فأتى أرض مسكن من السواد فسيّر إليه زياد خيلاً عليها سعد بن حذيفة أو غيره فقتلوهم، وقد صاروا إلى مائة (١).

١٢- خروج معاذ الطائي: وخرج على زياد أيضاً رجل من طي يقال له معاذ، فأتى نهر عبدالرحمن بن أم الحكم في ثلاثين رجلاً في سنة ٥١هـ، فبعث إليه زياد من قتله وأصحابه، وقيل بل حلّ لواءه واستأمن (٢).

١٣- خروج طواف بن غلاق: توفي زياد بن أبيه بالكوفة في شهر رمضان سنة ٥٣هـ، ثم إن معاوية ولّى ابنه عبيدالله بن زياد على البصرة عام ٥٥هـ فكانت سيرته مع الخوارج نفس سيرة أبيه، فاشتدّ عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة، فقد بلغه أنّ قوماً من الخوارج بالبصرة يجتمعون إلى رجل اسمه «جدار» فيتحدّثون عنده ويعيرون السلطان، فأخذهم ابن زياد فحبسهم، ثم دعا بهم وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ويخلّي سبيل القاتلين، ففعلوا، فأطلقهم، فكان ممّن قتل طواف، فعذّلبهم أصحابهم وقالوا: قتلتم اخوانكم؟ قالوا: أكرهنا وقد يكره الرجل على الكفر وهو مطمئن بالآيمان، وندم طواف وأصحابه، فقال طواف: أما من توبة؟ فكانوا يبكون وعرضوا على أولياء من قتلوا، الدية، فأبوا، وعرضوا عليهم القود، فأبوا.

ثم لقي طواف، ابن ثور السدوسي، فقال له: أما ترى لنا من توبة؟ فقال: ما أجد لك إلا آية في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

فدعا طواف أصحابه إلى الخروج وإلى أن يفتكوا بابن زياد، فبايعوه في سنة

١. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٢٤٤/٣.

٢. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٢٤٤/٣.

٣. النحل: ١١٠.

ثمان و خمسين، وكانوا سبعين رجلاً من بني عبدالقيس بالبصرة، فسعى بهم رجل من أصحابهم إلى ابن زياد فبلغ ذلك طوافاً، فعجلوا الخروج فخرجوا من ليلتهم، فقتلوا رجلاً ومضوا إلى الجلاء، فندب ابن زياد الشرط البخارية، فقاتلوهم فانهزم الشرط حتى دخلوا البصرة وذلك يوم عيد الفطر وكثرهم الناس فقاتلوا فقتلوا، وبقي طواف في ستة نفر و عطش فرسه فأقحمه الماء فرماه البخارية بالنشاب حتى قتلوه وصلبوه ثم دفنه أهله (١).

١٤- خروج عروة بن أدية: إنَّ عبيدالله بن زياد خرج في رهان له، فلمَّا جلس ينتظر الخيل، اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية، فأقبل على ابن زياد فقال: خمس كن في الأمم قبلنا، فقد صرن فينا آتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُثُونَ * وَتَخْذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * (٢).

وخصلتين آخرين لم يحفظهما جرير (الراوي)، فلمَّا قال ذلك ظنَّ ابن زياد أنَّه لم يجتر على ذلك إلَّا ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب وترك رهانه. فقبل لعروة ما صنعت، تعلمنَّ والله ليقتلنك، فتواري فطلبه ابن زياد، فأَتَى الكوفة، فأخذ بها، فقدم به على ابن زياد، فأمر به فقطعت يده ورجلاه، ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال: أرى أنَّك أَفْسَدْتَ دُنْيَايَ وَأَفْسَدْتُ آخِرَتِكَ، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها (٣).

١٥- خروج مرداس به أدية: قال الطبري: حبس ابن زياد فيمن حبس مرداس بن أدية، فكان السجَّان يرى عبادته واجتهاده، وكان يأذن له في الليل فينصرف فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، ثمَّ إنَّه أفرج عنه بشفاعة

١. ابن الاثير: الكامل ٢٥٤/٣.

٢. الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

٣. الطبري: التاريخ ٢٣١/٤ - ٢٣٢. ابن الاثير: الكامل ٢٥٥/٣.

(١٦٩)

السجّان (١).

يقول المبرّد: كان مرداس قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه - وأنكر التحكيم، وشهد النهر، ونجا فيمن نجا، وبعد ما خرج من حبس ابن زياد عزم الخروج، فقال لأصحابه: إنّه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامهم، مجانبين للعدل، مفارقين للفصل، والله إنّ الصبر على هذا لعظيم، وإنّ تجريد السيف وخافة السبيل لعظيم، ولكنّا ننتبذ عنهم ولا نجرّد سيفاً ولا نقاتل إلاّ من قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً، فلمّا مضى بأصحابه لقي عبدالله بن رباح الأنصاري، وكان له صديقاً فقال له: أين تريد؟ قال: أريد أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة، فقال له: أعلم بكم أحد؟ قال: لا. قال: فارجع، قال: أو تخاف عليّ مكروهاً؟ قال: نعم وأن يؤتني بك، قال: لا تخف فإنّي لا أجرّد سيفاً ولا أخيف أحداً ولا أقاتل إلاّ من قاتلني، ثم مضى حتى نزل «أسك» وهي ما بين رامهرمز وارجان، فمرّ به مال يحمل لابن زياد، وقد قارب أصحابه الأربعين، فحطّ ذلك المال، وأخذ منه عطاءه واعطيات أصحابه، وردّ الباقي على الرسل وقال: قولوا لصاحبكم: إنّما قبضنا اعطياتنا، فقال بعض أصحابه فعلام ندع الباقي؟ فقال: إنّهم يقسمون هذا الفيء، كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم.

كل ذلك دليل على عدم تطرّفه واعتداله وإنّه أحسّ بعقله أو بدينه أن مآل التطرّف هو الموت والزوال.

وممّا يدل على اعتداله - خلافاً لمن سبق عليه - أنّ رجلاً من أصحاب ابن زياد، قال: خرجنا في جيش نريد خراسان، فمررنا بـ «أسك»

فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلاً، وصاح بنا أبو بلال: أقاصدون لقتالنا أنتم؟ وكنت أنا و أخي قد دخلنا زرباً^(١)، فوقف أخي ببابه وقال: السلام عليكم، فقال مرداس: وعليكم السلام، فقال لأخي: أجتتم لقتالنا؟ فقال له: لا إنما نريد خراسان، قال: فبلغوا من لقيكم أنا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنرؤع أحداً ولكن هرباً من الظلم ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا، ولانأخذ من الفيء إلا اعطياتنا، ثم قال: أندب إلينا أحد؟ قلنا: نعم، أسلم بن زرعة الكلابي. قال: فمتى ترونه يصل إلينا؟ قلنا: يوم كذا وكذا، فقال أبو بلال: حسبنا الله ونعم الوكيل .

فلما سار إليهم أسلم، صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم، فإننا لا نريد قتالاً، ولا نَحْتَجِجَ فيئاً، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن أردكم إلى ابن زياد، قال مرداس: إذا يقتلنا، قال: وإن قتلكم؟ قال: تشركه في دمائنا، قال: إني ادين بأنه محق وأنكم مبطلون، فصاح بن حريث بن جحل (من أصحاب أبي بلال): أهو محق وهو يطيع الفجرة وهو أحدهم، ويقتل بالظنّة، ويخص بالفيء، ويجور في الحكم؟ أما علمت أنه قتل بابن سعاد، أربعة براء؟ ثم حملوا عليه حملة رجل واحد وكان معبد أحد الخوارج قد كاد يأخذه فانهزم هو وأصحابه من غير قتال، فلما ورد أسلم على ابن زياد، غضب عليه غضباً شديداً، قال: ويلك أتمضي في ألفين فتنهزم لحملة أربعين؟.... وكان إذا خرج إلى السوق، أومر بصبيان، صاحوا به: أبو بلال وراءك، وربما صاحوا به: يا معبد خذه، حتى شكا ذلك إلى ابن زياد، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه، ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك من بني تميم:

١. الزرب: جمع الزرب وهو مسيل الماء، حظيرة المواشي وعرين الأسد.

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

ثم ندب لهم عبدالله بن زياد الناس واختار عباد بن أخضر، فوجهه في أربعة آلاف وكان التقاؤهم في يوم الجمعة فناده أبو بلال: اخرج إلي يا عباد فإني أريد أن أحاورك، فخرج إليه، فقال: ما الذي تبغي؟ قال: آخذ بأقفاكم فأردكم إلى الأمير عبيدالله بن زياد، قال: أو غير ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: أن ترجع، فإننا لانخيف سبيلاً ولا نحارب إلا من حاربنا، ولا نجبي إلا ما حمينا، فقال له عباد: الأمر ما قلت لك، فقال له حريث بن حجل: أتحاول أن ترد فئة من المسلمين إلى جبار عنيد؟ قال لهم: أنتم أولى بالضلال منه، وما من ذاك بد.

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج فلما رأى الجمعين، قال: ما هذا؟ قالوا: الشراة فحمل عليهم، فأخذ القعقاع أسيراً، فأتي به أبو بلال، فقال: ما أنت؟ قال: لست من أعدائك، وإنما قدمت للحج فجهلت وغررت، فأطلقه...

فلم يزل القوم يجتلدون، حتى جاء وقت الصلاة يوم الجمعة، فناداهم أبو بلال: يا قوم هذا وقت الصلاة، فوادعونا حتى نصلي و تصلوا، قالوا: لك ذاك، فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا للصلاة، فأسرع عباد ومن معه، والحرورية مبطنون، فهم من بين راکع وقائم وساجد في الصلاة وقاعد، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعاً، وأتى برأس أبي بلال (١).

هذا أبو بلال وهذه مرونته واعتداله، فعّد الاباضية مبدأ الاعتدال ليس بقوي، بل الحق أنه مبدأ للطريق الذي سلكه عبدالله بن اباض، ولأجل ذلك نرى

١. المبرد: الكامل ١٨٦/٢. الطبري: التاريخ ٢٣٢/٤. ابن الاثير: الكامل ٢٥٦/٣.

لَمَّا خَرَجَ قَرِيبٌ وَزَحَافُ الطَّائِي فَاعْتَرَضَا النَّاسَ فَقَتَلَا شَيْخًا نَاسِكًا إِلَى آخِرِ مَأمَرٍ فِي خُرُوجِهِمْ، إِنَّهُ لَمَّا بَلَغَ أَعْمَالَهُمْ أَبَا بِلَالٍ اعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: قَرِيبٌ لَا قَرَبَهُ اللَّهُ، وَزَحَافٌ لَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، رَكَبَاهَا عَشَوَاءَ مَظْلَمَةٍ (يريد اعتراضهما الناس).

مخطط زياد لاستئصال الخوارج:

كان لزياد بن أبيه أسلوباً في استئصال الخوارج وهو يتلخص في أمرين:

١ - إذا وقف على خارجي في قبيلة وثب على جميعهم، وقد خطب يوماً وقال: ألا ينهي كل قوم سفهاءهم يا معشر الأزد لولا أنكم أطفأتم هذه النائرة لقلت إنكم أرثتموها^(١). فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فيهم شدتهم وأتت بهم زياداً.

٢ - خرجت طائفة من الخوارج وأخرجوا معهم امرأة، فظفريها فقتلها، ثم عزّاها، فلم تخرج النساء بعد على زياد، وكن إذا دعين إلى الخروج قلن: لولا التعرية لسارعنا.

كان الحافز لتلك الثورات والانتفاضات - التي كانت تتضمن التضحية بالنفس والنفيس - هو الاعتقاد الجدّي، بأنّ الحكومات القائمة، حكومات كافرة، أسست باسم الإسلام ولكن انحرفت عن الخط الصحيح له، فالأمويون باعتبار اشاعة الظلم و الفساد بينهم، خرجوا عن ربة الإسلام، ودخلوا في الكفر، وهم كافرون، كما أنّ المؤيدين لهم مثلهم أيضاً كفرة، فالخلافات والحكومات كلّها كافرة، والدار دار كفر، ويجب عليهم جهاد الكفار^(٢).

١. أرث: أوقد نار الفتنة.

٢. يعلم ذلك من خطب أمرائهم ورؤسائهم.

كان هذا هو الحافز لتلك الثورات والانتفاضات الفاشلة، فلو وجدنا في صحيفة حياة الخوارج نقطة بيضاء فهذه النقطة المشعة التي اعترف بها الإمام عليّ عند توصيفهم بقوله، «لا تقتلوا الخوارج من بعدي، فإنه ليس من طلب الحق فأخطاه كمن طلب الباطل فأصابه»^(١).

فإنهم كانوا يرون بأنهم أعينهم، كيف شاع الفساد، ودبّ العيث بين الحكّام، فركبت اغيلمة بني أمية على رقاب الناس، واستأثروا بالفيء، فكان ذلك هو السبب لقيام لفييف منهم ضدّ الحكومات، وأما مسألة التحكيم التي كانت هي المستمسك الأوّل للمخالفة فكأنها صارت منسية أو تناسها القوم، فكانوا يتررون قيامهم بأنهم بصدّد بسط العدل والقسط وإزالة الظلم والجور عن المجتمع وإعادة الصلاح والفلاح إلى الساحة الإسلامية.

ولكن لم يكن النجاح حليفاً لهم، لأنّهم راهنوا في الساحة السياسية على جوادين خاسرين.

أحدهما: الاعتماد على الأساليب الاجرامية للنيل بالهدف، وكأنّهم كانوا ينتحلون مبدأ «الغايات تبرّر الوسائل».

الثاني: المظاهرة بالعداء لعلّي وأهل بيته.

أمّا الأوّل: فكانوا يستعرضون الناس ويقتشون عن عقائدهم، ثم يقتلون الأبرياء، بحجة أنّهم لم يكفّروا عثمان وعليّاً، أو غيرهما ممّن كانوا يخالفونهم، وهذا هو الذي صار سبباً لرغبة الناس عنهم، وعدم ايوائهم بل طردهم والتعاون مع الحكومات ضدّهم في بعض الموارد، إذ كيف يصحّ لمسلم أن يشهر سيفه، ويعترض الطريق، ويقتش عن العقائد التي لاصلة لها بالإسلام الذي جاء به النبي الأكرم ﷺ، ولا الإسلام معقود بها، ولا هي حد الكفر

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٦١.

والإسلام، فاتخاذ هذه الأساليب الشريرة، التي تعرّفت عليها في بعض الانتفاضات، صار سبباً لخسرانهم وخيبتهم وإن كان بعض الفرق بريئاً منها، لكن الكل أخذ بجرم الجزء، والجار بذنب الجار .

وقد خلّفت هذه الأعمال الاجرامية آثار سيئة فصار لفظ «الحرورية» مساوياً لسفك الدم و قطع الطريق، وكان الناس يتوسّلون للإخافة بهذا اللفظ ويقولون: حروري!! مكان الحرامي!!
وأما الثاني: فلأنّ المظاهرة ضدّ عليّ، ونصب عدائه و أهل بيته ليس بأمرهين، وكيف لا يكون كذلك، وقد عجنت دماء ونفوس المسلمين بحبّهم فهم كانوا يتلون قول الله سبحانه في الذكر الحكيم: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(١). فهل يمكن لجماعة تتظاهر بكفر عليّ وأولاده، وتنصب عدائهم، ان يكون لهم رصيد شعبي؟ كلا، ولا، فلأجل ذلك خسروا في انتفاضاتهم، حتى بوجه الطغاة .

تعرب انتفاضاتهم عن أنّ الحكومة الأموية كانت تستخدم شيعة العراق في بعض الأحيان لقتال الخوارج، فكأنّها كانت تضرب عصفورين بحجر واحد، فإنّ الطائفتين كانا من أعداء الحكومة الأموية، فضرب أحدهما بالأخرى كان متنفساً لها ^(٢).

ومع الاعتراف ببراعتهم في النقد والاعتراض، وتملّكهم القدرة على التنظيم و التخطيط، لكن كانت انتفاضاتهم المتفرقة والمبعثرة في الرقعة الإسلامية، كانت أشبه بالثورات العشوائية، إذ لم تكن هناك قيادة موحّدة تنبثق منها الثورات، وتستثمر هذا الجمهور لتحقيق النصر النهائي، فالحجر الأساس

١. الشورى: ٢٣.

٢. لاحظ خروج فروة بن نوفل في تاريخ الطبري ١٢٦/٤.

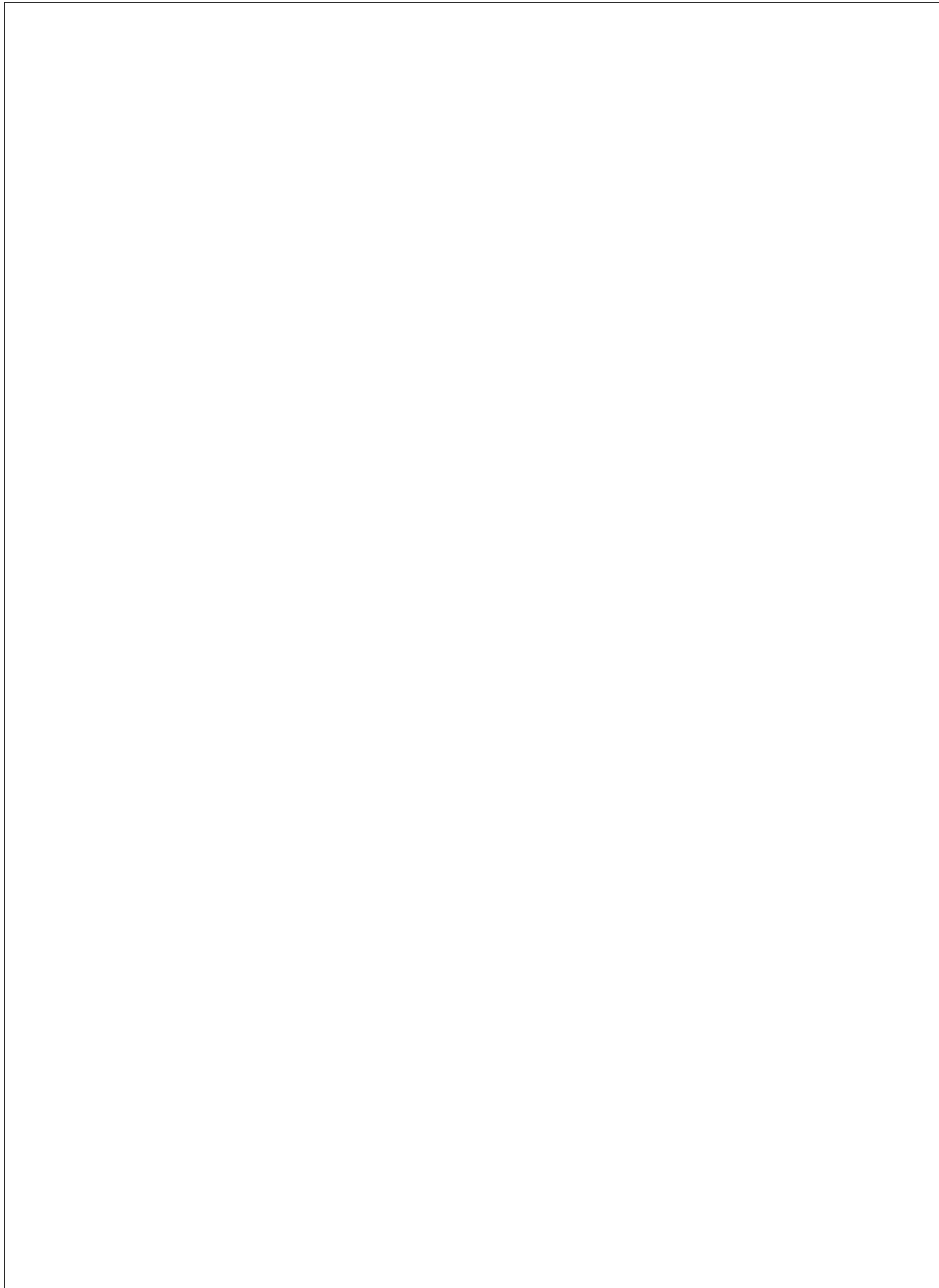
في نجاح الثورة و الانتفاضة وإن طالّت مدّتها، هو وجود قيادة موحّدة سرّية، ينبعث منها الأمر والنهي، وقد كان القوم يفقدون ذلك الأمر المهمّ .

هذه نبذة خاطفة عن انتفاضات هؤلاء في عصر معاوية، وأمّا ما قاموا به في عصر عبدالله بن الزبير، وخلافة عبدالملك، وخلافة هشام بن عبدالملك، إلى أواخر العهد الأموي، فحدّث عنه ولا حرج، فهي مليئة بالانتفاضات والمعارك الدموية المريعة بين فترة وأخرى، ومن أراد الاحاطة بها فليرجع إلى مظانّها في كتب التاريخ .

إلّا أنّا نشير إلى بعض الانتفاضات التي قام بها بعض رؤسائهم بعد عصر معاوية كنافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفي، وغيرهم ممّن صاروا من رؤساء المذهب، وأصحاب المنهج بين الخوارج، فإنّ هؤلاء وإن كانوا قادة عسكريين إلّا أنّهم كانوا أيضاً مرشدين لأتباعهم، ولهم آراؤهم في المذهب، وندرس كلّ ذلك ببيان فرقهم الكثيرة في الفصل القادم. وبذلك بيّنا الظروف التي كانت سبباً لنشوء المذاهب في هذه الفرقة .

الفصل التاسع

ألقاب الخوارج وفرقهم



للخوارج ألقاب عديدة فمن ألقابهم «الخوارج» لخروجهم على علي بن أبي طالب، و«المحكّمة»، لكون شعارهم: «لا حكم إلا لله»، و«الحرورية» لنزولهم بحروراء في أوّل أمرهم، و«الشّراة» لقولهم: شربنا أنفسنا في طاعة الله أي بغيّناها بالجنّة، و«المارقة» لأنّهم مرقوا من الدين كما يَمْرُق السهم من الرميّة - حسب توصيف الرسول لهم - وخرجوا منه، والفرقة الباقية اليوم أعني الاباضية يفسّرون الخروج بالخروج عن الدين ويخصّون اللقب بالطوائف المنحرفة الذين خرجوا في عصر الأمويين، وكانوا يعترضون الطريق ويقتلون الأبرياء من غير جرم وسيوافيك أنّ التخصيص بلاوجه .

وأما فرقهم، فقد ذكر البغدادي لهم عشرين فرقة، بل أزيد، وهذه أسماؤهم:

- ١ - المحكّمة ٢ - الأزارقة ٣ - النجدات ٤ - الصفريّة ٥ - العجاردة، المفترقة إلى: ٦ -
- الخانزية ٧ - الشيعية ٨ - المعلوماتية ٩ - المجهولية ١٠ - أصحاب طاعة لايراد الله تعالى بها ١١ -
- والصلتية ١٢ - الاخنسية ١٣ - الشيبية ١٤ - الشيبانية ١٥ - المعبدية ١٦ - الرشيديّة

١٧ - المكرمية ١٨ - الحمزية ١٩ - الشمراخية ٢٠ - الإبراهيمية ٢١ - الواقفية ٢٢ -
الاباضية^(١).

ولا يخفى أنّ الفرق حسب ما ذكرها تزيد على عشرين، ولو لم تعد العجاردة فرقة مستقلة باعتبار أنّها مقسّمة لأقسام كثيرة يكون عدد الفرق «٢١» فرقة.

ثمّ قال البغدادي: «الاباضية» منهم افتقرت فرقاً، معظمها فريقان «حفصية» و«حارثية»، وقال: فأما «اليزيدية» من الاباضية، و«الميمونية» من العجاردة، فهما فرقتان من غلاة الكفر الخارجين عن فرق الأئمة.

وأما الأشعري فقد ذكر لهم خمس عشرة فرقة ثم ذكر الفرق المتشعبة منها وهي فرق كثيرة^(٢).

وقد ذكر المقرئ في خططه للقوم ستاً وعشرين فرقة^(٣).

وذكر الشهرستاني لهم ثمانية فرق، وإليك أسماؤها:

١ - المحكّمة الأولى ٢ - الأزارقة ٣ - النجدات ٤ - البيهسية ٥ - العجاردة ٦ - الثعالبة ٧ -
الاباضية ٨ - الصفريّة^(٤).

ولكن الحق، إنّ أصول الفرق قليلة جدّاً، وقد ذكر الأشعري أنّ أصول أربعة وهي: الأزارقة، النجدية، الاباضية، والصفريّة، والأصناف الأخرى تفرّعوا من الصفريّة^(٥).

ويظهر من المبرّد في كامله، أنّ أصول الفرق هي ثلاثة:

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ٧٢.

٢. الأشعري: المقالات ٨٦/١ - ١٣١.

٣. تقي الدين المقرئ: الخطط ٢٥٤/٢ - ٢٥٥.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل ١١٤/١ - ١٣٨.

٥. الأشعري: المقالات: ١ / ١٠١.

الأزارقة، الاباضية، البيهسية، وأما الصفرية والنجدية فكانوا يقولون بقول ابن أباض^(١). ولعلّ ما ذكره الأشعري في بيان أصول فرقهم أقرب، كما يظهر من دراسة مذهبهم ونحن نذكر الفرق الأربعة التي ذكرها الأشعري، ونحيل بيان سائر الفرق إلى كتب المقالات والفرق، خصوصاً المقالات للأشعري، والفرق بين الفرق للبغدادى، والملل و النحل للشهرستاني، وأنا ضربنا الصفح عن بيان فرقهم عامّة لأنّهم قد هلكوا ولم يبق منهم على أديم الأرض سوى فرقة واحدة هي الاباضية وأقاويلها أقرب إلى أقاويل سائر المسلمين. ولأجل ذلك نرى أنّ أبا بيهس يصف نافعاً بأنّه غلى، ويصف عبد الله بن أباض بأنّه قصّر، وسوف يظهر غلوّ الأوّل وتقصير الثاني حسب تعبير أبي بيهس، وسيوافيك نصّه في محلّه.

والعجب أنّ هذه الفرق ظهرت في زمان واحد، فصار للقوم أئمة أربعة، كلّ يدعو إلى نفسه.

وكانت الخوارج على رأي واحد إلى عصر ابن الزبير وبعد افتراقهم عنه حصل هناك اختلاف بين الأزارقة والنجدية كما ستعرف وصارت فرقتين ذاتي أمامين، ولم يكن لهم إلى عهد عبدالله بن الزبير إلّا أصول بسيطة وهي:

- ١ - اكفار مرتكب الكبيرة.
- ٢ - انكار مبدأ التحكيم .
- ٣ - تكفير عثمان وعليّ ومعاوية وطلحة والزبير ومن سار على دربهم ورضى بأعمال عثمان وتحكيم عليّ، على هذه الأصول نشأوا إلى عهد ابن الزبير.

قال الكعبي: إنّ الذي يجمع الخوارج إكفار عليّ وعثمان و الحكمين وأصحاب الجمل وكلّ من رضى بتحكيم الحكمين، والخروج على الإمام الجائر وإكفار من ارتكب الذنوب ^(١) .

وقال الأشعري: أجمعت الخوارج على إكفار عليّ بن أبي طالب - رضى الله عنه - لأنّه حكّم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا. وأجمعوا على أنّ كلّ كبيرة كفرٌ إلاّ النجداث، فإنّها لا تقول بذلك، وأجمعوا على أنّ الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلاّ النجداث ^(٢) .

وما ذكره من الاستثناء دليل على أن أكثر هذه الأصول برزت بينهم في العصر الزبيري وما بعده، لا في عهد الإمام علي ولا في عهد معاوية.

إذا وقفت على ذلك فلنشرع في بيان الفرق الأربعة التي ذكرها الأشعري ونترك بيان عداها إلى الكتب المعدّة لذلك.

١. البغدادى: الفرق بين الفرق ٧٣/١ نقلاً عن الكعبي.

٢. الأشعري: مقالات الاسلاميين ٨٦/١.

الفرقة الأولى:

الازارقة

أتباع نافع بن الأزرق المقتول سنة ٦٥:

لَمَّا هَلَكَ معاوية، تَنَفَّسَ أَهْلُ الكوفة الصعداء، فاجتمعت شيعتهم على تسليم مقاليد الخلافة للحسين عليه السلام فبايعوه وكتبوه، واستقدموه حتى يتسلم الأمر، فلَمَّا غادر الحسين المدينة و مكة، متوجّهاً إلى العراق خذلتة الشيعة وقصّروا في نصرته، فلَمَّا بلغهم قتل الحسين واستشهاده، قام أهل المدينة بخلع يزيد عن الخلافة وأخرجوا واليه مروان بن الحكم عن المدينة، ثم إنّ عبدالله بن الزبير استغلّ الظروف، فدعا إلى البيعة لنفسه من داخل البيت الحرام، وكانت نتيجة ذلك أن طرد عمّال يزيد من أرض الحجاز، فخضعت المنطقة كلّها لعبدالله بن الزبير، ثم إنّ يزيد بن معاوية لَمَّا وقف على خطورة الموقف بعث بأشقى عُمّالِهِ وأغلظهم «مسلم بن عقبة» إلى المدينة فلَمَّا

ورد مدينة الرسول، استباح أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ثلاثة أيام، فقتل في ذلك آلافاً من الأبرياء ونهبت الأموال واستبيحت الأعراض إلى درجة لم يذكر التاريخ إلى يومه مثيلاً لها، ثم توجه مسلم إلى مكة للسيطرة عليها، فلم يصل إليها حياً. ومات في أثناء الطريق، فتولّى القيادة بعده الحصين بن النمير السكوني، وحاصر مكة، وفي أثناء المحاصرة ورد نعي يزيد في ربيع الآخر عام ٦٤، فاضطرّ الحصين إلى العودة إلى الشام، ولمّا هلك يزيد، قام بأعباء الخلافة معاوية بن يزيد، ولكنه مات بعد أن خلع نفسه عن الخلافة، فرأى البيت الأموي خطورة الموقف، فأجمعوا على البيعة لمروان بن الحكم، وانتقل الملك من البيت السفياني إلى البيت المرواني عام ٦٥، وكان ابن الزبير مستولياً على الحجاز عامّة وفي ضمن ذلك، الحرمان الشريفان .

استغلال الخوارج الظروف الحرجة:

وقد استغلّت الخوارج تلك الظروف الحرجة بعدما لاقوا من عبيدالله بن زياد مالاقوا وقرّروا الانضمام لعبدالله بن الزبير لمحاربة الشاميين:

قال الطبري: لمّا ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ماركب، وقد كان قبل ذلك لا يكف عنهم ولا يستبقيهم، غير أنّه بعد ما قتل أبا بلال، تجرّد لاستئصالهم وهلاكهم واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة... فقال نافع بن الأزرق للخوارج: إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتجّ عليكم بالبيان، وقد جرّد فيكم السيوف أهل الظلم، وأولوا العدى والغشم، وهذا من قد ثار بمكة، فخرجوا بنا نأتي البيت، ونلقي هذا الرجل فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو، وإن كان على غير رأينا، دافعنا عن البيت ما استطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا، فخرجوا حتى قدموا على

عبدالله بن الزبير، فسرّ بمقدمهم ونبأهم أنّه على رأيهم، وأعطاهم الرضا من غير توقّف ولا تفتيش، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام عن مكّة .

ثمّ إنّ القوم لقى بعضهم بعضاً فقالوا: إنّ الذي صنعتُم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعلّه ليس على رأيكم، إنّما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادي: يا لثارات عثمان، وسلوه عن عثمان، فإن برئ منه كان وليكم، وإن أبى كان عدوكم. فمشوا له فقالوا له: أيّها الإنسان إنّنا قاتلنا معك ولم نفتش عن رأيك، أمّا أنت أم من عدونا فأخبرنا: ما مقاتلتك في عثمان؟

فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليل، فقال لهم: إنّكم أتيتُموني، فصادفتُموني حين أردت القيام، ولكن روحوا إليّ العشيّة، حتى اعلمكم من ذلك الذي تريدون، فانصرفوا، وجاءت الخوارج وقد أقام أصحابه حوله وعليهم السلاح ، وقامت جماعة منهم عظيمة على رأسه، بأيديهم الأعمدة، فقال ابن الأزرق لأصحابه: خشى الرجل غائلكم وقد ازمع بخلافكم، واستعدّ لكم ماترون. فدنا منه ابن الأزرق فقال له: يا ابن الزبير اتّق الله ربّك وابغض الخائن المستأثر، وعاد أول من سنّ الضلالة وأحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب، فإنّك إن تفعل ذلك، ترضي ربّك، فتنتج من العذاب الأليم نفسك، فإن تركت ذلك، فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم وأذهبوا في الحياة الدنيا طيّباتهم.

ثمّ أمر ابن الأزرق عبدة بن هلال أن يتكلّم عنهم بما يريدون، فقال: إنّ الناس استخلفوا عثمان بن عفان فحمى الحمى، فأثر القربى، واستعمل الفتى، ورفع الدرة، ووضع السوط، ومزّق الكتاب، وحقّر المسلم، وضرب منكري

الجور، وأوى طريد الرسول ﷺ وضرب السابقين بالفضل وسيّرهم وحرّمهم، ثم أخذ في الله الذي آفاه عليهم فقسّمه بين فسّاق قريش، ومُجّان العرب، فصارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته، لا يبالون في الله لومة لائم، فقتلوه، فنحن لهم أولياء، ومن ابن عفان وأوليائه براء، فما تقول أنت يا ابن الزبير؟

وروى المبرّد في الكامل: ان ابن الأزرق سأل ابن الزبير في الغداة الذي جاء إليه وقال: ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً، قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى، وأوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئاً، وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وأثرهم بفيء المسلمين؟

وما تقول في الذي بعده، الذي حكّم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم؟

وما تقول في أبيك وصاحبه وقد بايعا عليّاً وهو إمام عادل مرضي لم يظهر منه كفر، ثم نكنا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجنا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصاحبها أن يقرن في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة، فإن أنت كما نقول فلك الزلفة عند الله .

ثم إنّ ابن الزبير ترك التقية وأصحر بالعقيدة بما يخالف عليه الخوارج في حق عثمان وحق أبيه، فلما سمع ذلك الخوارج تفرّقوا عنه^(١) .

فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي وعبدالله بن صفار السعدي من بني صريم، وعبدالله بن اباض أيضاً من بني صريم، وحنظلة بن بيهس، وبنو الماحوز، عبدالله وعبيدالله والزبير من بني سليط، حتى أتوا البصرة.

وانطلق أبو طالوت وعبدالله بن ثور (أبوفديك) وعطية بن الأسود

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٦ - ٤٣٨. المبرّد: الكامل: ٢/٢٠٣ - ٢٠٨.

(١٨٦)

اليشكري إلى الإمامة فوثبوا بالإمامة مع أبي طالوت، ثم أجمعوا بعد ذلك على إمامة نجدة بن عامر الحنفي وذلك في سنة ٦٤ (١).

وقال الشهرستاني: كان نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق قد اجتمعا بمكة مع الخوارج على ابن الزبير ثم تفرقا عنه، فذهب نافع إلى البصرة ثم الأهواز، وذهب نجدة إلى الإمامة. قال نافع: النقيّة لا تحلّ، والقعود عن القتال كفر، فخالفه نجدة، وقال بجواز النقيّة متمسكاً بقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (٢). وبقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ (٣) وقال: القعود جائز والجهاد إذا أمكنه أفضل. قال الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤). (٥)

ولما أظهر نافع آراء شاذة عن الكتاب والسنة والفطرة الإنسانية، فارقت جماعته كانوا معه، منهم «أبو فديك» وعطية الحنفي وراشد الطويل، وتوجهوا لطلب الإمامة، فأخبروا نجدة بأحداثه وبدعه. فكتب إليه نجدة بكتاب نَقَمَ عليه أحداثه واستدلّ بآيات واضحة المعنى، وأجاب نافع بكتاب وأوّل ما استدللّ به زميله من الآيات، وكان هو هذا انشقاقاً عظيماً بين الخوارج، ويعرب عن وحشيّة الأزارقة، وجمود قلبهم، ونزع الرحمة منهم، فكانت جمادات متحرّكة شريفة سجّلوا لأنفسهم في التاريخ أكبر العار، وأفطع الأعمال إلى حدّ تبرأ عنهم، سائر الفرق وليس ذلك ببعيد، فهؤلاء أتباع المحكّمة الأولى الذين ذبحوا عبدالله بن خباب وبقروا بطن زوجته المقرب المتمدن، تلمس حدّ الشقاء

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨.

٢. آل عمران: ٢٨.

٣. غافر: ٢٨.

٤. النساء: ٩٥.

٥. الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٥.

من كتاب نجدة إلى نافع ومن اجابة الثاني.

قال المبرد: إِنَّ أصحاب «نجدة» رأوا أَنَّ نافعاً قد كَفَّرَ القعدة ورأى الاستعراض وقتل الأطفال، انصرفوا مع نجدة، فلمَّا صار نجدة باليمامة كتب إلى نافع.

كتاب نجدة إلى نافع:

أما بعد: فَإِنَّ عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البر - تعاضد قوي المسلمين، و تصنع للأخرق منهم - لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم، كذلك كنت أنت و أصحابك. أو ما تذكر قولك: لولا اني أعلم أَنَّ للإمام العادل أجر رعيتته، ماتوليتُ أمر رجلين من المسلمين. فلمَّا شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء مرضاته، وأصبت من الحق فضّه (١)، وركبت مرّه، تجرّد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأةً منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك وأغواك، فُغُويتَ، وأكفرت الذين عذرهم الله تعالى في كتابه، من قعدة المسلمين وضعفتهم، قال الله عزّوجلّ، وقوله الحق، ووعد الصديق: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٢): ثمّ سمّاهم تعالى أحسن الأسماء فقال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٣) ثم استحللت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٤)، وقال سبحانه في القعدة خيراً، فقال:

١. فضّه: كنهه.

٢. التوبة: ٩١.

٣. التوبة: ٩١.

٤. الاسراء: ١٥.

﴿ وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(١) فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين، أو ماسمعت قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ ﴾^(٢) فجعلهم من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم، ثم إنك لا تؤدّي أمانةً إلى من خالفك، والله تعالى قد أمر أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها، فاتق الله في نفسك، واتق يوماً لا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل، والسلام.

اجابة نافع عن كتاب نجدة:

أما بعد: أتاني كتابك تعظني فيه، وتذكرني وتنصح لي وتزجرني، وتصف ما كنت عليه من الحق، و ماكنت أؤثره من الصواب، وأنا أسأل الله أن يجعلني من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وعبت على مادنت، من إكفار القعدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك لم ذلك إن شاء الله....

أما هؤلاء القعدة، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد تفقهوا في الدين، وقرأوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح. وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم، قالوا: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣). فقال: ﴿ أَلَمْ

١. النساء: ٩٥.

٢. النساء: ٩٥.

٣. النساء: ٩٧.

تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا»^(١) وقال سبحانه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) وقال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾^(٣) فخبر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفال، فإن نوحاً نبي الله، كان أعلم بالله مّني ومنك، وقد قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٥) فسمّاهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا تقوله في قومنا، والله تعالى يقول: ﴿اَكْفُرْكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾^(٦) وهؤلاء كمشركي العرب، لا يقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم إلا السيف، والإسلام.

وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله تعالى أحلّ لنا أموالهم، كما أحلّ دماءهم لنا، فدمائهم حلال طلق^(٧) وأموالهم فيء للمسلمين، فاتق الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنّا وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا، والسلام على من أقرّ بالحق و عمل به^(٨) .

١. النساء: ٩٧.

٢. التوبة: ٨١.

٣. التوبة: ٩٠.

٤. التوبة: ٩٠.

٥. نوح: ٢٦ - ٢٧.

٦. القمر: ٤٣.

٧. يقال: حلال طلق، أي حلال طيب.

٨. المبرد: الكامل ٢١٠/٢ - ٢١٢، ونقلهما ابن أبي الحديد في الشرح لاحظ ١٣٧/٤ - ١٣٩.

(١٩٠)

هذا هو نافع بن الأزرق، وهذا غلو منهجه وتطرّفه الفكري، حيث يجوز استعراض الناس والتفتيش عن عقائدهم وقتل الأطفال إلى غير ذلك.

وأما خروجه فقد بسط الكلام فيه المؤرخون^(١) على وجه لا يسعنا نقله وإنّما نكتفي بما لخصه البغدادي.

قال البغدادي: ثمّ الأزارقة بعد اجتماعها على البدع التي حكيناها عنهم بايعوا نافع بن الأزرق وسمّوه أمير المؤمنين، وانضمّ إليهم خوارج عمان واليمامة فصاروا أكثر من عشرين ألفاً، واستولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس وكرمان وجبوا خراجها.

رسالة نافع إلى محكمة البصرة^(٢):

وكتب إلى من بالبصرة من المحكمة: أما بعد فإنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلاّ وانتم مسلمون، إنكم لتعلمون أنّ الشريعة واحدة، والدين واحد، فقيم المقام بين أظهر الكفار، ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله عزّوجلّ إلى الجهاد، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٣) ولم يجعل لكم في التخلّف عذراً في حال من الأحوال فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(٤) وإنّما عذر الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، ومن كانت اقامته لعلّة، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥)، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا، فإنّها غرارة

١. ذكر ابن أبي الحديد مفصل حروب الأزارقة في شرحه، لاحظ ١٣٦/٤ - ٢٧٨.

٢. المبرّد: الكامل ٢١٣/٢.

٣. التوبة: ٣٦.

٤. التوبة: ٤١.

٥. النساء: ٩٥.

مكّارة، لذّتها نافذة، ونعيمها بائد، حُفَّتْ بالشهوات اغتراراً، وأظهرت حَبْرَةً^(١) وأضمرت عبرة، فليس أكلٌ منها أكلةٌ تَسْرَهُ، ولا شاربٌ منها شربةٌ تونقه^(٢) إلاّ دناؤها درجةً إلى أجله، وتباعد بها مسافة من أمله، وإيّما جعلها الله دار المتزوّد منها، إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حليم قراراً، فاتّقوا الله وتزوّدوا، فإنّ خير الزاد التقوى، والسلام على من اتّبع الهدى.

قال المبرّد: لمّا ورد كتابه عليهم وفي القوم يومئذ أبوبيّس هيصم بن جابر الضبّي، وعبدالله بن اباض المري، فأقبل أبوبيّس على ابن أباض فقال: إنّ نافعا غلا فكفر، وإنّك قصّرت فكفرت تزعم أنّ من خالفنا ليس بمشرك، وإنّا كفّار النعم، لتمسّكهم بالكتاب، وإقرارهم بالرسول، تزعم أنّ مناكحهم ومواريتهم والاقامة فيهم حلّ طلق، ثم أدلى أبوبيّس برأيه وسيوافيك في محلّه .

ويظهر من هذا الكتاب والكتاب الذي كتبه إلى عبدالله بن الزبير^(٣): إنّ نافع بن الأزرق كان من المتطرّفين بين الخوارج، ولم نجد في تاريخ الخوارج أشدّ تطرّفاً منه.

ثم إنّ عامل البصرة يومئذ عبدالله بن الحارث الخزاعي من قبل عبدالله بن الزبير، فأخرج عبدالله بن الحارث جيشاً مع مسلم بن عيسى بن كرز بن حبيب بن عبد شمس لحرب الأزارقة، فاقتتل الفريقان بدولاب الأهواز، فقتل مسلم بن عيسى وأكثر أصحابه، فخرج إلى حربهم من البصرة عمر بن عبيدالله بن معمر التميمي في ألفي فارس، فهزمت الأزارقة، فخرج إليهم حارثة بن بدر الغداني

١. الحبرة: النعمة .

٢. تونقه: تعجبه .

٣. المبرّد: الكامل ٢/٢١٢ .

في ثلاثة آلاف من جند البصرة، فهزمتهم الازارقة، فكتب عبدالله بن الزبير من مكة إلى المهلب بن أبي صفرة^(١) و هو يومئذ بخراسان يأمره بحرب الازارقة وولاه ذلك، فرجع المهلب إلى البصرة، وانتخب من جندها عشرة آلاف، وانضم إليه قومه من الأزدي فصار في عشرين ألفاً، وخرج وقاتل الازارقة وهزمهم عن دولا ب الأهواز إلى الأهواز، ومات نافع ابن الأزرق في تلك الهزيمة وبايعت الازارقة بعده عبيدالله بن مأمون التميمي، وقاتلهم المهلب بعد ذلك بالأهواز فقتل عبدالله بن مأمون في تلك الواقعة، وقتل أيضاً أخوه عثمان بن مأمون مع ثلاثمائة من أشد الازارقة، وانهزم الباقون منهم إلى أيدج وبايعوا قطري بن الفجاءة^(٢) وسموه أمير المؤمنين، وقاتلهم المهلب بعد ذلك حروباً سجلاً^(٣)، وانهزمت الازارقة في آخرها إلى سابور من أرض فارس، وجعلوها دار هجرتهم، وثبت المهلب وبنوه وأتباعهم على قتالهم تسع عشرة سنة، بعضها في أيام عبدالله بن الزبير، وبقائها في زمان خلافة عبدالملك بن مروان وولاية الحجاج على العراق، وقرّر الحجاج المهلب على حرب الازارقة، فدامت

١. هو أبو سعيد: المهلب بن أبي صفرة - واسم أبي صفرة ظالم بن سراق، الأزدي، من أزد العتيك. كان المهلب من أشجع الناس. وهو الذي حمى البصرة من الخوارج حتى سماها الناس بصره المهلب. ولّاه عبدالله بن الزبير خراسان في سنة ٦٥، فحارب الازارقة وأفنى منهم عدداً كثيراً، ثم ولي قتالهم في عهد عبدالملك ابن مروان، وفي شهر ذي الحجة من سنة ٨٢ مات (المعارف ٣٩٩، العبر: ٧٢/١ - ٧٥ - ٧٧ - ٨٨ - ٩٢ - ٩٥).

٢. هو أبو نعام: قطري بن الفجاءة، أحد بني حرقوص بن مازن بن مالك ابن عمرو بن تميم، خرج في أيام عبدالله بن الزبير وبقي عشرين سنة يسلم عليه بالخلافة، وفي أيام عبدالملك بن مروان وجّه إليه الحجاج جيشاً بعد جيش، وكان آخرها بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي، فقتله - ويقال: عثر به فرسه فمات - وأتى الحجاج برأسه، وذلك في سنة ٧٩ (المعارف ٤١١، العبر: ٩٠/١).

٣. تقول «كانت الحرب بين الفريقين سجلاً» تعني أنّ النصر يكون لهذا الفريق مرّة ولذلك مرّة أخرى، وأصل السجل جمع سجل وهو الدلو.

الحرب في تلك السنين بين المهلب وبين الازارقة وفروافيمما بين فارس والأهواز، إلى أن وقع الخلاف بين الازارقة وفارق عبد ربّه الكبير قطرياً وصار إلى واد بجيرفت كرمان في سبعة آلاف رجل، وفارقه عبد ربّه الصغير في أربعة آلاف، وصار إلى ناحية أخرى من كرمان، وبقي قطري في بضعة عشر ألف رجل بأرض فارس، وقاتله المهلب بها، وهزمه إلى أرض كرمان و تبعه وقاتله بأرض كرمان وهزمه منها إلى الري، ثم قاتل عبد ربّه الكبير فقتله، وبعث بابنه يزيد بن المهلب إلى عبد ربّه الصغير فأتى عليه و على أصحابه، وبعث الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش كثيف إلى قطري بعد أن انحاز من الري إلى طبرستان فقتلوه بها، وأنفذوا برأسه إلى الحجاج وكان عبيدة بن هلال الشكري^(١) قد فارق قطرياً وانحاز إلى قومس، فتبعه سفيان بن الأبرد وحاصره في حصن قومس إلى أن قتله وقتل أتباعه، وطهر الله بذلك الأرض من الازارقة، والحمد لله على ذلك^(٢).

وفي الختام نقول: يظهر من كتبه ورسائله أنّ الرجل كان حافظاً للقرآن، ومقرئاً له، ويؤيد ذلك ما نقله السيوطي أنّ نافع بن الأزرق لما رأى عبدالله بن عباس جالساً بفناء الكعبة، وقد اكتنفه الناس ويسألونه عن تفسير القرآن، فقال لنجدة بن عويمر الحروري: قم بنا إلى هذا الذي يجتري على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقه من كلام العرب، فإنّ الله تعالى أنزل القرآن بكتاب عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عمّا بدالكُم، فقال نافع: أخبرني عن قول

١. عبيدة بن هلال: أحد بني يشكر بن بكر بن وائل.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٤٧٦. والجزري: الكامل ٣/٣٤٩. ابن عبدربه: العقد الفريد ١/٩٥ - ١٢١.

(١٩٤)

الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾^(١).

قال: العزون حلق الرقاق، فقال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيزا

ثم سألاه عن أشياء كثيرة عن لغات القرآن الغريبة، ففسرها مستشهداً بالشعر الجاهلي، وربما تبلغ الأسئلة والأجوبة إلى مائتين، ولو صحّت تلك الرواية لدلت على صلة السائلين بالقرآن صلة وثيقة، كما تدلّ على نبوغ ابن عباس في الأدب العربي وإلمامه بشعر العرب الجاهلي حيث استشهد على كل لغة فسرها بشعر عنهم، فجاءت الأسئلة والأجوبة في غاية الاتقان^(٢).

إنّ ابن الأرزق كان يتعلّم من ابن عباس ما يجمله من مفاهيم القرآن، نقل عكرمة عن ابن عباس أنّه بينما كان يحدث الناس إذ قام إليه نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس تفتي الناس في النملة و القملة؟ صف لي إلهك الذي تعبد، فأطرق ابن عباس إعظاماً لقوله، وكان الحسين بن عليّ جالساً ناحية فقال: إليّ يا ابن الأزرق، قال ابن الأزرق: لست إياك أسأل، قال ابن عباس: يا ابن الأزرق، إنّ من أهل بيت النبوة وهم ورثة العلم، فأقبل نافع نحو الحسين، فقال له الحسين: يا نافع إنّ من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس، سائلاً ناكباً عن المنهاج، ظاعناً بالاعوجاج، ضالّاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل.

يا ابن الأزرق أصف إلهي بما وصف به نفسه و أعرفه بما عرّف به نفسه: لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منقص،

١. المعارج: ٢٧.

٢. السيوطي الانتقان ٣٨٢/١ - ٤١٦ ط دار ابن كثير دمشق بيروت، تحقيق الدكتور مصطفى .

(١٩٥)

يؤخذ ولا يتبع، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

فبكى ابن الأزرق، وقال: يا حسين ما أحسن كلامك؟ قال له الحسين: بلغني أنك تشهد على أبي وعلى أخي بالكفر وعلي؟ قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام ونجوم الأحكام. فقال له الحسين: إنني سائلك عن مسألة. قال: اسأل، فسأله عن هذه الآية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾^(١).

يا ابن الأزرق من حفظ في الغلامين؟ قال ابن الأزرق: أبوهما. قال الحسين: فأبوهما خير أم رسول الله ﷺ؟ قال ابن الأزرق: قد أنبأنا الله تعالى أنكم قوم خصمون^(٢).

آراء الأزارقة وعقائدهم:

- إنّ للأزارقة أهواء متطرّفة وبدعاً فظيعة وقد تشترك في بعضها مع سائر الفرق:
- ١ - قولهم: إنّ مخالفهم من هذه الأمة مشركون، وكانت المحكّمة الأولى يقولون: إنّهم كفرة لامشركون.
 - ٢ - قولهم: إنّ القعدة - ممّن كان على رأيهم - عن الهجرة إليهم مشركون.
 - ٣ - اوجبوا امتحان من قصد عسكرهم إذا ادّعى أنّه منهم: أن يدفع إليه أسيراً من مخالفهم ويأمره بقتله، فإن قتل صدّقه في دعواه أنّه منهم، وإن لم

١. الكهف: ٨٢.

٢. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق. قسم حياة الإمام الحسين: ١٥٨. بتحقيق محمد باقر المحمودي، والمجلدي: بحار الأنوار ٢٩٧/٤ (ذيل الحديث يحتاج إلى توضيح).

(١٩٦)

يقتله قالوا: هذا منافق مشرك، وقتلوه.

٤ - اباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم، والمقصود: المسلمون، وزعموا أنّ الأطفال مشركون، وقطعوا بأنّ أطفال مخالفيهم مخلّدون في النار مع آبائهم.

٥ - اسقاط الرجم عن الزاني، إذ ليس في القرآن ذكره، واسقاط حدّ القذف عمّن قذف المحصنين من الرجال^(١) مع وجوب الحدّ على قاذف المحصنات من النساء .

٦ - إنّ التقيّة غير جائزة في قول ولا عمل .

٧ - تجويزهم أن يبعث الله نبياً يعلم أنّه يكفر بعد نبوّته، أو كان كافراً قبل البعثة .

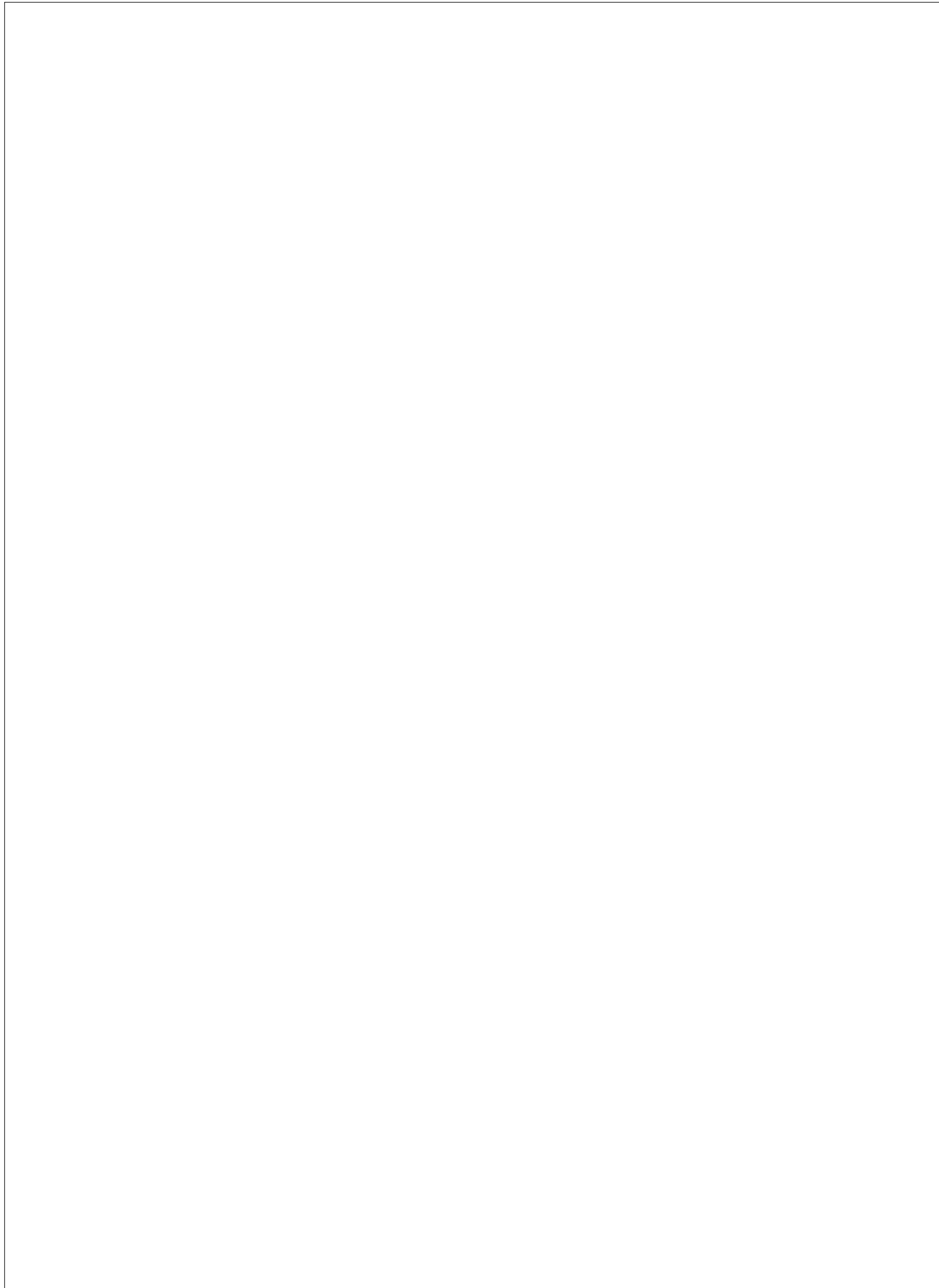
٨ - اجتمعت الازارقة على أنّ من ارتكب الكبيرة كفر كفر ملّة، خرج به عن الاسلام جملة، ويكون مخلّداً في النار مع سائر الكفّار، واستدلّوا بكفر ابليس وقالوا: ما ارتكب إلاّ كبيرة، حيث أمر بالسجود لآدم عليه السلام فامتنع، وإلاّ فهو عارف بوحدانيّة الله تعالى^(٢) .

٩ - إنّ دار مخالفيهم دار كفر، وقالوا: إنّ مخالفيهم مشركون فلا يلزمنا اداء أماناتهم إليهم، وسيوافيك تحليل عقائدهم في فصل خاص.

١. بحجة أنّه سبحانه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ (النور: ٤) ولم يقل: والذين يرمون المحصنين.

٢. البغدادى: الفرق بين الفرق: ٨٣، الشهرستاني: الملل والنحل ١٢١/١ - ١٢٣.

(١٩٧)



الفرقة الثانية:

النجديّة

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي، ومن الغريب أنّه كان للخوارج إمامان في وقت واحد، إمام في البصرة وهو نافع بن الأزرق، وإمام في اليمامة وأطرافها وهو نجدة بن عامر، وذلك أنّه لما أظهر نافع آراءه المستهجنة الشاذّة كالبراءة من القعدة حتّى سمّاهم مشركين، واستحلّ قتل أطفال مخالفيه ونسائهم، تبرّأ منه عدّة من الخوارج، منهم أبو فديك، وعطية الحنفي، وراشد الطويل، ومقلاص، وأيّوب الأزرق، فذهبوا إلى اليمامة، فاستقبلهم نجدة بن عامر في جند من الخوارج يريدون اللّحوق بعسكر نافع، فأخبروهم باحداث نافع وردّوهم إلى اليمامة، وبايعوا بها نجدة بن عامر، وكفّروا من قال بكفار القعدة منهم عن الهجرة إليهم، وأكفروا من قال بإمامة نافع، وأقاموا على إمامة نجدة إلى أن اختلفوا عليه في أمور نَقَموها منه.

ثم الذين اختلفوا عليه بعد ما اجتمعوا حوله صاروا ثلاث فرق:

١ - فرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفي ففارقهم إلى سجستان، وتبعهم خوارج سجستان، ولهذا قيل لخوارج سجستان في ذلك الوقت: عطوية .

٢ - فرقة صارت مع أبي فديك وهم الذين قتلوا نجدة .

٣ - وفرقة عذروا نجدة في ما أحدثه من البدع وأقاموا على إمامته.

والذين خالفوه نقموا عليه الأمور التالية:

الف - إنه بعث جيشاً في غزو البر وجيشاً في غزو البحر، ففضل الذين بعثهم في البر على الذين بعثهم في البحر في الرزق والعطاء.

ب - بعث جيشاً فأغاروا على مدينة الرسول ﷺ وأصابوا منها جارية من بنات عثمان، فكتب إليه عبدالملك في شأنها، فاشترها نجدة من الذي كانت في يديه، وردّها إلى عبدالملك بن مروان، فقالوا له: إنك رددت جارية لنا على عدونا.

ج - عذر أهل الخطأ في الاجتهاد إذا كان سببه الجهل وذلك يعود إلى الحادثة التالية:

بعث ابنه المضرج مع جند من عسكره إلى القطيف، فأغاروا عليها، وسبوا منها النساء والذرية وقوموا النساء على أنفسهم، فنكحوهنّ قبل اخراج الخمس من الغنيمة، وقالوا: إن دخلت النساء في قسمنا فهو مرادنا، وإن زادت قيمتهنّ على نصيبنا من الغنيمة غرما الزيادة من أموالنا، فلمّا رجعوا إلى «نجدة» وسألوه عمّا فعلوا من وطء النساء، ومن أكل طعام الغنيمة قبل اخراج الخمس منها، وقبل قسمة أربعة أخماسها بين الغانمين، قال لهم: لم يكن لكم ذلك، فقالوا: لم نعلم أنّ ذلك لا يحلّ لنا، فعذّرهم بالجهالة. ثم قال: إنّ الدين

أمران:

أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة رسله - عليهم الصلاة والسلام - ، وتحريم دماء المسلمين - يعنون موافقيهم - والاقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب على الجميع، والجهل به لا يعذر فيه.

والثاني: ما سوى ذلك، فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليه الحجة في الحلال والحرام.

قالوا: ومن جَوَزَ العذاب على المجتهد المخطئ في الأحكام قبل قيام الحجة عليه فهو كافر.

د - تولى أصحاب الحدود من موافقيه وقال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم في غير نار جهنم ويدخلهم الجنة، وزعم أن من خالفه في دينه يدخل النار.
هـ - أسقط حد الخمر^(١).

و - من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة، وأصر عليها فهو مشرك، ومن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر عليه فهو مسلم، إذا كان من موافقيه على دينه.
ولهذه البدع، استتابه أكثر أتباعه وقالوا: أخرج إلى المسجد، وتب من أحداثك في الدين، ففعل ذلك.

ثم إن قوماً منهم ندموا على استتابته، وانضموا إلى العاذرين له، وقالوا له: أنت الإمام ولك الاجتهاد ولم يكن لنا أن نستتيبك، فتب من توبتك، واستتب الذين استتابوك وإلا نابذناك، ففعل ذلك، فافترق عليه أصحابه، وخلعه أكثرهم، وقالوا له: اختر لنا إماماً، فاختر «أبافديك». وصار «راشد الطويل»

١. هذا ما يقوله البغدادي، ويقول الشهرستاني: غلظ على الناس من حد الخمر تغليظاً شديداً، والظاهر صحة الثاني لكون نجدة من الخوارج.

(أحد رؤساء الخوارج) مع «أبي فديك» يداً واحدة، فلما استولى أبو فديك على اليمامة علم أنّ أصحاب نجدة إذا عادوا من غزواتهم أعادوا نجدة إلى الإمارة فطلب نجدة ليقتله فاختفى نجدة في دار بعض عاذريه، ينتظر رجوع عساكره الذين كان قد فرّقهم في سواحل الشام و نواحي اليمن، ونادى منادي «أبي فديك»: من دلّنا على «نجدة» فله عشرة آلاف درهم، وأي مملوك دلّنا عليه فهو حر، فدلت عليه أمة، فأنفذ أبوفديك «راشد الطويل» في عسكر إليه فكبسوه وحملوا رأسه إلى «أبي فديك» .

ولما قُتِلَ نجدة فصارت النجدات بعده ثلاث فرق:

١ - فرقة اكفرته وصارت إلى أبي فديك، كراشد الطويل، وأبي بيهس، وأبي الشمراخ وأتباعهم.

٢ - فرقة عدّته فيما فعل، وهم النجدات.

٣ - وفرقة من النجدات هاجروا من اليمامة، وكانوا بناحية البصرة شكوا فيما حكي من أحداث نجدة وتوقفوا في أمره وقالوا: لاندري هل أحدث تلك الأحداث أم لا؟ فلانبرأ منه إلّا باليقين.

وبقى أبوفديك بعد قتل نجدة إلى أن بعث إليه عبدالملك بن مروان، عمر بن عبيدالله بن معمر التميمي في جند فقتلوا أبا فديك، وبعثوا برأسه إلى عبدالملك بن مروان، فهذه قصة النجدات (١) .

وبالامعان فيما نقلنا عنه من الآراء يظهر مذهب النجدية، وأنّهم كانوا أخف وطأة من الأزارقة وتتلخّص الأفكار التي امتازوا بها عن غيرهم من فرق الخوارج في الأمور التالية:

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ٨٧- ٩٠: الأشعري: مقالات الإسلاميين ٨٩/١؛ الشهرستاني: الملل والنحل ١٢٢/١ - ١٢٥

- ١ - التقيّة جائزة ^(١).
 - ٢ - تعذير قعدة المسلمين وضعفتهم.
 - ٣ - تحريم قتل الأطفال .
 - ٤ - لزوم رد أمانة المخالف ^(٢) .
 - ٥ - لا حاجة للناس إلى إمام قط، وإنّما عليهم أن يتناصحوا فيما بينهم، فإن هم رأوا أنّ ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه، جاز ^(٣) .
 - ٦ - تولّي أصحاب الحدود والجنايات من موافقيه.
 - ٧ - من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة وأصرّ عليها فهو مشرك (ولعله في حقّ مخالفينهم) ومن زنى، وسرق، وشرب الخمر غير مصرّ عليه فهو مسلم، إذا كان من موافقيه على دينه ^(٤) .
- هذه آراؤهم وسوف نرجع إلى دراسة هذه الموضوعات في فصل خاص.
- وأخيراً نعيد ما ذكرناه: انقسمت النجديّة بعد «نجدة» إلى ثلاث فرق هم: النجديّة والفديكية، والعطوية ^(٥) .
- وهذا يدل على أنّ كثيراً من الفرق كانت فرقاً سياسية، لادينية.

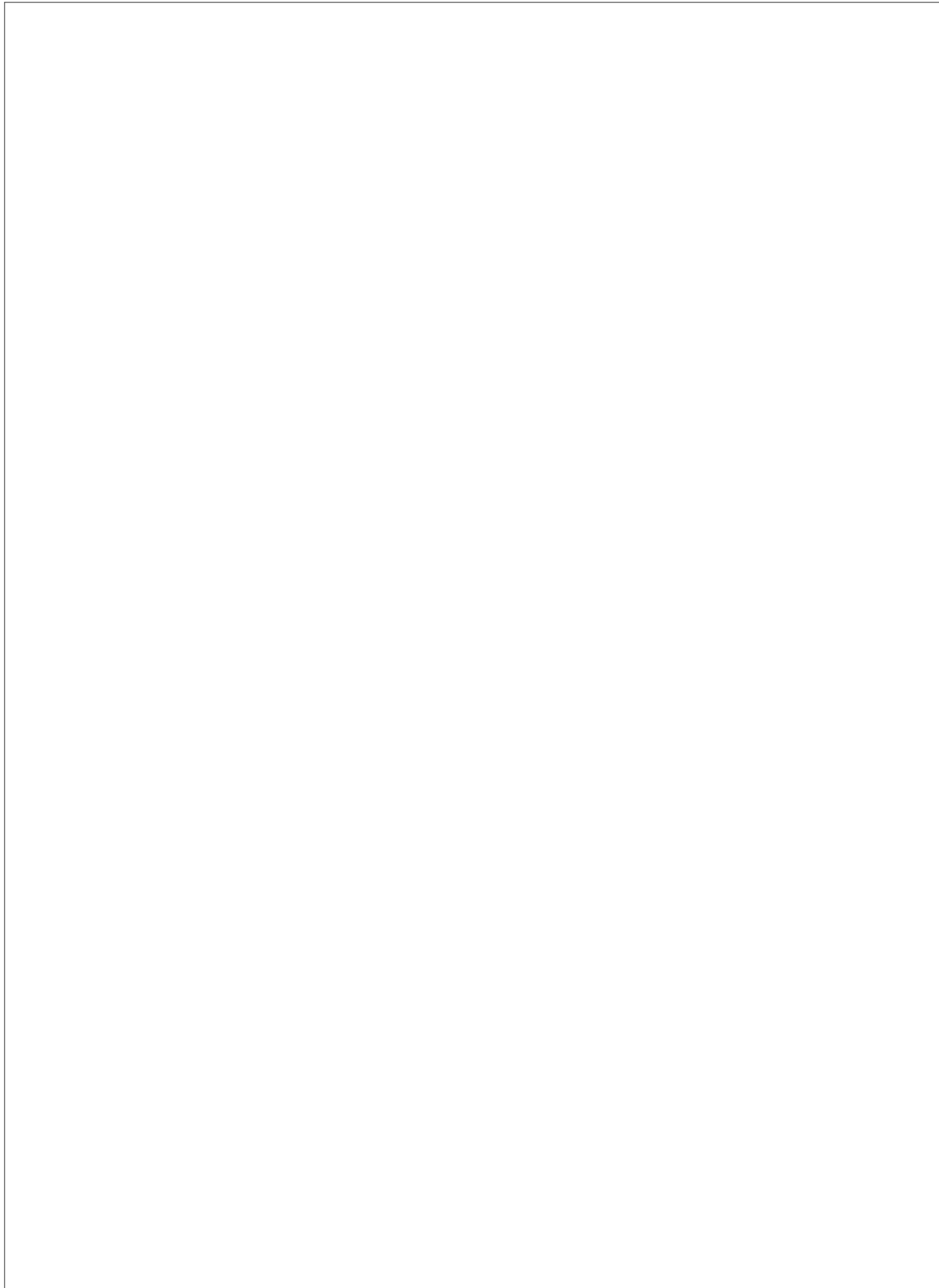
١. ولو صحّ ذلك كما هو صريح كتاب نجدة لا يصحّ ما نسب إليهم الأشعري في مقالاته من أنّهم استحلّوا دماء أهل المقام وأموالهم في دار التقيّة وبرأوا ممّن حرّمها، الأشعري: مقالات الاسلاميين ٩١/١ .

٢. لاحظ في هذا الأصول الأربعة كتاب نجدة إلى نافع تجد فيه تلك الآراء.

٣. الشهرستاني: الملل والنحل ١٢٤/١ .

٤. الأشعري: مقالات الإسلاميين ٩١/١ .

٥. الأشعري: مقالات الإسلاميين ٩٢/١ .



الفرقة الثالثة:

البیهسية

البیهسية من الخوارج ينسبون إلى أبي بیهس و اسمه هیصم بن جابر وهي فرقة مستقلة، لاصلة لها بالإبراهيمية والميمونية، وإنما تدخلت في الخلاف الذي حدث بين تلك الفرقتين، والفرقتان من الاباضية كما سنبين:

قد وقفت عند الكلام في الأزارقة على أنّ أبيبیهس هیصم بن جابر الضبعي وعبدالله بن اباض كانا في وقت واحد، وكان لنافع قيادة روحية مثلما كان لعبدالله بن اباض أو أقوى، وإنما خرج أبو بیهس بمنهج عندما ظهر له غلو نافع و تقصير عبدالله بن اباض، حيث إنّ نافع غلا في البراءة من المسلمين وجوّز استعراضهم والتفتيش عن عقائدهم واستحلّ أماناتهم وقتل أطفالهم .

بينما عبدالله بن اباض قد قصّر (أي في التطرف) حيث إنّ المخالفين عندهم كفّار ولكن كفّار في النعم كما عدّ سبحانه وتعالى تارك الحج مع

الاستطاعة كافراً وقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمِنْ كَفَرٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) وجوّز منّاكهم ومواريتهم والاقامة في بلدهم.

عند ذلك أدلى أبو بيهس بأول رأيه حيث اعتبر أنّ هناك إفراطاً وتفريطاً والحق الوسط، يقول: إنّ أعداءنا كأعداء رسول الله، تحلّ لنا الاقامة فيهم، خلافاً لنافع كما فعل المسلمون خلال اقامتهم بمكة وأحكام المسلمين تجري عليهم، وزعم أنّ منّاكهم ومواريتهم تجوز لأنّهم منافقون يظهرون الإسلام، وإنّ حكمهم عند الله حكم المشركين.

قال المبرّد: فصارت الخوارج في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل:

١ - قول نافع في البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال.

٢ - قول أبي بيهس الذي ذكرناه.

٣ - وقول عبدالله بن إباح وهو أقرب الأقوال إلى السنّة من أقاويل الضلال^(٢).

ثمّ إنّ البيهسية انقسمت إلى فرق :

١ - العوفية.

٢ - أصحاب التفسير.

٣ - أصحاب السؤال، وهم أصحاب شبيب النجراني .

ولنذكر المشتركات بين هاتيك الفرق، ثمّ نذكر المميّزات، أمّا الأولى فقال أبو بيهس: لا يسلم أحد حتّى يقرّ بمعرفة الله، ومعرفة رسوله، ومعرفة ما جاء به محمّد جملة، والولاية لأولياء الله سبحانه، والبراءة من أعداء الله وما

١. آل عمران: ٩٧.

٢. المبرّد: الكامل ٢١٤/٢ وأضاف أنّ الصفرية والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن إباح .
(٢٠٦)

حرّم الله سبحانه ممّا فيه الوعيد ، فلا يسع الإنسان إلّا علمه ومعرفة بعينه، وتفسيره .
ومنه ما ينبغي أن يعرفه باسمه ولا يبالي أن لا يعرف تفسيره و عينه حتى يبتلى به، وعليه
أن يقف عند ما لا يعلم، ولا يأتي شيئاً إلّا بعلم.

وفي مقابل البيهسية من قال: قد يسلم الإنسان بمعرفة وظيفة الدين، وهي شهادة أن لا
إله إلّا الله، وأنّ محمداً ﷺ عبده و رسوله، والاقرار بما جاء من عند الله جملة^(١)، والولاية
لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله وإن لم يعرف ما سوى ذلك فهو مسلم.

ثمّ إنّ مسلم حتى يبتلى بالعمل، فمن واقع شيئاً من الحرام، ممّا جاء فيه الوعيد،
وهو لا يعلم أنّه حرام، فقد كفر، ومن ترك شيئاً من كبير ما افترضه الله سبحانه عليه وهو لا يعلم
فقد كفر، فإن حضر أحد من أوليائه موقعة من واقع الحرام وهو لا يدري أحلال أم حرام، أو
اشتبه عليه، وقف فيه، فلم يتولّه ولم يبرأ منه حتى يعرف أحلال ركب أم حرام؟ .

قالت البيهسية: الناس مشركون بجهل الدين^(٢)، مشركون بموقعة الذنوب، وإن كان ذنب
لم يحكم الله فيه حكماً مغلطاً ولم يوقفنا على تغليظه فهو مغفور، ولا يجوز أن يكون أخفى
أحكامه عنّا في ذنوبنا، ولو جاز ذلك جاز في الشرك^(٣) .

وقالوا: التائب في موضع الحدود، وفي موضع القصاص، والمقرّ على

١. الفرق بين الفرقتين: هو أنّ البيهسية التزموا بالمعرفة جملة، وهؤلاء اكتفوا بالاقرار جملة، والفرق بينهما واضح، فإنّ
المعرفة تستلزم المعرفة التفصيلية دون الاقرار .

٢. ذلك لازم الأصل الأوّل من اشتراط تحقّق الإسلام بمعرفة ما جاء به محمد ﷺ .

٣. يريد أنّ المعاصي الكبيرة لا تكون خفية علينا، ولو جاز خفاؤها لجاز خفاء حكم الشرك.

(٢٠٧)

نفسه يلزمه الشرك إذا أقرّ من ذلك بشيء وهو كافر، لأنّه لا يحكم بشيء من الحدود والقصاص إلّا على كل كافر يشهد عليه بالكفر عندالله^(١).

هذه هي الأحكام المشتركة بين جميع فرق البيهسية ولب الجميع عبارة عن أمرين:

١ - لزوم معرفة ما جاء به النبي على وجه التفصيل .

٢ - إنّ مرتكب الكبائر مشرك خصوصاً فيما إذا كان في موضع الحد.

نعم هناك فرق من البيهسية اختصّوا ببعض الأحكام، نذكر منها ما يلي:

الف - العوفية: وهم فرقتان: فرقة تقول: من رجع من دار هجرتهم ومن الجهاد إلى حال القعود نبراً منهم.

وفرقة تقول: لا نبراً منهم، لأنّهم رجعوا إلى أمر كان حلالاً لهم. وكلا الفريقين من العوفية يقولون: إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعية، الغائب منهم و الشاهد.

والبيهسية يبرأون، منهم وهم جميعاً يتولّون أبا بيهس، وقالت العوفية: السكر كفر، ولا يشهدون أنّه كفر حتى يأتي معه غيره كترك الصلاة، وما أشبه ذلك، لأنّهم إنّما يعلمون أنّ الشارب سكر إذا ضمّ إلى سكره غيره ممّا يدلّ على أنّه سكران^(٢).

ب - أصحاب التفسير: كان صاحب بدعتهم رجل يقال له الحكم بن مروان من أهل الكوفة، زعم أنّه من شهد على المسلمين لم تجز شهادتهم إلّا بتفسير الشهادة كيف هي. قال: ولو أنّ أربعة شهدوا على رجل منهم بالزنا لم تجز شهادتهم حتى يشهدوا كيف هو، وهكذا قالوا في سائر الحدود، فبرأت

١. وهذا مبني على كون ارتكاب الكبائر كفراً.

٢. إنّ العلم بالسكر يعلم بأدنى شيء ولا يتوقّف على ترك الصلاة.

(٢٠٨)

منهم البيهسية على ذلك وسمّوهم أصحاب التفسير.

ج - أصحاب السؤال: وهم الذين زعموا أنّ الرجل يكون مسلماً إذا شهد أن لا إله إلا الله و أنّ محمداً ﷺ عبده و رسوله، وتولّى أولياء الله وتبرّأ من أعدائه، وأقرّ بما جاء من عند الله جملة، وإن لم يعلم سائر ما افترض الله عليه ممّا سوى ذلك، أفرض هوأم لا؟ فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل به (فيسأل) (١).

وقالوا: في أطفال المؤمنين: إنّهم مؤمنون أطفالاً وبالغين، حتى يكفروا، وإنّ أطفال الكفار كفار، أطفالاً وبالغين حتى يؤمنوا.

وقالوا بقول المعتزلة في القدر (أي كون الأفعال منسوبةً إلى الإنسان دون سببها).
هذه هي البيهسية وهذه الفرق المتشعبة عنها.

وهاهنا آراء تنسب إلى بعض البيهسيين ولم يعرف قائلها.

منها قول بعض البيهسية: من واقع زنا، لم يُشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الإمام أو الوالي ويحد، فوافقهم على ذلك طائفة من الصفرية، إلّا أنّهم قالوا: نقف فيهم ولا نسمّيهم مؤمنين ولا كافرين .

منها قول بعضهم: إذا كفر الإمام كفرت الرعية، وإنّ الدار دار شرك وأهلها جميعاً مشركون، ولا يصلّى إلّا خلف من يعرف، وقالوا: بقتل أهل القبلة وأخذ الأموال واستحلال القتل والسبي على كل حال.

١. قد عرفت أنّ القدر المشترك بين البيهسية هولزوم معرفة ما جاء به محمداً ﷺ تفصيلاً، ولكن أصحاب السؤال اكتفوا بالاقرار الإجمالي، فعدهم من البيهسية موضع تأمل، وإن عده منهم الأشعري في مقالاته.
ثم إنّ الفرق بينهم وبين الفرقة المخالفة للبيهسية التي أوعزنا إليها في صدر البحث هو أنّهم يحكمون بالكفر إذا ابتلى بالعمل وهو لا يعلم أنّه حرام، وهذا بخلاف أصحاب السؤال فهم لا يحكمون بكفره بل يحكمون عليه بالسؤال .

منها: السكر من كل شراب، حلال موضوع عمّن سكرمنه، وكل ما كان في السكر من ترك الصلاة أو شتم الله سبحانه موضوع فيه، لا حدّ فيه، ولا حكم، ولا يكفر أهله بشيء من ذلك ماداموا في سكرهم، وقالوا: إنّ الشراب حلال الأصل، ولم يأت فيه شيء من التحريم لا في قليله ولا في اكثار أو سكر^(١).

وأما تدخل أبي بيهس في الخلاف الذي حدث بين الإبراهيمية والميمونية فحاصله أنّ رجلاً من الاباضية يعرف بإبراهيم، دعا قوماً من أهل مذهبه إلى داره، وأمر جارية له كانت على مذهبه بشيء، فأبطأت عليه فحلف لبيعتها في الأعراب، فقال له رجل منهم اسمه ميمون: كيف تبيع جارية مؤمنة إلى الكفرة؟ فقال له إبراهيم: إنّ الله تعالى قد أحلّ البيع وقد مضى أصحابنا وهم يستحلّون ذلك، فتبرأ منه ميمون وتوقّف آخرون منهم في ذلك وكتبوا بذلك إلى علمائهم، فأجابوهم بأنّ بيعها حلال، وبأنّه يستتاب ميمون، ويستتاب من توقّف في إبراهيم، فصاروا في هذا ثلاث فرق: أبراهيمية، وميمونية، وواقفة.

ثم إنّ البهسية قالوا: إنّ ميموناً كفر بأن حرّم الأمة في دار التقية من كفّار قومنا، وكفرت الواقفة بأن لم يعرفوا كفر ميمون وصواب إبراهيم، وكفر إبراهيم بأن لم يبرأ من الواقفة^(٢).

وأما مصير أبي بيهس، فقد طلبه الحجاج أيام الوليد فهرب إلى المدينة فطلبه بها عثمان بن حيّان المزني فظفر به وحبسه، وكان يسامر به إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله، ففعل ذلك به^(٣).

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١١٣/١ - ١١٨، والشهرستاني: الملل والنحل ١٢٥/١ - ١٢٧.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق ١٠٧ - ١٠٨.

٣. الشهرستاني: الملل والنحل ١٢٥/١.

الفرقة الرابعة:

الصفريّة

اختلفت كلمة أصحاب المقالات في مؤسس هذه الفرقة، فنرى أنّ المبرّد يعرفهم بأنّهم أصحاب ابن صفار، وأنّهم إنّما سمّوا بصفرة لصفرة علّتهم ويستشهد على ذلك بقول ابن عاصم الليثي، وكان يرى رأي الخوارج وصار مرجئاً.

فارقَتْ نجدة والذين تزرّقوا وابن الزبير وشيعة الكذاب
والصفر الآذان ^(١) الذين تخيّرُوا ديناً بلا ثقة ولا بكتاب
بينما الأشعري والشهرستاني ينسبانها إلى زياد بن أصفر ^(٢) .

١. قال المبرّد: خفف الهمزة من الاذان ولولاه لانكسر الشعر. (المبرّد: الكامل ٢/٢١٤).

٢. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١٠١، والشهرستاني: الملل والنحل ١/١٣٧.

ولكن يقول المقرئزي: إنهم أتباع زياد بن الأصفر ويضيف، ربّما يقال: إنهم أتباع النعمان بن الصفر، وقيل: بل نسبوا إلى عبدالله بن صفار، ويقال لهم أيضاً: الزيادة... ويقال لهم أيضاً: النّكّار من أجل أنّهم ينقصون نصف علي وثلاث عثمان وسدس عائشة^(١).

وعلى كل تقدير فهم كالأباضية أقرب الفرق إلى المسلمين:

١ - يخالفون الأزارقة في عذاب الأطفال، فإنهم لا يجيزون ذلك ولا يكفرونهم ولا يخلّدونهم في النار.

٢ - لم يكفّروا القعدة عن القتال - والمراد قعدة الخوارج - .

٣ - لم يسقطوا الرجم .

٤ - التقيّة جائزة في القول دون العمل عندهم.

٥ - وأمّا إطلاق الكافر والمشرّك على مرتكبي الكبائر، فقد قالوا فيه بالتفصيل الآتي:

ماكان من الأعمال عليه حدّ واقع فلا يتعدّى بأهله، الاسم الذي لزمه به الحدّ كالزنا والسرقة، والقذف، فيسمّى زانياً سارقاً، قاذقاً، لا كافراً مشركاً.

وماكان من الكبائر ممّا ليس فيه حدّ لعظم قدره مثل ترك الصلاة والفرار من الزحف، فإنّه يكفّر بذلك.

٦ - ونقل عن الضحّاك منهم أنّه جوّز تزويج المسلمات من كفّار قومهم (يريد سائر المسلمين) في دار التقيّة دون دار العلانية .

٧ - ونقل عن زياد بن الأصفر أنّ الزكاة سهم واحد في دار التقيّة^(٢) .

١. المقرئزي: الخطط ٣٥٤/٢، والنكّار جمع ناكِر.

٢. يريد أنّه لا يجب صرف الزكاة على الأصناف الثمانية الواردة في آية الصدقات، لعدم بسط اليد في دار التقيّة بل تصرف في مورد واحد.

٨ - ويحكى عنه أنّه قال: نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندري أنّنا خرجنا من الإيمان عند الله!

٩ - الكفر كفران، كفر بانكار النعمة، وكفر بانكار الربوبية.

١٠ - البراءة براءتان: براءة من أهل الحدود، سنّة، وبراءة من أهل الجحود، فريضة^(١).

وعلى ما ذكره الشهرستاني فهم لا يرون ارتكاب الكبيرة موجباً للشرك والكفر إلا فيما إذا لم يرد فيه حدّ ترك الصلاة.

لكن الظاهر ممّا نقله البغدادي في الفرق أنّ بين الصفريّة قولين آخرين:

الف - إنّ صاحب كل ذنب مشرك، كما قالت الأزارقة.

ب - إنّ صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي فيحدّه^(٢).

وكل الصفريّة بل جميع فرق الخوارج حتى الاباضية الذين يتحرّجون من تسميتهم خوارج، يقولون بموالاته عبدالله بن وهب الراسبي وحرقوق بن زهير واتباعهما من المحكّمة الأولى.

ويقولون بإمامة أبي بلال مرداس، الخارج بعد المحكّمة الأولى، وبإمامة عمران بن حطان السدوسي بعد أبي بلال.

أمّا أبو بلال فقد مرّت ترجمته وأنّه خرج في أيّام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، فبعث إليه عبيدالله بن زياد، عبّاد بن أخضر التميمي، فقتله مع أتباعه.

وأمّا الثاني فهو من شعراء الخوارج وخطبائهم، مات سنة ٨٤، وبلغ من خبثه في بغض عليّ عليه السلام أنّه رثا عبدالرحمن بن ملجم وقال في ضربه

١. الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٣٧. البغدادي: الفرق بين الفرق ٩٠. الأشعري: المقالات ١٠١.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق ٩١.

عليّاً:

يا ضربة من منيب ما أراد بها
إني لأذكره يوماً فأحسبه
قال عبدالقاهر (البغدادي): وقد اجبناه عن شعره هذا بقولنا:

يا ضربة من كفور ما استفاد بها
إني لألعه ديناً، وألعن من
يرجو له أبداً عفواً وغفراناً
ذاك الشقي لأشقى الناس كلّهم
أخفّهم عند ربّ الناس ميزاناً^(١)

أصول الفرق للخوارج:

هذه هي أصول فرق الخوارج المتطرّفين وأمّا سائر الفرق فكلّها مشتقة منها بسبب اختلاف غير هامّ في التخطيط والتطبيق، لا في المبدأ والأصل، وأمّا الاباضية، فلم يكونوا بهذا التطرّف، ولأجل ذلك أسماهم سائر الفرق باسم «القعدة» لأنّهم قعدوا عن الجهاد في سبيل الله بمحاربة الولاة والحكّام الظالمين.

يقول «الدكتور رجب محمّد»: قد تطوّرت الأحوال في جماعة المحكّمة الذين ظلّوا على عدائهم وصدامهم مع الدولة الأموية إلى الانقسام إلى فرق ثلاث: هي الأزارقة، والنجداث، والبيهسية منذ عام ٦٤، وأضيفت إليها الفرقة الرابعة وهي الفرقة المعروفة باسم الصفريّة منذ عام ٧٥، واتّفقت هذه الفرق الأربع فيما بينهم على آراء، وكفّر بعضهم بعضاً، واصطدموا بالدولة الأموية مرّات عديدة، وتصدّت لهم قوات الخلافة وأخضعت شوكتهم وقضت على زعمائهم، وكان ذلك على يد المهلب بن أبي صفرة المعاني وعلى يد قومه من

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ٩٣.

الأرد العمانيين، وعندما حاول بعض زعمائهم اللجوء إلى عمان، تصدّى لهم العمانيون وقتلوهم وقتلوهم^(١).

وعلى كل تقدير فالفرقة الباقية من الخوارج تلعن الفرق الأربع وتتبّرأ منها، وإليك نصّ بعضهم في هذا الشأن:

لقد حرص ابن اباض في رسالته إلى عبدالملك بن مروان أن يقرّر رأيه بصراحة في ابن الأزرق... فذكر فيها قوله:

«أنا براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه. لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنه أحدث وارتدّ وكفر بعد اسلامه فنبراً إلى الله منهم»^(٢).

وقد عرض القلّهاتي بالتحليل لآراء الأزارقة:

«الأزارقة إمامهم أبو راشد نافع بن الأزرق، وهو أول من خالف اعتقاد أهل الاستقامة، وشقّ عصى المسلمين، وفرّق جماعتهم، وانتحل الهجرة، وسبى أهل القبلة، وغنم أموالهم، وسبى ذراريهم، وسنّ تشريك أهل القبلة، وتبّرأ من القاعد ولو كان عارفاً لأمره تابعاً لمذهبه، واستحلّ اعتراض الناس بالسيف، وحرم مناكرتهم وذبائهم وموارثتهم، وابتدع اعتقادات فاسدة وآراء حائدة خالف فيها المسلمين أهل الاستقامة في الدين»^(٣).

وقد تعرّض كذلك لسائر فرق الخوارج الأخرى فقال:

«وجميع أصناف الخوارج - غير أهل الاستقامة (الأباضية) - اجتمعوا

١. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم (استاذ التاريخ بجامعة القاهرة وجامعة السلطان قابوس): الاباضية في مصر والمغرب:

١٤.

٢. البرادي: الجواهر المتقاة (رسالة ابن اباض) ١٥٦ - ١٦٧. ويأتي نصّ الرسالة في محلّها.

٣. القلّهاتي: الكشف والبيان ٢/٢٢٣.

على تشريك أهل القبلة، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، و منهم من يستحل قتل السريرة والعلانية، واعتراض الناس بالسيف على غير دعوة، ومنهم من يستحل قتل السريرة، وهم مختلفون فيما بينهم، يقتل بعضهم بعضاً، ويغنم بعضهم مال بعض، ويبرأ بعضهم من بعض، وانتحلوا الهجرة، وحرّموا موارثتهم، ومناكحتهم، وأكل ذبائهم»^(١).

الخوارج قد شوّهوا محاسن الدين :

إنّ الخوارج قد شوّهوا محاسن الدين الإسلامي تشويهاً غريباً، فإنّ هذا الاغراق في التأويل و الاجتهاد أخرجهم عن روح الإسلام وجماله واعتداله، وهم في تعمّقهم قد سلكوا طريقاً ما قال به محمد ﷺ ولا دعا إليه القرآن، وأمّا التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العمياء، والصلاح، الذي كانوا يتزينون به في الظاهر، كان ظاهر التأويل بادئ الزخرفة، وقد طمعوا في الجنة وأرادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين، غلوّاً أخرجهم منه، ومجاوزه الحدّ، تُوقع في الضد^(٢).

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢١٥ - ٢١٦.

٢. عمر أبو النضر: الخوارج في الاسلام: ١١١.

الفرقة الخامسة:

الاباضية أتباع عبدالله بن اباض^(١) م ٨٦

وصفت الاباضية في كلام غير واحد بأنهم أقرب الناس إلى أهل السنة^(٢) وأنهم هم الفرقة المعتدلة من الخوارج، ولأجل هذا أُتيح لهم البقاء إلى يومنا هذا، فهم متفرقون في عمان وزنجبار وشمال أفريقيا، فإذا كان البحث في سائر الفرق بحثاً في طوائف أبادهم الدهر وصاروا خبراً لكان، فالبحث عن الاباضية بحث عن فرقة موجودة من الخوارج ويعتبر مذهبهم، المذهب الرسمي في عُمان، وقد ذكرنا في بداية الكتاب النشاط الثقافي التي تقوم به وزارة الأوقاف عندهم. فنبحت أولاً عما يقول عنهم أصحاب المقالات والتاريخ، ثم نرجع إلى

١. إن اباضية عمان يقرأونه - بالفتح - خلافاً لاباضية شمال أفريقيا فيقرأونه - بالكسر - وعلى كل تقدير واباض - بضم الهمزة -

فهي قرية أو واحة باليمامة.

٢. المبرّد: الكامل ٢/٢١٤.

كتبهم المنتشرة في هذه الأيام لغاية التعريف بهم.

الاباضية في كتب المقالات والتاريخ:

عبدالله بن اباض المقاعسي المرمي التميمي من بني مرة بن عبيد بن مقاعس، رأس الاباضية وإليه نسبتهم، وقد عاصر معاوية وعاش إلى أواخر أيام عبدالملك بن مروان، وكان ممن خرج إلى مكة لمنع حرم الله من مسلم بن عقبة المرمي^(١) عامل يزيد بن معاوية.

اتفق عبدالله بن اباض مع نافع و أصحابه على أن يسألا عبدالله بن الزبير عن رأيه في عثمان، لأن الخوارج يومذاك كانوا ملتفتين حول عبدالله بن الزبير، فلما سألوه وجدوه، مخالفاً للعقيدة فتفرقوا من حوله، وذهبت طائفة من الخوارج إلى الإمامة وعدة أخرى إلى البصرة، منهم ابن الأزرق وعبدالله بن اباض وعبدالله بن الصفار^(٢).

ثم إن ابن الأزرق خرج على ثلاثمائة رجل عند وثوب الناس بعبيدالله بن زياد، وتخلّف عنه عبدالله بن صفار وعبدالله بن اباض ورجال معهما على رأيه، وكتب إليهما ما ألقاه لأصحابه في خطابته وهو:

«إن الله قد أكرمكم بمخرجكم، وبصّركم ما عمى عنه غيركم. أستم تعلمون أنكم إنما خرجتم تطلبون شريعته وأمره، فأمره لكم قائد، والكتاب لكم إمام، وإنما تتبعون سننه و أثره؟ فقالوا: بلى، فقال: أليس حكمكم في وليكم حكم النبي ﷺ في وليه، وحكمكم في وعدّكم حكم النبي ﷺ في عدوّه، وعدّكم اليوم عدوّ الله وعدوّ

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨.

النبي ﷺ كما أنَّ عدوَّ النبي ﷺ يومئذ هو عدوُّ الله وعدوُّكم اليوم؟ فقالوا: نعم، قال: فقد أنزل الله تبارك و تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال: ﴿لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ فقد حرّم الله ولايتهم، والمقام بين أظهرهم، واجازة شهادتهم، وأكل ذبائحهم، وقبول علم الدين عنهم، ومناكحتهم و مواريثهم. قد احتجّ الله علينا بمعرفة هذا، وحقّ علينا أن نعلم هذا الدين الذين خرجنا من عندهم، ولانكتم ما أنزل الله، والله عزوجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١).

فبعث بالكتاب إلى عبدالله بن صفار وعبدالله بن اباض، فأتيا به، فقرأه عبدالله بن صفار، فأخذه، فوضعه خلفه فلم يقرأه على الناس خشية أن يتفرّقوا ويختلفوا، فقال له عبدالله بن اباض: مالك لله أبوك؟ أيّ شي أصبت؟ أن قد أصيب اخواننا؟ أو أسر بعضهم؟ فدفع الكتاب إليه، فقرأه، فقال: قاتله الله، أيّ رأي رأي. صدق نافع بن الأزرق (لكن) لو كان القوم مشركين، كان أصوب الناس رأياً وحكماً فيما يشير به، وكانت سيرته كسيرة النبي ﷺ في المشركين . ولكنّه قد كذب وكذبنا فيما يقول: إنّ القوم كفّار بالنعم والأحكام، وهم براء من الشرك، ولا يحلّ لنا إلّا دماؤهم، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام (٢) .

ثم إنّ المبرّد نقل كتاب ابن الأزرق إليهما بغير هذه الصورة، والنقلان

١. البقرة: ١٥٩.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨ - ٤٤٠.

متفقان في المادة، وأضاف أن الكتاب ورد إلى أبي بيهس وعبدالله بن اباض، فأقبل أبوبيهس على ابن اباض فقال: إن نافعاً غلا فكفر وأنتك قصرت فكفرت^(١).
هذا هو عبدالله بن اباض، وهذه زمالته مع نافع بن الأزرق وهذا فراقه له في مسألة تكفير المسلمين كفر ملّة ودين، وهذه اباحتهم دماء المسلمين (بعد اتمام الحجّة) ولأجل هذه المرونة بين الاباضية، يقول المبرّد: إن قول عبدالله بن اباض أقرب الأقاويل إلى أهل السنّة من أقاويل الضلال.

أوهام حول مؤسس المذهب:

ثم إن هناك أوهاماً حول الرجل في كتب الفرق والتواريخ:

- ١ - خرج ابن اباض في أيام مروان بن محمد^(٢) وهذا وهم فقد مات قبل أيام مروان بأربعين عاماً.
- ٢ - وقال الزبيدي: كان مبدأ ظهوره في خلافة مروان الحمار^(٣).
- ٣ - وقال المقرئ: إنّه من غلاة المحكّمة وإنّه خرج في أيام مروان، ثم قال: ويقال: إن نسبة الاباضية إلى اباض - بضم الهمزة - وهي قرية باليمامة نزل بها نجدة بن عامر^(٤).
- وكلا الأمرين يدلّان على أنّه ظهر بين سنتي ١٢٧ - ١٣٢، أيام حكم مروان وهو لا يتفق مع ما عليه الاباضية على أن وفاته كانت في أيام عبدالملك بن مروان.

١. المبرّد: الكامل ٢١٣/٢ - ٢١٤ وقد مرّ - كتاب ابن الأزرق - إليهما عند البحث عن البيهسية، فلاحظ.

٢. نقله خير الدين الزركلي في الاعلام ١٨٤/٤، عن هامش الأغاني: ٣٣٠ من المجلد السابع.

٣. الزبيدي: تاج العروس، مادة ابض.

٤. المقرئ: الخطط ٣٥٥/٢.

وقال الشهرستاني: عبدالله بن اباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد^(١). ولعل وجه اشتباههم هو: وقوع فتنة الاباضية في أواخر حكومة مروان بن محمد، وكان في رأس الفتنة عبدالله بن يحيى الجندي الكندي الحضرمي طالب الحق وكان اباضياً. قال ابن العماد: وفي سنة ١٣٠ كانت فتنة الاباضية وهم المنسوبون إلى عبدالله بن اباض. قال: مخالفونا من أهل القبلة كفّار، ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن، بناءً على أنّ الأعمال داخلية في الإيمان، وكفّروا علينا وأكثر الصحابة، وكان داعيتهم في هذه الفتنة عبدالله بن يحيى الجندي الكندي الحضرمي (طالب الحق)، وكانت لهم وقعة بقديد مع عبدالعزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان فقتل عبدالعزيز ومن معه من أهل المدينة، فكانوا سبعمائة أكثرهم من قريش منهم: تخرمة بن سليمان الوالبي، روى عن عبدالله بن جعفر وجماعة، وبعدها سارت الخوارج إلى وادي القرى ولقيهم عبدالملك السعدي فقتلهم ولحق رئيسهم إلى مكة فقتله أيضاً، ثم سار إلى تبالة - وراء مكة بست مراحل - فقتل داعيتهم الكندي^(٢).

ومن الأوهام ما ذكره ابن نشوان الحميري عن أبي القاسم البلخي المعتزلي: إنّ عبدالله لم يمت حتى ترك قوله أجمع، ورجع إلى الاعتزال^(٣)، والرجل توفي ولم يكن للاعتزال أي أثر، فإنّ رأس الاعتزال هو واصل بن عطاء الذي ولد عام ٨٠.

ثم إنّ الاباضية انقسمت إلى فرق خرجوا عن الاعتدال والمرونة ومالوا

١. الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٣٤.

٢. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ١/١٧٧.

٣. ابن نشوان الحميري: الحور العين ١٧٣.

إلى التطرّف والشدة، ولكن جمهور الاباضية على الاعتدال. يقول الأشعري:

وجمهور الاباضية يتولّى المحكّمة كلّها إلّا من خرج، ويزعمون أنّ مخالفهم من أهل الصلاة كفّار، وليسوا بمشركين، حلال منّا كحتم وموارثهم حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكرّاع عند الحرب، حرام ماوآء ذلك، وحرام قتلهم وسبيهم في السرّ، إلّا من دعا إلى الشرك في دار التقيّة ودان به، وزعموا أنّ الدار - يعنون دار مخالفهم - دار توحيد إلّا عسكر السلطان، فإنّه دار كفر - يعني عندهم - .

وحكي عنهم أنّهم أجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم، وحرّموا الاستعراض إذا خرجوا، وحرّموا دماء مخالفهم حتّى يدعوهم إلى دينهم، فبرأت الخوارج منهم على ذلك، وقالوا: إنّ كل طاعة إيمان ودين، وإنّ مرتكبي الكبائر موحدون وليسوا بمؤمنين^(١).

وقريب من ذلك ما ذكره البغدادي في كتابه، يقول: افرقت الاباضية فيما بينها فرقاً يجمعها القول بأنّ كفّار هذه الأمّة - يعنون بذلك مخالفهم من هذه الأمّة - براء من الشرك والإيمان، وأنّهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنّهم كفّار، وأجازوا شهادتهم وحرّموا دماءهم في السرّ واستحلّوها في العلانية، وصحّحوا منّا كحتمهم، والتوارث منهم، وزعموا أنّهم في ذلك محاربون لله ولرسوله، لا يدينون دين الحق، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض، والذي استحلّوه الخيل والسلاح، فأما الذهب والفضة فإنّهم يردّونها إلى أصحابهما عند الغنيمة .

ثمّ افرقت الاباضية فيما بينهم أربع فرق: الحفصية، والحارثية، واليزيدية، وأصحاب طاعة لا يراى الله بها.

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١٠٤ - ١٠٥ .

ثم قال: واليزيدية، منهم غلاة لقولهم بنسخ شريعة الإسلام في آخر الزمان ^(١).
ولأجل تصريح عبدالله بن اباض بأن المراد من الكفر هو الكفر بالنعم لا محيص عن
تفسير الكفر فيما نقله البغدادي عنه بالكفر بالنعم، نعم بعض الفرق منهم خرجوا عن الاعتدال
وحكموا بكفر المسلمين كفراً حقيقياً.

هذا ما يقوله أصحاب المقالات عنهم ولكنهم في كتبهم المنتشرة في السنوات الأخيرة
يقولون خلاف ذلك، وأنهم لا يختلفون مع جماهير المسلمين إلا في مسألة التحكيم، وأما ما
سواه فهم وغيرهم سواسية، وينكرون وجود هذه الفرق التي نسبها إليهم الأشعري ثم البغدادي
^(٢). ولأجل ذلك يجب دراسة مذهبهم من كتبهم.

الاباضية في كتب اعلامهم:

قد تعرّفت على المذهب الاباضي وترجمة مؤسسه على ما في كتب الفرق والتاريخ، غير
أنّ كتاب الاباضية في العصر الحاضر ومقابلته يتحرّجون من أن يُعدّوا من فرق الخوارج، وإن
كانوا يتفقون معهم في بعض المبادئ ولكن يخالفونهم في كثير من المبادئ والعقائد، ويعتقدون
أنّه مذهب نجم في أواخر القرن الأول بيد مؤسسه عبدالله بن اباض وجابر بن زيد العماني،
فكان الأول قائداً مخطّطاً والثاني قائداً دينياً، وإنّ الخوارج هم المتطرّفون كالأزارقة الذين كانوا
يكفّرون المسلمين ويعدّونهم مشركين ويستبيحون أموالهم ويستحيون

١. البغدادي: الفرق بين الفرق: ١٠٣، ثم ذكر عقائد فرق الاباضية تبعاً للشيخ الأشعري في المقالات ١٠٢ - ١١١، ومن أراد
التفصيل فليرجع إليهما.

٢. الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢١/١ - ٢٨.

نسائهم ويقتلون أولادهم، وأمّا غيرهم الذين لا يعتنقون هذا المبدأ وماشابه فليسوا من الخوارج .

وقد بذلت الاباضية في هذه العصور الأخيرة جهوداً في تنزيههم عن كونهم من هذه الطائفة وإنّ المقصود منه غيرهم، وإليك بعض نصوصهم وتحليلاتهم:

هل الاباضية من الخوارج؟:

١ - قد عمد البعض من الخوارج بعد وقعة النهروان إلى سلوك طريق لا يتفق مع الأصول الصحيحة للشريعة الغراء وأحد ثوا في الإسلام حدثاً كبيراً بما استحلّوا من استعراض المسلمين بالسيف وتكفير أهل القبلة الذين لا يذهبون مذهبهم، وتفرّق هؤلاء الخارجون إلى فرق عديدة كان منها الأزارقة والنجيدات والصفرية... وهؤلاء هم الذين أصبحوا يعرفون بالخوارج، ويعني وصفهم بذلك أنّهم خارجون عن الدين ومارقون بما استحلّوا من المحرّمات وما خالفوا فيه من الأحكام الصحيحة للإسلام .

أمّا الاباضية - وهم عرفوا بجماعة المسلمين أهل الحق والاستقامة - فهم لا يرون رأي هؤلاء الخوارج بل يرونهم مارقين خارجين عن الدين، ورغم أنّهم يوالون المحكّمة الأولى - وعلى رأسهم عبدالله بن وهب الراسبي - إلّا أنّهم لم يوافقوا الأزارقة و من والاهم من بعده بل تبرأوا منهم ولم يذهبوا مذهبهم .

وعلى ذلك فالخوارج هم غير الاباضية ولا يمكن اعتبار الاباضية إحدى فرقهم، وإلّا فكيف نجمع بين النقيضين في صعيد واحد، وكيف نصف من يتمسك بصحيح الإسلام، ولا يكفر أصحاب القبلة، ولا يستحلّ دماء المسلمين ولا أموالهم إلّا دفعاً لبغي أو ردّاً لعدوان؟... كيف نصف هؤلاء بأنّهم من

الخوارج الذين أبوا إلا مفارقة الجماعة والخروج عليهم واستعراض المسلمين بالسيف، واستحلال دمائهم وأموالهم بغير حقها، وذهابهم إلى تكفير هؤلاء، وإذا كانت الاباضية قد والوا المحكّمة الأولى إلا أنّ ولاءهم لم يكن لمن خرج من بعد ذلك على الدين، وكان سلوكهم مروّفاً وعصياناً^(١).

٢ - الاباضية لم يجمعهم جامع بالصفرية والأزارقة ومن نحا نحوهم إلا انكار الحكومة بين علي ومعاوية، وأمّا استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد، والحكم بكفرهم كفر شرك، فقد انفرد به الأزارقة والصفرية والنجدية، وبه استباحوا حمى المسلمين ولمّا كان مخالفونا لا يتورّعون، ولا يكلفون أنفسهم مؤونة البحث عن الحق، ليقفوا عنده، خلطوا بين الاباضية الذين لا يستبيحون قطرة من دم مؤخّذ بالتوحيد الذي معه، وبين ما استحلّوا الدماء بالمعصية الكبيرة حتى قتلوا الأطفال تبعاً لأبائهم، مع أنّ الفرق كبير جداً كالفرق بين المستحل والمحرّم. ثمّ قال: إنّ تسمية الخوارج لم تكن معهودة في أوّل الأمر، وإنّما هي انتشرت بعد استثناء أمر الأزارقة ولم تعرف هذه التسمية في أصحاب عليّ، المنكرين للتحكيم والراضين به، ولعلّ أوّل ما ظهر هذا اللفظ بعد ثبوت الأمر لمعاوية والاستقرار ولم يفرّقوا في ذلك بين المتطرف وغيره^(٢).

٣ - إنّ الاباضية رغم اعتدالهم من الناحية المذهبية والفقهية إلا أنّهم كانوا في عداً سياسي مع دولة بني أمية ودولة بني العباس لأنّهم كانوا يقولون بأنّ الإمامة أو الخلافة حقّ لأبيّ مسلم صالح، فلا تكون قاصرة على قريش، ولا على بطونها المختلفة من الأمويين أو العباسيين أو العلويين، ولمّا كان هذا الموقف

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢١٢.

٢. أبو إسحاق السالمي: تحفة الأعيان: هامش الجزء الأوّل كما في الإمام جابر بن زيد العماني.

السياسي للاباضية يلتقي من الناحية النظرية ومن الناحية الفكرية البحتة مع الخوارج: الأزارقة والنجدات والصفرية، فقد عمم كُتاب الفرق القول ووضعوا الاباضية ضمن هؤلاء الخوارج واعتبروهم فرقة رابعة من فرقهم، والاباضية أنفسهم كما هو موجود في كتبهم القديمة والحديثة يتبرأون من هؤلاء الخوارج كل البراءة بل ويقاتلونهم بأشد قتال.

إنّ المذهب الاباضي لم يعرف بهذا الاسم إلا منذ الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة حينما غلب على أصحابه هذا الاسم واشتهروا به، وأنما أصحابه قبل ذلك يعرفون باسم جماعة القعدة وهو اسم له دلالة سياسية، وقد أطلقه عليهم جماعات الخوارج من الأزارقة وغيرهم احتقاراً لهم ورفضاً لمبادئهم: ذاك في القعود، فقد وضع هؤلاء القعدة لأنفسهم مبدأ المسالمة وعدم اشتهاار السيف في وجه اخوانهم من المسلمين، وأجازوا لأنفسهم البقاء تحت حكم الجبابرة، وقالوا بعدم جواز قتل أطفال مخالفينهم ولا قتل نسائهم ولا استحلال أموالهم وأخذوا يعملون على نشر مبادئهم السياسية في سرية وكتمان، ودخلوا في مرحلة كتمان طويلة امتدت منذ أن تأسس المذهب على يد جابر بن زيد في أواخر القرن الأول للهجرة حتى هاجر معظم علماء المذهب وآخر أئمة الكتمان أبو سفيان محبوب بن الرحيل إلى عمان في أواخر القرن الثاني للهجرة^(١).

٤- إنّ مذهب الاباضية لم يعرف بهذا الاسم في المصادر الاباضية إلا في الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة وقد قبلت الاباضية بهذا الاسم منذ ذلك التاريخ لأنه غلب عليهم بمرور الزمن وصار علماء يلتقون حوله، وإنّما يطلقون على أنفسهم قبل ذلك اسم «جماعة المسلمين» أو «أهل الدعوة» أو «أهل الاستقامة» وقد سمّاهم أعداؤهم من الخوارج المتطرفين باسم «القعدة»

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٥٤ - ٥٦.

احتقاراً لهم، لأنهم طبقاً لوجهة نظر هؤلاء الخوارج، قعدوا عن الجهاد في سبيل الله بمحاربة الولاة والحكام الظالمين.

وكان هؤلاء القعدة قد رأوا القعود عن الحرب، وعن رفع السيف ضد اخوانهم المسلمين عقب موقعة النهروان التي وقعت بين الإمام علي بن أبي طالب وجماعة المحكمة الذين عارضوه لقبوله التحكيم، وقالوا: «لاحكم إلا لله» واشتهروا باسم «المحكمة» أو «الشراة» أو «الحرورية» وأطلق عليهم خصومهم من أرباب الدولة الأموية اسم الخوارج^(١).

٥ - إن الصفرية اتخذت الخروج بالسيف على الدولة وسيلة لتحقيق أهدافهم، فإن الصفرية في بلاد المغرب اتبعوا هذا الأسلوب في هذه المنطقة النائية، ولذلك رفعوا لواء الثورة ضد بني أمية منذ عام ١٢٢ .

وقد أظهر هؤلاء الصفرية من تطرف شديد في معاملتهم لخصومهم سواء كانوا من العرب أم من البربر، فكانوا يستحلون سبي النساء، ويستحلون الأموال، يسفكون الدماء، وكانوا في حركتهم في بلاد المغرب أقسى على الناس من حركة الأزارقة في بلاد المشرق، وقد وصل تطرف البربر الصفرية إلى غايته عندما داهموا القيروان في عام ١٣٩، واحتلوا وفعلوا بأهلها وبمساجدها ما تقشعر له الأبدان على يد قبيلة «ورفجومة» التي كان أهلها من غلاة الصفرية .

ثم بعد فترات تنقلت قيادة البربر من الصفرية إلى الاباضية بعد أن ضاق البربر بعنف الصفرية وتطرفهم المقيت، فضعف أمر الصفرية منذ ذلك الحين وذاب أغلبهم في الاباضية^(٢).

١. الدكتور رجب محمد عبد الحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ١٢ - ١٣.

٢. نفس المصدر: ٥٣.

٦ - المذهب الاباضي يعتمد في أصوله على الكتاب والسنة ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا في مسائل قليلة، اختلاف مذاهب السنة فيما بينها، فلا يخلو منها مذهب لا يخالف غيره في قليل أو كثير من المسائل، وما كان اعتماد المذهب الاباضي على الكتاب والسنة وعدم تباعده عن مذاهب السنة إلا لأن مؤسسَه جابر بن زيد قد أخذ عن الصحابة الذين أخذ عنهم أصحاب هذه المذاهب من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، بل انه يمتاز على أصحاب هذه المذاهب، في انه أخذ عن الصحابة مباشرة بينما هم لم يأخذوا في معظمهم إلا من التابعين، كما أن الأحاديث التي جمعها هو وغيره من علماء وفقهاء وجماع الأحاديث من الاباضية كالربيع بن حبيب وغيره، ليست إلا أحاديث وردت عند البخاري ومسلم وغيرهم من أئمة الحديث كأبي دواد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني والطبراني والبيهقي وغيرهم من أهل السنة والجماعة^(١).

٧ - اطلاق لفظ الخوارج على الاباضية من الدعايات الفاجرة التي نشأت عن التعصب السياسي أولاً ثم عن المذهبي ثانياً، لما ظهر غلاة المذاهب وقد خلطوا بين الاباضية والأزارقة والصفورية والنجدية.

إنّ لاطلاق الخوارج على الاباضية سببين:

الف - اشتراكهم مع سائر الخوارج في انكار التحكيم، فصار ذلك سبباً للجمع بين كل منكر للتحكيم في صعيد واحد.

ب - إنّ تسمية الخوارج لم تكن معهودة في أول الأمر وإنما انتشرت بعد استثناء أمر الأزارقة، ولم تعرف هذه التسمية في أصحاب علي المنكرين للتحكيم والراضين به، ولعلّ أول ما ظهر هذا الأمر بعد ثبوت الأمر لمعاوية، فإنّ

١. الدكتور رجب محمد عبد الحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٦٠.

الأمويين أطلقوا هذه التسمية على كل من يعارض ملكهم العضوض^(١) ولم يفرّقوا بين الاباضية وبين سواهم من متطرّفي الخوارج^(٢).

٨ - إنّ ابن اباض تبرّأ من الأزارقة في الرسالة التي كتبها إلى عبدالملك وجاء فيها: أنا براء إلى الله من ابن الأزرق وضيعه وأبقاعه، لأنّه خرج عن مبادئ الإسلام فيما ظهر لنا و أحدث وارتدّ وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منهم^(٣).

نظرنا في الموضوع:

هذه كلمات القوم وهي تعبّر عن كونهم مصرّين على أنّهم ليسوا بخوارج ومن ستمّاهم بذلك فقد ظلمهم، وبما أنّ الخوارج لم يكونوا ذوي سمعة حسنة، وكان المسلمون يتبرّأون من عقائدهم وأعمالهم، صار هذا هو الحافز لعلماء الاباضية على السعي البالغ من اخراج أنفسهم عن صفوفهم، وأنّهم فرقة مستقلة لاصلة لهم بالخوارج إلا كونهم مشتركين في أصل واحد وهو انكار التحكيم.

ولعلّ القارئ، يتعجّب من الاطناب والافاضة في المقام وما هذا إلا لأجل اراءة منطق القوم فيما يتبنّونه لئلا نبخس حقوقهم، فإنّهم كما عرفت يتّهمون المخالفين بعدم التورع في البحث وعدم تكليف الأنفس مؤونة الفحص عن الحق، ولكنّها غير لاصقة بنا، فإنّا كلّنا أنفسنا مؤونة البحث ويشهد بذلك نقل كلماتهم، ومع هذا كل ما ذكره أشبه بالخطابة، وذلك:

١. لازم ذلك أن يسمّوا الشيعة أيضاً باسم الخوارج.

٢. صالح بن أحمد الصوافي، الإمام جابر بن زيد العماني: ٢١٣ - ٢١٤، والكاتب غفل عن القريض المعروف في شأن أبي بلال المنتصر كما سيوافيك، وكانت الحادثة سنة ٦٠ قبل فتنة الأزارقة.

٣. الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٢٤، ونقلاً عن الجواهر المتقاة للبرادي: ١٥٦ - ١٦٧.

أولاً: إنّ هذه الكلمات تحكي أنّ الاباضية أوّل من خطّ خطاً الاعتدال ومشى على ضوئه، واكتفى بالعزلة والقعود ولم يحارب الناس، ولم يعترضهم، ولكنّه في غير محلّه إذ لو صحّ كلّ ذلك في عبدالله بن اباض فراسم هذا الخط هو أبو بلال مرداس بن جدير، فإنّه أوّل من ندّد بعمل الخوارج في اعتراضهم الناس و نهب أموالهم، وكان ينادي بأعلى صوته بأنّه لا يحارب إلاّ من حاربه ولا يروّع أحداً ولا... ولا... فعلى ذلك يجب أن يقال: إنّ مبدىء هذه الكفرة هو أبو بلال المقتول عام «٦٠» وقد كان أبو بلال قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه - وأنكر التحكيم وشهد النهر ونجا فيمن نجا^(١).

ثانياً: إنّ الحبر الأساس لفرقة الخوارج هو التطرف والخروج عن الاعتدال، وإن كان للتطرف مدارج ومراحل، فالقوم من بدو الخروج على علي وانكار التحكيم عليه بعدما فرضوه عليه، كانوا متطرفين، لا يحترمون دماً ولا عرضاً. إنّ تخصيص التطرف بالأزارقة، والنجيدات، والصفورية بزعم أنّهم هم الذين كانوا يستعرضون المسلمين، ويستحلّون دماءهم، ويكفّرون أهل القبلة، كلام فارغ عن الحجّة، بل الحجّة على خلافه، فإنّ المحكّمة الأولى وعلى رأسهم عبدالله بن وهب الراسبي أيضاً كانوا من المتطرفين، ويظهر ذلك من خطب هذا الراسبي وكلماته التي ألقاها في الحروراء، وقد نقلنا بعض كلماته في الفصل السادس، وإليك لقطات منها:

قال مخاطباً إخوانه عند الشخوص من الحروراء إلى النهروان: فاخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن منكبين لهذه البدع المضرة^(٢).

١. الميرد: الكامل ١٨٣/٢ ومرّ تفصيله.

٢. مرّ المصدر في الفصل السادس.

ماذا يريد من قوله: الظالم أهلها، وهل يريد بلدة الكوفة وأهلها الملتقيين حول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؟ والحال أن الآية نزلت في حق المشركين قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(١).

إنَّ المحكَّمة الأولى هم الذين بقروا بطن زوجة عبدالله بن خباب بن الارت، ذلك التابعي العظيم، ولم يكتفوا بذلك، فذبخوا زوجها كما يذبح الكبش، بعدما أعطوه الأمان، وهم الذين قتلوا ثلاث نسوة من طي، وقتلوا أم سنان الصيداوية، كل ذلك ارتكبه بعد ما انتقلوا من الحروراء إلى النهروان، ولمَّا بلغ عليًّا هذه الجنايات المروعة عمد إلى مقاتلتهم بعد ما أتمَّ الحجة عليهم .
وأيّ دليل على تطرّفهم أتقن من توصيف الإمام إياهم بقوله: «سيوفكم على عواتقكم، تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنّب بمن لم يذنب»^(٢).

أبعد هذا يصحّ للأستاذ صالح بن أحمد الصوافي تخصيص التطرّف بالخوارج الذين جاءوا بعدهم.

هذا هو شبيب، مساعد ابن ملجم في قتل علي، دخل على معاوية في الكوفة بعد قتل علي، ولمَّا وقف معاوية على أنّه فيها، بعث إلى الأشجع لأن يخرج من الكوفة، وكان شبيب إذا جنّ عليه الليل خرج فلم يلق أحداً إلا قتله.^(٣)

١. النساء ٧٥.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٣. ابن الأثير: الكامل ٢٠٦/٣.

وهذا هو قريب بن مرة وزحاف الطائي قد خرجا في امارة زياد بن أبيه فاعترضا الناس،
فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة فقتلاه، فخرج رجل من بني قطيعة من الأزد وفي يده
السيف، فناداه الناس من ظهور البيوت: «الحرورية»!!!

انج بنفسك، فنادوه (قريب وزحاف ومن معهما): لسنا حرورية، نحن الشرط، فوقف فقتلوه،
ثم جعل لا يمران بقبيلة إلا قتلا من وجدا حتى مرّا على بني علي بن سود من الأزد، وكانوا
رماة فرموهم رمياً شديداً، فصاحوا: يا بني علي! البقية! لارمء بيننا. قال رجل من بني علي:

لا شيء للقوم سوى السهام مشحودة في غلس الظلام

ففرّ عنهم الخوارج إلى ان واجهوا بنو طاحية من بني سود، وقبائل من مزينة وغيرها،
ووقعت الحرب فقتل الخوارج عن آخرهم، وقتل قريب وزحاف^(١).

ما ذكرنا نماذج من استعراضهم للناس وقتلهم الأبرياء، قبل قيام ابن الأزرق بالدعوة، فإن
ما ذكرنا يرجع إلى عهد علي وما بعده بقليل، وأما فتنة الأزارقة والنجيدات فهي راجعة إلى عصر
ابنه يزيد بن معاوية فهي من حوادث بعد الستين.

ثالثاً: إنّ تخصيص اسم الخوارج بالمتطرفين منهم كالأزارقة والنجيدات تخصيص
بلاوجه، فقد أطلق هذا اللفظ في عصر عليّ على هؤلاء أي على عبدالله بن وهب الراسبي وذي
الخويصرة ومن قتل معهما في وقعة النهروان:

هذا هو الإمام علي بن أبي طالب - بعد ما خرج من قتال الخوارج في ضفة النهر مرفوع
الرأس - قال: لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطاه

١. المبرّد: الكامل ١٨٠/٢.

كمن طلب الباطل فأدركه^(١). فلو كانت هذه الكلمة لعلي كما هو المقطوع لكان دليلاً على أنّ القوم في بدء نشوئهم كانوا مسمّين بهذا الاسم، وإن كان لغيره فالظاهر أنّ ذلك الغير هو الموالي للخوارج بقرينة مدحهم في ذيل الجملة، فكان شاهداً على أنّ القوم كانوا مسمّين بهذا الاسم منذ البداية.

ويظهر ممّا نظمه نفس الخوارج من الأشعار أنّ تسميتهم بها كان رائجاً في عصر معاوية أي قبل الستين وقبل أنّ يتسنّم الأزارقة والنجدات منصّة القيادة يقول عيسى بن فاتك من بني تميم تأييداً لموقف أبي بلال مرداس به ادية الذي قتل عام ٦٠ في أبيات :

ألفا مؤمن فيما زعمتم	ويهزمهم بأسك أربعونا؟
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شكّ	على الفئة الكثيرة ينصرون ^(٢)

ويُستنتج من ذلك الأمرين: أنّ الخوارج أطلق يوم أطلق على من خرج عن طاعة أمير المؤمنين وأنكروا التحكيم عليه من غير فرق بين أوائلهم ومن بعدهم.

رابعاً: لاشكّ إنّ المحكّمة الأولى كانوا ييغضون عليّاً ويكفّرونه، وتشهد بذلك كلماتهم و أشعارهم خصوصاً في مفاوضاتهم مع عليّ، وقد تضافرت الروايات أنّ حبّه آية الإيمان وبغضه آية النفاق، ولا يمكن لعالم ملّم بالأحاديث انكار ذلك .

هذا هو مسلم روى في صحيحه عن زر بن حبيش قال: قال عليّ: والذي

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٦٠.

٢. المبرّد: الكامل ١٨٦/٢، ابن سلام (٢٧٣م) بدء الاسلام وشرائع الدين: ١١١، مرّت قصة أبي بلال .

(٢٣٣)

خلق الجنة وبراً النسمة أنه لعهد النبي الأمي إلي لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق^(١).

وروى الإمام أحمد في فضائل الصحابة عن زر بن حبیش، عن علي قال: عهد النبي إلي أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق^(٢).

ورواه النسائي في خصائصه بعدة طرق^(٣).

ورواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه بأسانيد تربو على ١٨ طريقاً^(٤).

وعلى ضوء ذلك فهؤلاء محكومون بالنفاق والخلود في النار، فيشملهم قول النبي الأكرم ﷺ في شأن ذي الخويصرة الذي كان في الرغيل الأول من المحكمة: فإنه سيكون له شيعه يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية^(٥).

روى المبرّد في الكامل أن علياً رضي الله عنه وجه إلى رسول الله مذهباً من اليمن فقسّمت أربعاً فأعطى ربعاً للأقرع بن جالس المجاشعي، وربعاً لزيد الخيل الطائي، وربعاً لعبيدة بن حصن الغزاري، وربعاً لعلقمة بن علاثة الكلابي، فقام إليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين ناتئ الجبهة فقال: لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب رسول الله ﷺ حتى تورّد خداه، ثم قال: أيا مني الله عزّوجلّ على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ فقام إليه عمر فقال: أقتله يا رسول الله؟ فقال ﷺ إنه سيكون من

١. مسلم: الصحيح ١، كتاب الايمان ٦٠.

٢. أحمد بن حنبل: المسند ١٢٧/١. الحديث ٩٤٨، وفضائل الصحابة ٥٦٣/٢، ونقله في كتابه الأخير في غير واحد من المواضع، لاحظ الأحاديث ٩٧٩، ١٠٥٩، ١٠٨٦، ١١٤٦.

٣. الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي: الخصائص ١٨٧.

٤. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٩٠/٢ - ١٩٩.

٥. ابن هشام: السيرة النبوية ٤٩٦/٤. ابن الأثير: الكامل ١٦٤/٢.

(٢٣٤)

ضئىء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية تنظر في النصل فلاترى، شيئاً، وتنظر في الرصاف فلاترى شيئاً، وتتمارى في الفوق^(١).

إنَّ المحكَّمة الأولى كفروا من طهره الله سبحانه في كتابه وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢) وقد اصفقت الأمة إلا الشواذ من الخوارج كعكرمة على نزول الآية في حق العترة الطاهرة، هذا هو مسلم يروي في صحيحة عن عائشة، قالت: خرج النبي غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود وجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين بن علي فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٣).

وروى إمام الحنابلة في مسنده نزول الآية في شأن الخمسة الطاهرة، فمن أراد فليرجع إلى مظانّه^(٤).

إلى غير ذلك من الآيات النازلة في حق أهل البيت .

أفصح لنا الحكم باسلام من يكفر ويغض ويقا تل من طهره الله في نص كتابه، ومحكم ذكره؟

ولأجل ذلك فالمحكَّمة الأولى محكومون بالكفر والنفاق وإن افترضنا أنهم اكتفوا بانكار التحكيم فقط، ولم يستعرضوا المسلمين بالسيف ولم يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا كفروا المسلمين .

وفي كلمات أئمة أهل بيت اشارة إلى هذا النوع .

١. المبرّد: الكامل ١٤٢/٢.

٢. الأحزاب: ٣٣.

٣. مسلم: الصحيح ١٣٠/٧.

٤. أحمد بن حنبل: المسند: ١٠٧/٤ و ٢٩٢/٦، ٢٩٦ و ٣٢٣.

كان عبدالله بن نافع بن الأزرق يقول: لو عرفت أنّ بين قطريها أحداً تبلغني إليه الإبل يخصمني بأنّ عليّاً عليه السلام قتل أهل النهروان وهو غير ظالم، لرحلتها إليه، ف قيل له: إئت ولده محمّد الباقر عليه السلام فأتاه فسأله، فقال بعد كلام: الحمد لله الذي أكرمنا بنوّه، واختصنا بولايته، يامعشر أولاد المهاجرين و الأنصار من كان عنده منقبة في أمير المؤمنين، فليقم وليحدّث، فقاموا ونشروا من مناقبه فلمّا انتهوا إلى قوله: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله، سأله أبو جعفر عن صحّته فقال: هو حقّ لأشكّ فيه، ولكن عليّاً أحدث الكفر بعد.

فقال أبو جعفر عليه السلام: أخبرني عن الله أحبّ علي بن أبي طالب يوم أحبّه وهو يعلم أنّه يقتل أهل النهروان، أم لم يعلم، إن قلت: لا، كفرت، فقال: قد علم، فقال: فأحبّه على أن يعمل بطاعته أم على أن يعمل بمعصيته؟ قال: على أن يعمل بطاعته، فقال أبو جعفر: قم مخصوصاً، فقام عبدالله بن نافع ابن الأزرق وهو يقول: حتّى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، الله يغلّم حيث يجعل رسالته (١).

روى الشريف المرتضى عن الشيخ المفيد: أحبّ الرشيد أن يسمع كلام هشام بن الحكم مع الخوارج، فأمر بإحضار هشام بن الحكم وإحضار عبدالله بن يزيد الاباضي (٢) وجلس بحيث يسمع كلامهما ولا يرى القوم شخصه، وكان بالحضرة يحيى بن خالد، فقال يحيى لعبدالله بن يزيد: سل أبا محمّد - يعني هشاماً - عن شيء، فقال هشام: لا مسألة للخوارج علينا، فقال

١. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب: ٢٨٩/٢ كما في البحار ١٥٨/١٠.

٢. ترجمه ابن حجر في لسان الميزان ٣ / ٣٨٧ بقوله: عبدالله بن يزيد الفزاري الكوفي المتكلم، ذكره ابن حزم في النحل: أنّ الاباضية من الخوارج أخذوا مذهبهم عنه.

عبدالله بن يزيد، وكيف ذلك؟ فقال هشام: لأنكم قوم قد اجتمعتم معنا على ولاية رجل وتعديله والإقرار بإمامته وفضله، ثم فارقتمونا في عداوته والبراءة منه، فنحن على إجماعنا وشهادتكم لنا، وخلافكم علينا غير قادح في مذهبنا، ودعواكم غير مقبولة علينا، إذ الاختلاف لا يقابل الاتفاق، وشهادة الخصم لخصمه، مقبولة، وشهادته عليه مردودة.

قال يحيى بن خالد: لقد قرّبت قطعه يا أبا محمد، ولكن جاره شيئاً، فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يحبّ ذلك، قال: فقال هشام: أنا أفعل ذلك، غير أنّ الكلام ربّما انتهى إلى حدّ يغمض ويدق على الأفهام، فيعاند أحد الخصمين أو يشتبه عليه، فإن أحبّ الإنصاف فليجعل بيني وبينه واسطة عدلاً، إن خرجت عن الطريق ردّني إليه، وإن جار في حكمه شهد عليه، فقال عبدالله بن يزيد: لقد دعا أبو محمد إلى الإنصاف، فقال هشام: فمن يكون هذه الواسطة؟ وما يكون مذهبه؟ أيكون من أصحابي، أو من أصحابك، أو مخالفاً للملّة أو لنا جميعاً؟ قال عبدالله بن يزيد: اختر من شئت فقد رضيت به، قال هشام: أمّا أنا فأرى أنّه إن كان من أصحابي لم يؤمن عليه العصبية لي، وإن كان من أصحابك لم آمنه في الحكم عليّ، وإن كان مخالفاً لنا جميعاً لم يكن مأموناً عليّ ولا عليك، ولكن يكون رجلاً من أصحابي، ورجلاً من أصحابك، فينظران فيما بيننا ويحكمان علينا بموجب الحقّ ومحض الحكم بالعدل، فقال عبدالله بن يزيد: فقد أنصفت يا أبا محمد، وكنت أنتظر هذا منك.

فأقبل هشام على يحيى بن خالد فقال له: قد قطعت أيتها الوزير، ودمّرت^(١) على مذهبها كلّها بأهون سعي، ولم يبق معه شيء، واستغنيت عن مناظرته، قال: فحرّك الرشيد الستر، فأصغى يحيى بن خالد فقال له: هذا متكلم الشيعة وافق

١. دمر عليه: هجم عليه هجوم الشر. دمر عليه: أهلكه.

الرجل موافقة لم تتضمن مناظرة، ثم ادعى عليه أنه قد قطع وأفسد عليه مذهبه، فمره أن يبين عن صحة ما ادعاه على الرجل، فقال يحيى بن خالد لهشام: إن أمير المؤمنين يأمر أن تكشف عن صحة ما ادعيت على هذا الرجل، قال: فقال هشام رحمه الله: إن هؤلاء القوم لم يزالوا معنا على ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى كان من أمر الحكمين ما كان، فأكفروه بالتحكيم وصلّوه بذلك، وهم الذين اضطروه إليه، والآن فقد حكم هذا الشيخ وهو عماد أصحابه مختاراً غير مضطرّ رجلين مختلفين في مذهبيهما: أحدهما يكفره، والآخر يعدّله، فإن كان مصيباً في ذلك فأمر المؤمنين أولى بالصواب، وإن كان مخطئاً كافراً فقد أراحنا من نفسه بشهادته بالكفر عليها، والنظر في كفره وإيمانه أولى من النظر في إكفاره علياً عليه السلام قال: فاستحسن ذلك الرشيد و أمر بصلته وجائزته ^(١).

إنّ عداء القوم بالنسبة إلى الإمام أمير المؤمنين كانت ظاهرة في كتب أوائلهم، هذا هو محمد بن سعيد الكدمي أحد علماء المذهب الاباضي بعمان، حتى لُقّب بإمام المذهب في القرن الرابع الهجري يذكر علياً في كتابه ويقول:

«إنّ علي بن أبي طالب استخلف على الناس، ونقض عهد الله وحكم في الدار غير حكم كتاب الله، وقتل المسلمين وسار بالجور في أهل رعيته، فعلى الذي قد صحّت منه سعادة علي بن أبي طالب أن يتولّى الله علي بن أبي طالب على سفكه لدماء المسلمين وعلى تحكيمه في الدماء غير حكم كتاب الله، وسيرته القبيحة، لا يحلّ له الشك في ولايته، وعليه أن يبرأ لله من باطله ومن سفك دمه إن قدر على ذلك، وليس له أن ينكر على المسلمين

١. الشريف المرتضى: الفصول المختارة ٢٦/١.

البراءة منه» (١).

وهذا هو ابن سلام الاباضي المتوفى بعد عام ٢٧٣ يقول: «وحكّموا الحكمين خلافاً لكتاب الله، وحكّموا الحكمين في أمر قضاه الله، واختلفت الأمة وتفرقت الكلمة، وصار الناس شيعتين مفترقتين، وظهر أهل الباطل من أصحاب معاوية على أهل الحق، فاختلف المسلمون بالحق الذي تمسكوا به فاختلفت عليهم كلمة المختلفين، يقتلونهم على دين الله الحنيف والملة الصادقة ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾» (٢). يبصرون الناس دينهم في السرّ ويصبرون في الله على الأذى والقتل، واحتقروا ذلك في ذات الله» (٣).

ياليت ابن سلام يشير إلى الذين حكّموا الحكمين خلافاً لكتاب الله، إلى الذين فرضوا التحكيم على الإمام المفترض طاعته في أمر قضاه الله. أو ليس هؤلاء أشياخه وأولياءه الذين كانوا مقنّعين في الحديد يدعون إمامهم باسم عليّ لا بإمرة المؤمنين، ويقولون: «أجب القوم إلى كتاب الله وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان».

إنّ الكاتب نسي أو تناسى الجرائم المريرة التي ارتكبتها المحكّمة الأولى حين تنقلهم من حروراء إلى النهروان. فكان الأولى له التنويه بذلك، لكنّه شطب على هذه الحقائق التاريخية بقلم عريض، وإلى الله المشتكى.

يقول بعض فقهاءهم في مسألة «الولاية والبراءة».

فإن قالوا: فما تقولون في علي بن أبي طالب؟ قلنا له: إنّ علي بن أبي طالب مع المسلمين في منزلة البراءة.

١. الكدومي - محمّد بن سعيد: المعبر ٤١/٢.

٢. البقرة: ١٣٥.

٣. ابن سلام الاباضي: بدء الاسلام وشرائع الدين ١٠٦.

فإن قال: من أين وجبت عليه البراءة وقد كان إماماً للمسلمين وهو ابن عم رسول الله وختنه ^(١)، مع فضائله المشهورة وقتاله بين يدي النبي ﷺ المشركين؟

قلنا له: أوجبنا عليه البراءة من وجوه شتى، أحدها أنه ترك الحرب التي أمر الله بها للفئة الباغية قبل أن تفى إلى الله، وأحدها تحكيم الحكيمين في دماء المسلمين وفيما لم يأذن الله به المضلين الذين كان النبي ﷺ يحذرهما ويخوفهما أصحابه.

وأحدهما بقتله أهل النهروان وهم الأفضلون من أصحاب النبي ﷺ وهم الأربعة آلاف رجل من خيار الصحابة رحمهم الله. والأخبار بذلك تطول ويضيق بها الكتاب ويتسع بها الجواب ولم نعد كتابنا هذا لشرح جميع أخبارهم، وإنما أردنا أن نلوح لكم ونذكر بعض الذي كان من أحداثهم، لتكونوا من ذلك على علم ومعرفة لتعلموا ضلال من ضل وخالف وشغب عليكم وبالله التوفيق.

فإن قالوا: فما تقولون في طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام؟ قلنا له: إنهما عند المسلمين بمنزلة البراءة.

فإن قال: من أين وجبت عليهما البراءة؟ قلنا له: بخروجهما على علي بن أبي طالب والمسلمين وطلبهما بدم عثمان بن عفان بإرادتهما إزالة علي بن أبي طالب عن إمامته، وقالوا: حتى يكون الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم إماماً غيره، بعد رضائهما به وبيعتهما له وأعطيا صفقة أيديهما ^(٢) على طاعة الله وطاعة رسوله وعلى قتال من خرج يطلب بدم

١. الختن: الصهر، زوج الابنة، والجمع: أختان.

٢. صفقة الأيدي تعني تأكيد البيعة.

عثمان بن عفان .

فإن قال: فما تقولون في الحسن والحسين ابني علي؟ قلنا له: هما في منزلة البراءة، فإن قال: من أين أوجبتم عليهما البراءة وهما ابنا فاطمة ابنة رسول الله ﷺ؟! قلنا له: أوجبنا عليهما البراءة بتسليمهما الإمامة لمعاوية بن أبي سفيان وليس قرابتهما من رسول الله ﷺ تغني عنهما من الله، لأن النبي ﷺ قال في بعض ما أوصى به قرابته: يا فاطمة بنت رسول الله، ويا بني هاشم، اعملوا لما بعد الموت، فإنني ليس أغني عنكم شيئاً، أو نحو ذلك من الخطاب. فلو كانت القرابة من رسول الله ﷺ تغني عن العمل لم يقل ذلك لهم النبي. فهذا نقض لقول من يقول: إن القرابة من رسول الله ﷺ مغفور لها. وقد وجدنا الله يهدد نبيه بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(١). فقد بطل ما خاصمت به أيها الخصم واحتججت به من قبل القرابة للنبي ﷺ^(٢).

إن الخوارج في مصطلح القوم مفهوم سياسي وفي الوقت نفسه مفهوم ديني، فيراد من الأول خروجهم عن طاعة الإمام المفترض طاعته، ويحكم عليهم بما يحكم على البغاة، ويراد من الثاني خروجهم من الدين والملة، وصيرورتهم كفاراً.

وعلى كلا المفهومين، فالمحكمة الأولى خوارج، حيث خرجوا عن

١. الحاققة: ٤٤ - ٤٧.

٢. السير والجوابات لبعض فقهاء الاباضية: تحقيق الاستاذة الدكتورة «سيدة إسماعيل كاشف، استاذة التاريخ الاسلامي في كلية البنات جامعة عين شمس؛ القاهرة ط ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، ص ٣٧٥ - ٣٧٧. (٢٤١)

طاعة الإمام وبقوا عليه في أثناء المعركة، وخارجون عن الدين حيث أبغضوا من بغضه نفاق وكفر وحبّه دين وإيمان.

وقال عمر أبوالنظر:

وتعاليم الخوارج منذ ظهورهم مزيج من السياسة والدين، فشعارهم «الحكم لله» شيء يمتزج بالدين والسياسة معاً، فلا يصحّ والحالة هذه أن يقال: إنّ دعوتهم هذه كانت دينية محضة أو سياسية محضة، وظلت دعوتهم بسيطة حتى خلافة عبدالملك بن مروان حيث خرجوا فيها كثيراً عن التعاليم الجديدة، وذهبوا يتأولون الأحكام الدينية تأويلاً فيه كثير من الاغراق و التعقيد، فقالوا: إنّ العمل بأوامر الدين من الايمان، فمن اعتقد التوحيد والرسالة وارتكب الكبائر فهو كافر^(١).

هذا ما يرجع إلى المحكّمة الأولى ومن جاء بعدهم من الأوائل المنتمين إلى الاباضية .
وأما اباضية اليوم المنتشرة في عمان والمغرب العربي أعني ليبيا والجزائر وتونس وكذلك مصر، فلم يظهر لنا من كتبهم المنتشرة اليوم إلاّ تخطئة التحكيم وتصويب المحكّمة الأولى من دون نصب عداء للوصيّ أو بذاءة في اللسان بالنسبة إليه - إلا ما نقلناه أخيراً - فلا يمكن الحكم في حقهم إلاّ بالمقدار الذي ظهر لنا ولكن لا يمكن الوثوق به لأنّ للقوم في الدين مسالك أربعة، منها مسلك الكتمان كما سيوافيك توضيحه عند البحث عن التقيّة، فإنّ القوم من أصحابها ومجوّزّيها والعاملين بها طيلة قرون، وفي ظلّها عاشوا ومهّدت لهم الطريق، وقامت لهم دول في عمان، وفي أقصى المغرب العربي .

١. عمر أبو النظر: الخوارج في الإسلام ١٠٢.

نظرية أخرى في مفهوم الخوارج :

المتبادر من الخوارج لدى المسلمين هو المحكّمة الأولى الذين ثاروا على عليّ في ثنّيا حرب صفّين وخرجوا عن الطاعة بوجه وعن الدين بوجه آخر، غير أنّ بعض الاباضيين في العصر الحاضر يفسّره بالخروج عن الدين ويصّر على أنّ المراد منه هو أصحاب الردّة بعد وفاة رسول الله أو الثورات الأخرى التي وقعت إلى انتهاء خلافة الإمام عليّ (عليه السلام) (١).

قال علي يحيى معمر:

«كان الأمويّون والشيعة يحاولون بكل ما استطاعوا أن يلصقوا هذا اللقب لقب الخوارج - بعد أن فسّر بالخروج من الدين - بهؤلاء الثائرين الذين ينادون في اصرار وشدة بالمبادئ العادلة في الخلافة، وكان الشيعة يحاولون بما أوتوا من براعة أن يحصروها في بيت علي، كما كان غير هم من الطامعين فيها، يشترط لها الهاشمية أو القرشية أو العروبة، حسب المصلحة السياسية لأصحاب الآراء في ذلك الحين، وكلّ هذه الاتجاهات تجتمع على محاربة الاتجاه الذي اتجه إليه أتباع عبدالله بن وهب الراسبي. ذلك الاتجاه العادل الذي يرى أنّ المسلمين متساوون في الحقوق والواجبات. «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ». «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى».

يلاحظ عليه:

أنّ النبيّ الأكرم لم يتكلّم عن الخوارج بوصف كلّي وإنّما عيّن إمامهم وأشار إلى قائدهم، وقد رواه المحدثون في صحاحهم ومسانيدهم وأطبق على نقله الفريقان، فلا يمكن لمحدّث واعٍ انكاره، ولا التشكيك في صحّة أسانيده، فما ظنّك بحديث رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد بن حنبل وغيرهم،

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٢٧.

ولأجل إيقاف القارىء على نص الرواية نذكرها عن تلك المصادر ونشير إلى محلها:

١ - روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: بينا النبي يقسم ذات يوم قسماً، فقال ذو الخويصرة - رجل من بني تميم - يا رسول الله أعدل. قال: ويلك! من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: إئذن لي فلاضرب عنقه؟ قال: لا إن له أصحاباً يحقر أحدهم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم. يمرقون من الدين كمروق السهم من الرمية ينظر إلى نصله ^(١) فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه ^(٢) فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه ^(٣) فلا يوجد فيه شيء سبق الفرت والدم، يخرجون على حين فرقة من الناس أيتهم رجل إحدى يديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر ^(٤). قال أبو سعيد: أشهد لسمعته عن النبي وأشهد أنني كنت مع علي حين قاتلهم فالتمس في القتلى فأتى به على النعت الذي نعت النبي ^(٥).

ورواه بنصه بلا تفاوت مسلم في صحيحه ^(٦).

٢ - روى ابن ماجه عن جابر بن عبدالله، قال: كان رسول الله بالجعرانه، وهو يقسم التبر والغنائم، وهو في حجر بلال، فقال رجل: أعدل يا محمد، فإنك لم تعدل، فقال: ويلك ومن يعدل بعدي إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعني يا رسول الله حتى أضرب عنق هذا المنافق؟ فقال رسول الله: إن هذا في

١. هي عصية تلوى فوق مدخل النصل.

٢. هو القدح في عود السهم.

٣. جمع القذة وهي ريش السهم.

٤. تضطرب وتتحرك.

٥. البخاري: الصحيح ٧٠/٨ رقم الحديث ١٨٦ من باب ما جاء في قول الرجل ويلك.

٦. مسلم: الصحيح ١١٢/٣ طبعة محمد علي صبيح.

أصحاب أو اصحاب له يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية^(١).

والرسول وإن لم يسم الرجل أو لم يجيء اسمه في الرواية، ولكن علم المقصود منه بفضل الروايتين السابقتين.

٣- روى أحمد بن حنبل في مسنده بالنص الذي رواه البخاري ومسلم بتفاوت طفيف في آخره، حيث جاء فيه: رجل أسود في إحدى يديه أو قال إحدى ثديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس فنزلت فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ ثم نقل ما ذكره أبوسعيد من سماعه عن رسول الله و مشاهدته في عصر علي^(٢).

كيف يفسر حديث ذي الخويصرة بأصحاب الردة، فقد أشار النبي الأكرم إليه، وقال: «سيخرج من ضئىء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين...» ولم يكن هو من أصحاب الردة، بل كان من المحكمة الأولى. كيف يفسر هذا المفهوم بالثورات التي وقعت إلى انتهاء خلافة الإمام علي^(عليه السلام) مع أن النبي الأكرم قال: أنت يا علي قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ولم يقاتل الإمام بعد أصحاب الجمل (الناكثين) وأصحاب معاوية (القاسطين) إلا المحكمة الأولى. أظن أن هذه الاستدلالات الواهية أشبه بتمسك الغريق بالطحلب، فالأولى على علماء الاباضية المفكرين، والعائشين في عصر ظهرت البواطن، وطلعت الحقائق، وانقشع غمام الجهل عن سماء المعرفة، أن يعرضوا عقائدهم على الكتاب والسنة، وعلى المقاييس الصحيحة من الاجماع و

١. أبو عبدالله بن ماجه (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ): السنن ١٧١/١ الباب ١٢، باب في ذكر الخوارج.

٢. أحمد بن حنبل: المسند ٥٦/٣. وسيوافيك مجموع ما رواه اهل السنة عن النبي والصحابه والتابعين في آخر الكتاب فانظر.

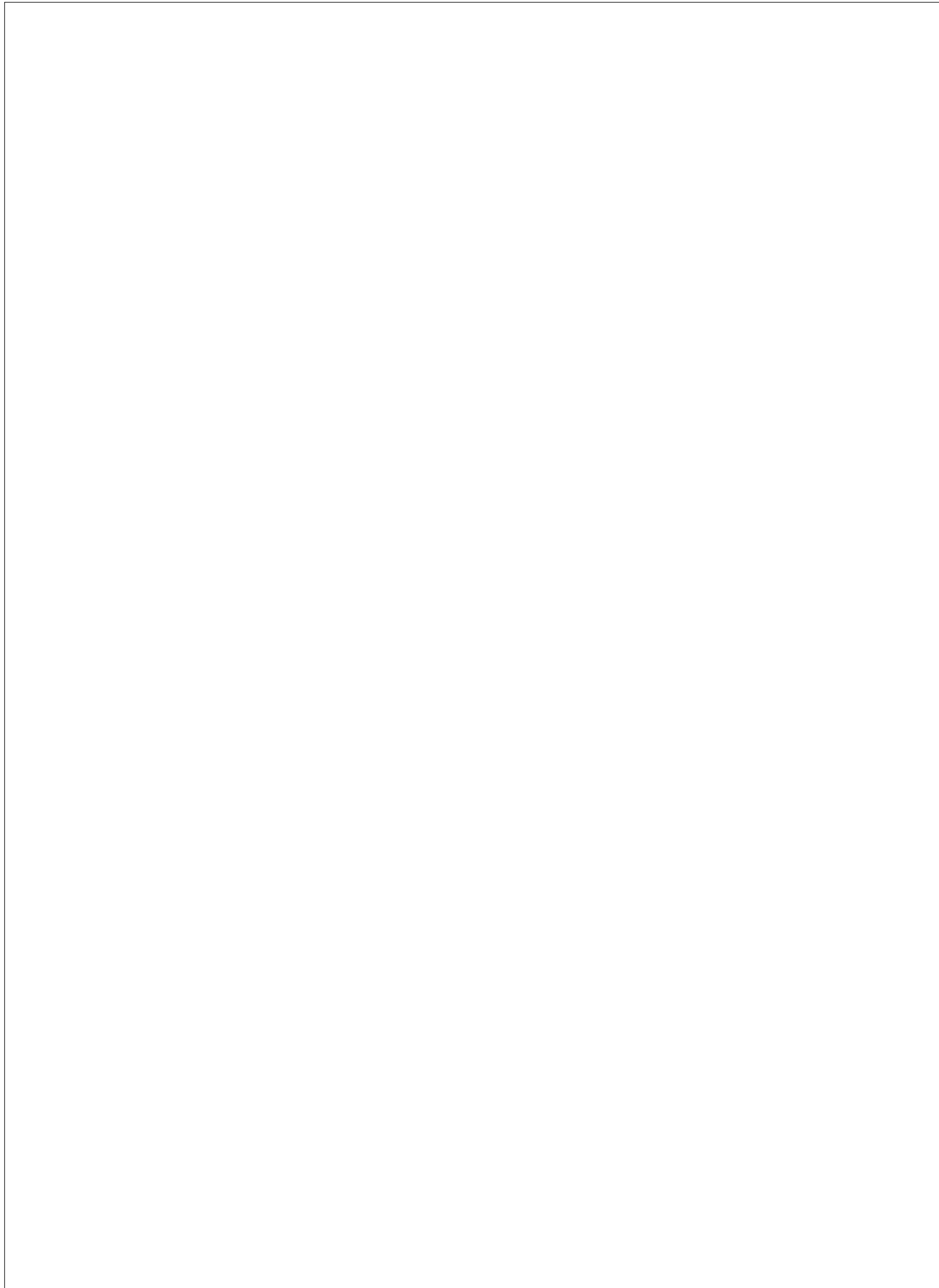
العقل، فلربما عادوا إلى الطريق المهيح، وتنكبوا عن سبيل الغواية، فلمهم أن يعملوا بما وصل إليهم من الكتاب والسنة في ضوء الاجتهاد الصحيح، ويجددوا النظر في مسألة التحكيم كما لهم أن يجددوا النظر في حق المحكمة، وربما اختاروا طريقاً واضحاً لاتعصب فيه ولا تساهل .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدُّ ثَبَاتًا ﴾

الفصل العاشر

عقائد الاباضية وأصولهم الثمانية

(٢٤٧)



إنّ الاباضية تشترك مع سائر فرق الخوارج في أمرين بلاشك ولاشبهة، ولا يمكن لأحد منهم انكاره .

١- تخطئة التحكيم .

٢- عدم اشتراط القرشية في الإمام .

وفي ظل الأصل الأوّل يوالون المحكّمة الأولى كعبدالله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير السعدي وغيرهما، ولأجل الأصل الثاني، اعترفوا بإمامة عبدالله بن وهب الراسبي ومن جاء بعده من المحكّمة .

ثمّ إنّ لهم أصولاً خاصّة يتميّزون بها عن أهل السنّة (الأشاعرة) وإن كانوا يلتقون فيها مع غيرهم، فتجب علينا دراسة تلك الأصول التي يعتقدون بها، وربّما يكون بعضها أصلاً لامعاً وورصيناً يدعمه الكتاب والعقل .

١- صفات الله ليست زائدة على ذاته:

إذا كانت الأشاعرة قائلة بأنّ صفات الله تعالى غير ذاته، وكان المنسوب إلى الماتريدية من أهل السنّة أنّ الصفات ليست شيئاً غير الذات، فهي ليست

صفات قائمة بذاتها ولا منفكة عن الذات فليس لها كينونة مستقلة عن الذات، فهذا هو ما يقوله الاباضية في الصفات أيضاً، وربما يلتقي الاباضية والماتريدية في هذه المسألة حتى في التعبير واختيار الكلمات^(١).

إنّ البحث عن الصفات من أهم المسائل الكلامية، فقد طال النقاش فيها قروناً، وأوّل من أصرّ بالحقيقة، وصوّر التوحيد بأعلى مظاهره هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فنفى زيادة صفاته على ذاته، وإنّه عين ذاته، لا بمعنى نفي صفاته، تعالى عنه علواً كبيراً، بل بمعنى أنّ الذات بلغت من الكمال والعلو مرتبة صارت نفس العلم، والقدرة، والحياة، وليس هناك صفات قديمة وراء الذات حتى يناقض التوحيد ويكون هناك قدماء كثيرة وراء الذات، وكون العلم والقدرة والحياة فينا أموراً قائمة بالمادة أو بالموضوع، لا يكون دليلاً على كونها كذلك في جميع المراتب، إذ كما أنّ من العلم ممكناً، فكذا منه واجباً، فلولم يكن الممكن قائماً بالذات، فلا يكون دليلاً على كونه كذلك عند ما كان واجباً، والحكم بالتوحيد وإنّه لا واجب سواه، يجزّنا إلى القول بعينية صفاته مع ذاته، وقد أوضحنا الحال فيها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة، ولا يبعد أن يتأثر الخوارج في هذه المسألة بالمعتزلة كما أنّ المعتزلة اخذت هذا الأصل من خطب الإمام أمير المؤمنين وكلماته، بل لا يبعد أن يكون الجميع قد أخذوا من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

والعجب إنّ هذه النقطة من النقاط الوضّاءة في عقائد الاباضية، مع أنّهم لا يركّزون على ذلك الأصل خوفاً من مخالفة الأشاعرة، وطفقوا يبحثون بين الكتب الإسلامية حتى يجدوا موافقاً لهم من أهل السنّة حتى استبان لهم أنّ الماتريدية من أهل السنّة يوافقونهم.

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢٩٥/١.

إنَّ الرجل الواعي الطالب للحقيقة لا يخاف من لومة لائم، ولا من مخالفة فئة، فكان على الاباضية أن يرفعوا علم المخالفة في هذه المسألة، وفي مسألة الرؤية، وخلق القرآن، ويندّدوا بالمخالفين سواء أكانوا من السنّة أو غيرهم، فالحق أحق أن يتّبع، كيف يصحّ لموحّد أن يقيس الواجب بالممكن فيصوّر له ذاتاً وصفة قائمة بها، ويحكم بالتعدّد ويخرج في النتيجة بالقدماء الثمانية ثم يدّعي التوحيد ويخطيء النصارى القائلين بالتثليث.

ثم إن من يرى أنّ مرجع عينية الصفات إلى نفي حقائقها عن ذاته، (كما عليه الزنادقة) رأي باطل صدر ممّن لا قدم له في المباحث العقلية، وليس له مصدر إلّا قياس الممكن بالواجب، فإذا رأى أنّ القول بالعينية ينتج نفيها في الممكنات، عاد يخطيء القائل بالعينية في الواجب بأن معناها نفي حقائقها عن ذاته سبحانه .

٢- امتناع رؤية الله سبحانه في الآخرة:

إنّ امتناع رؤية الله سبحانه من الأصول التي استقاها الوعاة من المسلمين من القرآن الكريم وخطب سيّد الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال عزّ من قائل: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(١).

وهذا الأصل أيضاً من الأصول اللامعة في عقائد الاباضية، والأسف أنّ الكتاب المتأخّرين منهم يُقلّلون من أهمية هذا الأصل، توخّياً لتقريب عقائدهم من أهل السنّة. حتى أنّ علي يحيى معمر يُعنون المسألة بقوله: هل رؤية الباري جلّ وعلا في الآخرة ممكنة؟ والعنوان يحكي عن وجود تردّد وشك في نفس الكاتب، ولا أقل يطرح المسألة على شكل غير قطعي وعلى خوف ووجل،

وليس كتابه كتاباً دراسياً يطلب فيه طرح المسائل على وجه السؤال والاستفهام. ثم إنه يكتب: قد كان في الرؤية طرفان متطرفان ووسط معتدل هو كان اللقاء بين المذهبين، وذلك إنَّ طرف الاثبات يبالغ حتى يصل به التطرف إلى حد التشبيه والتمثيل والتحديد، وطرف النفي يبالغ حتى يصل به التطرف إلى حد نفي حصول كمال العلم، وبينهما يقف أصحاب التحقيق في الجوانب المتقاربة التي تلتقي في المعنى الواحد لقاءً كاملاً أو لقاءً متقارباً، وهذه الصورة تتمثل فيما ذهب إليه بعض علماء أهل السنة من أنَّ الرؤية معناها حصول كمال العلم بالله تبارك وتعالى، وعبر عنها آخرون منهم بأنَّ الرؤية تقع بحاسة سادسة هي كمال العلم، واختلفت تعابير الكثير منهم ولكنها تتلاقى في النهاية على نفي كامل الصورة التي يتخيّلها الإنسان لصورة راء ومرئي وما تستلزمه من حدود وتشبيه، وتتفق في النهاية على الابتعاد عما يشعر بأي تشبيه في أي مراتبه، وبالمحدودية في أي أشكالها، وليس لنا أن نخوض فيه بغير القدر التي جاءت به النصوص .

والمعتدلون من الاباضية لا يمتنعون أن يكون معنى الرؤية هو كمال العلم به تعالى ويمنعون الرؤية بالصورة المتخيلة عند الناس^(١) .

عزب عن الكاتب أن محل النزاع من القرن الأول إلى القرون المتأخرة ليس إلا الرؤية بالأبصار لبحاسة سادسة سمّاها كمال العلم، فإنَّ القائلين بالرؤية يستندون إلى ما رواه البخاري وأمثاله من أنَّ النبي ﷺ قال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر غير متضامين»، فليس للمحقق الكلامي إلا موافقة هذا الأصل أو طرده من الرأس، فاللجوء إلى الرؤية بحاسة سادسة بمعنى كمال العلم تفسير بأمر بائن وخروج عن محط البحث .

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢٩١/١ - ٢٩٢ .

وأظن وظن الألمعي يقيناً أنّ الكاتب توخّياً لإيجاد القرب بين الاباضية وأهل السنة تنازل إلى حدّ غير مطلوب، ولم يقدّر بالدفاع عن مذهبه بحماس.

نعم قد أحسن في المقام صالح بن أحمد الصوافي، فقد طرح المسألة بشكل رصين، ودفع شبهة القائلين في المقام، ترى أنّه قام بتفسير قوله سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(١)، الذي هو من أهم أدلة القائلين بالرؤية، فقال:

«أولاً: النظر في اللغة غير الرؤية، ولذا يقال: نظرت إلى الهلال فلم أراه، ولا يصحّ أن يقال رأيته فلم أراه، وإطلاقه على الرؤية مجاز، لا يصحّ إلّا لقرينة، والعدول عن الحقيقة إلى المجاز خلاف الظاهر.

ثانياً: إنّ سياق الآية دال على انتظار رحمة الله تعالى بدليل أنّه عطف عليها قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾^(٢) فلو فسّر النظر في الآية بالرؤية لارتفعت المناسبة بين الجملتين ولتداعى بناؤها واختلّ نظمها، إذ لا مناسبة بين عيون رائية ربّها ووجوه باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة^(٣).

ثالثاً: إنّ النظر في الآية انتظار ما لهم عند الله من الثواب، ومنه قول الشاعر:

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريب
وقول الآخر:

كلّ الخلائق ينظرون سجاله نظر الحجيج إلى طلوع هلال

١. القيامة: ٢٢ - ٢٣.

٢. القيامة: ٢٤ - ٢٥.

٣. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٣٨ وقد أوضحنا هذا الوجه في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (لاحظ ص ٢٠٢ - ٢٠٨).

وقول الآخر:

وكنا ناظريك بكل فجّ كما للغيث ينتظر الغماما

وقال امرؤ القيس:

وقد نظرتكم أعشى بخامسة للورد طال بها حبّي وتبسّاسي^(١)

٣- القرآن حادث غير قديم:

إنّ المترقّب من الاباضية الذين رفضوا القشيرية، وخضعوا للعقل، أن يكون موقفهم في خلق القرآن موقف العدلية ويصرّحوا بأنّ القرآن مخلوق لله سبحانه وحادث بعد أن لم يكن، لكونه حادثاً ومخلوقاً لله سبحانه غير أنّ الظاهر من بعض كتابهم أنّهم يتحرّجون من التصريح بخلق القرآن وإن كانوا بعداء عن القول بكونه قديماً غير مخلوق. وننقل في المقام نصّين من كتابهم، حتى تلمس الحقيقة .

١ - يقول الدكتور رجب: وبالنسبة لمشكلة خلق القرآن نراهم يقفون أمام هذا القول الذي فرضه المأمون على العالم الإسلامي فرضاً بتأثير من المعتزلة، ممّا أدّى إلى تمزيق وحدة الأمة الفكرية، وإلى اضطهاد كثير من العلماء والفقهاء، ولذلك توقّف العمانيون عن القول بخلق القرآن، وقالوا في صراحة واضحة في واحد من أهمّ كتبهم الفقهية: «لا يلزم الناس معرفة هذه المسألة» وكتب أبو عبدالله القلّهاتى الذي عاش في القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد - أكثر من عشرين صفحة في مناقشة القول بخلق القرآن والردّ على من قال بذلك، كما كتب أحمد بن نظر العماني الذي عاش في القرن الخامس للهجرة

١. المصدر نفسه، وقد اغرق نزاعاً في التحقيق في اثبات القول بالحق وتنزيهه، والتبسّاس: هو الشوق الشديد.

- الحادي عشر للميلاد- في كتابه دعائم الإسلام خمسة وسبعين بيتاً من الشعر، فنَدَّ القول بهذه المسألة واستنكرها كل الاستنكار. وفي العصر الحديث نجد الشيخ نورالدين السالمي يعبر عن هذا الموقف قائلاً: «إنَّ الأشياء توقَّفوا عن اطلاق القول بخلق القرآن وأمروا بالشدة على من أطلق القول في هذه المسألة، حتى لا يفتتن الناس في دينهم»^(١).

تري في هذا الكلام التناقض، فبينما ينقل عن بعضهم الرد على من قال بخلق القرآن ينقل عن الأشياخ أنَّهم توقَّفوا عن اطلاق القول بخلق القرآن، وأمروا بالشدة على من أطلق القول في هذه المسألة .

لاشكَّ إنَّ القرآن ليس بمخلوق أي ليس بمختلق للبشر كما قال سبحانه حاكياً عن بعض المشركين: ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾^(٢) ولكنَّه مخلوق لله سبحانه، إذ لا يتجاوز كون القرآن فعله، وفعله كلَّه حادث غير قديم، وإلَّا يلزم تعدُّ القدماء وأما علمه سبحانه بما في القرآن من المضامين والمعارف والحوادث فلاشكَّ إنَّه قديم، وهو غير كلامه .

فاللائق بمن يصف نفسه بأنَّه أهل تقييد لا تقليد أن يصرَّح بموقفه في مسألة خلق القرآن، اللهمَّ إلَّا إذا كان موجِباً للفتنة أو كانت عقول الناس بعيدة عن درك الحقيقة، فحينئذ الأولى عدم البحث والطرح .

ونؤكِّد من جديد أنَّ القول بعدم قدم القرآن هو من الأصول الوضائية في عقائد الاباضية، وهم في الاعتقاد بها عيال على المعتزلة، فاللائق بالكاتب الواعي أن يجهر بالحق ويحدِّد محل النزاع، وبالأأسف انَّ بعضهم - مثل الكاتب السابق - بدل أن يخرج من المسألة مرفوع الرأس، ويحقِّقها على ضوء

١. الدكتور رجب محمَّد عبد الحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٧٠ - ٧١.

٢. المدثر: ٢٥.

القرآن والعقل، طفق يطلب من يقول بكون القرآن مخلوقاً من بين أهل السنة .

٢ - يقول علي يحيى معمر: إنّ من علماء أهل السنة من يقول دون تحرّج أو احتراز: «القرآن مخلوق» فقد ذكر الخطيب البغدادي من طرق متعدّدة عن أبي يوسف أنّ أبا حنيفة كان يقول: القرآن مخلوق، أمّا أبو منصور الماتريدي، فقد كان يقول: إنّّه محدث، ولم يحفظ عنه أنّ قال: مخلوق، وقد كان أبو النضر العماني من أئمة الاباضية يقول: إنّ القرآن غير مخلوق، وأنكر انكاراً شديداً على من يقول بخلق القرآن، وذهب القطب من أئمة الاباضية أنّ هذه المسألة ليست من الأصول، وقال أبو إسحاق طفيش: إنّ الخلاف فيها لفظي، وهذا القدر كاف للدلالة على اللقاء بين المذهبيين، ويكفي أن يلتقي المسلمون على حقيقتين في هذا الموضوع: هي أنّ الله تبارك و تعالى سميع بصير متكلم وإنّ القرآن الكريم كلام الله عزّوجلّ أنزله على رسوله^(١) .

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره ناش من توخّي إيجاد اللقاء بين المذهبيين: الأشاعرة والاباضية، فلاجل ذلك ذهب ليجد من أهل السنة من يقول بأنّ القرآن مخلوق، ومن أئمة الاباضية من يقول: بأنّ القرآن غير مخلوق، وهذا يعرب عن أنّه لم يتّخذ الكاتب في هذا الموقف رأياً حاسماً أليس للاباضية فيه رأي جازم، مع أنّ المنقول منهم كونه حادثاً أو غير قديم أو مخلوقاً بمعنى أنّه أنزله الله سبحانه وأوجده من العدم .

فكان من الواجب على الكاتب أن يدافع عقيدته وعقيدة طائفته وي طرحها بوضوح ويذبّ عنها ذبّاً علمياً تحقّقياً متحرّياً للواقع.

ثمّ إنّ ما ذكره في ذيل كلامه من أنّه «يكفي أن يلتقي المسلمون على أنّ القرآن الكريم كلام الله عزّوجلّ أنزله على رسوله». وإن كان كلاماً صحيحاً،

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢٩١/١ .

إذ ليس الاعتقاد بالحدوث والقدم في القرآن من الأصول العقائدية التي يناط بها الإسلام والكفر، غير أنه لو كان هذا هو الأصل الثابت في جميع المواقف فليضرب هذا الكاتب الاباضي صفحاً على الأصول التي اتخذها أصولاً لمذهبه كمسألة التحكيم وولاء المحكمة الأولى، أو ليس ذلك أوفق بالتقريب و توحيد الأمة وجعلهم صفّاً واحداً في مقابل الأعداء؟

إنّ البحث عن التحكيم و المحكمة وخلق القرآن وعدمه وما يأتي من الأصول الأخرى للاباضية من خلود الفاسق في النار وعدمه، وكونه كافراً كفر النعمة، بحوث علمية يختص فهمها بالمحققين والوعاة من علماء الإسلام، فالتحيز إلى هذه الأصول وجعلها محاور للحق والباطل والإسلام والكفر، لا يدعمه الكتاب ولا يوافقه العقل، فليكن شعار الجميع ما سمحت به قريحة شاعر الأهرام:

إنّا لتجمعنا العقيدة أمة ويضمّنا دين الهدى أتباعا

ويؤلف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهوى أشياعا

والحق إنّ الخوارج بالمعنى العام الذي يعمّ الاباضية لم يكن يوم ظهورها إلا حزباً سياسياً يهدف إلى تخطئة مسألة التحكيم مع عزل علي عن الحكومة والدعوة إلى بيعه رئيس المحكمة الأولى عبدالله بن وهب، ولم يكن لهم يومذاك أي شأن في المسائل العقائدية الماضية، ولما قضى عليّ نحبه واستولت الطغمة الغاشمة من الأمويين و المروانيين على منصّة الحكم، صار الخوارج يكافحون الحكومات، ويصارخون في وجوههم للقضاء عليهم ولم يكن لهم في هذه الأيام أيضاً إلا هذا الأصل، غير أنّ مرور الزمن وتلاقي الخوارج مع المعتزلة وغيرهم من الطوائف الإسلامية، ألجأهم إلى أن يتخذوا في بعض المسائل موقفاً فكرياً، فعند ذلك أصبحوا جمعية دينية وفرقة كلامية بعد ما كانوا حزباً سياسياً بحتاً

فتلاقوا في هذه المسائل مع المعتزلة بل تأثروا بهم كما هو الحال في المسألة التالية، فقد تأثرت الاباضية فيها عن المعتزلة وخالفوا الشيعة وغيرهم من الطوائف الإسلامية.

٤- الشفاعة: دخول الجنة بسرعة:

إنَّ مرتكبي الكبيرة عند الاباضية إذا ماتوا بلا توبة، محكومون بالخلود في النار، فلأجل هذا الموقف المسبَّق في هذه المسألة فسَّروا الشفاعة بدخول المؤمنين الجنة بسرعة، وفي الحقيقة خَصُّوها بغير المذنبين من الأمة، وهذا التفسير يوافق ما عليه المعتزلة من أنَّ الغاية من الشفاعة هو رفع الدرجة لامغفرة الذنوب .

إنَّ الشفاعة أمر مسلَّم عند جميع المسلمين غير أنَّهم اختلفوا في تفسيرها، وهؤلاء كالمعتزلة ذهبوا إلى أنَّ شفاعة النبيِّ بل شفاعة جميع الشفعاء لاتنال أهل الكبائر متمسكاً بقوله ﷺ: «ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمتي» .

يقول السالبي في كتابه شرح أنوار العقول: «فإن قيل: المؤمنون مستوجبون للجنة بأعمالهم فلا معنى للشفاعة، فالجواب أنَّ الشفاعة لهم هي طلب تنقلهم من المحشر، ودخولهم الجنة بسرعة»^(١) .

يلاحظ عليه: أنَّ الشفاعة مسألة قرآنية، وفي الوقت نفسه مسألة روائية وحديثية، فلا يجوز لمسلم الإدلاء برأيٍ إلَّا بعد الرجوع إلى المصدرين الرئيسيين مجرداً عن كل رأي، وأمَّا تفسيرها على ضوء الرأي المسبق فهو من قبيل التفسير بالرأي الذي حذَّر عنه النبي في الحديث المتواتر عنه و قال: «من

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٥٦، نقلاً عن مشارق أنوار العقول: ٢٩٤.

فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار»^(١).

إنّ مسألة الشفاعة ليست مسألة جديدة ابتكرها الإسلام وانفرد بها، بل كانت فكرة رائجة بين أمم العالم من قبل، وخاصّة بين الوثنيين واليهود، فلو ذكرها القرآن فإنّما يذكرها بالمفهوم الرائج عندهم، لا بمفهوم مغاير، فلو أمضاها، فإنّما أمضاها بهذا المفهوم، ولو هدّبها من الخرافات وحدّدها في إطار خاص فإنّما هدّب ذلك المفهوم وحدّده، ومن المعلوم أنّ الشفاعة عندهم إنّما هو لغفران الذنوب لالرفع الدرجة أو سرعة التنقل إلى الجنّة، ولأجل ذلك كانوا يرجون لصلتهم بالأنبياء حطّ ذنوبهم، وغفران آثامهم، وكان المتطرّفون منهم يرتكبون الذنوب تعويلاً على الشفاعة.

وفي هذا الموقف وردّاً على ذلك التطرّف الباعث للجرأة، يقول سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢) ويقول أيضاً رفضاً لتلك الشفاعة المقترنة بالخرافة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^(٣).

ومن تدبّر في الآيات الواردة حول الشفاعة أيجاباً وسلباً، يقف على أنّ الإسلام قبّل الشفاعة بنفس المفهوم الرائج بين الأمم، لكن حدّدها بشروط وجعل لها إطاراً خاصاً، وعلى ضوء ذلك فتفسير الشفاعة بدخول الجنّة بسرعة، نبع من العقيدة بخلود العصاة في النار إذا ماتوا بلا توبة، فلأجل ذلك إلّجأوا إلى تفسير الشفاعة بغير المعنى المعروف.

نعم يجب إلفات نظر القارئ إلى أمر هام:

إنّ بعض الذنوب الكبيرة ربّما تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه كما

١. حديث متفق عليه. رواه الفريقان.

٢. البقرة: ٢٥٥.

٣. الأنبياء: ٢٨.

تقطع الأواصر الروحية بالشفيع فمثل هذا الشخص لا ينال الشفاعة، ولا يرضى الرب بشفاعة الشفيع في حقّه، وقد أوضحنا حقيقة الشفاعة وشروطها في موسوعتنا التفسيرية، وقمنا بالذّب عن الاشكالات التي تثار حولها من جانب المعتزلة أو بعض المفكرين الجدد^(١).

٥- مرتكب الكبيرة كافر نعمة لا كافر ملّة:

اتفقت الخوارج حتى الاباضية على أنّ ارتكاب الكبيرة موجب للكفر، ولكن المتطرفين يرونه خروجاً عن الملّة، ودخولاً في الكفر والشرك، ولكن الاباضية لا اعتدالهم، يرونه كفر النعمة، فالمسلم الفاسق كافر عندهم لكن كفر النعمة، ولأجل التعرّف على حقيقة مرامهم نأتي بنص بعض كتّابهم، وإن كان طويلاً مفصّلاً:

يقول علي يحيى معمر:

«يحسب كثير ممّن لا علم له أنّ الاباضية ممّن يتفقون مع الخوارج في تكفير العصاة كفر شرك، ولا يعرفون أنّ الاباضية يطلقون كلمة الكفر على عصاة الموحّدين الذين ينتهكون حرّمة الله، ويقصدون بذلك كفر النعمة، أخذاً من الآيات الكريمة التي أطلقتها في أمثال هذه المواضع و استناداً إلى أحاديث الرسول ﷺ:

﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

﴿لِيُبْلُوَنِي ۚ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي

١. لاحظ: مفاهيم القرآن ١٥٦/٤ - ٢٧٩.

٢. آل عمران: ٩٧.

غَنِيَّ كَرِيمٍ»^(١).

«وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»^(٢).

سأل الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ: «الحج علينا كل عام يا رسول الله؟ فقال ﷺ: لو قلت نعم لوجب، ولو وجب لما قدرتم عليه، ولو لم تفعلوا لكفرتم، وقال: من ترك الصلاة كفر، وقال: ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة، وقال: ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وقال: الرشا في الحكم كفر».

وخلاصة البحث انّ الاباضية عندما يطلقون كلمة الكفر على أحد من أهل التوحيد فهم يقصدون كفر النعمة، وهو ما يطلق عليه غيرهم كلمة الفسوق و العصيان، والمعنى الذي يطلق عليه الاباضية كفر النعمة ويطلق عليه المعتزلة^(٣) الفسوق، ويطلق عليه غيرهم النفاق أو العصيان فهو معنى واحد.

والسبب الذي دعا الاباضية إلى اطلاقهم هذه الكلمة على العصاة بدلاً من كلمة النفاق أو الفسوق أمران:

أولهما: إنّها الكلمة التي أطلقها الكتاب الكريم والسنة القويمة عليهم في كثير من المواضع والمناسبات .

ثانيهما: إنّ لكلمة النفاق أثراً خاصاً في تاريخ الإسلام، فقد اشتهر بها عدد من الناس في زمن رسول الله، آمنوا ظاهراً، ولكن قلوبهم لم تطمئن بالإيمان، فكان القرآن الكريم ينزل بتقريعهم، ويفضح بعضهم، ويتوعدّهم بالعذاب الأليم

١. النمل: ٤٠.

٢. المائدة: ٢٤.

٣. اطلاق الفاسق على مرتكب الكبيرة غير مختص بالمعتزلة، بل الأشاعرة والإمامية في ذلك أيضاً سواء، بل الفرقتان الأخيرتان أولى بهذا الاصطلاح من المعتزلة، لأنه عندهما مؤمن، لا كافراً ولا مشرك بخلاف المعتزلة فإنّه عندهم لا كافراً ولا مؤمناً بل منزلة بين المنزلتين.

في الدنيا والآخرة حتى اشتهروا بهذا الاسم وعرفوا به، قال الله تعالى:

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١) حتى صارت هذه الكلمة تشبه أن تكون علماً لهم فإذا اطلقت انصرفت إليهم .

والنقاش في هذا الموضوع نقاش لغوي والاختلافات لفظي، والنتيجة أنّ من يصرّ على معصية الله يلاقي نفس الجزاء الذي يلاقيه من يكفر بالله، أمّا معاملة المسلمين لمن يفسق عن أمر الله، أو ينافق في دين الله، أو يكفر بنعمة الله، فإنّها معاملة للعاصي المنتهك الذي تجب محاولة ارشاده إلى وجوب الاستمسك بدينه ورجوعه إلى أوامر ربّه، واقلّاعه عن محادة الله ورسوله، فإن أصرّ واستكبر وتغلّب عليه الشيطان، بُرئ منه^(٢) .

يلاحظ عليه أولاً: أنّ المحكمة الأولى كانوا لا يريدون من الكفر إلا الخروج عن الدين، وكانوا يقولون للإمام أمير المؤمنين: تب من كفرك، وكان يجيبهم: أبعد إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذّاً وما أنا من المهتدين^(٣) .

فلما أحسّ عبدالله بن اباض أو من قبله بتطرّف هذه الفكرة عاد بتأويله إلى كفر النعمة تحرّزاً عن ردّ فعل للنظرية الأولى.

ثانياً: لو فرضنا إنّ القرآن الكريم استعمل الكفر في كفر النعمة أو استعمله الحديث في حق تارك الصلاة، ولكن هذا الاستعمال طفيف جدّاً، فقد ورد لفظ الكفر ومشتقاته في القرآن قريباً من ٤٥٠ مرّة وأريد في أغلبها كفر الملة

١. التوبة: ٦٧.

٢. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٨٩-٩٢.

٣. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨.

والخروج عن الدين، ولو استعمل في كفر النعمة فأنما استعمل مورد أو موردين، هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ لفظ الكفر والكافر يعطيان مفهوماً خاصاً يهزّ القلوب ويروّعها، إذ لا يقصد منه إلا الخروج عن الدين فاستعمال ذلك في كلّ معصية كبيرة، يقلّل من شدة خطره ويصغّر أمره العظيم. والأثر الخاص الذي ادّعاه لكلمة النفاق، موجود في كلمة الكفر بوجه أشدّ. فلو عدلوا عن إعماله، فليعدلوا عن اطلاق كلمة الكفر لأجله والكلمتان مشتركتان في أثر السيّء.

أوليس الأولى للاباضية أن ينتهجوا نهج جميع المسلمين فيختاروا لفظاً غيره في مورد ركوب الكبيرة؟

وقد تنبّه لما ذكرناه الكاتب الاباضي حيث علّق على ما ينسب إلى الاباضية: «المخالفون كفّار نعمة لا كفّار في الاعتقاد» قوله: لا شك أنّ أيّ مسلم إذا قيل له: «إنّ الاباضية يعتبرونك غير مسلم، ويرونك كافراً» يتملّكه الغضب ويعتبرهم فرقة ضالّة ظالمة تستحقّ اللعن، ولن ينتظر منك أن تشرح له الفرق بين معاني الكفر^(١).

ولكن اللوم متوجّه عليه وعلى أسلافه لا لأصحاب المقالات فإنّهم استعملوا لفظ الكفر في حق المخالفين غير أنّ المتطرّفين فسّروه بالكفر في الاعتقاد وغيرهم فسّروه بكفر النعمة مستشهدين بأنّه ورد لفظ الكفر في مورد المرتكبين للكبائر، ونقلوا عن الرسول الأعظم أنّه قال: الرشوة في الحكم كفر، وقوله من أتى كاهناً أو عرافاً فصدّقه فيما يقال فقد كفر بما أنزل على محمّد^(٢).

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٠٣/١.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ١٢٣.

٦- الخروج على الإمام الجائر:

يقول أبو الحسن الأشعري: «والاباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف لكنهم يرون ازالة أئمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيء قدروا عليه بالسيف أو غيره»^(١).

وربما ينسب إليهم أمر غير صحيح، وهو أن «الاباضية لا يرون وجوب اقامة الخلافة»^(٢). إن وجوب الخروج على الإمام الجائر أصل يدعمه الكتاب والسنة النبوية وسيرة أئمة أهل البيت إذا كانت هناك قدرة ومنعة، وهذا الأصل الذي ذهبت إليه الاباضية بل الخوارج عامة، هو الأصل العام في منهجهم، ولكن نرى أن بعض الكتاب الجدد من الاباضية الذين يريدون ايجاد اللقاء بينهم وبين أهل السنة يطرحون هذا الأصل بصورة ضئيلة.

يقول علي يحيى معمر: إن الاباضية يرون أنه لا بد للأمة المسلمة من اقامة دولة ونصب حاكم يتولى تصريف شؤونها، فإذا ابتليت الأمة بأن كان حاكمها ظالماً، فإن الاباضية لا يرون وجوب الخروج عليه لاسيما إذا خيف أن يؤدي ذلك إلى فتنة وفساد أو أن يترتب على الخروج ضرر أكبر مما هم فيه، ثم يقول: إذا كانت الدولة القائمة جائرة وكان في امكان الأمة المسلمة تغييرها بدولة عادلة دون احداث فتن أكبر تضر بالمسلمين فإنهم ينبغي^(٣) لهم تغييرها. أما إذ كان ذلك لا يتسنى إلا بفتن واضرار فإن البقاء مع الدولة الجائرة ومناصرتها في حفظ الثغور ومحاربة أعداء الاسلام، وحفظ

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٨٩.

٢. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية: ٢ / ٥٣ - ٥٤.

٣. إن الرجل لتوخي المماشاة مع أهل السنة يعبر عن مذهبه بلفظ لا يوافقه، بل عليه أن يقول مكان «ينبغي» «يجب».

(٢٦٤)

الحقوق، والقيام بما هو من مصالح المسلمين واعزاز كلمتهم، وأكد وأوجب^(١).

إنّ ما ذكره لاتدعمه سيرة الأباضية في القرون الأولى ويكفي في ذلك ما ذكره المؤرّخون في حق أبي يحيى عبدالله بن يحيى طالب الحق، قالوا: إنّه كتب إلى عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة وإلى غيره من الاباضية بالبصرة يشاورهم بالخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت ألاّ تقيم إلّا يوماً واحداً فافعل، فأشخص إليه عبيدة بن مسلم أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي في رجال من الاباضية فقدموا عليه حضرموت، فحثّوه على الخروج، وأتوه بكتب أصحابه، فدعا أصحابه فبايعوه فقصدوا دار الامارة إلى آخر ما سيوافيك بيانه من حروبه مع المروانيين وتسّلطه على مكّة والمدينة.

وأظنّ أنّ ما يكتبه علي يحيى معمر في هذا الكتاب وفي كتاب «الاباضية في موكب التاريخ» دعايات و شعارات لصالح التقارب بين الاباضية وسائر الفرق خصوصاً أهل السنّة، ولأجل ذلك يريد أن يطرح أصول الاباضية بصورة خفيفة حتى يتجاوب مع شعور أهل السنّة، تلك الأكثرية الساحقة، وأوضح دليل على أنّهم يرون الخروج واجباً مع القدرة والمنعة بلا اكتراث، إنّهم يوالون المحكّمة الأولى ويرون أنفسهم اخلافهم والسائرين على دربهم، وهم قد خرجوا على عليّ بزعم أنّه خرج بالتحكيم عن سواء السبيل.

وأظنّ أنّ هذا الأصل أصل لامع في عقيدة الخوارج والاباضية بشرطها وشروطها، وأنّ التخفيض عن قوّة هذا الأصل دعاية بحتة.

والعجب أنّه يعترف بهذا الأصل في موضع آخر من كتابه ويقول: إنّ الثورة على الضلم والفساد والرشوة ومايتبع ذلك من البلايا والمحن، إنّما هو المنهج الذي جاء به الإسلام ودعا إليه المسلمين، ودعا المسلمون إليه، وقاموا

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢ / ٥٣ - ٥٤.

به في مختلف أدوار التاريخ، ولم تسكت الألسنة الأمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، ولم تكف الأيدي الثائرة في أي فترة من فترات الحكم المنحرف... وقد استشهد في هذا السبيل عدد من أفاض الرجال، ويكفي أن أذكر الأمثلة لأولئك الثائرين على الانحراف و الفساد: شهيد كربلاء الإمام الحسين سبط رسول الله ﷺ وعبدالله بن الزبير نجل ذات النطاقين، وسعيد بن جبير، وزيد بن علي بن الحسين، وكل واحد من هؤلاء يمثل ثورة عارمة من الأمة المسلمة على الحكم الظالم، والخروج عليه ومدافعة حتى الاستشهاد^(١).

٧- التولي والتبري والوقوف:

قد اتخذ الاباضيون «التولي» و«التبري» نحلة ولهما أصل في الكتاب والسنة وهما مما يعتنقه كل مسلم اجمالاً، ولكن التفسير الاباضي لهذين المفهومين يختلف تماماً مع تفسير الجمهور، وإليك بيانه بنقل نصوصهم من كتبهم:

«أصل الولاية، الموافقة في الدين، فكل من وافقك في الدين فهو وليك، سواء علمت بموافقة أو جهلتها، أو برئت منه بالظاهر، لحدث عرفته منه وهو قد تاب ورجع عنه، فالملائكة أولياؤنا لأنهم موافقونا في أصل الامتثال، وكذلك أهل الطاعة من الأمم السالفة، فإنه وإن اختلفت الأوامر بالنظر لاختلاف الشرائع، فالدين عند الله الإسلام أي الانقياد لأحكامه مطلقاً. فاعلم انّ مما يدين به المسلمون وهو لازم لهم، الولاية لأولياء الله والحب لهم، والبغض لأعداء الله والبراءة منهم. فولاية من اتصف بالإيمان فرض

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٨٣/١.

واجب، ثبت وجوبه بأدلة قطعية، وأمّا البراءة فهي مثل الولاية فتجب البراءة من الفاسقين مطلقاً سواء كانوا من المشركين أو كانوا أهل كفر نعمة، فالبراءة منهم واجب بنص الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

ثم إنهم ذكروا للولاية والبراءة أقساماً نوردتها فيما يلي:

١ - أن يرد الكتاب بما يوجب ولاية أحد، أو البراءة منه، كالأنبياء المذكورين بأسمائهم في الولاية وكأبليس في البراءة .

٢ - ما نطق فيه رسول من رسل الله أنّ فلاناً من أهل السعادة، أو من أهل الشقاء، بشرط أن يسمع السامع من لسان الرسول ذلك الكلام حين نطقه.

٣ - ولاية الجملة وبراءة الجملة، وصورتها أن يعتقد المكلف ولاية أهل طاعة الله من الأولين والآخرين إنسهم وجنهم وملائكتهم، وأن يعتقد البراءة من جميع أهل معصية الله من الأولين والآخرين إنسهم وجنهم إلى يوم الدين.

وهذا القسم هو الذي يعبر عنه بعقيدة الإنسان لأنه لا بد لكل مكلف أن يعتقد ديناً.

٤ - نعم يجب الوقوف فيمن لم يعلم فيه موجب الولاية ولا البراءة لقوله تعالى: ﴿ وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(١)، وقال ﷺ: «المؤمن وقاف، والمنافق وثّاب»^(٢) .

قال أبو سعيد الكدّمي: واعملوا رحمة الله وإياكم: إنّ الولاية والبراءة فريضتان وقد نطق بذلك القرآن وأكّده السنة، ونسخته آثار الأئمة الذين هم

١. الاسراء: ٣٦.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ٢٥٨ - ٢٦٣ بتلخيص، وكان عليه أن يذكر قسماً خامساً وهو تولي شخص معين لكونه مطيعاً والتبري منه لكونه عاصياً إذا لمسنا شخصياً منهما الطاعة أو العصيان، ولعله لم يذكره لكونه مستفاداً من القسم الأول.

حجة الله في دينه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَاءُ مِنَّا وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ (١).

ويقول أيضاً: لا يجوز له أن يتولّى أحداً من علماء أهل الخلاف ولا من أفضلهم، ولو جهل أمرهم، ولو ظنّ أنّهم أهل الحقّ وأهل الفضل، ما جاز أن يتولّى أحداً منهم بدين (٢).
ويقول أيضاً: البراءة حكم من أعظم أحكام الإسلام (٣).

ويقول: واعلموا أنّه ممّا يلزم المسلمون ويدينون به: الولاية لأولياء الله والحبّ لهم، والبغض لأعداء الله والبراءة منهم، ومن أحبّ عبداً في الله فكأنّما أحبّ الله، وذلك من أشرف أعمال البر (٤).

وقد حرّر هذه المسألة أحد المعاصرين من علماء الاباضية وقال:
ولاية الجملة وبراءتها فريضتان بالكتاب والسنة والاجماع على كلّ مكلف عند بلوغه إن قامت عليه الحجة، وأمّا ولاية الأشخاص وبراءتها فواجبتان قياساً عليهما.
إنّ محبة المؤمن الموفي بدينه، الحريص على واجباته، المبتعد عن المحارم، المتخلّق بأخلاق الإسلام، المتّبع لهدى محمد ﷺ وجبت محبته على المؤمنين، وأعلّنت ولايته بين المسلمين، وطلبت له المغفرة والرحمة من ربّ العالمين .

فإذا نزع أحدهم من الشيطان نزع، ولم يستعذ بالله من الشيطان، فأقدم على المعصية ولم يُسارع إلى التوبة، انفصم هذا الرباط الذي يربطه

١. أبوسعيد الكدّمي: المعتبر ١٣٤/٢. والآية من سورة الممتحنة: ٤.

٢. المصدر نفسه ٩٥/١.

٣. المصدر نفسه: ١ / ١٣٥.

٤. المصدر نفسه: ١ / ١٣٧.

بالمؤمنين، وتهدّمت هذه الأخوة التي قامت على الدين حتى يجدد إيمانه برّبه، ويستغفر الله من ذنبه، ويصل حبال قلبه بفاطر السموات والأرض، فإذا فعل ذلك، رجعت منزلته بين أخوانه كما كانت، وعزّت نفسه بينهم بعد أن هانت ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ المسلم الذي يعلن بين الملأ قول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ثم يجترئ على أوامر الله فيتخلّى عن واجباته، أو يقدم على ارتكاب المحظورات... لا يحقّ أن يكرم بالتساوي مع الصادقين ولا يمكن أن تشملته المحبة في الدين، بل يجب أن يجد الغلظة من المؤمنين وأن يسمع التقريع والتوبيخ، وأن يُطلب الابتعاد عنه، وأن يُعلن البراءة منه، ويُقلّل التعامل معه حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، ولا يجد ملجأ من الله إلا إليه، فأما أن يشرح الله صدره للإسلام، وأن يفتح قلبه للإيمان وأن يستخر أعضاءه للعبادة، وأن يباعد بينه وبين المعصية فيتوب ممّا ارتكب ويعود إلى حظيرة الإسلام بالعمل الصالح، والجهاد المتواصل، جهاد النفس والهوى، فترتبط أواصره حينئذ بأواصر الناس، ويصبح بعد الهداية والتوفيق أخاً في الله.

وأما أن يرتكس إلى الشيطان، ويصرّ على العصيان، ويتعد عن محاسبة النفس، ويستمرّ في الغواية والضلال، وحينئذ لا يمكن لأولياء الله أن يحبّوا عدوّ الله، ولا أن يرضوا عمّن جاهره بالمعصية، وإنّ القلوب المؤمنة تستحي أن تتجه إلى المليك الديان لتطلب منه الرحمة والغفران، لعبيد الشهوات وأغوياء الشيطان.

إنّ العصاة الذين يصرون على ما فعلوا ويجاهرون الله والناس بما ارتكبوا، انفصلوا بكبريائهم عن ربّهم، وابتعدوا عن محبة إخوانهم، وحادوا الله ورسوله.

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾^(١). ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾^(٢). ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾^(٣).

إنَّ المجتمع الاسلامي أنظف من أن تقع فيه المعصية من مسلم، ثم يسكتون عنه، فيدعونه فيهم محبوباً قبل أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والتكفير إن كانت المعصية ممّا يتحلل منه بالتكفير .

إنَّ هذه القضية من القضايا التي يكاد ينفرد بها الاباضية^(٤) عن غيرهم من الفرق الإسلامية فلم يساوا بين مؤمن تقي وعاص شقي في المعاملة، وقالوا: يجب على المجتمع المسلم أن يُعلن كلمة الحق في كل فرد من أفرادها، وأن يتولّى تهذيب الناشزين، وتقويم المنحرفين وتربية المتذرعين بالوسائل التي شرعها الإسلام للتربية الجماعية من أمر بمعروف و نهى عن منكر، واعراض عمّن يتولّى عن الله.

وليس من الحق أبداً أن نتغاضى عن أولئك الذين يرتكبون المعاصي، ونضعهم في صفّ واحد مع المؤمنين الموفين، بل يجب أن نزرع العاصي عن معصيته، وأن نعالجه بالعداوة، مادام منحرفاً عن سبيل الله، وأن لانسوي في المعاملة بينه وبين الموفي، وأن لانعطيه من المحبة وطلب المغفرة، وحسن التعامل، مانعطيه للذي يراقب الله في الخفاء والعلانية، ويرجع إليه في كل كبيرة وصغيرة، ويقف عند حدوده التي رسمها لايتخطّاها، ﴿ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ

١. المجادلة: ٢٢.

٢. المجادلة: ٢٠.

٣. المجادلة: ٥.

٤. ستعرف ضعفه و أنّه ممّا أصفقت عليه الأمة الإسلامية اجمالاً، نعم انفردت الاباضية بالغلظة والشدة في المسألة.

(٢٧٠)

غِلْظَةً، والاباضية لا يخرجون العصاة من الملة ولا يحكمون عليهم بالشرك، ولكن يوجبون البراءة منهم و بغضهم و اعلان ذلك لهم حتى يقلعوا عن معصيتهم ويتوبوا إلى ربهم (١).

هذا عصارة مذكروه في هذه المسألة، أي الولاية والبراءة والوقوف .

يلاحظ عليه: لا أظن أن من أحاط بالكتاب والسنة أو ألمَّ بهما أن ينكر وجوب التولي والتبري فإن المصدرين الأساسيين مملوءان بالأمر بتولي الرسول، والمؤمنين، والتبري من المشركين وأهل الكتاب والعصاة، وإليك رشة من ذلك فيكفي فيه قوله سبحانه: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وقوله عز وجل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٣) وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ ﴾ (٤) وقوله عز وجل: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥).

وأما السنة فيكفي في ذلك الأحاديث التالية:

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: من ترك انكار المنكر بقبله و لسانه

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٨٣ - ٨٧.

٢. آل عمران: ٢٨.

٣. التوبة: ٧١.

٤. الأحزاب: ٥.

٥. المجادلة: ٢٢.

فهو ميّت بين الأحياء ^(١) .

وقال عليه السلام: أمرنا رسول الله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة ^(٢) .

وقال عليه السلام: أدنى الانكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: حسب المؤمن غيره إذا رأى منكراً أن يعلم الله عزّ وجلّ من قلبه انكاراً. ^(٣)

إنّ الحب والبغض من الظواهر والحالات النفسية، ولهما آثار على الأعضاء والجوارح في حياة الإنسان، فلقاء أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة من آثار تلك الظاهرة، هذا كلّ ممّا لا إشكال فيه.

إنّما الكلام في موضع آخر يجب إلفات النظر إليه وهو أنّ التبرّي من عصاة المسلمين ليس شيئاً مطلوباً بالذات، وإنّما الغاية منه ارجاع العاصي إلى حظيرة الطاعة، وإلحاقه بأصفاء الأئمة، وعلى ذلك فهو من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيدور وجوبه مدار وجود شرائطهما: منها كون التبرّي مؤثراً في كبح جماح العاصي وتماديّه في الغي، ولأجل ذلك جوّز الإسلام غيبة المتجاهر بالفسق وربّما أوجب الوقعة في أهل البدع، واكتثار الوقعة فيهم، وقال عليه السلام: «أربعة ليس غيبتهم غيبة: الفاسق المعلن بفسقه، والإمام الكذاب إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، والمتفكّهون بالأمّهات، والخارج من الجماعة الطاعن على أمّتي، الشاهر عليها بسيفه» ^(٤).

وقال عليه السلام: «لا غيبة لثلاث: سلطان جائر، وفاسق معلن،

١. الحرّ العاملي: وسائل الشيعة ٤٠٤/١١.

٢. المصدر نفسه: ٤٠٩ / ١١.

٣. المصدر نفسه: ٤١٣ / ١١.

٤. حسين النوري: المستدرک، الجزء ٩، الباب ١٣٤ من أبواب أحكام العشرة، الحديث ٢.

(٢٧٢)

وصاحب بدعة»^(١).

فعلى ذلك فوجوب التبرّي رهن شروط نشير إليها:

١ - أن يحتمل كون التبرّي مؤثراً في ارجاعه عن المعصية كما عرفت، وإلا فلا يجب كما هو الحال في جميع مراتب الأمر بالمعروف .

٢ - إن لا يكون اظهار التبرّي موجباً لتماديه في الغي، وانكبابه على الإثم، فإنّ إيجاب التبرّي في ذلك ينتج نقيض المطلوب .

٣ - يكفي في التبرّي، الاعراب عمّا في ضمير المتبرّي من كونه كارهاً لعمله، بلا حاجة إلى اعمال الغلظة والشدة كما في كلام القائل.

ثمّ الآيات والروايات الدالة على التبرّي واردة في حقّ الكفّار والعصاة المتمادين في الغي، لامن عطى مرة واحدة ويبدو أنّه سوف يرجع ويستغفر.

وأما ما ذكره القائل في كيفية التبرّي فليس عليه دليل بل الدليل على خلافه، لأنّ المعاملة مع العصاة على النحو الذي ذكره القائل لم يكن رائجاً في عصر الرسول، إلاّ في حقّ العتاة المتمادين في الغي، أو المتخلفين عن الزحف، وقد ورد في حقّهم قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). ترى أنّ الغلظة والشدة كانت في حقّ هؤلاء الثلاثة الذين تخلّفوا عن الجهاد في الوقت الذي كان الرسول في أشدّ حاجة إلى المجاهد الصادق، فنزل الوحي بالضغط وإيجاد الضيق عليهم حتى يصلوا إلى مرتبة تضيق عليهم أرض المدينة بما رحبت.

وأما المعاملة لكلّ عاص ولو مرة واحدة بهذا النحو والضغط عليه حتى

١. حسين النوري: المستدرک، الجزء ٩، الباب ١٣٤ من أبواب أحكام العشرة، الحديث ١.

٢. التوبة: ١١٨.

تضييق عليه الأرض، فهو بعيد عن سماحة الإسلام، كيف وقد قال سبحانه حاكياً عن حملة العرش الذين يستغفرون للذين تابوا واتبعوا سبيله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢) وقال سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٣) وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

فأين هذه الوعود ودعوة العصاة إلى حظيرة الغفران والنهي عن اليأس من روح الله ممّا جاء في كلام هذا القائل؟ فالاباضية وإن كانوا غير متطرّفين في مسلّكهم لكن في التبرّي عن العصي في جميع الأحوال والظروف على النحو الذي سمعت نوع تطرّف كما لا يخفى. على أنّ هذا النحو من التبرّي الوارد في كلام القائل يناسب العيشة القبلية، والاجتماعات الصغيرة، ولا يتمشّي أبداً مع الاجتماعات الكبيرة التي تضمّ الفسّاق، إلى العدول في جميع الأندية والمجالس كما لا يخفى.

اكمال:

ثمّ إنّه لو ثبت كون رجل عدوّاً من أعداء الله لارتكابه الكبائر أو لإرتداده عن الدين، فليس لأحد الأئمة القيام بإجراء الحدّ عليه، وإنّما واجب الأحاد هو التبرّي منه، ومن فعله، روحاً وجسداً، وأمّا إجراء الحدّ عليه فإنّما هو على

١. غافر: ٧.

٢. يوسف: ٨٧.

٣. الحجر: ٥٦.

٤. الزمر: ٥٣.

القوي المطاع في الأمة وهو الحاكم الإسلامي، ولأجل ذلك ينقسم الأمر بالمعروف الى قسمين: قسم يُعَدُّ واجباً فردياً، يقوم به أحاد الأمة، وقسم يعدّ رسالة اجتماعية تقوم به القوة التنفيذية في الدولة الاسلامية، وهنا كلمة قيمة للإمام الصادق عليه السلام نذكرها:

سئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوجب هو على الأمة جميعاً؟ فقال: لا. ف قيل له: ولم؟ قال: إنما هو على القوي المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أيّ، من أيّ؟ يقول من الحق إلى الباطل، والدليل على ذلك من كتاب الله عزوجل قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فهذا خاص غير عام.^(١)

٨- آراء الاباضية في الصحابة:

قد طرحنا مسألة عدالة الصحابة في الجزء الأول من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد أهل الحديث، والمعروف بين كتاب الفرق أنّ الاباضية يحبّون الشيخين ويبغضون الصهرين، غير أنّ كتاب الاباضية في هذا العصر ينكرون هذه النسبة ويقولون إنّ الدعاية التي سلّطها المغرضون على الاباضية نبذتهم بهذه الفرية، وذهب علي يحيى معمر في نقد النسبة وتزييفها إلى نقل الكلمات التي فيها الثناء البالغ على الصهرين، ينقل عن أبي حفص عمرو بن عيسى قوله:

وعلى الهادي صلاة نشرها	عنبر ماخبّ ساع ورمّل
وسلام يتوالى وعلى	آله والصحب ما الغيث هطل
سيما الصديق والفاروق والجامع	القرآن والشهم البطل

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة ٤٠٠/١١ والآية من سورة آل عمران: ١٠٤.

وينقل عن ديوان البدر التلاتي مايلي:

بنت الرسول زوجها وابناها أهل لبیت قد فشى سناها
رضى إلهه يطلب التلاتي لهم جميعاً ولمن عنها^(١)

نحن نرحب بهذا الود الذي أمر الله سبحانه به في كتابه بالنسبة إلى العترة الطاهرة إذ قال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢).

ولكن لا يمكننا التجاهل بأنهم يحبون المحكّمة الأولى، ويعتبرونهم أئمة، وهم قُتلوا بسيف علي، وهل يمكن الجمع بين الحبّين والودّين؟ قد قال الله سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾^(٣) وهل يجتمع حبّ علي وودّه وحبّ من كان يكفرّ عليّاً ويطلب منه التوبة؟ كيف وهؤلاء هم الذين قلبوا له ظهر المجنّ وضعفوا أركان حكومته الراشدة.

نرى أنّ الاباضية يعدّون عمران بن حطان من القعدة، وهو إمام لهم بعد أبي بلال، وهو القائل في حق عبدالرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي، شقيق عاقر ناقة ثمود، قوله:

ياضربة من تقي ما أراد بها إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّى لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البريّة عندالله ميزانا^(٤)

ومع هذا السعي لكتمان الحقيقة فالظاهر أنّ للشهرة حقيقة: أمّا حبّهما للشيخين فليس مجال شكّ وأمّا بغضهما للصهرين فقد وقفت في الفصل التاسع على نظر قدمائهم في حق الإمام علي عليه السلام وإليك نظرهم في حق عثمان، ليعلم

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٥٠/٢.

٢. الشورى: ٢٣.

٣. الاحزاب: ٤.

٤. مرّ مصدر البيتين .

مدى صحّة النسبة:

فإن قال: فما قولكم في عثمان بن عفان؟ قلنا له: في منزلة البراءة عند المسلمين .
 فإن قال: من أين وجبت البراءة من عثمان بن عفان وقد تقدمت ولايته وصحّت عقدة إمامته مع فضائله المعروفة في الإسلام، وفي تزويج النبي له عليه السلام بابنتيه واحدة بعد واحدة؟ قلنا: إن الولاية والبراءة هما فرضان في كتاب الله لا عذر للعباد في جهلهما، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى أن نحكم وندين له في عبادته بما يظهر لنا في أمورهم ولم يكلفنا علم الغيب. ثم وجدنا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قدّموا عثمان إماماً لهم بعد عمر بن الخطاب - رحمه الله - ، ثم قصدوا إليه فقتلوه على ما استحقّ عندهم من الأحداث التي زایل بها الحق وسبيله، فمن قال إنّ عثمان قتل مظلوماً كان قد أوجب على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم البراءة بقتلهم لعثمان بن عفان وألزام البراءة من علي بن أبي طالب لأنّه وضعه المسلمون بعد عثمان إماماً لهم.

وعلى الإمام إقامة الحدود و لم يغيّر ذلك علي بن أبي طالب ولم ينكره ولم يقيم الحد على من قتل عثمان، وحارب من طلب بدمه و هو طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام، ولو لم يكن مستحقاً للقتل وأنّه مظلوم لكان علي قد كفر لقتاله لمن طلب بدم عثمان بن عفان. فلما قاتل علي والمسلمون من طلب بدم عثمان وصوبوا من قتله وأقرّهم علي بين يديه وكانوا أعوانه و أنصاره، كان دليلاً على أنّهم محقّون في قتله لأنّ إجماعهم على ذلك حجة لغيرهم ودليل. وأمّا قولك زوجه النبي بابنتيه واحدة بعد واحدة فإنّا لانكر ذلك ولا يكون عثمان مستوجباً للولاية بتزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بابنتيه. ولو كان عقد النبي له بالنكاح موجباً للرجل المشرك الذي كان النبي

صلى الله عليه وآله وسلم

قد زوّجه بابتنته زينب قبل التحريم بين المسلمين والمشرّكين مع قوله الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١)، فهذا مبطل لاحتجاجك علينا بتزويج النبي ﷺ له بابتنتيه. وأما قولك: إنّه كانت له فضائل في الإسلام متقدّمة، فإن الأعمال بالخواتم في الآخرة، لا بالفضائل الأولى^(٢).

وعلى كل تقدير فما يذكره هذا الكاتب وغيره هو الحق الذي يجب أن تمشي عليه الاباضية في حياتهم الدينية ويجب علينا احترام الصحابة وودّهم على الموازين التي وردت في الكتاب والسنة، ولا أظنّ مسلماً على أديم الأرض يبغض الصحابي بما هو صحابي أو بما أنّه رأى النبي أو بما أنّ له صلة به، ولو كان هناك استنكار فأنّما لبعض الصحابة أمثال المغيرة بن شعبه وبسر بن أرطاة، وعمرو بن العاص، وسمرة بن جندب لما قاموا به من سفك الدماء البريئة والظلم في الأحكام، والطلب الحث بلذائذ الدنيا، كيف لا يصحّ التبرّي منهم؟ وقد قال عمرو بن العاص لمعاوية عندما دعاه للمشاركة في الحرب ضدّ علي أبياتاً أوّلها:

معاوية لا اعطيك ديني ولم أنل	به منك دنياً فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصرّاً فأربح بصفقة	أخذت بها شيخاً يضرّ وينفع ^(٣)

١. النساء: ٤٨ و ١١٦.

٢. السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ٣٧٤/١ - ٣٧٥ طبع وزارة التراث القومي والثقافة، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف.

٣. الطبري: التاريخ ٥٥٨/٣. اليعقوبي: التاريخ ١٧٥/٢ طبع النجف الاشرف.

(٢٧٨)

الفتاوى الشاذة عن الكتاب والسنة

المذهب الاباضي يدّعي أنّه يعتمد في أصوله على الكتاب والسنة ويتّفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلّا في مسائل قليلة اختلاف مذاهب السنة نفسها في ما بينها.

وما كان اعتماد المذهب الاباضي على الكتاب والسنة وعدم تباعده عن مذاهب السنة إلّا لأنّ مؤسسه جابر بن زيد قد أخذ عن الصحابة الذين أخذ عنهم أصحاب هذه المذاهب من الحنفيّة والشافعيّة والمالكيّة والحنابلة، بل أنّه يمتاز على أصحاب هذه المذاهب في أنّه أخذ عن الصحابة مباشرة بينما هم لم يأخذوا في معظمهم إلّا من التابعين .

كما أنّ الأحاديث التي جمعها هو وغيره من علماء وفقهاء وجماع الأحاديث من الاباضية كالربيع بن حبيب وغيره، ليست إلّا أحاديث وردت عن البخاري ومسلم وغيرهم من أئمة الحديث كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني والطبراني والبيهقي وغيرهم من أهل السنة والجماعة.

إنّ الاباضية لا يعترفون بالتقليد فيما يأخذون أو يدعون حتى لفقهاءهم أنفسهم، والمشهور عنهم أنّهم يقولون: إنّهم رجال تقيّد لا تقليد، أي أنّهم يتقيّدن بالكتاب والسنة، وبما تقيّد والتزم به السلف الصالح، ولا يقلّدون أصحاب المذاهب أو أصحاب الأقوال إلّا إذا كانت أقوالهم موافقة للكتاب والسنة (١).

إنّ المذهب الاباضي كما وصفه الكاتب يستند إلى الأدلّة الشرعية والعقلية، فالعقل عندهم حجة كالكتاب والسنة، وليس ذلك أمراً خفياً على من سبر كتبهم العقائدية والفقهية، وقد كان ذلك معروفاً عنهم في القرون الأولى حتى بين مخالفيهم على وجه قالوا: باغناء العقل عن السمع في أوّل التكليف. يقول المفيد شيخ الشيعة في القرن الرابع:

«اتفقت الإمامية على أنّ العقل يحتاج في علمه ونتائجه إلى السمع وأنّه غير منفك عن سمع يتنبه الغافل على كيفة الاستدلال، وأنّه لابدّ في أوّل التكليف وابتدائه في العالم من رسول، ووافقهم في ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة والخوارج والزيدية على خلاف ذلك، وزعموا أنّ العقول تعمل بمجردها من السمع والتوقف، إلّا أنّ البغداديين من المعتزلة خاصّة يوجبون الرسالة في أوّل التكليف» (٢).

وهذا النحو من الاعتماد على العقل يعد نوع مغالاة في القول بحجيّته إلّا في مورد لزوم أصل المعرفة، لاستقلاله عليه دفعاً للضرر المحتمل وغيره ما حرّر

١. الدكتور رجب محمّد عبد الحليم: الاباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بأباضية عمان والبصرة: ٥٨ - ٦١.

٢. الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ): أوائل المقالات ١١ - ١٢.

في محله (١)

إنّ القول بحجّية العقل لا يعني منها إلّا حجّيته في موارد يستقلّ بحكمها العقل على وجه اللزوم والقطع كالملازمات العقلية، مستقلة كانت أو غير مستقلة، والأوّل كاستقلاله بالبراءة عن أيّ تكليف فيما إذا لم يرد من الشارع فيه بيان، ولزوم الفحص عن بينة مدّعي النبوة، والنظر في دعواه وبرهانه، والثاني كالمسائل المعروفة بباب «الملازمات العقلية» في أصول الفقه، كادّعاء الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدّمته، أو نقيضه (الضد العام) إلى غير ذلك ممّا هو مذكور في محله، ولا يحتجّ به إلّا فيما إذا لم يرد من الشرع حكم في مورده، وإلّا فلا يقام له وزن، ولأجل الغلوّ الموجود في كلماتهم التي ترتبط بالعقل نجد لهم فتاوى فقهية لاتوافق الكتاب والسنة، وقد أعطوا للعقل العاطفي فيها قيمة أكثر ممّا أعطوه للكتاب والسنة، فقدّموا حكم العقل الظني على الحكم الشرعي القطعي، وإليك نماذج:

١ - قد بلغت السماحة وحب السلام لدى الاباضية أنّ فقهاءهم فضّلوا الصلح بين أيّ فئتين من المؤمنين وقع القتال بينهما، وأنّه لا ينبغي لأحد أن يفضّل أيّ فئة منهما على الأخرى، حتى لاتحدث فتنة، وفي ذلك قال أحد شيوخهم من المغاربة: «إنّه إذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالأحبّ إليّ أن يصطلحوا، فإن لم يفعلوا فالأحبّ إليّ أن لاتغلب فئة فئة، فإنّ من أحبّ أن تغلب أحدهما الأخرى فقد دخل في الفتنة ولزمه ما لزمه أهل تلك، وكان سيفه يقطر دماً، والسلامة عندي أن يكونا في البراءة سواء، لا يرجّح احدى الطائفتين، فإنّه متى رجّح أثم» (٢).

١. لا حظ محاضراتنا في الالهيات بقلم الشيخ حسن مكّي العاملي ٢٤/١.

٢. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٦١، نقلاً عن الدر جيني: طبقات المشايخ بالمغرب ٤٩١/٢.

لا شك أنّ هذه الفتوى صدرت عن عاطفة القائل وكونه محباً للوئام والسلام، لكنّها عاطفة في غير محلّها وربّما تتم لصالح الظالمين والفتات الباغية، والذكر الحكيم يصرّح بخلافه وإنّه يجب مقاتلة الباغي إن لم يرجع إلى أمر الله، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

وعلى ضوء ما ذكره القائل، فالواجب على المسلمين في الفتنة التي أثارها طلحة والزبير في خلافة علي عليه السلام أو الفتنة التي أثارها ابن أبي سفيان بعد حرب الجمل، أن لا تفضّل أي فئة على الأخرى حتى لا تحدث فتنة، وهذا النوع من حبّ الصلح والسلام أشبه بالخضوع لعاطفة عشواء ولو كان في ذلك ركوب الباطل.

٢ - اتّفقت الأمة الإسلامية على أنّ الزنا بمجرّده لا ينشر الحرمة بين الفاعلين إلّا في موارد خاصّة كما إذا كانت الزانية مزوّجة، ويسمى في مصطلح الفقه «الزنا بذات الاحصان» وروت عائشة: أنّ النبي ﷺ قال الحرام، لا يحرم الحلال.

ومع ذلك فقد جاءت الاباضية بفتوى شاذة حسبها أنّها صيانة لكرامة المرأة حتى أنّ بعض المتأخّرين منهم صاغها في قالب اجتماعي حسب أنّه ينطلي على أصحاب الفقه، قال: «لقد كانت بيئة الحياة في الأمة المسلمة لا تبيح للمرأة أن تخلّي برجل أجنبي ولا تبيح لرجل أن يختلي بامرأة اجنبية عنه، وذلك خوفاً من الفتنة، لأنّ الدوافع الجنسية قد تتغلّب على النفس عند الرجل أو عند المرأة وهما مختليان،

فيصلان إلى المحذور، ويقع سوء الذي منه يحذران. ولقد درس الاباضية هذه المشكلة منذ خير القرون وانتهوا فيها إلى رأيهم الذي ينفردون به فيما أعرف، فحرموا الزواج بين من ربطت بينهما علاقة إثم، وقد كانوا في تحريمهم لهذا الزواج يستندون إلى روح الإسلام الذي يحارب الفاحشة .

روت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها- عن رسول الله أنه قال: «أيما رجل زنا بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان إلى يوم القيامة»^(١) .

يلاحظ عليه أولاً: أنّ الخضوع للعاطفة والتمسك بهذه الذرائع إنما يجوز إذا لم يكن في المسألة دليل من الشرع وإلا فيضرب بها عرض الجدار، وإن نبع عن مبدأ عقلي!!! أو عاطفي، فإذا كان الكتاب والسنة واجماع الأمة حاكماً بجواز التزويج فلايسوغ لنا التمسك بهذه الوجوه، ويكفي في ذلك اطلاق قوله سبحانه: ﴿وَ أَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾^(٢)، نعم عن بعض الفقهاء اشتراط الجواز بالتوبة، وعلى كل تقدير فليس في الأمة من يحرم إلا الحسن البصري، وقوله شاذ مخالف للكتاب واتفاق الأمة.

قال الشيخ الطوسي: إذا زنى بامرأة جاز له نكاحها فيما بعد، وبه قال عامة أهل العلم، وقال الحسن البصري:

لايجوز، وقال قتادة ومحمد (وفي نسخة أحمد): إن تابا جاز وإلا لم يجز، وروي ذلك في أخبارنا^(٣) .

وقال ابن قدامة: «وإذا زنت المرأة لم يحل لمن يعلم ذلك نكاحها إلا بشرطين:

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ١١١ - ١١٢.

٢. النساء: ٢٤.

٣. الشيخ الطوسي: الخلاف ج ٢، كتاب النكاح، المسألة ٧١ ص ٣٧٨.

(٢٨٣)

١ - انقضاء العدة.

٢ - التوبة: وإذا وجد الشرطان حلّ نكاحها للزاني وغيره في قول أكثر أهل العلم، منهم: أبوبكر وعمر و ابنه و ابن عباس وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة والزهري والثوري والشافعي و ابن المنذر و أصحاب الرأي، وروي عن ابن مسعود والبراء بن عازب وعائشة: أنها لا تحلّ للزاني بحال، ويحتمل أنّهم أرادوا بذلك ما كان قبل التوبة أو قبل استبرائها فيكون كقولنا، فأما تحريمها على الإطلاق فلا يصحّ لقول الله تعالى: ﴿ وَ أَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ... ﴾، لأنّها محلّلة لغير الزاني فحلّت له غيرها^(١).

ثانياً: إنّ صيانة كرامة المرأة إنّما هو في تجويز الزواج لافي التحريم لأنّ الزواج - بعد الإثم - يغطّي الفاحشة التي صدرت منهما عن جهالة، ويصير الفاعلان في المجتمع الإسلامي كزوجين شرعيين يتعامل الناس معهما معاملة صحيحة وواقعية، وأما إذا أفتينا بحرمة الزواج، فالمرأة المخدوعة المحكومة بحكم العاطفة ربّما تلتحق بالغانيات إذا انتشر أمرها وظهر سرّها، ورغب عنها كلّ شاب غيور.

٣ - «قد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الاستجداء والمسألة، واعتمد الاباضية تلك الأحاديث الشريفة فمنعوا المسلم من إراقة ماء الوجه والتعرّض لمذلة السؤال، فإذا هانت عليه كرامته، وذهب يسأل الناس الزكاة، حرم منها عقاباً له على هذا الهوان، وتعويداً له على الاستغناء عن الناس، والاعتماد على الكفاح»^(٢).

لاشك انّ السؤال و الاستجداء حرام شرعاً ومكروه في بعض الموارد،

١. عبد الله بن قدامة: المغني ٧ / ٦٤ - ٦٥.

٢. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ١١٦.

(٢٨٤)

غير أنّ الافتاء بتحريم الزكاة بحجة صيانة ماء وجه السائل فتوى على خلاف الكتاب والسنة، ولو كان ذلك موجباً للتحريم لصدر فيه نصّ عن رسول الله لكثرة الابتلاء بها.

أضف إلى ذلك أنّه سبحانه يأمر باعطاء السائل وعدم نهره، يقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١).

وقال سبحانه:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٢).

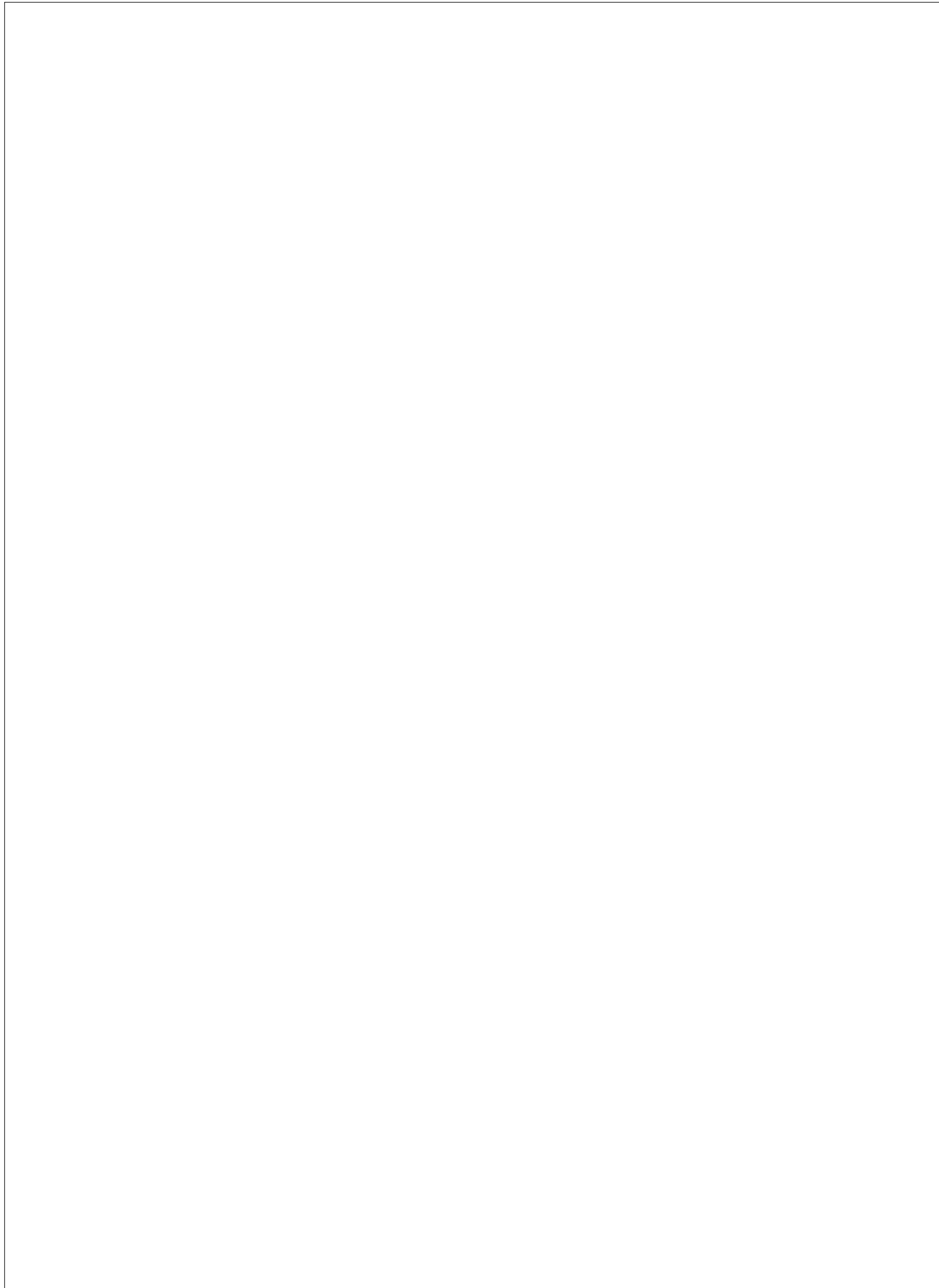
وقال سبحانه:

﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾^(٣)، والآية مطلقة تعم مورد الزكاة وغيره لولم نقل بورودها فيها.

١. المعارج: ٢٤ - ٢٥.

٢. الضحى: ١٠.

٣. البقرة: ١٧٧.



خاتمة المطاف

قد تعرّفت في ماسبق على عقائد الاباضية وخصائصهم وقد اخترنا منها أموراً ثمانية بقي هنا أمرٌ يطيب لنا أن نلفت نظر القارئ إليه:

أ - إنّ الاباضية لتجوزهم التقيّة جعلوا مسالك الدين أربعة تنتهي في المرحلة الرابعة إلى الكتمان المساوق للتقيّة، فقالوا: مسالك الدين أربعة:

١ - الظهور ٢ - الدفاع ٣ - الشراء ٤ - الكتمان.

إنّ للاباضية لجنة تقوم بالاشراف الكامل على شؤون المجتمع الاباضي تسمّى بـ «العزّابة» ولأجل إيقاف القارئ على خصوصيّات وصلاحيّات هذه اللجنة وشؤونها نأتي بنصّ كتابهم، فإليك البيان:

مسالك الدين عند الباضية:

إنّ المجتمع الإسلامي إمّا أن يكون ظاهراً على أعدائه، حرّاً في أراضيه، مستقلاًّ بأحكامه، عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله، منفذاً لأحكام الدين، لا يخضع

لأجنبي بوجه من الوجوه، ولا يستبدّ به حاكم، ولا يطغى عليه ذو سلطان، فهذه الحالة هي حالة الظهور، وهي أكمل الحالات للمجتمع المسلم، و عليها يجب أن تكون الأمة، لأنّها المنزلة التي ارتضاها الله للمؤمنين ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فإذا انحدر المسلمون عن هذا المقام، وتضاءلوا عن هذا الشرف، ونزلوا عن هذه المرتبة التي رفعهم إليها الإيمان بالله، والثقة فيه، فيجب أن لا يهادنوا الظلم، وأن لا يستكينوا للطغيان، وأن لا يسمحوا للأيدي العابثة، أن تعبت بمقدّرات الأمة، فتنتهك حرمتهم، وتحول دون أمور دينهم، وتتحكّم في أعمالهم وعباداتهم، وتتصرّف في أموالهم بغير التشريع الذي وضعه عالم الغيب والشهادة، والهدى الذي تركه محمّد ﷺ لأبناء الإسلام .

إذا انحدرت الأمة إلى هذه الوهدة، فيسيطر عليها عدوّ أجنبي، أو تخلّى - من أولته الأمة ثقته، وأسلمته مقاليدها، ووضعت بين يديه رعايتها - عن الأمانة، وحاد بها عن الطريق، وخان الله ورسوله والمسلمين فيما وضع بين يديه، وجب حينئذ أن يقف المسلمون في طريق تلك الدولة الباغية، يأمرونها بالمعروف، وينهونها عن المنكر، ويلزمونها أن تسلك بهم طريق الصواب، فإذا اعتزّت بالاثم، واستمرّ أن طعم الظلم، واستكبرت أن تخضع لأمر الله، وأن ترجع إلى سبيل الله، فحينئذ يأتي القسم الثاني من التنظيم الإسلامي وهو الدفاع، والدفاع في مسالك الدين يرادف ما يعبر عنه في العصر الحاضر بالثورة...الثورة على الاستعمار الأجنبي، أو الثورة على الاستعمار الداخلي: كالثورة على الظلم، والثورة على الاقطاع، والثورة على الفساد، والثورة على الانحراف عن دين الله في كلّ مظاهره وأشكاله. والزعيم الذي يقود هذه الثورة يسمّى «إمام الدفاع» وله على الأمة الثائرة حق الطاعة والامتثال، مادامت

الثورة قائمة، فإذا استقرت الأمور، ورجعت إلى الهدوء والاستقرار، أصبح واحداً من أفراد الأمة، له حقوقهم، وعليه واجباتهم، ورجوع الأمور إلى نصابها يكون بأحد أمرين: إما نجاح الثورة، وإما فشلها، ونجاحها يكون بأحد أمرين: إما استجابة الدولة لمطالب الأمة، ورجوعها إلى أحكام الله، وفي هذه الحالة ينتهي عمل الثورة إلى هذا الحد. وإما الإطاحة بالنظام الفاسد، وقلب الحكم الظالم، وتغييره إلى نظام إسلامي، يتمشى مع التشريع الذي جاء به كتاب الله الكريم، وعندئذٍ أيضاً لا يكون لزعيم الثورة أو أمير الدفاع، أي حق في الحكم، إلا إذا اختارته الأمة، لشروط توفرت فيه بعد الهدوء والاجتماع والتفكير والمفاضلة، حسب الشروط المتبعة في اختيار أمير للمؤمنين.

فإذا ضعف المسلمون حتى عن هذا الموقف، وأصبحوا لا يستجيبون لداعي الثورة، ويفضلون طريق السلامة، ويركنون إلى الدعة والاستراحة، جاء المسلك الثالث من مسالك الدين، وهو الشراء: فحق لقلّة منهم إذا بلغوا أربعين شخصاً أن يعلنوا الثورة على الفساد، وبما أن هذه الثورة التي يقوم بها عدد قليل، لا يتوقع لها النجاح في كفاحها ضدّ دولة ظالمة مسلّحة، وأمة مسالمة راضية بالذل، فإن هذا التنظيم يشبه أن يكون شغباً على دولة ظالمة حتى لا تطمئن إلى تنفيذ خططها الجائرة، وقد لا تكون لها نتائج غير هذا القلق الذي يخيم على الظالمين، والتوجّس والخوف الذي يسود أعمالهم وحركاتهم، ولذلك فقد اشترط لهذا التنظيم، شروط قاسية لا يقبلها إلا الفدائيون، الذين وهبوا حياتهم لحياة الأمة، وذلك أنّه لا يحلّ لهم بعد أن ينخرطوا في هذه المؤسّسة، أن يعودوا إلى بلادهم، أو يستقرّوا في أمكنتهم، أو يتخلّوا عن رسالتهم، حتى ينتهي بهم الأمر إلى النجاح أو القتل، والقتل أقرب الأمرين إليهم، وعندما تضطرّ الظروف أحدهم إلى منزله لشأن من شؤون تمديد الثورة،

كالتزوّد، فإنّه يعتبر في منزله غريباً مسافراً يقصر الصلاة. ولكنّه عندما يكون في شعف الجبال، أو بطون الأدوية، يقطع المواصلات على الطغاة، أو يهدم الجسور التي تمرّ بها القطر الظالمة، أو يقتلع أسس القلاع التي تجمع ذخيرة الجبابرة، حينئذ يعتبر في منزله وبين أهله، وهم في كلّ ذلك لا يحلّ لهم أن يروّعوا الآمنين، أو أن يسيئوا إلى المسالمين. إنّ تنظيم رائع للفدائية في الإسلام عندما يتحكّم الظلم، ويستعلي عبيد الشيطان، وتعطلّ أحكام الله بأحكام الإنسان، يقول أبو إسحاق: «الشراء من أخص أوصاف الاباضية».

فإذا رضيت الأمة بالذل، واستسلمت للظلم، وجرى عليها حكم الطغاة، ولم يقم فيها من يثور لكرامة الإسلام المهذرة، ولالشرف الرسالة التي أعزّت الإنسانية، وتغلّب حبّ الدعة على كلّ فرد، وركن الجميع إلى الراحة، فلم تتكوّن حتى الفدائية التي تقضّ مضاجع الظالمين، وتذكّرهم أنّ حكمهم لن يقر، وأنّ كراسيهم لن تستقر، وأنّ المقاومة لاتزال هي أمل المؤمنين، وأنّهم سوف يحاسبون أمام الله، والأمة حساباً عسيراً.

إذا ضعفت الأمة حتى عن هذه المرتبة، أصبحت تحت التنظيم الأخير، تنظيم الكتمان. وعندئذ يجب أن يبتعد المؤمنون عن مساعدة الظالمين بتولّي الوظائف الظالمة، وأن تتولّى شؤونهم جمعيات تبثّ فيهم هداية الله، وتملأ قلوبهم بالإيمان بالله، وتنشر فيهم المعرفة والثقافة الإسلامية التي تبصرهم بدين الله، فلا تكون علاقتهم بالظالمين إلا في أيسر طريق، وأضيق مجال، فيما يتعلّق بجباية الأموال المفروضة عليهم للحاكمين، وهي الجمعيات، أو ما يسمّى في التنظيم الاباضي «بحلقة العزّابة»^(١).

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٩٣ - ٩٦.

العزّابة:

تعريف العزّابة: العزّابة هيئة محدودة العدد، تمثّل خيرة أهل البلد علماً وصلاًحاً، وهذه الهيئة تقوم بالاشراف الكامل على شؤون المجتمع الاباضي، الشؤون الدينية، والشؤون التعليمية، والشؤون الاجتماعية، والشؤون السياسية. وهي في زمن الظهور والدفاع تمثّل مجلس الشورى للإمام أو عامله ومن ينوب عنه. أمّا في زماني الشراء أو الكتمان فهي تمثّل الإمام وتقوم بعمله.

تختار هيئة العزّابة من بينها شيخاً يسمّى «شيخ العزّابة» يكون أعلمهم وأكثرهم كفاءة، ولا يشترط فيه أن يكون أكبر هم سنّاً، والشيخ يرأس الهيئة في جلساتها، ويمثّلها في جميع أعمالها، ويتكلّم باسمها، وينقّذ قراراتها، ويتولّى الاشراف المباشر على جميع شؤون البلد أو الأمّة، ويجب أن تعرض عليه جميع المشاكل والأحداث، وحكمه بعد قرار الهيئة نافذ في جميع الأحكام.

اشتقاق كلمة العزّابة: اشتقت هذه الكلمة من العزوب أو العزابة، وهي تعني العزالة، والغربة، والتصوّف والتهجّد، والانقطاع في رؤوس الجبال، ويقصد بها في هذا الاستعمال الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة، والاعراض عن حظوظ النفس، والبعد عن مشاغل الحياة، من أهل ومال وولد، فإنّ العزّابي لا يعطي لهؤلاء من جهده ووقته إلّا القليل، أمّا أعظم طاقته فيجب أن يصرفها لله في خدمة المسلمين، دون مقابل يتقاضاه على عمله، أو أجرٍ يرجوه منهم، لأنّ أجره وحسابه على الله.

معنى كلمة الحلقة: كلمة الحلقة استعمال ثان يقصد به هيئة العزّابة، فهي مرادفة لها، وقد أخذت هذه الكلمة من التحليق، وهو الاستدارة، وذلك إنّ العزّابة في اجتماعاتهم الرسمية يجلسون على هيئة حلقة أو دائرة، وهو أنسب وضع لتبادل الآراء، ودارسة وجهات النظر المختلفة.

كما أنّ الجلوس على هذا الوضع أفضل حال عند الدراسة، أو تلاوة القرآن الكريم، والاتّجاه إلى الله بالدعاء .

مقرّ العزّابة: المقرّ الرسمي للعزّابة يكون في المسجد، ولذلك فلزام أن يكون في جانب من جوانب المسجد بيت خاص بالعزّابة، ويستحسن أن يكون بعيداً عن مجالس الناس، حتى لا تسمع المداولات التي تجري فيه، وهذا البيت الخاص بهم لا يجوز لغيرهم الدخول إليه مطلقاً، ويتحتّم على الجدد منهم أن يقوموا بتنظيفه ومراقبته وفرشه وملاحظة جميع ما يلزمه، وفيه تحفظ وثائقهم فلا يطلّع عليها أحد غيرهم. وجميع المداولات والمناقشات والمباحث التي تجري داخله تعتبر سرّية، لا يجوز اخراجها وافشاؤها لأيّ سبب من الأسباب، ماعدا القرارات التي تتخذ للتنفيذ فيتولّى الشيخ اعلانها، وقد ينوب عنه أحد الأعضاء الآخرين، ولا يجوز للعزّابة أن يناقشوا أي موضوع في غير مقرّهم الرسمي، وبعد أن ينتهوا إلى قرار في أي موضوع يحقّ لهم أن ينتقلوا إلى مكان آخر لتنفيذ ذلك القرار، إذا كان تنفيذه يقتضي منهم الانتقال، وإذا أصدروا أمراً في شأن من الشؤون الاجتماعية للبلد، كتحديد المهور، أو تحديد الأسعار، أو بدء العمل في المواسم الزراعية، أو ما شاكل ذلك، فلم يستجب الجمهور لقرارهم، اعتصموا في مقرّهم، ولزموا المسجد دون أن يقوموا بأعمالهم المعتادة، وامتنعوا من دخول الأسواق والبلد، حتى يستجيب الناس للحكم، ويقوموا بتنفيذ الأمر، ولم تحدث مثل هذه الحالة عند الاباضية في ليبيا، إلّا عدداً قليلاً من المرات، استجاب فيها الناس لأمر العزّابة بأسرع ما يمكن، بل لقد كان الناس يسارعون حين يسمعون بمثل هذا الموقف من العزّابة، فيقنعون بعضهم، ويبلغون موافقتهم إلى المجلس قبل حضور وقت الصلاة الثانية، فتسير الأمور في معتادها.

عدد أعضاء الحلقة: يتراوح عدد أعضاء الحلقة بين عشرة أعضاء وستة عشر عضواً، يوزّع عليهم العمل كما يأتي:

- ١ - شيخ العزابة: ويكون أعلم القوم، وأقواهم شخصية، وأقدرهم على حل المشاكل.
- ٢ - المستشارون: ويكون عددهم أربعة لا يزيدون ولا ينقصون، ويلزمون الشيخ، ولا يقطع أمراً دون موافقتهم.
- ٣ - الإمام: شخص واحد، يقوم بصلاة الجماعة، ويجوز أن يكون أحد الأربعة المستشارين.
- ٤ - المؤذن: وهو شخص واحد مسؤول عن تحرّي أوقات الصلاة، والقيام بمهمة الأذان، ويصحّ أن يكون أحد الأربعة المستشارين.
- ٥ - وكلاء الأوقاف: يخصّص عضوان للإشراف على الأوقاف، وعلى ميزانية الحلقة، وضبط الواردات والصادرات، وطريقة اصلاح وتنمية الأوقاف، ويشترط في هذين العضوين بالإضافة إلى الشروط العامة لأعضاء الحلقة، أن لا يكونا من الأغنياء الكثيرين، ولا من الفقراء المعوزين، ولكن من متوسطي الحال المستورين.
- ٦ - المعلمون: يخصّص ثلاثة أعضاء أو أكثر أو أقلّ حسب الحاجة، للإشراف على التربية والتعليم، وتنظيم الدراسة، ومراقبة التلاميذ في المحاضر، وهي دور التعليم، أو في الأقسام الداخلية، وما إلى ذلك من شؤون التعليم .
- ٧ - حقوق الموتى: يخصّص أربعة أعضاء أو خمسة للإشراف على حقوق الموتى، فيتولّون الإشراف على غسلهم، وتجهيزهم، والصّلاة عليهم، ودفنهم ومراقبة تنفيذ وصاياهم، وتقسيم تركاتهم حسب الفرائض في أحكام

الإسلام.

وإذا توفي شخص وهو في براءة المسلمين بأن مات على معصية، فإن هؤلاء العزّابة لا يقومون بحقوقه، لأنّ العاصي لاحق له على المؤمنين، ولكنهم يسمحون لمن شاء من غير أعضاء الحلقة أن يقوم بتلك الحقوق، ذلك أنّ القيام بأمر الميت فرض على الكفاية، إذا قام به البعض أجزى عن الباقيين.

شروط العضوية: يشترط في أعضاء العزّابة عدّة شروط، منها:

- ١ - أن يكون حافظاً لكتاب الله.
 - ٢ - أن يمرّ بمراحل الدراسة مرحلة مرحلة، ويستوفي الدراسة فيها.
 - ٣ - أن يكون محافظاً على الرّبي الرسمي للطلبة عندما كان في الدراسة، وللرّبي الرسمي للعزّابة عندما يدخل الحلقة .
 - ٤ - أن يكون أديباً كيّساً فطناً، ذا لباقة ومهارة في تصريف الأمور.
 - ٥ - أن يكون محبّاً للدراسة راعياً فيها، مواصلاً للتعلّم والتعليم.
 - ٦ - أن لا تكون له مشاغل دنيوية كثيرة تحمله على كثرة التردّد على الأسواق، والاختلاط بالعامّة والسوّقة، اختلاطاً يزري بمقامه، ويذهب بهيبته .
 - ٧ - أن يغسل جسده بماء ويغسل قلبه بماء و سدر، وهذه عبارة اصطلاحية، يقصد منها أن يكون الإنسان نظيف اليد، والبطن، والعين من أموال الناس، وأن يكون نظيف القلب من جميع أمراض القلوب، أي أن يكون طاهر الباطن والظاهر.
- وقد شرح أبو عمار عبد الكافي هذه العبارة، بقوله: «أمّا الجسد فيغسله من الدنس في الناس، وأمّا القلب فيغسله من الغش والتكبر وما أشبه ذلك ممّا يوجب حبط العمل» والعبارة كما ترى في غاية الدقّة، وهي تحتل أكثر ممّا أشرت إليه وأشار إليه العلامة أبو عمار فتأمّلها، فكّلما تأمّلتها وجدت فيها

معنى جديداً....

ولقد شدد المشايخ في تنظيف المؤمن لقلبه، لأن أدراة القلوب أشد قذارة من أدراة الأبدان، ولذلك أوجبوا عليه أن يغسل جسده بالماء، وأن يغسل قلبه بماء وسدر، وهي كناية تفيد الحرص الشديد على نظافة الباطن أكثر من نظافة الظاهر، فإن من طهرت سريرته حسنت سيرته، واستقامت أموره، وكثرت محاسبته لنفسه، ورعايته لسلوكه، وفي ذلك النجاح .

واجبات الحلقة: على هيئة العزابة واجبات أكيدة هي مسؤولية عنها باعتبارها هيئة، وتتلخص هذه الواجبات فيما يلي:

١ - الاشراف على التعليم وتهيئة الوسائل لذلك، وتيسير السبل أمام جميع الأطفال لينالوا قسطاً من الدراسة، ويتعلموا جزءاً من القرآن الكريم وما يعرفون به أمور دينهم، وهذا أقل ما يمكن أن يتاح للطفل، فإذا كانت أسرة الطفل فقيرة بحيث لا تستغني عن مجهوده الضعيف، أو ليس لها ما تموته به أوقات الدراسة، وجب أن تقدم له مساعدة، وذلك بالانفاق عليه.

٢ - مراعاة الحالة الاجتماعية للناس، وتيسير سبل الحياة للفقير والضعيف وإيجاد العمل للجميع، وذلك بمطالبة الأغنياء وأصحاب اليسار أن يستعينوا بالفقراء في انجاز أعمالهم مقابل أجر، كثيراً ما يعينها أعضاء العزابة .

٣ - حل المشاكل التي تنجم بين الناس، والفصل في قضاياهم، والحكم بينهم في خصوماتهم وإيصال الحقوق إلى أصحابها .

٤ - الاشراف على أوقاف المساجد، وعلى ميزانية الحلقة أو ضبط الصادر والوارد، وانفاق جميع ذلك في وجوهه، والعمل على تنمية الأوقاف الثابتة، وإصلاحها، واستغلالها أحسن استغلال.

٥ - حفظ الأسواق ومراقبتها من أن تقع فيها معاملات لا يبيحها الشرع، أو

أن ترد إليها أموال مسترابة أو مشبوهة.

٦ - تنظيم الحراسة البلدية على أموال الناس من زراعة وماشية حتى لاتصل إليها أيدي الغارة والسرقة والاضرار .

٧ - الحكم على العصاة والمجرمين وتأديبهم، وإعلان البراءة منهم، وقطع التعامل معهم حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الله .

٨ - القيام بالعلاقات الخارجية وتنظيمها، سواء كانت علاقات حرب أو سلام.

هذه بعض المهام التي تناط بمجلس العزابة باعتباره هيئة مسؤولة عن المجتمع أمام الله وأمام الناس، وعلى الهيئة أن توزع الأعمال على الأعضاء حسب الكفاءة والمقدرة، والذي يقوم بذلك إنما هو الشيخ بعد اتفاق الحلقة.

أين تنشأ حلق العزابة: تنشأ حلق العزابة في كل بلد أو قرية، وحلقة العزابة هم الذين يشرفون على أمور البلد أو القرية الخاصة، فإذا كان هنالك أمر هام، أو حدث أكبر من مستوى القرية أو البلد رفع إلى المجلس الأعلى للعزابة الذي يرأسه الشيخ الأكبر، أو حاكم الجبل حسبما كان في جبل نفوسة، وذلك كمسائل إيقاع الحدود، وما يتعلّق بالأمن العام، وما إلى ذلك من المشاكل التي تكون أكبر من المستوى المحلي للقرية، والهيئة الكبرى للعزابة أو الهيئة العامة لهم هي الهيئة التي يرأسها الشيخ الأكبر، ولا بد أن يكون شيخاً للعزابة في بلده ويقوم مقام الإمام في أزمنة الكتمان، أما أعضاء العزابة الذين يكونون معه فهم المستشارون، ويكونون من شيوخ حلق العزابة في بلدانهم. ومقرهم هو مركز البلاد وعاصمتها، ولهم مع الشيخ اجتماعات دورية، مرة في كل ثلاثة أشهر، ومتى دعت الحاجة. وأحكام هذا المجلس نافذة على جميع البلاد، وكل الحلق خاضع مادياً وأدبياً لهذا المجلس، ويعتبر السلطة الحقيقية للمجتمع

الاباضي، أمّا بقية الحلق فهي مساعدة له، منفذة لأعماله، ويجب على الشيخ الأكبر للعزّابة ان يكون مقر حكمه في مركز البلاد، فإذا اختار السكن في غير ذلك المكان فعليه أن يباشر الأحكام في مركز الحكم لا في محل السكن كما كان يفعل أبو هارون موسى بن هارون، وأبو عبدالله بن جلداسن اللالوتي، وأبو يحيى الارّجاني، وغيرهم.

إنّ شيخ العزّابة في المجتمع الاباضي يمثل سلطة الإمام العادل، ويقوم بجميع مهامه في النطاق الذي تسمح به ظروف الحياة في زمن كل واحد منهم. وهو مقيد بمجلس الشورى الذي لا يحق له أن يصدر رأياً قبل موافقته، اللهم إلا في الأحكام الثابتة في الدين الإسلامي، وله أن يستعين بشخص يقوم له مقام المفتي، والقصد من هذا المفتي هو تحرير نصوص الحكم المستمدة من الشرع الشريف، أو المساعدة على ترجيح الأقوال في المسائل الخلافية التي تتعدّد فيها وجهات أنظار الفقهاء. وليس المقصود من وجود المفتي أن يبصر الشيخ بأحكام لا يعرفها، لأنّ شيخ العزّابة يشترط فيه أن يكون من أعلم المشايخ، إذا لم يكن أعلمهم.

وفي الاجتماعات الدورية التي تعقد في ثلاثة أشهر، أو في ستّة أشهر، يحضر ممثلون عن جميع حلق العزّابة، ويستعرضون ما لديهم من مشاكل، ويدرسون معاً وضع المجتمع، ويتخذون في ذلك القرارات اللازمة، يرسمون خطط السير في المستقبل، على أنّه يحق لكل حلقة أن تتصل بالمجلس الأعلى وتدعوه للانعقاد إذا كانت هنالك أسباب تدعو إلى ذلك، كما أنّ لها الحق أن تعرض مشاكلها الخاصة على الشيخ الأكبر، وتقتبس منه الرأي والنصيحة.

ويمثّل كلّ حلقة من حلق العزّابة شيخها وبعض مستشاريه، إلا في أحوال الضرورة التي يتعدّر فيها عليه أن يقوم بهذه المهمة.

اختيار أعضاء الحلقة: يراعى في اختيار العزابة بالاضافة إلى الشروط التي يجب أن تتوفر في كل شخص أن يكونوا ممثلين للقبائل أو الجهات التي يشتمل عليها البلد، ولا يشترط تساوي العدد، كما أنه إذا لم يوجد في قبيلة ما، من تتوفر فيه الشروط الشخصية أخذ من غيرها، وعندما يحتاج العزابة إلى اضافة عضو جديد إلى الحلقة يأخذونه عن أحد طريقتين:

إما أن يطلبوا من القبيلة التي يراد أخذ العضو منها أن ترشح عدداً ممن تتوفر فيهم شروط العضوية والكفاءات المطلوبة مع الشهرة بالصلاح، والتقوى، والعفاف، والنزاهة، وحب الخير، والايثار، والتضحية، والعمل للصالح العام، فتختار الهيئة واحداً منهم، وإما أن يطلبوا إلى منظمة «إيزوان» أن يقدموا إليهم واحداً ممن يملأ ذلك الفراغ .

حين يتعين العضو لأن يشغل مركزاً في العزابة، يدعى إلى مقرهم الرسمي ويتولى الشيخ تعريفه بالسيرة التي يجب عليه أن يسيرها، وبالأدب الذي يلتزمه، ويؤكد عليه أن يعرف ان من أوكد الواجبات عليه أن يحافظ على آداب الإسلام، ويتخلق بأخلاقه الحميدة، من الاستقامة والنزاهة، والعفة، والانقطاع إلى خدمة الأمة، والتزام المسجد، والاعراض عن حظوظ الدنيا إلا بمقدار الضرورة، والاجتهاد في العبادة، والتواضع للمؤمنين، والغلظة على العصاة والمجرمين، وأن يكون قدوة حسنة للناس في قوله وفي عمله، وأن يتحرى في رزقه التحري الكامل، ويختار له أن يكون مجال احترافه الزراعة، لأن التجارة تسبب له احتكاكاً مباشراً بالناس، فيغلب أن لا يسلم منها بالحق أو بالباطل، وهم يلخصون هذا الموقف في عبارة مشهورة متداولة هي:

«أن لا يكون في مسجده، أو حقله أو بيته» وبعد أن يعرف بجميع ما يترتب عليه من حقوق وواجبات، وما يلقي عليه من مهام ومسؤوليات، يطلب

إليه أن يعلن عن قبوله أو رفضه، فإذا أعلن قبوله - وهذا ما يحدث فعلاً - أُسندت إليه المهام العملية، كأن يقوم بالتدريس أو وكالة المسجد، أو الاشتراك في الاشراف على حقوق الموتى، ثمّ اعلم أنّه يعتبر أصغر العزّابة، ولو كان أكبر من بعضهم سنّاً، وعليه أن يتولّى خدمتهم، ويطلب إلى سلفه - أي العزّابي الذي كان أصغرهم قبل هذا العضو الجديد- أن يبقى معه ثلاثة أيام، يدرّبه فيها على آداب خدمة العزّابة، لأنّه يعتبر رئيسه المباشر، وعندما يجلس العزّابة يتحتّم أن يكون مجلسه بعده... وترتيب مجالس العزّابة ضروري، فلا يجوز للمتأخّر أن يسبق المتقدم، والعزّابي يعتبر رئيساً في أي مكان يوجد فيه، وله وحده حق افتتاح الكلام في المجالس العامّة، وكذلك اختتامه، وإدارة المناقشات، وما إلى ذلك، فلا يجوز لتلميذ أو عامي أن يتولّى شيئاً من ذلك إلّا بإذنه.

عقوبة العزّابي:

المطلوب من العزّابي أن يكون قدوة ومثلاً للاستقامة، ولذلك فإنّ ما يعتبر من غير أخطاء صغيرة يعتبر منه أخطاء كبيرة يجب عليه الاحتراس منها، والابتعاد عنها، وهذا حتى في مكارم الأخلاق، ومعاملة الناس، فإذا قدّر عليه فأخطأ، نظر مجلس العزّابة في موضوعه: فإن كان الخطأ كبيراً يتّصل بمعصية الله، ويسىء إلى سمعة العزّابة، أو يلحق إهانة بالمسجد أو استخفافاً بالحق، أو ما أشبه ذلك، وجب عليهم أن يحكموا عليه بالبراءة على الأشهاد، كما يقع بالنسبة لغيره من الناس، ولا يرفع عنه حكم البراءة حتى يتوب علناً، وليس له بعد ذلك حق الرجوع إلى مجلس العزّابة أبداً، فإنّ من أخرج من هذا المجلس بطريق البراءة لا يحق له دخوله مرّة

ثانية، وإن تاب ونصحت توبته، ويبقى كسائر المسلمين له حقوقهم وعليه واجباتهم. أما إذا كان الخطأ صغيراً لا يقتضي التوبة، فإنهم يعقدون له مجلس تأديب سرّي، وقد يحكمون عليه بالابعاد عن مجلس العزّابة لمدة طويلة أو قصيرة حسب الخطأ الذي ارتكبه، وستروا عليه ذلك عن الناس.

وبسبب هذا الحكم كان العزّابة من أشد المحافظين على الإسلام وآدابه، وقد لخص أحد المشايخ هذه السيرة في عبارة لطيفة فقال: «إنّ متولّي الناس مثل اللبن يغيّره أي شيء يقع عليه».

كيف تكون نظام العزّابة:

في أواخر القرن الثالث الهجري وقعت حادثتان كبيرتان، وكان لهما أثر كبير على الاباضية، في ليبيا و تونس والجزائر:

الأولى: الحرب الطاحنة بين الأغلبة والاباضية في قصر مانو، وقد تلقى فيها الاباضية ضربة عنيفة من يد الطاغية أحمد بن الأغلب.

أما الثانية: فهي تغلب الشيعة على الدولة الرستمية في الجزائر، وقضائهم على هذه الدولة. وإذا كانت كلتا الدولتين الأغلبية والشيعة لا تتبعان أحكام الإسلام، ولا تعملان بها، فقد فكّر علماء الاباضية في جعل نظام يسيرون عليه، يحفظون به أحكام الله في مواطنهم، ويسيّرون به الأمّة في الوجهة الصالحة، دون أن يلتجئوا إلى اعلان دولة جديدة، أو يتعلّقوا بدولة ظالمة مستبدّة.

فاهتدوا إلى وضع هذا النظام، وقد كان في أوّل الأمر عرفاً يسير عليه الناس، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبدالله محمد بن بكر في أواخر القرن الرابع،

فحرّره على شكل قانون يشتمل على مواد، ثمّ طبّقه تطبيقاً كاملاً في مواطن الاباضية، في ليبيا، ثمّ في تونس، ثمّ في الجزائر، حيث لا يزال يطبّق بدقّة، وعلى هذا الأساس اعتبر المؤرّخون أنّ الإمام أبا عبدالله هو واضع نظام العزّابة، والحق أنّه يعتبر واضعاً لهذا النظام، فلولاها لما وصل إلينا على تلك الطريقة المنسّقة، وقد جاء بعد أبي عبدالله عدد من العلماء الكبار عنوا بدراسة هذا النظام عناية خاصّة، وأضافوا إليه بعض المواد، وأطلق عليه بعضهم لفظ «سيرة العزّابة» ومن العلماء الذين عنوا به، وكتبوا عنه: أبو زكريا يحيى بن بكر، وأبو عمّار عبدالكافي، وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وقد حرص المتأخّرون منهم أن يضيفوا إليه جملاً في آداب العالم والمتعلّم، وآداب حلقة العزّابة وما يجب أن تنتزّه عنه.

والذي يدرس هذا النظام كما شرحه أولئك الأئمّة الأعلام يخرج بقانون فذّ لنظم التربية والتعليم من جهة، وللسيرة الصالحة التي يجب أن يسير عليها المسلمون، فتحفظ عليهم خلقهم ودينهم، عندما تسيطر عليهم دول البغي والعدوان.

هذا ملخص يسير مختصر عن نظام العزّابة الذي بقى يسير به الاباضية في المغرب الإسلامي مُدّة طويلة .

وقد ارتفع حكم العزّابة من مواطن الاباضية، في ليبيا وتونس في القرن الأخير، ومنذ ارتفع نظام العزّابة في هذه المواطن تسرّب الفساد إلى المجتمع، ولن يستطيع الاباضية أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من دين وخلق واستقامة مالم يعودوا إلى الاستمسك بدين الله واللياذ به، وإنّ المسلمين جميعاً ما أُصيبوا به إلّا لانحرافهم عن دين الله، وخروجهم عن منهجه. ولن يصلح آخر هذه الأُمّة إلّا بما صلح به أولها.

نصيحة للاباضية

أظن أنّ العالم الاباضي إذا قرأ فصول هذا الجزء لا يرمينا بالبخس لحقّه، والتجاهل لمذهبه، والتساهل في نقل عقائده بعدم الرجوع إلى المصادر الأصيلة لهم، كما اتّهم به غيرنا من كتّاب المقالات (١).

وذلك لأنّنا كما رجعنا إلى كتب المخالفين رجعنا إلى مصادرهم أيضاً، ولنا هنا موقف خاص وهو موقف الناصح الشفيق لآخوانه في الدين، لا يريد من القاء هذا النصح سوى وجه الله - تبارك و تعالى - ودعم وحدة الأمّة وقطع جذور الاختلاف بقدر الامكان.

إنّ كتّاب الاباضية اليوم وأمس خرجوا بهذه النتيجة أنّه لافرق بينهم وبين جميع فرق المسلمين إلّا في أمرين:

١ - تخطئة التحكيم.

٢ - نفي لزوم القرشيّة في الإمام.

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٩/١ - ٢٠.

وأما سائر الأصول التي يعتقدون بها فهم يلتقون فيها مع بعض الفرق الإسلامية، مثلاً يلتقون في القول بعدم زيادة صفاته على ذاته، وامتناع رؤية الله سبحانه في الآخرة، وتنزيهه سبحانه عن وصمة التشبيه بتأويل الصفات الخيرية تأويلاً تؤيده قواعد الأدب والمحاورة وحدث القرآن، ففي هذه الأصول يلتقون مع المعتزلة والشيعة الإمامية، وفي تفسير الشفاعة بمعنى ترفيع الدرجة، أو سرعة الدخول إلى الجنة وخلود أهل المعاصي في النار يلتقون مع المعتزلة، وفي تفسير القدر وكون أفعال الإنسان مخلوقة لله سبحانه فهو خالق و العبد كاسب يلتقون مع الأشاعرة (١).

إذا سلمنا أن هذه الأصول من عقائدهم وسلمنا أن ما كتبه كتاب الفرق ورموهم به فرية بلامرية، نرى أن من الواجب أن تقوم الطائفة الاباضية بالأمور التالية حتى يدعم الوئام ويملاً الفراغ وتصبح الأمة يداً واحدة، وهي:

١ - إن الإيمان بصحة كل ما يكتبونه عن منهجهم ويفسرون به عقائدهم مشكلاً جداً لما وافاك من أن لهم في تبيين الدين مسالك أربعة ومن بين تلك المسالك: «الكتمان والسر» فعندئذ إنه من المحتمل أن تكون كل هذه المناشير مستقاة من هذا المبدأ وأنها دعايات بررتها التقية، وسوغتها المصالح الزمنية.

فلأجل استقطاب قلوب الناس، حان حين الشطب على هذه المسالك في تبيين الدين، خصوصاً أن القوم يعيشون في عصر الحرية، وعندئذ لا مبرر لهم للتقية لأن التقية شأن من يخفي عقيدته من مخالفه، ويخاف من ابداء موقفه من الهجوم والقتل والضرب، وأتم بحمد الله أيها الاباضيون ملتقون مع الفرق الإسلامية في جميع المسائل إلا مسألتين غير هامتين، فأجهروا بالحقيقة واشطبوا على هذه المسالك واتخذوا مسلكاً واحداً.

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢٨٩/١ - ٢٩٧.

٢ - إذا كان الحدّ الفاصل بينكم وبين سائر المسلمين هو الأمران المذكوران، فمن الجدير شطب القلم على هذين الأمرين أيضاً: أمّا مسألة القرشية فلو كان شرطاً فإنّما هو شرط في الخلافة الإسلامية والإمامة الدينية، وأين المسلمون من هذه المنى؟ وأين هم به من إقامة صرح الإمامة، وهم يعيشون في سحيق القومية البغيضة النامية في أقوام المسلمين، والعجب أنّ الشيخ علي يحيى معمر قد تنبّه بما ذكرنا، وقال:

«والآن قد ألغت الحياة بعض تلك الاعتبارات التي أدخلتها السياسة على الموضوع، واتّضح للناس جميعاً أنّ الصراع الذي وقع بسبب اشتراط الوصية، أو الهاشمية أو القرشية، أو العروبة أو اعتبار الإمام معصوماً، أو لا يجوز اسقاطه ولو كان منحرفاً، كل هذه الجوانب التي كان الخلاف بسببها بين فرق الأمة ثبت اليوم أنه صراع على تفصيلات لا تدخل في أصل الموضوع»^(١).

إنّ فيما ذكره و إن كان إغراقاً حيث إنّ البحث عن الوصاية ليس بالمرتبة التي تخيلها، لأنّه كان يجب على المسلمين بعد رحلة النبي أن يبحثوا عن كيفة الاستخلاف وأنّه هل هو أوصى برجل أو أدلى الأمر إلى الأمة، ولكن وراء ذلك كلّ مشاغبات حدثت بين المسلمين، لا تمت إلى الإسلام بصلة، فإذا كان شرط القرشية وعدمها هذا فما هو المبرر لجعله أصلاً دينياً. أما مسألة التحكيم، فقد عرفت الحقّ فيه، ولكنّه ليس أصلاً من أصول الدين يناط به الإسلام والإيمان وقد عاش المسلمون في عصر النبي وبعده إلى أواسط خلافة الإمام علي عليه السلام ولم تكن هذه المسألة مطروحة. أفهل يصحّ أن نتّخذ شعاراً وأصلاً أصيلاً من الأصول كالتوحيد، والنبوة، والمعاد، وما جاء به النبي في مجال المعاش والحياة؟

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٥٠/٢.

إنّ مسألة التحكيم مسألة تاريخية اختلف فيها الناس من حيث التصويب والتخطئة، فإذا لم تكن الإمامة عند أهل السنّة، أصلاً من الأصول فكيف يكون فرعه أصلاً منها؟ وأقصى ما عند أهل السنّة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» وهو لا يدل على أزيد من لزوم معرفة الإمام الحي، فالاعتقاد بوصف فعل الإمام (صحّة التحكيم وعدمه) الذي مضى قبل أربعة عشر قرناً لا يكون أصلاً من الأصول حتى تلزم الأمة بالاعتقاد بأحد الطرفين. نعم إنّ ذلك لا يمنع عن طرح الموضوع على بساط البحث بين العلماء وبين المدارس والصفوف العلمية من دون أن يكون تحييز كل فئة في المسألة سبباً للتفرقة.

٣ - إنّ الاباضية يثنون على المحكّمة الأولى كعبدالله بن وهب، وحر قوص بن زهير السعدي، وزيد بن الحصين الطائي، ومن لفّ لفهم من المحكّمة الأولى ولا يذكرون عنهم شيئاً سوى أنّهم خالفوا التحكيم، وأنّ عليّاً حكم الرجال في موضوع له حكم في الكتاب والسنّة وهو قتال أهل البغي...

يذكرون ذلك ويطرون عليهم ولا يذكرون من عملهم الإجرامى شيئاً وهو أنّ هؤلاء هم الذين فرضوا التحكيم على الإمام، وأنّ زيد بن الحصين الطائي جاء مع زهاء عشرين ألف رجل مقنعين في الحديد ونادوا الإمام باسمه لإيمارة المؤمنين، وقالوا له: لا بد من الموافقة على وضع الحرب، وإلاّ نقتلك كما قتلنا عثمان، فاضطرّ الإمام إلى التنازل والموافقة بعد ما خالفهم واحتجّ عليهم بأنّ رفع المصاحف خدعة ومكيدة، وأنّه يعرف هؤلاء وأنهم كانوا شرّ أطفال فصاروا شرّ رجال .

هذا هو زيد بن الحصين الطائي فهو بعد فترة قصيرة أصبح مخالفاً للتحكيم إلى حدّ كان هو المرشّح الأوّل للخوارج في قضية سوق المحكّمة إلى النهروان،

ولما امتنع من قبول القيادة اقترح على حرقوص بن الزهير السعدي، ثم على غيره فقبل القيادة في النهاية عبدالله بن وهب الراسبي^(١).

فكيف يتولون جماعة متسرّعين في القضاء تسمّونهم أئمة وشهداء ولا تذكرون من عملهم الاجرامي شيئاً؟! شهد الله اني لم أر كلمة في كتبهم تذكر عملهم الاجرامي في أمر التحكيم.

٤ - إنّ الاباضية وصلت في ضوء الاجتهاد المطلق مرتبة جديرة بالذكر وآية ذلك أنّهم التقوا في مسألة الرؤية، وعينية الصفات، وحدث القرآن، وتفسير الصفات الخبرية، مع أهل الوعي والعقل والتفكير من المسلمين، ولا شكّ إنّهم وصلوا إلى هذه الأصول بعد موت عبدالله بن اباض، وجابر بن زيد، ومسلم بن أبي كريمة، والربيع بن حبيب، لأنّ هذه الأصول إنّما صفت وتنوّرت وتلاّأت بفضل البحوث الجبّارة من أهل الفكر والتحقيق و من فضل ماورث علماء أهل البيت من خطب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حتى صقلوها ببراهينهم الجليلة، فإذا كان هذا حال مذهبهم فلاي مبرّر يسندون مذهبهم إلى واحد من التابعين كعبدالله بن اباض وجابر بن زيد وتلاميذه؟ مع أنّهم لم يكونوا بالنسبة إلى هذه المسائل في حلّ ولا مرتحل.

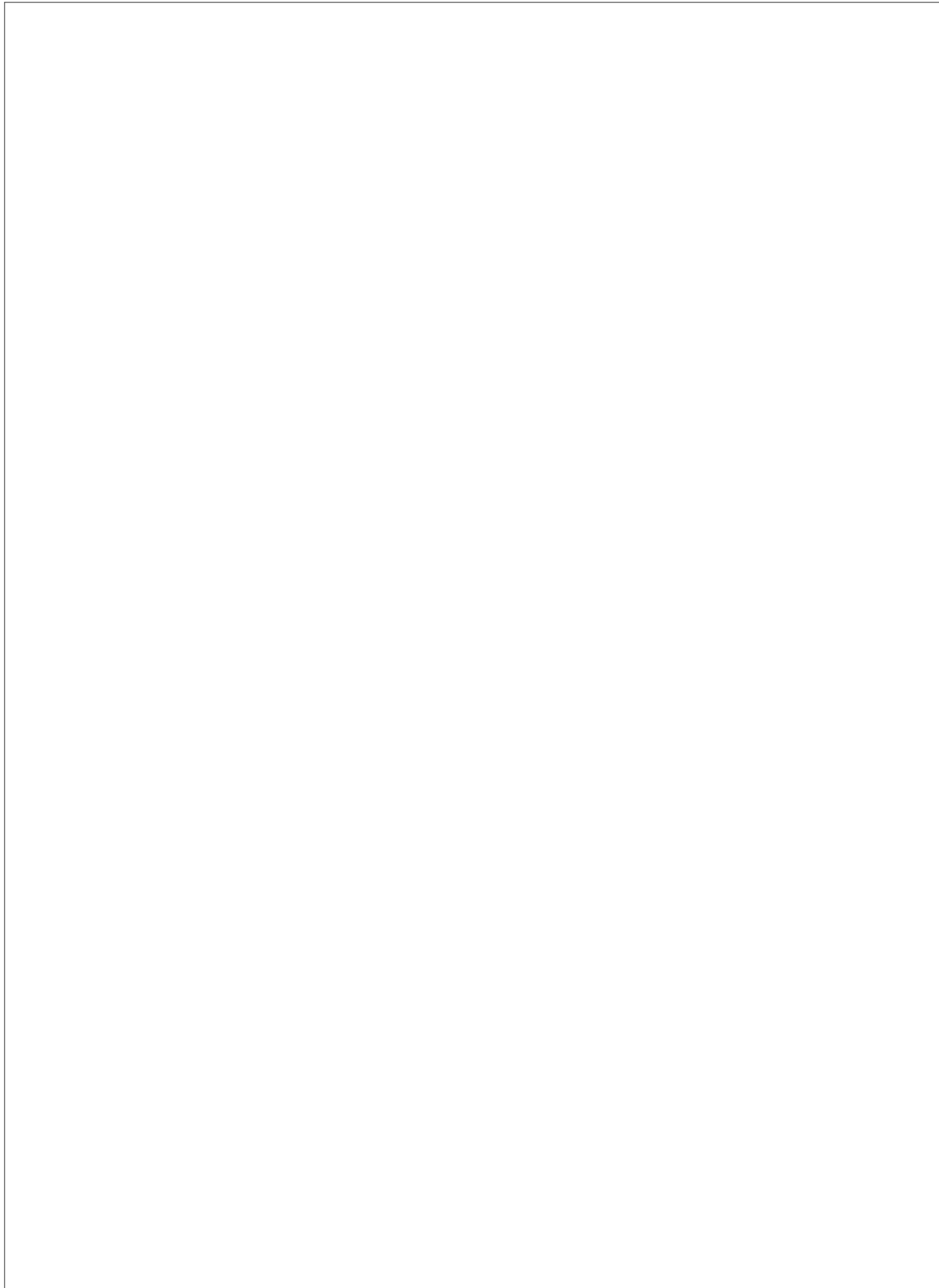
أضف إلى ذلك أنّ الرجلين كانا من التابعين أخذوا عن الصحابة وبلغوا إلى ما بلغوا من العلم، ولكن بين علماء الأمة من كان أعلم منهما أعني أستاذه ابن عباس، ذلك البحر المواجه - حسب تعابير القوم - بل وبينهم الإمامان الحسن و الحسين، و باقر العلوم، وجعفر الصادق عليه السلام وغيرهم فلو كان هناك ملزم للانتساب، فالانتساب إلى الأعلم والأتقى ومن نصّ الكتاب على وجوب ودّه، أولى وألزم، فإن كان هذا الانتماء غير ممكن فالانتماء إلى

١. الطبري: التاريخ ٥/٤.

جميع الصحابة والتابعين بلا رفع واحد و خفض آخر، أولى وأحق .

٥ - إذا كان الكتاب و السنّة هما المصدران الرئيسيان لدى المسلمين ولديكم فنحن نحبّد لكم دراسة حال حياة الإمام علي عليه السلام ومناقبه الواردة في السنّة النبوية، ولعلّكم عند ذلك سترجعون عن ولاء المحكّمة الأولى، وتخطّئون منهجهم وأعمالهم.

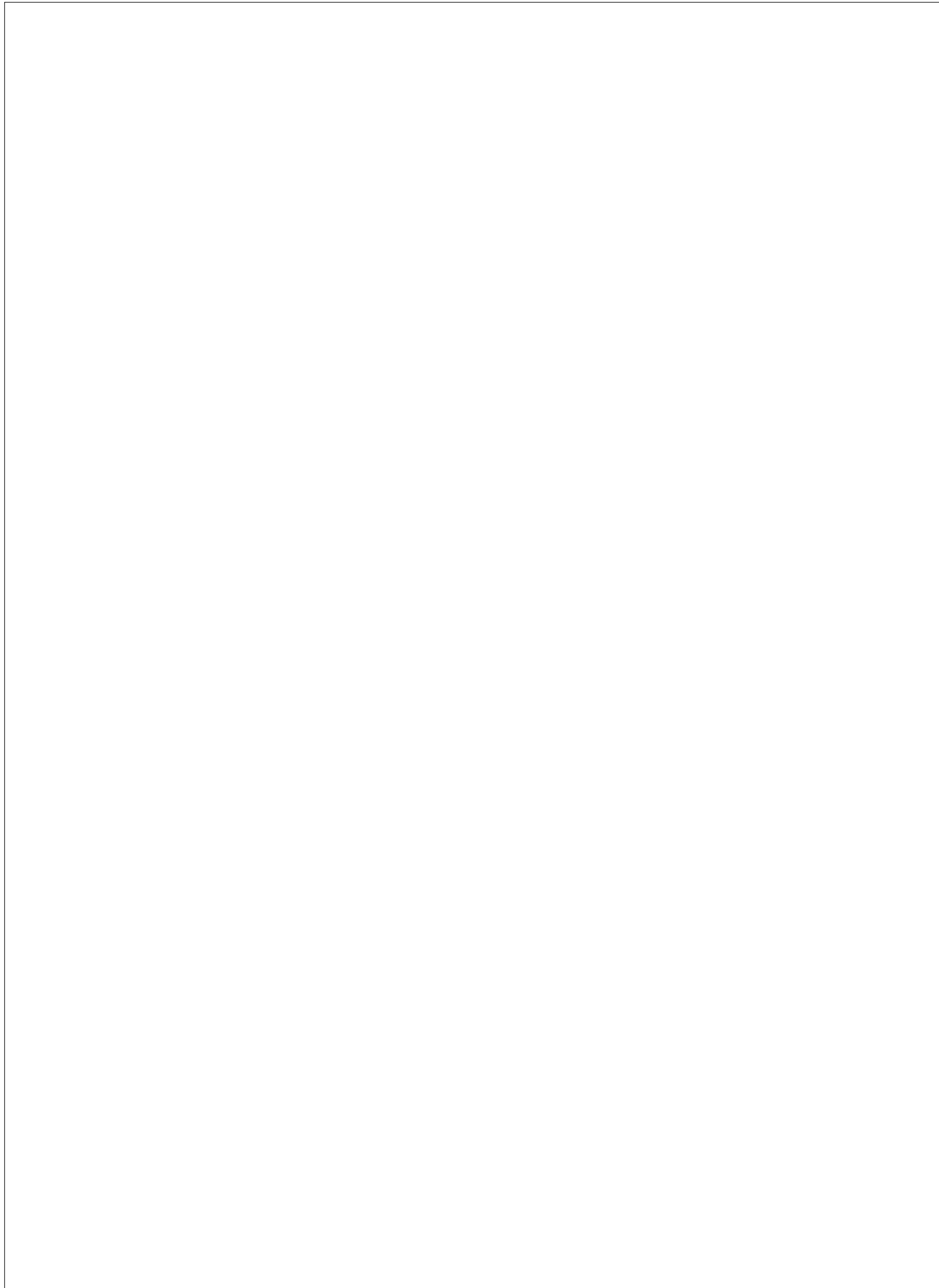
هذه أمنيّتي وأمنيّة كل ناصح مشفق، عسى الله أن يجمع كلمة المسلمين ويلمّ شعّتهم، ويجعلهم يداً واحدة قبال المعتدين والمستعمرين، والله رؤوف رحيم.



الفصل الحادي عشر

مؤسس المذهب الاباضي ودعاته

في العصور الأولى



قد تعرّفت على عقائد الاباضية وشيئاً من أصولهم وفقههم وسيرتهم والمسالك الأربعة عندهم، فحان التعرّف على أئمتهم و دعائهم في القرون الأولى، خصوصاً أنّ الاباضية هي الفرقة الوحيدة الباقية من الخوارج المنتشرة في مناطق مختلفة أعني عمان، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، المغرب وزنجبار.

١ - عبدالله بن اباض، مؤسس المذهب:

هو عبدالله بن اباض المقاعسي، المري، التميمي - من بني مرّة - ابن عبيد ابن مقاعس من دعاة الاباضية بل هو مؤسس المذهب.

قد اشتهرت هذه الفرقة بالاباضية من أوّل يوم، وهذا يدل على أنّه كان لعبدالله بن اباض دور في نشوء هذه الفرقة وازدهارها، وإن كانت الفرقة يطلقون على أنفسهم أسماء أخرى يشترك فيها سائر المسلمين كأهل الإسلام وأهل الحق أو جماعة المسلمين، وغير ذلك، غير أنّ هذه الأسماء لم تكن وافية بالتعرّف عليهم بل كان المعرّف لهم عنوانين: ١ - القعدة ٢ - الاباضية.

كل ذلك يشرف الإنسان على الاطمئنان بأنّ لابن اباض تأثيراً هاماً في

نشوء هذه الفرقة، وإليك البيان:

ظهور خط الاعتدال بعد مقتل الإمام:

قد عرفت أنّ عليّاً عليه السلام قد قضى على الخوارج الذين كانوا يثيرون الشغب، ويستعرضون الناس بالسيف، فلما مضى علي عليه السلام وضع معاوية بن أبي سفيان السيف في الخوارج واستأصل شأفتهم لما كانوا يرتكبون من الأعمال الإجرامية التي عبّر عنها علي عليه السلام في خطبة له: «كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُمْ نَظَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ. كُلَّمَا نَجِمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قَطَعَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لَصُوصاً سَلَابِينَ»^(١).

وقال عليه السلام مخاطباً لهم:

«أما إنَّكم ستلقون بعدي ذُلًّا شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتَّخذها الظالمون فيكم سنة»^(٢).

ففي هذه الظروف القاسية وجد بينهم رجل يملك شيئاً من العقل ورأى أنّ تلك الأعمال الإجرامية تسقطهم عن العيون ولا تُبلِّغهم إلى الهدف، وهو «أبو بلال مرداس بن حدير» ونقطة البداية في دعوة أبي بلال كانت هي انكار مسلك العنف وما يذهبون إليه من قتل المخالفين واستعراض الناس، فأمر أتباعه أن لا يُجرّدوا سلاحاً، ولا يقاتلوا مسلماً إلا إذا تعرّضوا لعدوان، أو واجهوا قتالاً، فكان عليهم حمل السلاح دفاعاً عن النفس، وينقل البلاذري عنه قوله: «إنَّ تجريد السيف وإخافة السبيل لأمر عظيم، ولكنّا نشدّ عنهم ولا نجرّد سيفاً

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٦٠.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨.

ولا نقاتل إلا من قاتلنا»^(١).

ويؤيد الكاتب أنّ خط الاعتدال، ظهر بعد مقتل الإمام علي عليه السلام بقوله:

«إنّ هذا المسلك (التطرف) منهم، دعا بعض من كانوا يوازرونهم، إلى مخالفتهم، والافتراق عنهم، بل وتوجيه شديد النقد عليهم... هذا البعض - الذي تشدّد بعد أن كانوا لهم مؤيدين - بدا لهم رأي غير الذي ارتأوه جميعاً ورأوا أنّ عليّاً وإن أخطأ في قبول التحكيم، وإن لم ينزل عند طلبهم عليه التوبة ممّا فعل، وكذلك سائر أهل القبلة الذين مازالوا على الشهادتين، إنّما هم مسلمون لا يجوز قتالهم، ولا سبي نسائهم، وليست أموالهم غنيمة، وإنّ قتالهم لا يكون إلا في حالة بغي وعدوانٍ منهم، فهنا يجب القتال بمقدار ما يلزم لدفع العدوان وردّ البغي»^(٢).

ويقول: إنّ المحكّمة بعد واقعة النهروان افتقدوا وحدة الصف، وشاعت فيهم الفرقة، وساد الاضطراب، ممّا دفع بعضهم إلى الغلو في التطرف، وتنكّب الطريق السوي، ووجد بينهم من استنكره ولم يجد بداً من الافتراق عن هؤلاء الذين عرفوا بالخوارج، إيماناً منهم بأنّ طريق الاستعراض بالسيف، ليس هو طريق الإسلام، وقد كان على رأس هؤلاء - الذين عرفوا بالقعدة - أبو بلال مرداس ومن خلفه من الدعاة الذين عرفوا فيما بعد بالاباضية^(٣).

وقد تأثرت عدّة من الخوارج بهذه الفكرة واستفحلت دعوة أبي بلال، وظهرت معالمها، غير أنّ بني أميّة لم يكونوا يرضون بوجود قدرة ماثلة أمامهم،

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٣٨ وما نقله عن البلاذري مذكور في الأنساب ٩٤/٥.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٠٥ و ١٣١ - ١٣٢.

٣. نفس المصدر.

فلأجل ذلك استعمل ابن زياد (والي البصرة) بعد موت أبيه زياد بن أبيه، الشدة والقسوة على جميع المحكّمة متطرّفيهم ومعتدليهم، فقتل أبا بلال مرداس بن حدير في منطقة نائية عن البصرة^(١) كما قتل أخاه عروة بن ادية^(٢) في البصرة فقطع أيديه ثمّ صلبه.

ففي البصرة اتّبع عمّال الأمويين سياسة البطش والتعذيب والنفي والقتل ضدّ معارضيهم بصفة عامّة، ولم يستثنوا من هذه السياسة جماعة القعدة، ورغم أنّ هذه الجماعة لم تأخذ بأسلوب الخوارج في التطرّف والعدوان، وترويع الأمنين، ورفع السيف في وجه الدولة، إلّا أنّ عمّال بني أميّة في بلاد العراق، شدّدوا عليها خوفاً من دعوتها التي كانت تستسري بين الناس، وتحاشياً للشرّ قبل وقوعه، وقمعاً للنفاق قبل أن ينجم.

وازاء هذا الإضطهاد لجأت القعدة إلى السريّة والكتمان، وظلّوا على هذا الأمر (إلّا في فترة ثورة ابن الزبير) حتى جاء عصر الحجاج بن يوسف الذي قام بدوره في اضطهادهم من ينكشف لديه أمره^(٣).

وبعد ما ثار عبدالله بن الزبير على عمّال يزيد، ودانت له الحجاز والعراق، فعند ذلك اجتمعت الخوارج وعلى رأسهم نافع بن الأزرق وعبدالله بن صفّار وعبدالله بن اباض، فزعموا أنّه ربّما يوجد عنده أمنيّتهم، ولكن بعدما وقفوا على عقائده في حق عثمان وأصحاب الجمل تفرّقوا عنه، وغادروا مكة المكرمة فمنهم من ذهب إلى البصرة ومنهم من ذهب إلى حضرموت.

وفي هذه اللحظة الحسّاسة بدأ الخلاف بين ابن الأزرق وعبدالله بن اباض

١. قتل أوائل خلافة «يزيد» في منطقة «أسك» قريبة من الأهواز عام ٦٠.

٢. وهو الذي سلّ السيف على الأشعث بعد عقد التحكيم كما عرفت تفصيله.

٣. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٣٢ - ٣٣.

(٣١٤)

فاختار الأوّل الخروج وسلّ السيف، وقتل المخالفين وسبي النساء وأنكر الثاني هذا التطرف، كل ذلك حوالي عام ٦٤ إلى ٦٥ من الهجرة، فقتل الأوّل بسبب تطرفه في ناحية الأهواز وبقي الثاني يعيش في ظل الاعتدال والتقية.

كل ذلك يعرب عن أنّ عبدالله بن اباض كان في تلك الفترة رجلاً كاملاً لا يقلّ عمره عن عمر الدعاة الذين يقودون أمة ويتأّمرون عليهم، ولعلّه كان في تلك الأيام من أبناء الأربعين لو لم يكن أكثر، فعلى ذلك نخرج بهذه النتيجة أنّه كان من مواليد سنة ٢٤ من الهجرة فيكون أصغر بسنتين من جابر بن زيد على رواية أو ست سنوات على رواية أخرى .

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى أنّه يخاطب عبدالملك بن مروان في رسالة إليه بقوله: «فلا تسأل عن معاوية ولا عن عمله ولا عن صنعته غير أنّا قد أدركناه ورأينا عمله وسيرته في الناس، ولا نعلم أحداً أترك للقسمة التي قسم الله، ولا لحكم حكمه الله، ولا أسفك لدم حرام منه»^(١).

كل ذلك يعرب عن أنّ عبدالله بن اباض كان رجلاً كاملاً وداعياً قوياً إلى خط الاعتدال وكان هو الناطق باسم هذه الجماعة، فنسب المذهب إليه لأجل ذلك، فكونه هو المؤسس للمذهب أو الداعي القوي إلى خط الاعتدال الذي أسسه أبو بلال هو الأقوى بالنظر إلى النصوص التاريخية، والناظر إلى رسالته التي كتبها إلى عبدالملك بن مروان يجده مناظراً قوياً ينقض دليل خصمه بحجة أقوى من حجّته، ونذكر منه نموذجاً:

احتجّ عبدالملك على صلاح معاوية بقوله: «إنّ الله قام معه وعجل نصره وبلّج حجّته وأظهره على عدوّه بالطلب لدم عثمان....» فأجابه في ذلك

١. الحارثي: العقود الفضية: ١٢٢ كما في «الإمام جابر بن زيد» وسيوافيك نصّ الرسالة برمتها عن مصدر آخر.

عبدالله بن اباض بقوله: «فإن كنت تعتبر الدين من قبل الدولة والغلبة في الدنيا فإننا لانتعبره من قبل ذلك، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعملون^(١) وظهر المشركون على المؤمنين ليبيي المؤمنين ويُعلي الكافرين... فلا تعتبر الدين من قبل الدولة...». ولو كان هو الكاتب لتلك الرسالة^(٢) ولم تكن مملاة عليه لدل على احاطته بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. كل ذلك يؤيد أنه هو المؤسس الثاني للمذهب بعد انطماس خط أبي بلال. وبما أن في تلك الرسالة احتجاجات على الطغمة الأموية، وفي الوقت نفسه، تعكس الأحوال السائدة في تلك الأيام، نأتي بنصها في آخر هذا الفصل و هي من الموثيق التاريخية. هذا ما وقفنا عليه بعد الغور في التاريخ .

رأى آخر في المؤسس :

هناك رأي آخر هو أن المؤسس هو جابر بن زيد التابعي، تلميذ ابن عباس وغيره كما سيوافيك، وأن عبدالله بن اباض كان ناطقاً عن الجماعة التي كان يرأسها ويقودها ذلك التابعي سرّاً وخفاء .

يقول علي يحيى معمر:

«وبعد وفاة جابر بن زيد ظهر عبدالله بن اباض بأجلى مظاهر الغيرة الدينية ولقّن أصحابه مبدأ الإقدام في تقرير الحق، وقمع أهل الجور والظلم،

١. لعلّه إشارة إلى قوله سبحانه في حقّ بني إسرائيل قال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ - الاعراف ١٢٩ - .

٢. قد نقل البرّادي في كتاب الجواهر المتقاة رسالة ابن اباض في ١٥٦ - ١٦٧ والكتاب مطبوع بمصر طبعة حجرية، كما نقلها مؤلف السير والجوابات لبعض أئمة الاباضية .

المنحرفين عن جادة الصواب، حتى ظهرت هذه الفرقة الناجية المحقة الصادقة في أدوارها الوجودية في حالتها الكتمان والظهور»^(١).

وقال أيضاً: «فقد كان يحضر مجلس جابر بن زيد عدد من الطلاب كقتادة، وأيوب، وابن دينار، وحيّان الأعرج، وأبي المنذر تميم بن حويص، ومنهم من يأخذ عنه أكثر ممّا يأخذ من غيره، أو يكاد يختصّ بمجلسه، كأبي عبيدة بن مسلم، وضمام، وأبي نوح الدهان، والربيع بن حبيب، وعبدالله بن اباض، ومن هؤلاء الطلاب من كان يشتغل أثناء التحصيل وبعده بالشؤون العامة، ومنهم من اشتغل بالمسائل السياسية ومطاراتها مع حكام الدولة الأموية في ميدان الكلمة دون استعمال السيف كعبدالله بن اباض، ومنهم من جلس للتدريس وأخذ مكان الإمام كأبي عبيدة أبي نوح الدهان وقام بنفس الدور وتخصّص فيه»^(٢).

إنّ ما ذكره بصورة أمر قاطع غير ثابت في التاريخ، كيف وأغلب الظن أنّ عبدالله بن اباض مات قبل جابر وإنّه كان يقود أمر القعدة في حياة جابر، وإن كانت الأقوال في زمان حياته مختلفة، فمن قائل إنّّه مات عام ٨٠ إلى آخر إنّّه مات قرابة ٨٦، إلى ثالث بأنّه مات سنة ١٠٠ بالمغرب ودفن في جبل نفوسه، كما أنّه اختلفت الأقوال في حق جابر وأكثر الأقوال إنّّه مات عام ٩٤، ذكر بعض المؤرّخين أنّه مات عام ١٠٤، فكيف يمكن أن يكون عبدالله هو القائم بالأمر بعد وفاة جابر؟

ويظهر تقدّم قيادة عبدالله بن اباض على جابر، من الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: قال: إنّ القعدة أو جماعة المسلمين هم الذين انظمّوا إلى جابر بن

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ١٥١.

٢. الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٣٥/٢ - ١٣٦.

زيد، وانضوا تحت قيادته بعد أن انتهى دور عبدالله بن اباض، فبعد أن رأوا مدى القوّة التي ينعم بها هذا الفقيد الأزدي بسبب مساندة الأزدي له، لدرجة أنّ الحجاج المشهور بالبطش والعنف لم يجراً على قتله عندما عرف صلتة بالاباضية واكتفى بنفيه إلى بلدة عمان ولم يلبث أن عاد منها إلى البصرة مرّة أخرى، ولم يتعرّض له الحجاج في كثير أو قليل^(١).

ويقول في موضع آخر: ولما أحسّ الحجاج بنشاط جابر بن زيد الذي تولّى أمر جماعة القعدة بعد عبدالله بن اباض، ألقي به في السجن ثم نفاه إلى عمان، ولما عاد منها، ألقي به في السجن مرّة ثانية، كما سجن قيادات القعدة الآخرين^(٢).

وهناك نظرية ثالثة وهي أنّ الرجلين كانا متعاصرين، غير أنّ المصلحة الزمنية كانت توجب اختفاء جابر وظهور عبدالله بن اباض في الساحة. يقول الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: «لقد أثرت الجماعة أن يظل أمر جابر مستوراً ولعلّ مرجع ذلك مارأوه من عظم الخسارة فيما لو اشتهر أمر جابر وأخذوه بالشدة، فإنّ ذلك يفقد الجماعة عقلها المدبّر وزعيمها الحقيقي، ولقد بالغ جابر في التخفي حتى قدّم سواه للتحدّث باسم الجماعة ومناظرة خصومه، وكان عبدالله بن اباض أحد أولئك الذين تحدّثوا كثيراً باسمهم حتى لقد ظن أنّه الزعيم الحقيقي للجماعة فنسبها الآخرون إليه، وعرفوها بأنّها جماعة الاباضية مع أنّ عبدالله بن اباض لم يكن إلّا واحداً من أفرادها قدّمه زعيمها - جابر بن زيد - للتحدّث عنهم ومناظرة خصومهم»^(٣).

١. الاباضية في مصر والمغرب: ٢٠٠.

٢. الاباضية في مصر والمغرب: ٣٣.

٣. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني ١٥٣.

(٣١٨)

يلاحظ عليه: أنه مجرد استحسان وتحليل حدسي لم يقترن بدليل، وقد عرفت اقتران الرجلين في الولادة والوفاة وظهور عبدالله بن اباض في الدعوة أيام يزيد بن معاوية، ولم يكن يومذاك اسم من جابر ولاخبر.

ثم إنَّ الكاتب لما رأى أنَّ المذهب منتم إلى ابن اباض طيلة قرون، حاول أن يصحَّح وجه النسبة إليه وإنَّه كان فرداً واحداً من القعدة، وذلك بوجهين:

١ - إنَّ هذه الجماعة لم تطلق على نفسها اسم الاباضية بل كانوا يسمّون أنفسهم أهل الدعوة أو جماعة المسلمين.

٢ - إنَّ تسمية الاباضية إنّما أطلقها على هذه الجماعة مخالفوهم في فترات تالية، وربّما كان الأمويّون كما يرى البعض هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم نسبة إلى عبدالله بن اباض لأنَّ الأخير كان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم، كما أنَّ الأمويّين لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر حتى لا يجذبوا إليه الأنظار، ولا يبدو في حياة جابر المشرقة، فتميل إليهم النفوس، فنسبواهم إلى عبدالله بن اباض وهو أقلّ منزلة من جابر في العلم وإن كان لا يقلّ عنه في التقوى والورع والصلاح^(١).

ولا يخفى ضعف الوجهين: أمّا الأوّل فلأنَّ الهدف من التسمية هو التعرّف على المسمّى، ومن المعلوم أنَّ اللفظين المذكورين لفظان عامّان لا يكونان مشيرين إليه.

وأما الثاني: فمجرّد حدس لا دليل عليه، ولم يكن جابر بن زيد من المشاهير والأعلام بين العلماء والمحدثين حتى تكون التسمية باسمه موجبةً للانجذاب، بشهادة أنّه ليس لجابر روايات وافرة في الصحاح والمسانيد.

١. الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد ١٦١ - ١٦٢ نقلاً عن تاريخ المغرب الكبير، لمحمّد علي دبور

ولعلّ القول الحق ما يذكره الصوفي في آخر كلامه ويقول: إنّ جماعة الاباضية كانت حريصة على التخفي والتستر ولم تبد كجماعة خارجة، وكان أول ظهور لها عندما راح عبدالله بن اباض يتحدث باسمها ويبعث برسائل إلى الأمير الأموي عبدالله بن مروان، فكان من الطبيعي أن تنسب هذه الجماعة إلى من أبدى للخليفة نفسه على أنّه صاحب الرأي والكلمة (١).
أضف إلى ذلك أنّه لم يثبت كون جابر بن زيد من الاباضية، وسيوافيك أنّه كان يصلي خلف الحجاج ويأخذ جوائزه.

٢- جابر بن زيد العماني الأزدي:

وهو الشخصية الثانية التي تتبناها الاباضية زعيماً ومؤسساً لمذهبهم وقد أطروه في كتبهم، وقد تعرّفت على الاختلاف في ميلاده ووفاته، فهو من رجال النصف الثاني من القرن الأول، وقد طلع نجمه في هذه الفترة، وهو عماني عاش في العراق وأمضى أكثر عمره في البصرة إحدى عواصم العراق العلمية، وإليك كلمات أهل الرجال في حقّه.

١ - قال أبو حاتم الرازي: جابر بن زيد أبو الشعثاء الأزدي اليماني روى عن ابن عباس والحكم بن عمرو وابن عمر، روى عنه عمرو بن دينار وقتادة وعمرو بن هرم. سمعت أبي يقول ذلك.

وعن عطاء ابن عباس قال: لو أنّ أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عن كتاب الله عزّ وجلّ، وقال عكرمة: كان ابن عباس يقول: هو أحد العلماء، و عن تميم بن حدير عن الرباب قال: سألت ابن عباس عن شيء، فقال: تسألوني وفيكم ابن زيد؟

١. الدكتور صالح بن أحمد الصوفي، الإمام جابر بن زيد: ١٦٢ - ١٦٣.

وعن أبي هلال، عن داود، عن عذرة قال: دخلت على جابر بن زيد، فقلت: إن هؤلاء القوم ينتحلونك - يعني الاباضية - ، قال: أبرأ إلى الله عز وجل من ذلك، وعن يحيى بن معين يقول: أبو الشعثاء جابر بن زيد روى عنه قتادة، بصري، ثقة. وقال أبو زرعة: إنه بصري أزدي، ثقة^(١).

٢ - وقال أبو زكريا النووي بمثل ما قاله الرازي وأضاف: قال أحمد بن حنبل وعمرو بن علي والبخاري: توفي سنة ثلاث و تسعين، وقال محمد بن سعد: سنة ثلاث ومائة، وقال الهيثم: سنة أربع ومائة^(٢).

٣ - وقال ابن حجر العسقلاني بمثل ما قاله، وأضاف: وقال العجلي: تابعي ثقة، وفي تاريخ البخاري عن جابر بن زيد قال: لقيني ابن عمر فقال: جابر! إنك من فقهاء أهل البصرة، وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً، ودفن هو وأنس بن مالك في جمعة واحدة، وكان من أعلم الناس بكتاب الله ، وفي كتاب الزهد لأحمد: لما مات جابر بن زيد، قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق.

وقال إياس بن معاوية: أدركت الناس ومالهم مفت غير جابر بن زيد.

وفي تاريخ ابن أبي خيثمة: كان الحسن البصري إذا غزا أفتى الناس جابر بن زيد.

وفي الضعفاء للساجي: عن يحيى بن معين: كان جابر اباضياً، وعن عكرمة: صفيّاً، وأغرب الأصيلي فقال: هو رجل من أهل البصرة لا يعرف، انفرد عن ابن عباس بحديث: «من لم يجد إزاراً فليلبس السراويل» ولا يعرف هذا الحديث بالمدينة^(٣).

١. أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ٢/٤٩٤، رقم ٢٠٣٢.

٢. أبو زكريا النووي (ت ٦٧٦)، تهذيب الأسماء واللغات ١/١٤٢، رقم ٩٨.

٣. تهذيب التهذيب ٢/٣٤، رقم ٦١.

٤ - وقال أيضاً: جابر بن زيد، أبو الشعثاء الأزدي الجوفي^(١) - بفتح الجيم وسكون الواو بعدها فاء - البصري، مشهور بكنيته، ثقة فقيه، من الثالثة، مات سنة ٩٣، ويقال: ومائة^(٢) .
ولم يذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ولا ابن حجر في لسانه، وقال الأول في سير أعلام النبلاء: روى جابر عن ابن عباس، قال: أخى النبي بين الزبير وابن مسعود. وفي موضع آخر منه روى قتادة، قال: سمعت جابر بن زيد يحدث عن ابن عباس قال: تقطع الصلاة الحائض^(٣) .

هذا ما وقفت عليه في كتب الرجال من أحوال الرجل، وقد قامت الاباضية في العصور الأخيرة بترجمته ترجمة وافية، وقد اطروه وإليك نبذاً من كلماتهم في حقّه:

كلمات الاباضية في حق جابر:

هذه نصوص علماء الرجال من أهل السنّة ولاعتب علينا أن نشير إلى كلمات اتباع الرجل وإن طال بنا المقام.

١ - لم يكن جابر بن زيد ممّن عرف عنهم الميل إلى التمرد أو الثورة، فلم يُعرف عنه أنّه كان ضمن الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب، أو اعتزلوه أو تمرّدوا عليه، إذ أنّه ولد في عمان في الفترة ما بين عامي ١٨ و ٢٢ هـ، ثمّ رحل إلى البصرة يطلب العلم، وهو شاب في زمن لا نعرفه، ولا يمكن تحديده، وغلب أنّه رحل إليها بعد سنّ العشرين حيث كان شاباً يستطيع تحمّل مشقّة

١. ينسب إلى درب الجوف وهي محلّة بالبصرة.

٢. ابن حجر العسقلاني: تقريب التهذيب ١/١٢٢، رقم ٥.

٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٤٩٠ و ١٠/٢٥٢.

السفر و الترحال. والمعروف أنَّ التحكيم الذي أدَّى إلى انفصال جزء من جيش علي عنه، وقيامهم بمعارضته والخروج عليه، كان في رمضان من عام ٣٧، وحدثت معركة النهروان التي أكّدت هذا الانفصال وكرّسته في عام ٣٨ هـ.

وعلى ذلك فإنَّ جابر بن زيد أمّا أنّه لم يكن موجوداً في البصرة عند وقوع هذه الأحداث، أو أنّه كان موجوداً، ولكنّه لم يشارك فيها على أي نحو من الأنحاء، لأنَّ كتب التاريخ السنيّة والشيعة والاباضية لم يرد فيها ذكر لأي شيء يتعلّق به، أو حتى مجرد ذكر اسمه في تلك الفترة، ولم يسمع أحد شيئاً عن جابر بن زيد إلّا بعد انتهاء هذه الأحداث لحوالي أربعين عاماً عندما أتى الحجاج بن يوسف الثقفي إلى العراق والياً عليه من قبل عبدالملك بن مروان في عام ٧٥ (١).

٢ - إنّ مؤسس مذهب الاباضي لم يكن ممّن شهدوا حرب الجمل أو صفّين أو النهروان، ولم يكن ضمن هؤلاء الذين رفعوا السيف في وجه الدولة أو حاربوها من الخوارج وغيرهم، بل كان يأتلف معها، فقد كان يأخذ عطاءه من الحجاج بن يوسف الثقفي، كما كان يأخذ جائرته ويحضر مجلسه ويصلي خلفه.

ولذلك كان من مبادئ الاباضية بعد جابر، جواز الصلاة خلف أهل القبلة كلّهم، وخلف الجبابرة في أي بلد غلب عليه الجبابرة، ويجيزون الغزو معهم أيضاً، كما كانوا يأخذون بأحكامهم، ولا يرون في ذلك بأساً طالما أنّ أحكامهم كانت موافقة للحقّ والعدل، وكانوا يستحسنون أفعالهم إذا جاءت على هذه الصفة.

من ذلك: ما حدث عندما عرض على عبدالملك بن مروان أمر رجل

١. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ١٥.

تزوَّج من امرأة أبيه ظناً منه أنّها تجوز له، فأمر عبدالملك بقتله على جهله فيما لايجوز الجهل به، وقال: لاجهل في الإسلام ولاتجاهل، فاستحسن جابر بن زيد هذا العمل من عبدالملك وقال عنه: إنّهُ أحسن وأجاد. وما ذاك إلّا لما تميّز به هذا الفقيه الكبير، تميّز مذهبه من صفة التسامح والاعتدال، ولما قام عليه هذا المذهب من أسس وأصول^(١).

٣ - إنّ جابراً كان يصلي الجمعة في المسجد الجامع في البصرة خلف عبيدالله بن زياد، وكان يقول لهم: إنّها صلاة جامعة وستة متّبعة.

وذكروا: أنّه كان يتناول من الحجاج عطاء مقداره ستمائة أو سبعمائة درهم ويصلي خلفه، وعرض عليه الحجاج أن يوليّه القضاء ولكن جابراً رفض هذا العرض^(٢).

٤ - إنّ العلم مثله مثل طائر باض في المدينة المنورة، وفرّخ بالبصرة، وطار إلى عمان^(٣). يريد أنّه فرّخ بالبصرة بيد جابر، ولما مات جابر انتقل العلم إلى عمان و ذلك قبيل نهاية القرن الثاني للهجرة حيث قامت الإمامة الاباضية في عمان عام ١٧٧، وصارت هذه البلاد حجر الزاوية ومركز الثقل السياسي بالنسبة إلى المذهب و الدعوة.

٥ - إنّ جابر بن زيد الأزدي من أهل البصرة، يروي عن عبدالله بن عباس، وقد لقي جابر بن زيد عائشة أم المؤمنين وسألها عن بعض مسائل، فلما خرج عنها قالت: لقد سألتني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط، وإنّما توفي

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٥٧ - ٥٨.

٢. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ١٦ - ١٩ - ٣٢.

٣. يكرّرون هذا التعبير في غير واحد من كتبهم وهو من المغالاة في القول.

(٣٢٤)

جابر - رضى الله عنه - سنة ثلاث سنين ومائة (١).

٦ - اشتهر أنه لا يماكس في ثلاث: في كراء إلى مكة، وفي عبد يشتري ليعتق، وفي شاة التضحية، وكان يقول: لانماكس في شيء نتقرب إليه.
روي أنه رأى أحد الحجة يصلّي فوق الكعبة، فنادى: يا من يصلّي فوق الكعبة لاقبله لك (٢).

٧ - إن جابراً أحد المؤلفين في الإسلام وقد كان لديوانه رنة، وكان موضع تنافس بين دور الكتب الإسلامية، واستطاعت مكتبة بغداد أن تحصل عليه و أن تبخل به عن غيرها من المكتبات.

يقول علي يحيى معمر:

كان لهذا الكتاب قيمة كبرى لما فيه من علم وهدى، ولقربه من عصر النبوة، ولأخذ مؤلفه عن الصحابة - رضوان الله عليهم - ، وكانت له قيمة أخرى أثرية وهي أنه أول كتاب ضخم ألف في الإسلام.

وإنه لمن المؤسف أن يضيع هذا التراث العظيم من مكتبة بغداد عندما أحرقت تلك المكتبة العظيمة. وضاعت منها آلاف النفائس، كما أنه من المؤلم المر أن تضيع النسخة التي وصلت إلى ليبيا، فيما ضاع من التراث الإسلامي العظيم بسبب الجهل والحقد وطلب الرفعة عند الناس، وليس أعظم محنة من ضياع التراث العلمي والخلقي والديني لأمة مسلمة لا يستقيم حاضرها إلا على القواعد المتينة التي ابنتى عليها ماضيها، ولن يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها (٣).

١. ابن سلام الاباضي: بدء الاسلام وشرائع الدين: ١٠٨.

٢. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ١٤٨.

٣. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ١٥٠.

٨ - إنّ جابراً أخذ عن عبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري، وقال: كان جابر بن زيد يلتقي بأُمّ المؤمنين عائشة ويأخذ عنها العلم ويسألها عن سنة الرسول، وقد سألها يوماً عن جماع النبي وكيف كان يفعل، وإنّ جبينها يتصبّب عرقاً وتقول عائشة: سل يا بُنيّ، ثم قالت له ممّن أنت؟ قال: من أهل المشرق من بلد يقال لها عُمان.

ولمّا كان هذا السؤال بظاهره بمعزل عن الوقار علّق عليه صاحب «تحفة الأعيان» بقوله: المراد أنّه سألها عن مقدّمات الجماع التي يجوز السؤال عنها حرصاً منه - رضى الله عنه - على نقل السنة وجمعها كي يكون المسلم مقتدياً برسول الله في كل أعماله دقيقها وجليلها.

يلاحظ عليه: أنّه لو صحّ السؤال لما نفع هذا التعليق وأمثاله ممّا حشدها مؤلّف الكتاب وهو يعرب عن سذاجة الرجل و عدم عرفانه بموضع السؤال والمسؤول، والعجب إنّ جواب أمّ المؤمنين لم يذكر في هذه الكتب ولم تصل السنة إلى أيديهم، ولعلّ تكذيب أصل القضية أولى من توجيهها.

وهناك ملاحظة حول حياة جابر وهو أنّ صلاته خلف الحجاج تبرّرها التقيّة، وأمّا أخذ الجوائز الذي هو بمعنى دعم ولايته واضفاء المشروعية عليها، فهل تبرّره التقيّة؟ أو كان من واجبه التخلّي عنها كما تخلّى عن قبول القضاء؟

إنّ ما جاء في هذه الكلمات من كون الرجل اباضياً مدعماً لمبدئه قاصر عن افادة الاطمئنان و الادّعاء، فإنّ التقيّة أمر مشترك بين الاباضية وغيرهم، فالذي يوجب تقدير الرجل بل تقدير تلك الطائفة، أنّهم يملكون الشجاعة الأدبية في الاجهار بجواز التقيّة والسلوك عليها في حياتهم، بينما يفقدها غيرهم من فرق أهل السنة، فهم يعملون بالتقيّة في حياتهم السياسية والاجتماعية ولكن لا يجاهرون بجوازها لو لم يكونوا مجاهرين بحرمتها!

فقه جابر بن زيد:

قد قام «يحيى محمد بكوش» بجمع أقوال وآراء جابر من بطون الكتب، وهو يقول في مقدمة الكتاب: «فقد وجدت في بطون الكتب أقوالاً عديدة للإمام جابر بن زيد سواء ذلك في كتب الاباضية أو في غيرها، من كتب المذاهب الأخرى، ثم رجعت إلى كتب الحديث فالتقيت برواياته منبئة من هنا وهناك فانقذت في ذهني فكرة أجمع ما يتيسر لي جمعه وضمه في مجموعة أخرجها للناس...وفي أثناء بحثي ظهر للأستاذ الصوافي كتاب يتناول هذا الجانب فاطلعت عليه واستفدت منه كما اطلعت أثناء ذلك على كتاب للأستاذ «عوض خليفات» الذي درس نشأة الحركة الاباضية في المشرق فاستفدت منه أيضاً...وقد قسّمت الكتاب إلى أبواب بلغت أحد عشر باباً، وكل باب يشتمل على مسائل متفرقة قد لا يجمع بينها سوى أنها تنسب إلى ذلك الباب، وإليك فهرس الأبواب:

- ١ - في حياة الإمام جابر بن زيد، فيه ١٣ مسألة.
- ٢ - في مسائل القرآن وعلومه، فيه ٤١ مسألة .
- ٣ - في الطهارات، فيه ١٩ مسألة .
- ٤ - في الصلاة، فيه ٤٤ مسألة.
- ٥ - في الزكاة، فيه ١٢ مسألة.
- ٦ - في مسائل الصوم، فيه ١٨ مسألة .
- ٧ - في مسائل الحج، فيه ٣٠ مسألة.
- ٨ - في مسائل النكاح والطلاق، فيه ٦١ مسألة .
- ٩ - في المعاملات، فيه ٢١ مسألة.
- ١٠ - في الأقضية والأحكام، فيه ١٥ مسألة.

١١ - في الزكاة والأطعمة والكفارات والنذور والوصايا والمواثيق، فيه ٣١ مسألة (١).

ثم إن الكتاب خرج في ٧٢٨ صفحة، وربما يتخيل القارئ في بادئ النظر أن أكثر ما جاء فيها يرجع إلى آراء جابر وأقواله وأفكاره، ولكنه بعد ما سبر الكتاب سرعان ما يرجع ويقف أن مجموع ما روي عنه في تلك الأبواب - لو جمع في محل واحد - لا يتجاوز عن عشر صفحات، ولكن المؤلف اتخذ طريقة المقارنة الفقهية وطلب لآراء المذاهب دليلها، فجاء الكتاب كتاباً ضخماً في الفقه، هو لا يمت إلى جابر بصلة إلا قليلاً.

هذا وقد بسط المؤلف الكلام في ترجمة جابر في الباب الأول، ومن أراد التبسط فليرجع إليه.

٣- أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت حوالي ١٥٨ هـ):

هذا هو الشخصية الثالثة لفرقة الاباضية وله ترجمة في كتب الرجال والتاريخ كما له ترجمة مفصلة في كتب الاباضية، ونذكر ما وقفنا عليه في القسم الأول ثم نردفه بكلمات الاباضية.

قال الحافظ الرازي: «مسلم بن أبي كريمة روى عن علي - رضي الله عنه - ، روى عنه... (كذا)، سمعت أبي يقول ذلك ويقول: هو مجهول (٢) .
ولو كان المقصود من العنوان هو المترجم فيروي عن علي عليه السلام بواسطة أو واسطتين كما لا يخفى.

وعنونه ابن حبان في الثقات، واكتفى بنقل اسمه فقط وقال: مسلم بن

١. يحيى محمد بكوش: فقه الإمام جابر بن زيد: ٧-٨ وفهرس الكتاب .

٢. الرازي: الجرح والتعديل ١٩٣/٨ برقم ٨٤٥.

أبي كريمة (١) .

وقال ابن الجوزي: مسلم بن أبي كريمة، قال الرازي: مجهول (٢) .

ولم أجد له ترجمة في الكتب الرجالية، وأمّا كلمات الاباضية في حقّه، فإليك بيانها:

يقول علي يحيى معمر: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي توفّي في ولاية أبي جعفر المنصور المتوفّي سنة ١٥٨ هـ ، وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد، فروايته عن جابر رواية تابعي عن تابعي. وقد روى أبو عبيدة أيضاً عن جابر بن عبدالله وأنس بن مالك وأبي هريرة وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين (٣) - رضى الله عنها - وروايته هذه عنهم موجودة في هذا المسند الصحيح (٤) وهي رواية تابعي عن تابعي .

شيوخه:

أخذ أبو عبيدة العلم عن لقيه من الصحابة وعن الجابرين: جابر بن عبدالله وجابر بن زيد، وعن ضمارة السعدي وجعفر السماك وغيرهم.

تلاميذه:

وحمل العلم عن أبي عبيدة خلق كثير، منهم الربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب المسند، وفيهم: حملة العلم إلى المغرب و هم: أبو الخطاب

١. محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: الثقات ٣٥٤/٥ و ٤٠١.

٢. عبدالرحمان بن الجوزي: كتاب الضعفاء والمتروكين ١١٨/٣ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦، ولاحظ بدء الاسلام: ٢٦، ٩٩، ١١٠، ١١٤، ولسان الميزان ٣٢/٦.

٣. سماعه عن أم المؤمنين عائشة وأبي هريرة بعيد جداً إلا أن يكون الرجل من المعمرين .

٤. إشارة الى مسند الربيع بن حبيب، والصحيح أن يقال: الجامع الصحيح، كما سيوافيك .

(٣٢٩)

المعافري، وعبدالرحمن بن رستم وعاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار العذامسي، وأبو داود القبلي النفراوي، وكان الإمام أبو الخطاب المعافري قد جاء من اليمن فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم إلى بلادهم، فنصبوه عليهم بأمر شيخهم أبي عبيدة. وبأمره نُصّب الإمام عبدالله بن يحيى الكندي في أرض اليمن، وجمعت إمارته اليمن والحجاز، وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله إسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام. فقال له أبو عبيدة: «أتريد أن تكون قاضياً مع ابن درار؟ قال: أرايت ان ابتليت بذلك» (١).

وقد روي عنه أنه قال: من لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين، وقد منّ الله علينا بعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن سلام (٢).

٤- أبو عمرو ربيع بن حبيب الفراهيدي:

إنّ الربيع من أئمة الاباضية وهو صاحب المسند المطبوع، ولم نجد له ترجمة وافية في كتب الرجال لأهل السنة (٣) ونكتفي في المقام بما ذكره الأستاذ التنوخي في مقدّمته على شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب:

«ومن يمن الطالع عن الحديث أن يكون الربيعان: الربيع بن صبيح والربيع بن حبيب في طليعة ركب الجامعين للحديث، والمصنّفين فيه، ومن

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الاسلامية ١٦٦/١ - ١٦٧.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني، وقد ترجم له ترجمة مفصلة وذكر مواقفه في تنظيم الدعوة ومجالها، والانتهاز من مواسم الحج لنشر المذهب واعمال السياسة السرية والأخذ بالتقية، فمن أراد فليرجع إليه (١٦٩ - ١٧٥).

٣. له ترجمة في بدء الاسلام ١١٠، والاعلام ١٣/٣.

الأسف أن لاندري شيئاً عن مصير مسند ابن صبيح وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات، ومن لطف الباري أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب، ثم من نعمه عليّ أن وفّقني لإعادة نشره مع شرح علامة عمان عبدالله بن حميد السالمي ولم يطلع على المسند وشرحه في علماء مصر والشام والعراق إلا قليل.

الثلاثيات:

قد ذكر أئمة الحديث أنّ رتب الصحيح تتفاوت تفاوت الأوصاف المقتضية للصحيح، وأنّ المرتبة العليا ما اطلق عليه بعض رجال الحديث أنّه أصحّ الأسانيد الثلاثية كسند الزهري عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه، وسند إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر، وهو قول البخاري لأنّ هذه الأسانيد قصيرة السند و قريبة الاتصال بالينبوع المحمّدي ﷺ .

ويشبه هذه الثلاثة الذهبية سلسلة مسند الربيع بن حبيب وثلاثياته... أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس، ورجال هذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأحفظهم وأصدقهم، لم يشب أحاديثها شائبة انكار ولا ارسال ولا انقطاع ولا اعضاء.

ولمزايا هذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات .

١ - ثلاثيات الإمام أحمد المطبوعة أخيراً بدمشق سنة ١٣٨٠ هـ ، وشرحها في جزأين الإمام محمّد السفاريني، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث.

٢ - ثلاثيات البخاري وهي في صحيحه ثمان و عشرون حديثاً.

٣ - ثلاثيات الدارمي وهي خمسة عشر حديثاً وقعت في مسنده بسنده.

٤ - ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدي، وأحاديثها في مسنده، ورجال سلسلتها الثلاثية هم أبو عبيدة التميمي، وجابر بن زيد الأزدي، والبحر عبدالله بن عباس - شيخ جابر - ، وغيره من الصحابة .

وقد طبع هذا المسند القديم مع شرحه للإمام عبدالله السالمي في أربعة مجلدات طبع اثنان منها في مصر والثالث بدمشق، ولقد سبرته ولمست أنّ الرجل كان يملك شيئاً من الانصاف، فلا بأس بالاشارة إلى بعض خصوصياته.

انطباعات عن الجامع الصحيح:

هذا الجامع: مسند الربيع بن حبيب الأزدي البصري رتبّه أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني وطبع في أربعة أجزاء تبلغ عدد صفحاته ٣٠٢ صفحة، طبع بدمشق سنة ١٣٨٨ هـ بتقديم عبدالله بن حميد السالمي وأشرف على طبعه محمود غيران.

أكثر المؤلف في هذا المسند الروايات عن ضمام بن السائب البصري العثماني عن جابر.

ثمّ عن أبي عبيدة (مسلم بن أبي كريمة).

ثمّ عن أبي نوح (صالح بن نوح).

ثمّ عن سائر مشايخه .

وأكثر الروايات في الكتاب موقوفات تنتهي إلى الصحابة إلا قليل منها مسند إلى النبي ومما يشهد على كون الرجل موضوعياً أنّه نقل الروايات عن علي بن أبي طالب وإليك رواياته عنه:

«الباب (٩) ما روى عن علي بن أبي طالب»:

«في التعظيم لله عز وجل ونفي التشبيه له سبحانه عن الأشباه»

قال الربيع: بلغني عن أبي مسعود، عن عثمان بن عبدالرحمن المدني، عن أبي إسحاق والشعبي قال: كان علي بن أبي طالب يقول في تمجيد الله عز وجل: الحي القائم الواحد الدائم فكأنك المقادير ورزاق البهائم، القائم بغير منصفة، الدائم بغير غاية، الخالق بغير كلفة، فأعزف العباد به الذي بالحدود لا يصفه ولا بما يوجد في الخلق يتوهمه، لاتدركه الأبصار وهو يدك الأبصار .

«الباب (١٠) خطبة علي»:

قال الربيع: وأخبرنا أبان قال: حدثنا يحيى بن إسماعيل، عن الحارث الهمداني قال: بلغ علياً أن قوماً من أهل عسكره شبهوا الله وأفرطوا، قال: فخطب علي الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس اتقوا هذا العارقة^(١) فقالوا: يا أمير المؤمنين وما العارقة؟ قال: الذين يشبهون الله بأنفسهم، فقالوا: وكيف يشبهون الله بأنفسهم؟ قال: يضاؤون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب إذ قالوا: خلق الله آدم على صورته، سبحانه وتعالى عما يقولون، سبحانه وتعالى عما يشركون، بل هو الله الواحد الذي ليس كمثل شيء، استخلص الوجدانية والجبروت، وأمضى المشيئة والارادة والقدرة والعلم بما هو كائن، لا منازع له في شيء، ولا كفؤ له يعادله، ولا ضد له ينازعه، ولا سمي له يشبهه، ولا مثل له يشاكله، ولا تبدو له الأمور، ولا تجري عليه الأحوال، ولا تنزل به الأحداث، وهو يجري الأحوال وينزل الأحداث على المخلوقين، لا يبلغ الواصفون كنه حقيقته ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته لأنه ليس له في

١. وفي نسخة الفارقة.

الخلق شبيه ولا له في الأشياء نظير، لاتدركه العلماء بألبابها ولا أهل التفكير بتدبيرها وتفكيرها إلا بالتحقيق إيماناً بالغيب لأنّه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين و هو الواحد الذي لا كفؤ له ﴿وَ أَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

«الباب (١١) قصة اليهودي مع علي بن أبي طالب»:

قال: وأخبرنا إسماعيل بن يحيى قال: حدثنا سفيان^(١) عن الضحّاك قال: جاء يهودي إلى علي بن أبي طالب فقال: يا علي متى كان ربنا؟ فقال علي إنّما يقال متى كان شيء لم يكن فكان، وهو كائن بلا كينونة، كائن بلا كيفية، ولم يزل بلا كيف، ليس له قبل وهو قبل القبل، بلا غاية ولا منتهى غاية تنتهي إليها غايته انقطعت الغايات عنده وهو غاية الغايات.

«الباب (١٢) قصة القصاب مع علي بن أبي طالب»:

أخبرنا أبو قبيصة، عن عبدالغفار الواسطي، عن عطاء: أنّ علي بن أبي طالب مرّ بقصاب يقول: لا والذي احتجب بسبع سموات لأزيدك شيئاً، قال: فضرب علي بيده على كتفه فقال: يا لحام إنّ الله لا يحتجب عن خلقه ولكن^(٢) حجب خلقه عنه، فقال: أكفر عن يميني؟ فقال: لا، لأنّك إنّما حلفت بغير الله^(٣).

١. خ سنان.

٢. خ ولكنه.

٣. قوله: إنّما حلفت بغير الله، هذا منه اعتبار بظاهر اللفظ انكاراً لما سمع وتغليظاً على القائل، وإلا فإنّ الحالف إنّما قصد الحلف بالله عز وجل وإن أخطأ في وصفه والله أعلم.

وقال علي بن أبي طالب لما وجّه رسله إلى معاوية بن أبي سفيان: صلّوا في رحالكم واجعلوا صلاتكم معهم سبحة فإنّ الله لا يتقبّل إلا من المتّقين.

قال: وحدثني موسى بن جبير، عن عبدالمجيد والفضيل بن عياض، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم بن عيينة، عن علي بن أبي طالب قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ﴾.

قال: غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب^(١).

٥- أبو يحيى عبدالله بن يحيى الكندي (طالب الحق):

كان عبدالله بن يحيى بن عمر الكندي من حضرموت، وكان قاضياً لإبراهيم بن جبلة عامل القاسم بن عمر على حضرموت، وهو عامل مروان على اليمن^(٢).

إنّ عبدالله بن يحيى الكندي أحد بني عمرو بن معاوية كان من حضرموت، وكتب إلى ابى عبيدة مسلم بن أبي كريمة وإلى غيرهم من الاباضية بالبصرة، يشاورهم بالخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل، وأشخص إليه ابو عبيدة، أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي في رجال من الاباضية فقدموا عليه حضرموت، فحثّوه على الخروج وأتوه بكتب أصحابه، فدعا أصحابه فبايعوه فقصدوا دار العمارة وعلى حضرموت، إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، فأخذوه فحبسوه يوماً ثم أطلقوه، فأتى صنعاء وأقام عبدالله بن يحيى بحضرموت، وكثر جمعهم، وسمّوه «طالب الحق»، ثم استولى على صنعاء فأخذ الضحّاك بن الزمل وإبراهيم بن

١. مسند ربيع بن حبيب: ص ٢١٧ - ٢١٩ وص ٢٠٥.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ١٧٦، نقلاً عن الحارثي: العقود الفضية: ١٨٧.

جبله بن مخرمة فحبسهما، وجمع الخزائن والأموال فأحرزها ثم أرسل إلى الضحّاك وإبراهيم فأرسلهما، وقال لهما: حبستكما خوفاً عليكما من العامة وليس عليكم مكروه فأقيما إن شئتما أو أشخصا، فخرجا.

فلما استولى عبدالله بن يحيى على بلاد اليمن خطب الناس وقال: إنّنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما. الإسلام ديننا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالاً ولا نبغي به بدلاً، ولا نشترى به ثمناً قليلاً، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله وإلى الله المشتكى وعليه المعول، من زنا فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر، فهو كافر، ومن شكّ في أنّه كافر، فهو كافر، ندعوكم إلى فرائض بينات، وآيات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أنّ الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعد والوعد، وإداء الفرائض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله. كلّ ذلك كان في سنة ثمان و عشرين ومائة (١).

ثمّ إنّّه استولى على مكة ثم المدينة وذلك في الوقت الذي بدأت ثورة بني العباس في خراسان، فكانت الدولة المركزية المروانية مشغولة باخماد الثورة، فانتهاز طالب الحق الفرصة وبسط سيطرته على الحجاز كلّّه، ولكن في سنة ثلاثين ومائة جهز مروان بن محمد جيشاً مع عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي فلقى الخوارج بوادي القرى فقتل بلج بن عقبة، وفرّ أبو حمزة في بقيّتهم إلى مكة، فلحقهم عبدالملك فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبو حمزة وأكثر من كان معه من الخوارج، وصار عبدالملك في جيش مروان من أهل الشام يريد

١. أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني ٢٢٤/٢٣ - ٢٥٦، وقد بسط الكلام في خبر عبدالله بن يحيى وخروجه ومقتله .

اليمن. وخرج عبدالله بن يحيى الكندي الخارجي من صنعاء فالتقوا بناحية الطائف وأرض جرس فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبدالله بن يحيى وأكثر من كان معه من الاباضية، ولحق بقيّة الخوارج ببلاد حضرموت.

يقول المسعودي: فأكثرها اباضية إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢ هـ ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج في هذا المذهب^(١).

أئمة الاباضية في القرون الأولى:

قد تعرّفت على الشخصيات البارزة للاباضية في القرن الأول وبداية القرن الثاني، غير أنّ أئمتهم وشخصياتهم لا تحصر فيما ذكرنا، ونحن نأتي بقائمة أسمائهم فمن أراد التوسّع فليرجع إلى تراجمهم في الكتب المعدّة، فقد ذكروا أنّ لهم وراء من ذكرنا ترجمتهم، أئمة بالأسماء التالية:

القرن الأوّل:

- ١ - جعفر بن السماك العبدي .
- ٢ - أبوسفیان قنبر.
- ٣ - الصحار العبدي.

القرن الثاني:

- ٤ - صمّام بن السائب .
- ٥ - أبو نوح صالح الدهان.

١. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢٤٢/٣ طبع دار الأندلس. الطبري: التاريخ ٤١/٦ و ٣٩٤/٧ - ٤٠٠. وابن الأثير: الكامل ٣٥١/٥ دار صادر.

- ٦ - الجلندي بن مسعود العماني .
- ٧ - أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري .
- ٨ - هلال بن عطية الخراساني .
- ٩ - أبو سنيان محبوب بن الرحيل .
- ١٠ - أبو صفرة عبد الملك بن صفرة .
- ١١ - عبد الرحمن بن رستم .
- ١٢ - محمد بن يأس .
- ١٣ - أبو الحسن الأيدلاتي .

القرن الثالث:

- ١٤ - أفلح بن عبد الوهاب .
- ١٥ - عبد الخالق القزاني .
- ١٦ - محكم الهواري .
- ١٧ - المهتا بن جيفر .
- ١٨ - موسى بن علي .
- ١٩ - أبو عيسى الخراساني .
- ٢٠ - محمد بن محبوب .
- ٢١ - محمد بن عباد .
- ٢٢ - الصلت بن مالك .
- ٢٣ - أبو اليقظان بن أفلح .
- ٢٤ - أبو منصور الياس .
- ٢٥ - عمروص بن فهد .

٢٦ - هود بن محكم.

القرن الرابع:

٢٧ - أبو الخضر يعلى بن أيوب.

٢٨ - أبو القاسم يزيد بن مخلد.

٢٩ - أبو هارون موسى بن هارون^(١).

إنَّ الكاتب المعاصر علي يحيى معمر، ترجم جابر بن زيد و أبا عبيدة مسلم في الجزء الأول من كتابه «الاباضية في موكب التاريخ» تحت عنوان الاباضية في قيادة الأمة ١٤٥ - ١٥٥، ثم خصَّ الجزء الثاني بترجمة أئمتهم وذكر كثيراً منهم القاطنين في «ليبيا» بعد البحث عن «دخول المذهب الاباضي الى ليبيا» ومن اراد الوقوف فليرجع الى هذا الجزء ٢١ - ١٩٧ .

دول الاباضية:

قد قام باسم الاباضية عدد من الدول في أربعة مواضع من البلاد الإسلامية:

١ - دولة في عمان استقلت عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفاح سنة ١٣٢، ولا تزال إلى اليوم.

٢ - دولة في ليبيا سنة ١٤٠ ولم تعمّر طويلاً فقد انتهت بعد نحو ثلاث سنوات.

٣ - دولة قامت في الجزائر سنة ١٦٠، وقد بقيت إلى حوالي ١٩٠، ثم قضت عليها الدولة العبيدية.

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية: ١ / ٢٧ - ٢٨ .

(٣٣٩)

٤ - دولة قامت في الأندلس ولا سيّما في جزيرتي «ميورقة» و «مينورقة»، و«ليس لدينا من أخبارهم الكثير وقد انتهت يوم انتهت الأندلس وأطفأ التعصب الغربي شعلة الإسلام في تلك الديار»^(١).

هذه الاباضية، وهذا ماضيهم وحاضرهم، وقد قدمنا إليك صورة موجزة من تاريخهم، ونشوئهم وحروبهم وشخصياتهم وعقائدهم، وقد جرّدنا أنفسنا عن كل نزعة نفسانية تعرقلنا عن الوصول إلى الحق، والله وراء القصد.

وقد حان لنا انجاز الوعد الذي سبق مثا، وهو نشر ما كتبه «عبدالله بن اباض» إلى عبدالمك بن مروان، وإليك نصّه:

رسالة عبدالله بن أباض إلى عبدالمك بن مروان

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله بن أباض إلى عبدالمك بن مروان: سلام عليك. فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو و أصويك بتقوى الله فإنّ العاقبة للتقوى والمرد إلى الله، واعلم أنّه إنّما يتقبّل الله من المتّقين .

أمّا بعد، جاءني كتابك مع سنان بن عاصم، وإنّك كتبت إليّ أن أكتب إليك بكتاب، فكبت به إليك، فمنه ما تعرف ومنه ماتنكره، زعمت أنّما عرفت منه ما ذكرت به من كتاب الله وحضضت عليه من طاعة الله، واتباع أمره، وسنة نبيّه، وأمّا الذي أنكرت منه فهو عندالله غير منكر. وأمّا ما ذكرت من عثمان والذي عرضت به من شأن الأئمة وأنّ الله ليس ينكر عليه أحد شهادته في كتابه بما أنزله على رسوله أنّه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الاسلامية ٩٢/١ - ٩٣.

والكافرون والفاسيقون^(١). واني لم أكن أذكر لك شيئاً من شأن عثمان و الأئمة إلا والله يعلمه أنه الحق، وسأنزع لك من ذلك البيّنة من كتاب الله الذي أنزله على رسوله، وسأكتب إليك في الذي كتبت به، وأخبرك من خبر عثمان والذي طعنّا عليه فيه، وأبين شأنه والذي أتى عثمان.

لقد كان كما ذكرت من قدم في الإسلام وعمل به ولكن الله لم يجر العباد من الفتنة والردة عن الإسلام، وإن الله بعث محمداً بالحق ﷺ وأنزل الكتاب فيه بيّنات كل شيء يحكم بين الناس فيما اختلفوا ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢). فأحلّ الله في كتابه حلالاً وحرم حراماً وفرض فيه حكماً وفصل فيه قضاءه وبين حدوده فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾^(٣). وقال: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤). وقسم ربنا قسماً وليس لعباده فيه الخيرة، ثم أمر نبيه باتّباع كتابه، فقال للنبي ﷺ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٥). وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٦). فعمل محمد ﷺ بأمر ربه ومعه عثمان ومن شاء الله من أصحابه لا يرون رسول الله يتعدى من قبله شيئاً، ولا يبدل فريضة، ولا يستحل شيئاً حرمه الله، ولا يحرم شيئاً أحله الله، ولا يحكم بين الناس إلا بما

١. قال الله تعالى في سورة المائدة ٤٤ - ٤٥ و ٤٧. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

٢. الأعراف: ٥٢، ويوسف ١١١.

٣. البقرة: ١٨٧.

٤. البقرة: ٢٢٩.

٥. الأحزاب: ٢.

٦. القيامة: ١٨ - ١٩.

أنزل الله، فكان يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١). فسر عليه السلام ما شاء الله تابعاً لما أمر الله، يتبع ما جاء من الله، والمؤمنون معه يعلمهم وينظرون إلى عمله حتى توفاه الله عليه الصلاة والسلام وهم عنه راضون، فنسأل الله سبيله وعملاً بسنته. ثم أورث الله عباده الكتاب الذي جاء به محمد وهده ولا يهتدي من اهتدى من الناس إلا باتباعه ولا يضل من ضل من الناس إلا بتركه.

ثم قام من بعده أبو بكر على الناس فأخذ بكتاب الله وسنة نبيه ولم يفارقه أحد من المسلمين في حكم حكمه، ولا قسم قسمه حتى فارق الدنيا وأهل الإسلام عنه راضون وله مجامعون.

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب قوياً في الأمر، شديداً على أهل النفاق، يهتدي بمن كان قبله من المؤمنين، يحكم بكتاب الله، وابتلاه الله بفتوح من الدنيا ما لم يتل به صاحبه، وفارق الدنيا و الدين ظاهر وكلمة الإسلام جامعة وشهادتهم قائمة، والمؤمنون شهداء الله في الأرض. وكذلك قال الله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢). ثم أشار المؤمنون فولوا عثمان، فعمل ماشاء الله بما يعرف أهل الإسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض ما شاء الله. ثم أحدث أموراً لم يعمل به صاحبه قبله، وعهد الناس يومئذ قريب بنبيهم حديث. فلما رأى المؤمنون ما أحدث عثمان أتوه فكلموه وذكروه بكتاب الله وسنة من كان قبله من المؤمنين.

وقال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

١. الأنعام: ١٥، ويونس: ١٥.

٢. البقرة: ١٤٣.

مُنْتَقِمُونَ^(١). فسقّه أن ذكرّوه بآيات الله وأخذهم بالجبروت، وضرب منهم من شاء الله وسجن ونفاهم في أطراف الأرض من شاء الله منهم نفيّاً أن ذكرّوه بكتاب الله وسنة نبيّه ومن كان قبله من المؤمنين، وقال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾^(٢).

وإني أبين لك يا عبدالملك بن مروان الذي أنكر المؤمنون على عثمان وفارقناه عليه فيما استحلّ من المعاصي عسى أن تكون جاهلاً عنه غافلاً وأنت على دينه وهواه!! لا يحملنك يا عبدالملك هوى عثمان أن تجحد بآيات الله وتكذب بها!!! فإنّ عثمان لا يغني عنك من الله شيئاً، فالله، الله يا عبدالملك بن مروان قبل التناوش من مكان بعيد، وقبل أن يكون لزاماً، وأجل مسمى!! وإنه كان ممّا طعن المؤمنون عليه وفارقوه وفارقناه فيه، فإنّ الله قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣). فكان عثمان أول من منع مساجد الله أن يقضى فيها بكتاب الله. وممّا نقمناه عليه وفارقناه عليه أن الله قال لمحمد ﷺ ﴿لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

فكان أول هذه الأمة طردهم ونفاهم، فكان ممّن نفاهم من أهل المدينة

١. السجدة: ٢٢.

٢. الكهف: ٥٧.

٣. البقرة: ١١٤.

٤. الأنعام: ٥٢.

٥. في نسخة «خيار».

أبوذرّ الغفاري، ومسلم الجهنّي، ونافع بن الحطام^(١)، ونفى من أهل الكوفة كعب بن أبي الحلمة، وأبي الرحل الوجد، و جندب بن زهير^(٢)، وجندب هو الذي قتل الساحر الذي كان يلعب به الوليد بن عقبة^(٣)، ونفى عمرو بن زرارة، وزيد بن صوحان^(٤)، وأسود بن ذريح، ويزيد بن قيس الهمداني، وكردوس بن الحضرمي، في ناس كثير من أهل الكوفة.

ونفى من أهل البصرة عامر بن عبدالله القشري، ومذعور العبدي ولا أستطيع لك عددهم من المؤمنين.

وممّا نقمنا عليه أنّه أمر أخاه الوليد بن عقبة على المؤمنين، وكان يلعب بالسحرة ويصلي بالناس سكران، فاسق في دين الله، أمره من أجل قرابته، على المؤمنين المهاجرين و الأنصار، وإنمّا عهدهم حديث بعهدالله ورسوله والمؤمنين.

وممّا نقمنا عليه إمارته قرابته على عبادالله وجعل المال دولة بين الأغنياء، وقال الله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾^(٥). وبدل كلام الله وبدل القول واتبع الهوى.

١. ورد الاسم أيضاً: «نافع بن الحطامي».

٢. جندب بن زهير الأزدي: ذكر الطبري أنّه قتل في صفين وهو يحارب مع علي بن أبي طالب.

٣. الوليد بن عقبة، أخ عثمان بن عفان لأمه، وروي أنّه وهو أمير على الكوفة، صلى بالناس الصبح وهو سكران، ثم قال لهم: إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدكم، فلمّا بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحدّ عليه، بل أخر ذلك. (انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٦).

٤. زيد بن صوحان: قتل شهيداً يوم الجمل.

٥. الحشر: ٧.

ومما نقمنا عليه أنه انطلق إلى الأرض ليحميها لنفسه ولأهله^(١) حمى حتى منع قطر السماء والرزق الذي أنزله الله لعباده، لأنفسهم وأنعامهم. وقد قال الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَ مَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

ومما نقمنا عليه أنه أول من تعدى في الصدقات وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٣). وقال الله: ﴿وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَأُمُومِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾^(٤).

وأحدث عثمان منه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - ، وانتقص أصحاب بدر ألفاً من عطائهم، وكنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وقال الله: ﴿وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ

١. يقال حمى فلان الأرض يحميها حمى حتى لا يقرب. والحمى موضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرمى. وقال الإمام الشافعي في تفسير قوله ﷺ «لا حمى إلا لله ولرسوله»: كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل ببلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره، فلم يرمعه معه أحد، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله، فنهى النبي ﷺ أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون. (انظر: دكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ١ هامش صفحة ٢٧٣).

٢. يونس: ٥٩ - ٦٠.

٣. التوبة: ٦٠.

٤. الأحزاب: ٣٦.

وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ^(١).

وممّا نقمنا عليه أنّه كان يضمّ كلّ ضالّة إلى إبله ولا يردها ولا يعرفها، وكان يأخذ من الإبل والغنم ممّن وجد ما عنده من الناس وإن كانوا قد أسلموا عليها^(٢)، وكان لهم في حكم الله أنّ لهم ما أسلموا عليه. وقال الله: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٣). وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٤).

وممّا نقمنا عليه أنّه أخذ خمس الله لنفسه ويعطيها أقاربه ويجعل منهم عمّالاً على أصحابه وكان ذلك تبديلاً لفرائض الله، وفرض الله الخمس لله ولرسوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

وممّا نقمنا عليه أنّه منع أهل البحرين وأهل عُمان أن يبيعوا شيئاً من طعامهم حتى يباع طعام الإمارة، وكان ذلك تحريماً لما أحلّ الله: ﴿وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٦). فلو أردنا أن نخبر بكثير من مظالم عثمان لم نحصها إلا ما شاء الله، وكل ما عدت عليكم من عمل عثمان يُكفّر الرجل أن يعمل ببعض هذا.

١. التوبة: ٣٤ - ٣٥.

٢. أسلموا عليها: تصالحوا عليها.

٣. هود: ٨٥.

٤. النساء: ٢٩ - ٣٠.

٥. الأنفال: ٤١.

٦. البقرة: ٢٧٥.

وكان من عمل عثمان أنه يحكم بغير ما أنزل الله وخالف سنة نبي الله والخليفتين الصالحين أبي بكر وعمر وقد قال الله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنٌ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾^(٤)، وقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(٦).

وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، والفاسقون^(٧) والكافرون^(٨) وقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وقال: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنٌ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾. وقال: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾. وقال: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٩). فكل هذه الآيات تشهد على عثمان، وإنما شهدنا بما شهدت هذه الآيات: ﴿اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ

١. النساء: ١١٥.

٢. المائدة: ٤٥.

٣. هود: ١٨.

٤. النساء: ٥٢.

٥. البقرة: ١٢٤.

٦. هود: ١١٣.

٧. وفي سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آية ٤٧.

٨. وفي سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ آية ٤٤.

٩. يونس: ٣٣.

شَهِيداً^(١).وقال: ﴿فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^(٢).

فلما رأى المؤمنون الذي نزل به عثمان من معصية الله، والمؤمنون شهداء الله ناظرون أعمال الناس، وكذلك قال الله: ﴿اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتَرْدُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

و ترك خصومة الخصمين في الحق والباطل ودفع ما وعد الله من الفتن، وقال الله: ﴿الْمَ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ * وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^(٤).

فعلم المؤمنون أنّ طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليس، فساروا إلى عثمان من أطراف الأرض، واجتمعوا في ملاء من المهاجرين والأنصار وعامة أزواج النبي - عليه الصلاة والسلام - فأتوه فذكروه الله وأخبروه الذي أتى من معاصي الله، فزعم أنّه يعرف الذي يقولون، وأنّه يتوب إلى الله منه و يراجع الحق فيقبلوا منه الذي اتقاهم به من اعتراف الذنب والتوبة والرجوع إلى أمر الله، فجامعوه وقبلوا منه، وكان حقاً على أهل الإسلام إذا اتقوا بالحق أن يقبلوه ويجامعوه ما استقام على الحق. فلما تفرّق الناس على ما اتقاهم به من الحق نكث عن الذي عاهدهم عليه وعاد فيما تاب منه، فكتب في أدبارهم أن تقطع أيدهم و أرجلهم من خلاف. فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه على العهد الذي عاهدهم عليه رجعوا فقتلوه بحكم الله، وقال الله: ﴿وَ إِنْ نَكُثُوا إِيمَانَهُمْ

١. النساء: ١٦٦.

٢. الذاريات: ٢٣.

٣. التوبة: ١٠٥.

٤. العنكبوت: ١-٣.

مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ^(١). فجامع أهل الاسلام ما شاء الله، وعمل بالحق، وقد يعمل الإنسان بالاسلام زماناً ثم يرتد عنه. وقال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾^(٢).

فلما استحلّ معصية الله وترك سنّة من كان قبله من المؤمنين، علم المؤمنون أنّ الجهاد في سبيل الله أولى، وأنّ الطاعة في مجاهدة عثمان على أحكامه. فهذا من خبر عثمان والذي فارقه فيه، ونطعن عليه اليوم، وطعن عليه المؤمنون قبلنا، وذكرت أنّه كان مع رسول الله وختنه^(٣)، فقد كان عليّ بن أبي طالب أقرب إلى رسول الله وأحبّ إليه منه، وكان ختنه ومن أهل الإسلام. وأنت تشهد عليه بذلك وأنا بعد على ذلك، فكيف تكون قرابته من محمد ﷺ نجاةً إذا ترك الحق وضلّ كفراً^(٤).

واعلم، إنّما علامة كفر هذه الأمة كفرها بالحكم بغير ما أنزل الله، ذلك بأنّ الله قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٥). فلا أصدق من الله قبيلاً، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾^(٦).

١. التوبة: ١٢.

٢. محمد: ٢٥.

٣. الختن: زوج الابنة. الجمع أختان.

٤. قال سبحانه لنبيّه: ﴿لَيْسَ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الزمر / ٦٥، ولكن الكلام في وقوع الشرط. إنّ الإمام لم يشرك، ولم يضل أبداً. إنّما ترك الحق أولئك الذين ألجأوه إلى إجابة دعوة الشاميين، وحذّروه من مواصلة الحرب وقد كان الامام على أعتاب النصر، وقد بلغوا في اللجاج والعناد إلى حدّ لم يمهلوا القائد لقواته - الأشر - عدوة فرس أو فواق ناقة، فلاحظ.

٥. المائدة: ٤٤.

٦. الجاثية: ٦.

فلا يغرّتك يا عبدالملك بن مروان، عثمان عن نفسك، ولا تسند دينك إلى الرجال يتمنون ويريدون ويستدرجون من حيث لا يعلمون، فإنّ أملك الأعمال بخواتمها، وكتاب الله جديد ينطق بالحق أجازنا الله باتباعه أن نضل أو نبغي^(١) فاعتصم بحبل الله يا عبدالملك واعتصم بالله، وإنّه من يعتصم بالله يهده صراطاً مستقيماً. وهو حبل الله الذي أمر المؤمنين أن يعتصموا به ولا يتفرّقوا. وليس حبل الله الرجال من أيّهم حسنٌ يذهبون ويطعنون، فأذكرك الله لما أن تدبّرت القرآن فإنّه حق. وقال الله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢). فكّن تابعا لما جاء من الله تهتدي، وبه تخاصم من خاصمك من الناس، وإليه تدعو وبه تحتج، فإنّه من يكن القرآن حجّته يوم القيامة به يخاصم من خاصمه ويفلح في الدنيا والآخرة. فإنّ الناس فقد اختصموا ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾^(٣) فتعمل لما بعد الموت ولا يغرّتك بالله الغرور.

وأما قولك في شأن معاوية بن أبي سفيان أنّ الله قام معه وعجل نصره وأفلح حجّه وأظهره على عدوّه بطلب دم عثمان، فإن يكن يعتبر الدين من قبل الدولة أن يظهر الناس بعضهم على بعض في الدنيا فإنّا لاعتبر الدين بالدولة، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعملون، وقد ظهر الكفار على المسلمين ليبتلي المسلمين بذلك ويعلى الكافرين^(٤). وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^(٥).

١. وفي نسخة: «أن نبغي أو نضل».

٢. محمّد: ٢٤.

٣. الزمر: ٣١.

٤. وفي نسخة «ويملا الكافرين».

٥. آل عمران ١٤٠ - ١٤١.

فإن كان الدين إذا ظهر الناس بعضهم على بعض فقد سمعت الذي أصاب المشركون من يوم أُحُد، وقد ظهر الذين قتلوا ابن عفان عليه وعلى شيعته يوم الدار^(١) وظهر أيضاً عليّ، على أهل البصرة وهم شيعة عثمان^(٢)، وظهر المختار على ابن زياد^(٣)، وأصحابه وهم شيعتهم، وظهر معصب الخبيث على المختار^(٤) وظهر ابن السجف على أخنس بن دلجة وأصحابه، وظهر أهل الشام على أهل المدينة^(٥)، وظهر ابن الزبير على أهل الشام بمكة يوم استفتحوا منها ما حرّم الله عليكم وهم شيعتكم.

فإن كان هؤلاء على الدين فلا يعتبر الدين من قبل الدولة، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض ويعطي الله رجالاً ملكاً في الدنيا، فقد أعطى فرعون ملكاً وظهر في الأرض، وقد أعطى الذي حاج إبراهيم في ربه، وقد أعطى فرعون ما سمعت.

ثم إنّا اشتري معاوية^(٦) الإمارة من الحسن بن علي، ثم لم يف له بالذي

١. اقتحم الثوار على عثمان بن عفان داره، بعد أن نشب القتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه وذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ وقتلوه وعرف ذلك اليوم بـ«يوم الدار».

٢. يشير إلى انتصار الإمام علي بن أبي طالب في وقعة الجمل، التي دارت بينه وبين عائشة وطلحة والزبير وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ.

٣. أرسل المختار بن أبي عبيدة الثقفي، جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد عامل الأمويين. وسار إبراهيم بن الأشتر حين لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازر (نهر بين أربيل والموصل ويصب في دجلة) فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أهل الشام وحمل رأسه إلى المختار.

٤. هزم المختار وقتل في الكوفة سنة ٦٧ هـ في الحرب التي دارت بينه وبين مصعب بن الزبير.

٥. حاضر مسلم بن عقبة المري، المدينة المنورة، من ناحية الحرة وفتحها وأباحها، وذلك في أثناء حكم يزيد بن معاوية.

٦. تعبير خاطئ والصحيح: تصالح الإمام مع معاوية بعد ما أتمّ الحجة على الأمة.

عاهده عليه، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾.

فلا تسأل عن معاوية ولا عن عمله ولا صنيعه، غير أننا قد أدركنا ورأينا عمله وسيرته في الناس ولا نعلم من الناس أحداً^(٢) أترك للقسمة التي قسمها الله، ولا لحكم حكمه الله، ولا أسفك لدم حرام منه، فلو لم يصب من الدماء إلا دم ابن سمية^(٣) لكان في ذلك ما يكفره. ثم استخلف ابنه يزيد فاسقاً من الناس لعيناً يشرب الخمر المكفر فيكفيه من السوء، وكان يتبع هواه بغير هدى من الله وقال الله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤). فلم يخف عمل معاوية ويزيد على كل ذي عقل من الناس، فاتق الله يا عبدالملك ولا تخادع من نفسك في معاوية!! فقد بلغنا أن أهل البيت يطعنون على معاوية ويزيد وعملهما وما رأى من خبر معاوية من بعدهما، فالذي طعنا عليهما وعليه وفارقناه عليه، فإن منهم فتنة كمن يكون يتولى عثمان ومن بعده. فإننا نشهد الله والملائكة أننا منهم

١. النحل: ٩١-٩٢.

٢. كتب في المخطوطة: «شيئاً لأحد».

٣. يشير إلى ما عمله معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٥ هـ حين رد اعتبار زياد بن سمية في نسبه فأحب أن يجعله أخاه وأتى بشهود شهدوا بأنه ابن أبي سفيان، وهذا ما يعبر عنه بالاستلحاق. وأصبح زياد يعرف باسم زياد بن أبي سفيان بعد أن كان يعرف باسم زياد بن سمية أو زياد بن أبيه. وقد دفع معاوية إلى ذلك الاعتبارات السياسية، ومنذ أن اعترف معاوية بن أبي سفيان بزياد أخاً له وابناً غير شرعي لأبيه، تفانى زياد في خدمة البيت الأموي.

٤. القصص: ٥٠.

براء ولهم أعداء، بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا، ونبعث عليه إذا بعثنا، نحاسب بذلك عند الله.

وكتبت إليّ تحذّرني الغلو في الدين، وإنّي أعوذ بالله من الغلو في الدين، وسأبين لك ما الغلو في الدين إذا جهلته، فإنّه ما كان يقال على الله غير الحق ويعمل بغير كتابه الذي بين لنا وسنة نبيه الذي بين لنا، اتباعك قوماً قد ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل. فذلك عثمان والأئمة من بعدهم وأنت على طاعتهم وتجامعهم على معصية الله، والله يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(١). فهذا سبيل أهل الغلو في الدين فليس من دعا إلى الله وإلى كتابه ورضى بحكمه، وغضب لله حين عصي أمره، وأخذ بحكمه حين ضيع وتركت سنة نبيه.

وكتبت إليّ تعرض على الخوارج، تزعم أنّهم يغفلون في دينهم ويفارقون أهل الإسلام، وتزعم أنّهم يتبعون غير سبيل المؤمنين، وإنّني أبين لك سبيلهم، إنّهم أصحاب عثمان، والذي أنكروا عليه ما أحدث من تغيير السنة، فارقوه حين أحدث وترك حكم الله، وفارقوه حين عصى ربّه، وهم أصحاب عليّ بن أبي طالب حين حكم عمرو بن العاص^(٢) وترك حكم الله، فأنكروه عليه وفارقوه فيه وأبوا أن يقرّوا لحكم البشر دون حكم كتاب الله، فهم لمن بعدهم أشدّ عداوة وأشدّ مفارقة. كانوا يتولّون في دينهم وستّتهم رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر بن الخطاب، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون بستّتهم على ذلك، كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يفارقون. وقد علم من عرفهم من الناس ورأى عملهم أنّهم كانوا أحسن الناس

١. النساء: ١٧١.

٢. لم يحكم عمرو بن العاص، وإنّما حكم القرآن كما تشهد على ذلك وثيقة التحكيم. فلاحظ.

عملاً وأشدّ قتالاً في سبيل الله. وقال الله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١).

فهذا خبر الخوارج، نشهد الله والملائكة أننا لمن عاداهم أعداء وأنا لمن والاهم أولياء، بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، على ذلك نعيش ماعشنا، ونموت على ذلك إذا متنا، غير أننا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنهم ارتدّوا عنه وكفروا بعد إيمانهم^(٢) فنبراً إلى الله منهم.

أما بعد فإنك كتبت إليّ أن أكتب إليك بجواب كتابك، وأجتهد في النصيحة، وإني أبين لك إن كنت تعلم و أفضل ما كتبت إليك به، وذكرتني بالله أن أبين لك فإنني قد بينت لك بجهد نفسي، وأخبرتكم خبر الأمة، وكان حقاً عليّ أن أنصح لك وأبين لك ما قد علمت. إن الله يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ أُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(٣). فإن الله لم يتخذني عبداً وأن أكفر بربي، ولا أخادع الناس بشيء ليس في نفسي، وأخالف إلى ما أنهى عنه، فأمرني علانية غير سرّ، أدعو إلى كتاب الله وليحلّوا حلاله ويحرّموا حرامه ويرضوا بحكمه ويتوبوا إلى ربّهم ويراجعوا كتاب الله، ولئن أدعوكم إلى كتاب الله ليحكم بيني وبينكم في الذي اختلفوا فيه، ونحرّم ما حرّم الله، ونحكم بما حكم الله، ونبرأ ممّن برىء الله منه ورسوله، ونتولّى من يتولّاه الله، ونطيع من أحلّ لنا طاعة في كتابه، ونعصي

١. التوبة: ١٢٣.

٢. يشير هنا إلى تبرئ الإباضية من نافع بن الأزرق والأزارقة وذلك لغلوهم وتطرّفهم في الدين.

٣. البقرة: ١٥٩ - ١٦٠.

من أمر الله بمعصيته. أن نطيعه فهذا الذي أدركنا عليه نبينا ﷺ. وإن هذه الأمة لم تحرّم حراماً ولم تسفك دماءً إلا حين تركوا كتاب ربهم الذي أمرهم أن يعتصموا به، ويأمنوا عليه، وأنهم لا يزالون مفترقين مختلفين حتى يراجعوا كتاب الله وسنة نبيه، وينتصحو كتاب الله على أنفسهم، ويحكموه إلى ما اختلفوا فيه. فإن الله يقول: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١). وإن هذا هو السبيل الواضح لا يشبه به شيء من السبل، وهو الذي هدى الله به من كان قبلنا، محمد ﷺ والخليفين الصالحين من بعده، فلا يضل من اتبعه ولا يهتدي من تركه، وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢). فاحذر أن تفرق بك السبل عن سبيله، ويزين لك الضلالة باتِّباعك هواك فيما جمعت إليه الرجال، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، إنما هي الأهواء والدين. إنما يتبع الناس في الدنيا والآخرة إمامين، إمام هدى، وإمام ضلالة. أما إمام الهدى فهو يحكم بما أنزل الله ويقسم بقسمه ويتبع كتاب الله، وهم الذين قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٣) وهؤلاء أولياء المؤمنين الذين أمر الله بطاعتهم، ونهى عن معصيتهم. وأما إمام الضلالة فهو الذي يحكم بغير ما أنزل الله ويقسم بغير ما قسم الله، ويتبع هواه بغير سنة من الله فذلك كفر كما سمى الله، ونهى عن طاعتهم وأمر بجهادهم، وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(٤).

١. الشورى: ١٠.

٢. الأنعام: ١٥٣.

٣. السجدة: ٢٤.

٤. الفرقان: ٥٢.

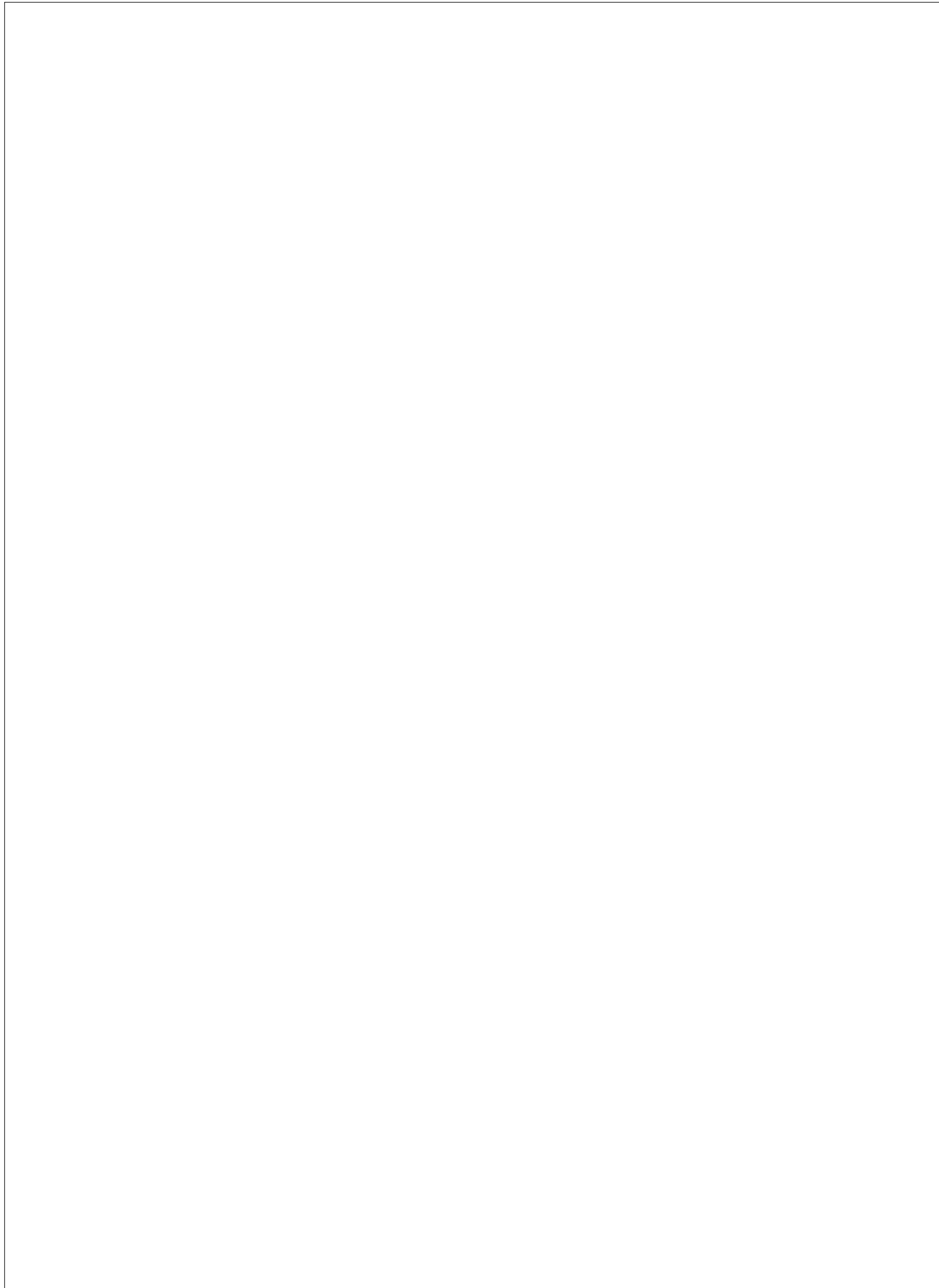
فإنّه حقّ أنزله بالحق وينطق به، وليس بعد الحق إلّا الضلال فأنتى تصرفون. ولا يضربن الذكر عنك صفحاً، ولا تشكّن في كتاب الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، فإنّه من لم ينفعه كتاب الله، لم ينفعه غيره.

كتبت إليّ أن أكتب إليك بمرجوع كتابك، فإنّي قد كتبت إليك، وأنا أذكرك بالله العظيم إنّ استطعت بالله لما قرأت كتابي ثم تدبّر فيه وأنت فارغ ثم تدبّره، فقد كتبت إليك بجواب كتابك وبيّنت لك ما علمت ونصحت لك. فإنّي أذكرك بالله العظيم لما قرأت كتابي وتدبّرتّه، واكتب إليّ إن استطعت بجواب كتابي إذا كتبت إليك، إنّما أتنازع فيه أنا وأنت، انزع عليه بيّنة من كتاب الله أصدّق فيه قولك، فلا تعرض لي بالدنيا فإنّه لا رغبة لي في الدنيا، وليست من حاجتي، ولكن لتكن نصحتك لي في الدين، ولما بعد الموت، فإنّ ذلك أفضل النصيحة، فإنّ الله قادر أن يجمع بيننا وبينك على الطاعة، فإنّه لا خير لمن لم يكن على طاعة الله. وبالله التوفيق وفيه الرضى، والسلام عليه، والحمد لله، وصلى الله على نبيّه محمّد وآله وسلّم تسليماً^(١).

١. السير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان ٣٢٥/٢ - ٣٤٥ تحقيق الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، ط وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان، والجواهر المتفتاة ١٥٦ - ١٦٢، وإزالة الوعناء عن اتباع أبي الشعثاء ٨٦ - ١٠١. (٣٥٦)

الفصل الثاني عشر

في عقائد فرق الخوارج ومخططاتهم في الحياة



ظهرت الخوارج في الساحة الإسلامية بصورة تيار سياسي لا يتبنون إلا تطبيق الحكم الشرعي الوارد في الكتاب والسنة في أمر البغاة (الشاميين) وكان الجميع يحملون شعار «لا حكم إلا لله» يريدون بذلك أن حكم الله في حق البغاة هو القتال، لاتحكيم الرجال، ولم يكن لهم يومذاك منهج كلامي، ولما قضى عليّ السلام نحبّه، ركّز الخوارج جهدهم على مكافحة الحكّام الظالمين ك معاوية وآله، ومروان بن الحكم وأولاده، وقد حفظ التاريخ انتفاضاتهم في وجه خلفاء بني أمية وعمّالهم كما تعرّفت على لفيف منها.

فلا عجب عندئذ إذا رأينا أن خارجياً يقتفي أصحاب الحديث في العقائد، أو يتبنّى عقيدة المعتزلة في غير مورد من الأصول وما هذا إلا لأنّ القوم في القرنين الأولين كانوا مقاتلين، قبل أن يكونوا أصحاب فكر، وكانوا ثوّاراً في وجه الحكومات، قبل أن يكونوا فرقة دينية تتبنّى أصولاً عقائدية، والامعان في المبدأ الذي اتّخذوه كحجر زاوية (تخطئة التحكيم) أو الأسس التي تبوّها في العهد الاموي، أي بعد استيلاء معاوية على الحكم، إلى عهد عبدالملك بن مروان (ت ٧٥) إلى آخر الدولة المروانية (١٣٢ هـ) يعرب عن أنّ

القوم لم يكن لهم يوم ذاك فكر كلامي ولا فقهني، وأنّ الغاية من تبني الأسس المذكورة في هذا الفصل (تكفير مرتكبي الكبيرة وحرمة مناكرتهم ولزوم الخروج على الطغاة و...) إنّما هو تمهيد لأساليب توصلهم إلى القضاء على الخلفاء وحكام الجور، والاستيلاء على منصّة الحكم. ولذلك لم يورثوا سوى الشغب والثورة والأخذ بزمام الحكم.

نعم الفرقة الباقية منهم - كالأباضية - لما استشعروا أنّه لا يصحّ بفريق سياسي أن يعيش بلا مبدأ كلامي أو فقهني، تداولوا بعض الموضوعات الكلامية والفقهية بالبحث والتمحيص. ويبدو من خلال الرجوع إلى آثار تلك الفرقة أنّ أكثر ما يتبنونه في مجال العقائد إنّما هو نتاج متأخر لم يفكر به مؤسس الفرقة كعبدالله بن اباض ولا التابعي الآخر كجابر بن زيد، وأكثر ما ورثوا من الأوّل شجاعته الروحية، وصراحته في بيان الحقائق، ومن الثاني أحاديث موقوفة، نقلها جابر عن عدّة من الصحابة، وأين هذا من منهج كلامي منسجم، وفقه واسع يتكفل بيان تكاليف العباد في الحياة في عامّة المجالات. وهذا يؤيد أنّ الخوارج - ظهرت يوم ظهرت - كفرقة سياسية ثم آلت إلى فرقة دينية.

ونحن نمر في هذا الفصل على عقائدهم وأسسهم التي تعرّفت على سماتها والغايات المتوخّاة منها.

١ - حكم التحكيم في حرب صفين

إنّ تخطئة التحكيم هو الحجر الأساس لقاطبة الخوارج، وقد اتخذوه شعاراً أيام حياة الامام علي عليه السلام وبعده، والخوارج كلّهم، المتطرّف منهم و غيره، أصفقوا على أنّ قبول التحكيم في حرب صفين كان أمراً مخالفاً للكتاب، وما كان لعلي عليه السلام أن يُحكّم الرجال في موضوع ورد فيه حكم إلهي في مصدرين رئيسيين - أعني الكتاب والسنة - ، وبما أنّا ألمحنا إلى الموضوع وأوضحنا حاله في الفصل الثالث تحت عنوان «تحليل لكارثة التحكيم» فنحيل القارئ الكريم إلى ذاك الفصل وقد ذكرنا هناك وجوهاً مختلفة يحتملها ذلك الشعار، إلّا أنّ الإمعان في كتب القوم يعرب عن أنّهم لا يهدفون منه إلّا احد الوجهين:

الف - تحكيم الرجال فيما نزل فيه حكم الله، كفر^(١).

ب - لا إمرة إلا لله تبارك وتعالى.

أمّا الأوّل فيشترك فيه جميع فرقهم، وأمّا الثاني فإنّما يعود إلى بعض فرقهم كما سنذكر، وبما أنّه اعتمد على الوجه الأوّل جميع مفكّريهم ومشايخهم، وبالغ القوم في توضيحه وتنقيحه وتنبيته، فنأتى في المقام ببعض نصوصهم ثمّ نقوم بتحليله حتى يتبيّن الحق بأجلّ مظاهره.

التحكيم والتدخل في موضوع له حكم سماوي:

إنّ للكاتب المعاصر: علي يحيى معمر، مؤلف كتاب «الاباضية في موكب التاريخ» بياناً مفصلاً حول الموضوع وقد بذل جهده في اثبات أنّ التحكيم كان تدخلاً في موضوع فيه حكم الله، وهو مواصلة الحرب والقتال ومكافحة أهل البغي، وأنّ إيقاف القتال وإدلاء الأمر إلى الحكمين كان مخالفاً للتشريع السماوي، يقول:

«بايع المسلمون علي بن أبي طالب أميراً للمؤمنين، وكان أول من بايع طلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، ولكن ماكادت تتم البيعة، حتى كان طلحة والزبير يحملان لواء الثورة مع جماعة من كبار الصحابة، وقد استظهروا بأُمّ المؤمنين عائشة، ووقف الخليفة في وجه الثائرين موقفاً حازماً صلباً، وقتل في هذه الثورة الطاحنة عدد غير قليل من المسلمين ذهب فيمن ذهب فيها

١. هذا هو الوجه الأوّل من بين الوجوه المذكورة في الفصل الثالث ووعدنا هناك القارئ أن نرجع إلى تفصيله وتحليله وما نذكره هنا إنجاز له.

طلحة والزبير، ورجع بقيّة الثائرين إلى حظيرة الإمامة والأمة.

لم تكد تنتهي هذه الحرب الطاحنة، ويعود إلى البلاد الهدوء والاستقرار، ويعرف معاوية أنّ الثورة فشلت، وأنّه معزول عن ولاية الشام لامحالة، حتّى أعلن الثورة في الشام و هو حينئذ عامل من عمّال الخليفة، وأظهر أنّه يطالب بدم عثمان وقد استعدّ أمير المؤمنين لإطفاء هذه الثورة كما أطفأ الثورة التي سبقتها و جهّز جيشه القوي وسار به نحو الشام حيث التقى بالجند الثائر في الموضع المعروف بـ «صفين»، وبدأت المعركة ثم استمرّ القتال حتى ظهرت طلائع النصر وأشرف جيش الخليفة على امتلاك زمام المعركة، ولم يبق للقضاء على هذه الثورة الجامحة إلّا لحظات عبّر عنها الأُشتر «بفواق الناقة»، إلّجأ الثائرون إلى الحيلة والخدعة، ولجأوا إلى المكر والمكيده ورفعوا المصاحف وهم يصيحون يا أهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله.

طلب الثائرون هدنة، ودعوا الخليفة الشرعي وجيشه إلى تحكيم حكمين، وقد فطن أمير المؤمنين وبعض من جيشه إلى هذه الخدعة، وعرفوا القصد من هذه الهدنة، ولكنّه بدلاً من أن يقف موقفه الحازم، ويوالي حربه ضد الثائرين، حتّى يتحقّق النصر، وقد تحقّقت بشائره، ويُلقي البغاة أسلحتهم، ويعودوا إلى صفّ الأمة الذي انشقوا عنه، وبغوا عليه - بدلاً من أن يقف موقفه الحازم ذلك - استجاب لدعاة الهزيمة وأخذ بنصيحة طالب الخدعة وأكثرهم موعود من معاوية أو من عمرو بن العاص، ورضى بالتحكيم وَ قَبِلَ الهدنة وأمر بإيقاف القتال في الحال.

وهكذا انتهت هذه الثورة إلى هذا الموقف المائع الذي جعل حقّ عليّ في الخلافة، يتساوى مع حقّ معاوية، وجعل نصيب البغاة الثائرين من الثواب، يساوي نصيب جيش الأمة الذي يدافع عن خلافة شرعية تمّت بالشورى

وانعقدت بالبيعة.

وتداعى الذين فطنوا إلى خدعة الهدنة من أصحاب عليّ وحذّروه من قبولها، وأخبروه أنّ قبولها يعني الشكّ في خلافته، والتنازل عنها، وكانوا مصرّين أنّ الخلافة الشرعية حق لا يتطرق إليه الشكّ، ولا يجوز فيها الرجوع ولا تقبل فيها المساومة.

وإذ خطر لعلّي أن يستجيب لدعاة الهزيمة من جيشه، والماكرين من عدوّه، وأن يشكّ في نفسه والحقّ الذي بيده، ويتنازل عن الشرف الذي أولاه المسلمون، ويساوي بينه وبين أحد عمّاله، في قضية أخذ فيها عهداً من الأُمّة وأخذت منه فيها موثقاً وعهداً، ورضخ إلى تحكيم رجال فيما نزل فيه حكم الله.

حين فعل عليّ ذلك، تداعى أولئك الذين لم يرتضوا التحكيم وحذّروا عليّاً من قبوله، وهم يرون أنّ معاوية باغ لاحق له، وأنّ بيعة علي قد انفسخت بموافقته على الهدنة، ورضاءه بالتحكيم جبراً، فلم تبق لأحد في أعناقهم بيعة، وليس لأحد عليهم ميثاق، تداعوا إلى أن يعتزلوا جيش عليّ، وركنوا إلى موقع يسمّى حروراء، فانعزلوا فيه ينتظرون تجدد الحوادث، واتّجاه الأُمّة في قضية الخلافة، وقد جرت الأمور بأسرع ممّا يتوقّع لها، فما بلغ الموعد الذي حدّده الطرفان لانتهاء الهدنة، حتى اجتمع الناس وأعلن أبو موسى الأشعري مندوب عليّ، عزل عليّ عن الخلافة وترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون.

كان هؤلاء المحايدون ينظرون إلى معاوية نظرتهم إلى باغٍ، يحاول أن يفرض نفسه بالمكر والحيلة، ولذلك فهم لا يقيمون أيّ وزن لدعوى عزله، فهو لم يتولّ أمر الخلافة إلى ذلك الحين، لا بالإكراه، ولا بالشورى، فلامعنى لعزله من منصب ليس هو فيه، كما لا يقيمون أيّ وزن لتولية عمرو بن العاص له، لأنّ

عمرًا لم يفوضه المسلمون في تولية أمير المؤمنين، أما نظرتهم إلى علي فقد كانوا يتوقعون أن يتفق الحكمان على إقراره في الحكم، وحينئذ ترجع إلى علي الصبغة الشرعية التي تنازل عنها لإثباتها، ويجب على المسلمين حينئذ أن يوحّدوا صفوفهم، تحت طاعته، ما قام فيهم بكتاب الله، ولكنّ المندوب الذي اختاره علي ليمثله في هذه القضية الظالمة، أعلن أنّه عزل عليًا عن أمر المسلمين، وأنّ الأمر أصبح للشورى والاختيار، وتأيّد موقف هؤلاء المحايدين وانضمّ إليهم عدد آخر ممّن كانوا يقفون إلى جانب عليّ حتى ذلك الحين، وبحثوا الأمر فيما بينهم على أساس أنّ المسلمين أصبحوا دون خليفة.

فهذا معاوية باغ ظالم لا يمكن أن يتولّى أمر المسلمين، وهذا عليّ عزله المندوب الذي اختاره للتحكيم، واذن فليختاروا، واختاروا عبدالله بن وهب الراسبي، فبايعوه أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين بعد علي بن أبي طالب، فهو الخليفة الشرعي الخامس في نظرهم»^(١).

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم!

لم أجد عنواناً يعرب عن مظلومية الإمام أمير المؤمنين في مسألة التحكيم الذي فرضه عليه الخوارج، ثم جاءوا يطالبونه بالجريمة، أحسن من هذا المصراع، وبما أنّنا فرضنا على أنفسنا في بدء الكتاب ألا نقضي على قوم بما كتبه غيرهم في حقهم، فقد نقلنا هذا الكلام بتفصيله والإمعان في أوّله وثناياه وآخره يدل على أنّ الكاتب أخذ موقفًا مسبقًا في مسألة التحكيم، فأخذ من التاريخ فقرات متناثرة تلائم موقفه، وترك كل ما يخالفه. وإليك تحليل مذكّره.

١ - كان من واجبه - قبل كلّ شيء - التعريف بالذين فرضوا التحكيم على

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٢١ - ٣٤.

عليّ عليه السلام وأجبروه على قبوله، فمن هم الذين أجبروه على التحكيم وعلى التنازل عن الشرف الذي أولاه المسلمون، وبالتالي ساووا بينه وبين أحد عمّاله؟ فإنّ التعرّف عليهم أساس القضاء الحق فيما رسمه الكاتب وحرّره. الذين فرضوا التحكيم على عليّ عليه السلام لم يكونوا إلّا رؤوس المحكّمة الأولى الذين اتّخذهم الكاتب أئمة وأولياء، فإنّ الإمام عليّ عليه السلام، فوجيء بمجئ زهاء عشرين ألفاً، مقتّعين في الحديد، شاكين سيوفهم، وقد اسودّت جباههم من السجود يتقدّمهم مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادون باسمه، لا بإمرة المؤمنين، وقالوا: يا عليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم، فقال الإمام لهم: ويحكم أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله، وأوّل من أجاب إليه، وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، فإنّي إنّما قاتلتهم ليدنوا بحكم القرآن، فإنّهم قد عصوا إليه فيما أمرهم، ونقضوا عهده ونبذوا كتابه، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنّهم ليس العمل بالقرآن يريدون ^(١).

إنّ حرقوص بن زهير السعدي الذي يُعدّ من الطبقة العليا للمحكّمة الأولى وكان مرشحاً للبيعة في بيت عبدالله بن وهب الراسبي قبله، كان من المصريّين على قبول التحكيم، لكنّه رجع عن رأيه وتاب عن كفره بزعمه، ولمّا دخل على عليّ عليه السلام ومعه زرعة بن برج الطائي، فقال له: أخرج بنا إلى عدوّنا نقاتلهم، فعاتبه الإمام وقال: قد أردتكم على ذلك فعصيتُموني وقد كُتِبَ بيننا وبينهم كتاب... ^(٢).

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٠ - ٥٦٤ وغيرها.

٢. الطبري: التاريخ ٥٣/٤.

وقد وصل اصرار القوم إلى حدّ هددوا حياة الإمام بأنهم يقضون عليها كما قضوا على حياة عثمان، فلم يجد الإمام بُدّاً من قبول التحكيم، وقد بلغ القوم في قلّة الحياء وشكاسة الخلق إلى حدّ فرضوا التحكيم على الإمام أولاً، ثمّ فرضوا عليه صيغة الحكم، ولم يرضوا بمن كان هوئى علي عليه السلام معه، وقد كان الإمام يصرّ على بعث عبدالله بن عباس أو الأشر، ولكنهم ما رضوا إلاّ بأبي موسى الأشعري الذي كان يَكُنّ عداً عليّ في خُلدِه لَمّا عزله من ولايته.

أبعد هذا يصحّ للكاتب أن يقول «ولكنّه - الإمام - بدل أن يقف موقفه الحازم ويوالي حربهِ ضدّ الثائرين حتى يتحقّق النصر، وقد تحقّقت بشائره، ويُلقَى البغاة أسلحتهم، ويعودوا إلى صفّ الأُمّة... بدلاً من أن يقف موقفه الحازم ذلك، استجاب لدعاة الهزيمة وأخذ بنصحية طلاب الخدعة...».

إنّ رؤوس الخوارج هم الذين كانوا يشكّلون دعاة الهزيمة، وطلاب الخدعة، فلو كان التحكيم جناية فهم أولى بأن يجتنوا ثماره، ويحملوا أوزاره، لا الإمام الذي أعطى لهم نصيحة الخالص، وتبهمهم على أنّها خديعة، ظاهره الصلاح وباطنه الفساد... أو ليس عاراً على جماعة، فرضوا على إمامهم التحكيم، وإدلاء الأمر إلى الحكمين وكتابة ميثاق بين الطرفين، أن يجيئوا شاهرين سيوفهم، يطلبون منه نقض الميثاق ورفض العهد الذي كان عنه مسؤولاً، وكأنّ الخلافة آلة طيعة بأيديهم يلعبون بها كيف شاءوا.

هؤلاء لم يقدّروا عليّاً، ولا عرفوا مكانته وصموده في طريق العهد والميثاق، فما دام الحكماء لم يخرجوا عن الطريق المستقيم، لا ينقضّ قوله وعهده، وإن بلغ ما بلغ، وإن شهرت الخوارج سيوفهم عليه وعلى الخُلص من جيشه.

٢ - إنّ عليّاً لم يستجب لدعاة الهزيمة ولم يأخذ بنصيحة طلاب الخدعة،

إلا بعد ما تحقّق عجزه عن القيام بمواصلة الحرب، وتطبيق حكم الله على البغاة - أعني معاوية وأتباعه ... لاشكّ أنّ حكم الله في حق البغاة هو قتالهم إلى أن يرجعوا إلى صفّ الأُمّة الذي انشقّوا عنه، وبغوا عليه، إلّا أنّ التكليف فرع القدرة وهي فرع طاعة الجيش لرأي قائده الحازم الباسل، الذي عرفه التاريخ بالبطولة والبسالة والصمود والوقوف في وجه الظالمين، ولكن يا للأسف إنّ أغلبية الجيش انخدَعُوا بخدعة معاوية، وأخذوا بمخالفته على حسب ما عرفت، وعندئذ لا تثريب على الإمام أن يُسلّم الأمر إلى الحكمين ويقف عن القتال قائلاً: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ ويقول: «لقد كنت أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً، فأصبحت اليوم منهياً»^(١).

إنّ بعض الكتّاب الجدد من الاباضية يصرّح بأنّ عليّاً قبل التحكيم مضطراً ويقول: «إنّ هذه الخدعة لم تكن لتجوز على علي بن أبي طالب، وقد أدركها وأدرك حقيقة ماوراءها من الوهلة الأولى، وأعلن على الفور رفضه لها وعدم قبوله للتحكيم. إنّ علي بن أبي طالب إنّما قبل التحكيم مضطراً ورضي به مكرهاً ازاء ضغط من ضعف أفراد جماعته، ومن نهضوا بينهم يدعون إلى قبول التحكيم، وإنّ الدعوة التي دعا بها معاوية أحدثت أثرها في خداع الجند، كما أنّها كانت نكأة لبعض من ضعفت أنفسهم للجهر بها والدعوة إلى الكفّ عن القتال، وازاء ذلك كلّ لم يكن في وسع عليّ إلّا أن يرضى بالتحكيم وإن لم يقتنع به ولم تخف نتائج»^(٢).

١. الرضي: نهج البلاغة قسم الخطب، الخطبة ٢٠٨.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٠٠.

(٣٦٨)

وقال علي يحيى معمر:

«كان التحكيم خدعة سياسية يراد بها تفريغ جيش أمير المؤمنين علي عليه السلام وأنه أول من أوائل من تطفنوا للمكيدة، ولم يقبل التحكيم إلا مكرهاً، وأنه أنكره بشدة وأبان لجيشه - الذي عمل فيه الطابور الخامس عمله - عواقب تلك المكيدة وأنه لم يقبل التحكيم إلا مضطراً عندما وجد جيشه معرضاً للتفرق والتمزق وربما للتناحر، وكان على رأي الامام علي عليه السلام وعلى رأي أصحابه في اعتبار التحكيم مكيدة لا ينبغي قبولها، أكثر أئمة المسلمين منهم الإمامان العظيمان الحسن البصري ومالك بن أنس حسب ما أورده المبرد في كامله وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بل أستطيع أن أزعم أننا اليوم وفي هذا العصر - وقد مضى على تلك الأحداث ثلاثة عشر قرناً ونصف - عندما نقرأ أخبارها نشعر بالأسف والحسرة، لأن تلك الخدعة الجريئة قد انطلت على أكثرية جيش علي حتى اضطر للاستجابة لها، رغم معرفته القصد منها وتقديره لتتائجها وعلمه علم اليقين أن القصد من تلك العملية لم يكن مراعاة للمصلحة العامة ولا نظراً لخير الأمة، ولا تحكماً للكتاب في شيء جهل فيه حكم الكتاب» (١).

وقال أيضاً: «واختلف أصحاب علي اختلافاً شديداً بين موافق على الطلب، ومعارض له، واضطر الإمام إلى الموافقة نزولاً عند رأي الأغلبية وإن كان رأيه هو خلاف ذلك» (٢).

نحن نسأل الكاتبين عن مسألة التحكيم المفروض على علي من جانب جيشه، فقد اعترفا بأن الإمام قبله بعدما عرفه، دفعاً للتفرقة والتخرق، بل

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٩٠/١ - ١٩١.

٢. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١٦٦/٢.

للتناحر وأنه لولا قبوله لثاروا على الإمام وقضوا على حياته، وعندئذٍ يصبح ابن أبي سفيان مالكاً لأزمة الأمور ومتسماً على عرش الخلافة من دون منازع، ويصير الطريق لبسط سلطته وسيطرته مُعَبَّداً ومذلاً بأيدي خصمائه وأعدائه - أعني الذين قبلوا التحكيم وفرضوه على إمامه -

وأين ذلك الفرض من فرض قبول التحكيم حتى يرجع الطرفان إلى كتاب الله فيما اختلفا فيه.... وإن كان حكم الكتاب في ذلك واضحاً - والخصم وأنصاره الأغبياء كانوا يتخيلون أنهم جاهلون بحكمه فيجب أن يرجع إليه بحكمين من الطرفين.

فإذا كان هذا موقف عليّ والمسلمين فلم يكن بُدّ من قبول التحكيم دفعاً للأفسد بالفاسد وهو ليس شيئاً خفياً على الكاتبين، وعند ذلك فلماذا يؤاخذان عليّاً بقبول التحكيم وعده ذنباً يحتاج إلى التوبة والاستغفار.

إذا كان قبول التحكيم عن اكراه واضطرار، وقد قال سبحانه: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) أفصح للمغفلين الذين انتبهوا عن غفلتهم، وضيّعوا الفرص الذهبية للقضاء على الطغمة الأموية، أن يصروا على عليّ بالتوبة والاستغفار وإلا فبالانعزال والخروج عن تحت رايته بعد ما أخبر سبحانه أنه غفور رحيم لكلّ مضطّر ارتكب عملاً لا عادياً ولا باغياً؟

أفصح لهؤلاء وفي رأسهم المحكمة الأولى الذين كانوا أداة طيعة - بلاوعي - بيد رأس الطابور الخامس الأشعث بن قيس، أن يحتفلوا في الكوفة ويختاروا لأنفسهم أميراً وخليفة، ويتهموا عليّاً بأنه عزل نفسه عن الخلافة، ثم يخرجوا عن الكوفة وينزلوا ضفة النهر مُرْهبين ومرعبين ونار الفتنة بعد لم تطفأ والعدو الغاشم - معاوية بن أبي سفيان - على أهبة الهجوم وبسط السيطرة

والقضاء على الخلافة الشرعية.

إنّ النصوص التاريخية تضافرت على أنّ عليّاً أتمّ عليهم الحجّة قبل نشوب نار الحرب، وقد كان رؤساء المحكّمة أعني عبدالله بن وهب الراسبي وحرقوق بن زهير السعدي ومن في رتبتهما من المحكّمة، يسمعون كلام عليّ وهو يخاطبهم بأنّهم هم الذين فرضوا على عليّ التحكيم، فلمّا ندموا طلبوا منه نقض العهد والميثاق المحرّم بنص الذكر الحكيم، وقد ذكرنا نص علي عند عرض التاريخ.

يقول صالح بن أحمد الصوافي: إنّ علي بن أبي طالب قد مضى بنفسه إلى أولئك الخارجين عنه وقال لهم: من زعيمكم؟! قالوا: ابن الكواء. قال علي: فما أخرجكم عنّا؟ قال: حكومتكم يوم صفين. قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنّهم حين رفعوا المصاحف، فقلت: نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إنّني أعلم بالقوم منكم، إنّهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنّني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. أمضوا على حقكم وصدقكم، فإنّما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهناً ومكيده، فردّدتهم عليّ، وقلت: لا، بل نقبل منهم، فقلت لكم: اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي، فلمّا أبيتم إلاّ الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن، فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم به بما في القرآن. وإن أبيا فنحن من حكمهما براء، قالوا له: فخيرنا، أتراه عدلاً تحكيم الرجل في الدماء؟... فقال: إنّنا لم نحكم الرجال، إنّما حكمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق، إنّما يتكلّم به الرجل... قالوا: فخيرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل، ويثبت العالم، ولعلّ الله - عزّ وجلّ - يصلح في هذه الهدنة هذه الأمّة... ادخلوا مصركم، رحمكم الله...

قالوا: صدقت، قد كنّا كما ذكرت... وفعلنا ما وصفت، ولكن ذلك كان منّا خلاف القرآن، فقد تبنا إلى الله عزّوجلّ منه، فتب كما تبنا، نبايعك، وإلا فنحن مخالفين. فقال علي: ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجيء المال، ويسمن الكراع، ثم نخرج إلى عدونا ولسنا نأخذ بقولهم وقد كذبوا...^(١).

فهذا الكلام سواء أُلقي في الحروراء أو في ضفة النهر يعرب عن أنّ الأثرية السّاحقة من الخارجين عن طاعة علي - لولا كلّهم - كانوا هم الذين فرضوا التحكيم على عليّ عليه السلام وألجأوه إلى الرضوخ لمكيدتهم، فماذا يطلبون من عليّ بعد ذلك؟

٣ - إنّ ابن أبي سفيان قام لأجل أخذ الثّار من قتلة عثمان ولم يبايع عليّاً بحجّة أنّه كان يحمي الخارجين على عثمان، والثّائرين عليه، وكان الإمام يصّر عليه أن يدخل أولاً فيما دخل فيه المسلمون، ثم يعرض المسألة عليه^(٢) وبما أنّ معاوية اتّخذ جانباً سلبياً في هذا الموضوع، قام الإمام بتأديب الباغي، وارجاعه إلى صفوف المسلمين وانتهى الأمر إلى نشوب الحرب بين الطرفين، ولجوء معاوية إلى الخدعة والمكر، وتحكيم الرجلين في الموضوع الذي اختلف فيه الفريقان، فلم تكن الغاية من اتفاقية الصلح إلاّ تحكيم الكتاب في الموضوع الذي تنازع فيه الطرفان، وأمّا عزل الإمام عن الخلافة ونصب معاوية مكانه فلم يكن في صلاحية الحكمين وإنّما دخلا في موضوع لم يُفوّض إليهما أمره. فرأيهما فيها بالعزل والنصب رأي ساقط.

٤ - إنّ الإمام لمّا رأى لجاج العدو وعناده في صياغة اتفاقية الصلح حيث لم يرض به إلاّ بمحو لقب إمرة المؤمنين عن جنب اسمه، رضى بذلك اقتداءً

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١١٠ - ١١١.

٢. الرضي: نهج البلاغة، قسم الرسائل برقم ٦٤.

بالنبي الأكرم في صلح الحديبية حيث رضى أن يكتب اسمه ويمحى لفظ رسول الله، ولم يسمع لقول الأحنف حيث قال: «لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك فأني أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً، فأبى ملياً من النهار أن يمحوها» (١) ولكنه عليه السلام لم يَرِ بدءاً من القبول ورضى بالمحو تحت ضغط الأشعث والمنخدعين من جيشه، والمقتنعين في الحديد.

وبذلك تقف على قيمة قوله: «وإذ خطر لعلي أن يستجيب لدعاة الهزيمة في جيشه، والماكرين من عدوه أن يشك في نفسه، والحق الذي بيده، ويتنازل عن الشرف الذي أولاه المسلمون، ليساوى بينه وبين أحد عماله في قضية أخذ فيها عهداً من الأمة، وأخذت منه فيها موثقاً وعهداً ورضخ إلى تحكيم رجال فيما نزل فيه حكم الله» .

إن فرض التحكيم على علي وقبوله ومحو لقبه، تحت ضغط قسم كبير من جيشه، لا يعني شكّه في نفسه والحق الذي بيده، والتنازل الاختياري عن الشرف الذي أولاه المسلمون، بل يعني فسح المجال للتفكر والتدبر فيما كان يدّعيه معاوية على الإمام من تقدم أخذ الثأر على البيعة، حتى يقضيا الحكمين فيه برأي بات، ولو دلّ محو اللقب على الشك في الإمرة، فهل يظنّ الكاتب أنّ رسول الله شكّ في رسالته عندما رضى بمحو لقبه عن جنب اسمه؟ نعم توهم ذلك بعض أصحابه وتصور أنّ ذلك يساوي اعطاء الدنيا في أمر الدين (٢) ولكن رسول الله استقبل الحادث بصدر رحب، وقبل الصلح على النحو الذي كان المشركون يطلبونه، وقد أثبت مرور الزمان صواب رأيه في الصلح، وأنه كان

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين: ٥٨٢.

٢. لاحظ السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٣١.

لصالح المسلمين كما هو المحقق في السيرة النبوية.

والحاصل: لم يكن قبول التحكيم والموافقة على الهدنة لغاية عزل الإمام نفسه عن الخلافة وإدلاء الأمر إلى الحكمين حتى يُختار للأمة الإسلامية خليفة بل كانت الغاية من قبوله هو فسخ المجال للحكمين حتى يقضوا في ضوء الكتاب والسنة في حق الباغي الوارد في الكتاب العزيز^(١) وفيما يدعيه ابن أبي سفيان في حق علي، حيث كان يقول لا يبيع إلا بعد أخذ الثأر من قتلة عثمان كما صرح به في بعض رسائله إلى الإمام، يقول الإمام:

«وقد أكثر في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، وأما تلك التي تريد فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال». وقد جاء في رسالة معاوية إلى الإمام قوله: «وادفع إليّ قتلة عثمان، فإنهم خاصتك وخلصاؤك والمحدقون بك»^(٢).

فإن ابن أبي سفيان كان يطلب في الظاهر قتلة عثمان، ولكنّه في الباطن كان يمهّد الطريق إلى الخلافة، وربما كان قانعاً لأن يقرّه الإمام على الشام^(٣).

وبذلك ظهر بطلان قوله: «إن بيعه الإمام قد انفسخت بموافقة على الهدنة، ورضاؤه بالتحكيم جبراً، فلم يبق لأحد في عنقه بيعته» فإنّه تفسير لموقف الإمام بما يتجاوب هوئذ الكاتب، فإن الإمام لم يخلع نفسه عن الخلافة أبداً ولا تردّد في كونه الخليفة الشرعي والقانوني للأمة، ولو صحّ ما ذكره الكاتب وأنّ الإمام خلع نفسه عن الخلافة بمراي ومسمع من جيشه وجيش عدوّه، لما

١. الحجرات: ٩.

٢. ابن أبي الحديد، شرح النهج ١٧ / ٢٥٣.

٣. المصدر نفسه، ومَرَّ تفصيله.

قام أبو موسى بخلعه عن الخلافة، إذ لا معنى لخلع المخلوع لاسيما من خلع نفسه واعترف به.

ولو كان قبول التحكيم ملازماً للخلع عن الإمامة فلماذا كتب الإمام - عندما وصل إليه نبأ الحكمين وخيانتهم في مورد الوكالة - إلى زعماء الخوارج: زيد بن حصين وعبد الله بن وهب الراسبي ومن معهما من الناس وقال: أما بعد فإن هذين الرجلين الذين ارتضينا حكمهما، قد خالفا كتاب الله واتّبعوا هواهما بغير هدى من الله، فلم يعملوا بالسنة ولم يُنفِذا للقرآن حكماً، فبرأ الله ورسوله منهما والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا فإننا صائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الذي كنّا عليه^(١).

الحق إنّ من قرأ تاريخ مأساة التحكيم يقف على مدى الضغط الوارد عليه من جانب أصدقائه الحمقاء، ثم يرجع ويترحم على الإمام ويبكي عليه بكاء عال ويقول: «رحم الله الإمام عاش بين عدو غادر، وصديق انوك».

٥ - والعجب العجيب أن يصبح عبدالله بن وهب الراسبي الخليفة الشرعي والقانوني للمسلمين فيجب على الأمة في جميع الأقطار و الأصقاع، إطاعة أمره، بحجة أن نفراً من الخوارج اجتمعوا في منزله فبايعوه، ولعلّ عدد المبايعين لا يتجاوز عن عدد الأصابع أو يزيد بقليل^(٢).

إنّ البيعة الشرعية وانعقاد الإمامة لواحد من المسلمين رهن شروط وصلاحيات، ذكرها المعنيون من علماء علم الكلام في كتبهم، ولم يذكر أحد أنّه إذا بايع عدّة من المسلمين شخصاً في صقع من الأصقاع يجب على عامتهم الاعتراف بإمامته وخلافته.

١. الطبري: التاريخ ٤ / ٥٧.

٢. نفس المصدر.

إنّ معنى ذلك أنّه يجوز لأحد من المسلمين في البدو والقرى، أن يختاروا رجلاً فيبايعوه على الخلافة وإن كان المبايعون بُعداء عن العاصمة الإسلامية التي فيها أهل الحل و العقد. لو صحَّ أنّ الإمام خلع نفسه - ولن يصحَّ حتى ولو صحَّت الأحلام - فالواجب على المسلمين طرح الخلافة في شورى إسلامية عالمية تضمّ إليها أكابر العلماء والفقهاء، وأهل الحل و العقد من المهاجرين والأنصار، و من اتّبعهما بإحسان، حتى يختاروا لأنفسهم إماماً، لا طرحها في بيت مسدود ليس فيه إلاّ أناس خرجوا على إمامهم الذي تمّت البيعة له في مثل تلك الشورى، لأنّ تصحيح ذلك بمعنى تصحيح الفوضى في صفوف المسلمين، وشقّ عصاهم، وفصم عراهم، وغير ذلك ممّا لا يخفى على القارئ الكريم بطلانه.

٦ - والعجب إنّ الكاتب نقض ما كتبه هنا بما ذكره في الحلقة الثالثة من ذلك الكتاب، فإذا وصف الإمام في المقام، بأنّه استجاب لدعاة الهزيمة وأخذ بنصيحة طلاب الخدعة، فقد صرّح في المقام الآخر بأنّ الإمام «عرف أنّها إحدى المكائد التي تفتنّ إليها ذهن عمرو بن العاص، وأصرّ هو و أصحابه على الجهاد، وكان الإمام والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقيّة الجيش بصواب موقفهم (مواصلة الحرب) ونبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الحربية» وإن كنت في شكّ ممّا نقلناه عنه فاقراً نصّه:

خالف معاوية بن أبي سفيان أجماع الأمة و أشعل نار الفتنة وجهّز جيشاً لمحاربة الخليفة الشرعي الذي اختاره المسلمون، و قابله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بما يقابل به خليفة شرعي فئة باغية، فجّهز جيشاً من أبطال الإسلام وقاده بنفسه، و التقى الجيشان في صفين، وابتدأ القتال وعرف معاوية أنّه إذا لم يكن يلجأ إلى الحيلة فإنّه سوف يخسر القضية في

أقرب ممّا يتوقّع، ومهّد لذلك بتكوين طابور خامس في جيش علي ثم دعا إلى التحكيم. وعرف علي وأصحابه مقصد معاوية من التحكيم، وأنها إحدى المكائد التي تفتق عنها ذهن عمرو بن العاص، ولذلك قال علي: إنّما قاتلناهم بكتاب الله، وأصرّ هو وأصحابه على الجهاد، ولكن الطابور الخامس الذي كان يقوده أكبر صنایع معاوية: الأشعث بن قيس، كان قد عمل في الجيش، ومالت الأغلبية إلى قبول التحكيم، وحينما كان علي والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقيّة الجيش بصواب موقفهم (مواصلة الحرب) ونبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الحربية التي لجأ إليها الفريق الباغي، لخصّ أحد أصحابه موقفهم هذا في هذه الكلمة المشهورة «لا حكم إلاّ لله» وكانوا يصيحون بها في جوانب الجيش و يرددها أنصار علي في كل موقف وكان علي يستمع إليها راضياً بها وهو يناقش الناس ويدعوهم إلى التمسك بمضمون هذه الكلمة وعدم الانخداع بحيل معاوية لأنّ قضيتهم واضحة وقد حكم فيها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات...

وشاءت إرادة المولى سبحانه وتعالى - لحكمة يعلمها - أن لاتستجيب الأغلبية لعلي وأن تميل أكثرية الجيش إلى دعاة الهزيمة، وأن يتغلّب الأشعث ابن قيس صنّعة معاوية على المناضلين من أجل الحق، فيجد الإمام نفسه مضطراً إلى التخلّي، وترك الصفوة من أصحابه ليحافظ على الأغلبية ويسير معها، فرضى بالتحكيم مرغماً، وإذا هذه اللحظة التي رضى علي فيها بالتحكيم، وموافقة الأغلبية، كانت كلمة «لا حكم إلاّ لله» تعبيراً عن موقفه و شعاراً لمبدئه بل انها تعبير وشعار لكل مؤمن يحكم كتاب الله فيما شجر بينه خلاف وبين

الناس^(١).

٧ - إنّ التعبير عن الخروج على الإمام المفترض طاعته بـ«الخلافة»، كما أنّ التعبير عن التمرّد والشغب بـ«تشكيل الدولة» صادرة على المطلوب والمشي على الدعوى المسبقة بلا برهان، فيطيب لي أن أذكر نصّ الكاتب الذي يصرّ أنّه كان للخوارج دولة بعد رفض التحكيم. قال:

«أصبحت الأمة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول: دولة أسسها معاوية وإن لم يبايعه عليها أحد إلى ذلك الحين، ودولة يرأسها علي بن أبي طالب بعد أن فشلت في نظره حكومة الحكمين، عاد فاستمسك بالبيعة الأولى^(٢) دون أن يعترف بعزل أبي موسى الأشعري له مندوبه في قضية التحكيم، و دولة يرأسها عبد الله بن وهب الراسبي بعد أن بايعه جمع كبير من الذين انفصلوا عن علي، عند قبول التحكيم، ثم عند اعلان الحكم بعزل علي عن الخلافة، ومع كلّ فرقة من هذه الفرق جمع غير قليل من كبار الصحابة وفيهم بعض المشهود لهم بالجنة . على أنّ هناك فريقاً رابعاً اعتزلوا هذا النقاش الذي وقع بين المسلمين وبعثوا عن قضية الخلافة فلم يطلبوها لأنفسهم، ولم يؤيّدوا واحداً من طالبيها، و من هذا الفريق السادة سعد بن أبي وقاص و عبد الله بن عمر، و محمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد»^(٣).

إنّ الكاتب ادّعى لابن وهب مقاماً ليس له أثر في التاريخ ولا في كلمات الخوارج حتى في نفس المجلس الذي بايعوه، فإنّ البيعة لم تكن إلّا لأن يكون

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة: ٢٨٣ - ٢٨٣.

٢. فأى معنى للاستمسك بالبيعة الأولى إذا خلع نفسه بمراى ومنظر من الناس ياترى، أو ليس هذا دليلاً على أنّ الإمام لم يخلع نفسه في وجدان الكاتب؟

٣. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ٢٤.

(٣٧٨)

الرجل أميراً للجهاد وقائداً عسكرياً في القتال لاخليفة شرعية يملأ الفراغ الحاصل من العزل المزعوم، والشاهد على ذلك أنّ حمزة بن سنان الأسدي أول من اقترح هذه الفكرة وقال: «فولوا أمركم رجالاً منكم فإنه لا بدّ لكم من عماد وسناد وراية تحقّون بها وترجعون إليها...». ولمّا قبلها عبد الله بن وهب، قال: أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت^(١).

٨ - لم يكن محاربة الإمام للخوارج وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي إلاّ لأجل أعمالهم الإرهابية التي بلغت الإمام، فقال بعض المخلصين له: على ما ندع هؤلاء يخلّفوننا في أموالنا و عيالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينهم صرنا إلى عدوّنا من أهل الشام، فقبل علي، فنادى بالرحيل.

كان من المظنون جداً أنّ يقوم عبد الله بن وهب الراسبي بسبي النساء وقتل الذراري، إذا رأوا أنّ العاصمة الإسلامية (الكوفة) خالية من زعيمها وجيشها خصوصاً أنّ علياً و مواليه كانوا عندهم مشركين كافرين تحلّ أموالهم وتجاوز إراقة دمائهم وسبي نسائهم، فلأجل ذلك قلع الإمام عين الفتنة قبل أن يبادر بمحاربة عدوّ الله في الشام.

كلّ ذلك يدلّ على بطلان قول الكاتب «بعد أن جمع الإمام علي جيشه ومن بقي تحت طاعته من الجند، فكّر في إعادة الكرة على معاوية واخماد ثورته ومحاولة اخضاعه من جديد، ولكن بعض أصحابه أشاروا عليه بمحاربة عبدالله ابن وهب الراسبي هذا الخليفة الجديد الذي وصل إلى منصب الخلافة عن طريق البيعة، وهو الطريق الشرعي للخلافة. واقتنع علي بصواب هذا الرأي و عدل عن محاربة معاوية إلى محاربة عبد الله بن وهب، وكان أتباع عبدالله

يعتقدون أنّ إمامهم هو الإمام الحق وأنّ كلّاً من علي - بعد التحكيم والعزل - ومعاوية، ثأران يجب عليهما الرجوع إلى حظيرة الإمامة»^(١).

٩- روايات شاذة في أمر التحكيم:

الف - اعتمد الدكتور صالح الصوافي في تحليله مسألة التحكيم على رواية شاذة ذكرها ابن قتيبة في تاريخ الخلفاء وقال: «لَمَّا لم يبق إلّا الكتاب، قال الأحنف بن قيس لعلي: يا أمير المؤمنين إنّ أبا موسى رجل يمانى وقومه مع معاوية فابعثني معه فو الله لا يُجِلّ لك عقدة إلّا عقدت لك أشدّ منها، فإن قلت أنّي لست من أصحاب رسول الله ﷺ فابعث ابن عباس وابعثني معه، فقال علي: إنّ الأنصار أتوني بأبي موسى فقالوا: ابعث هذا فقد رضيناه ولا نريد سواه والله بالغ أمره»^(٢).

إنّ هذه الرواية شاذة غير معروفة وقد اتفق المؤرّخون على أنّ عليّاً كان يصرّ على بعث ابن عباس أو الاشترا ولم يكن له أيّ هوى مع أبي موسى الأشعري، لما كان يستشف منه أنّ هواه مع غيره وكيف لا وهو الذي خذل الناس عن مساعدة الإمام القائم يوم كان والياً على الكوفة، وتقاعد عن نصرته، ولم ينفر الناس إلى ساحة قتال الناكثين بل دعاهم إلى البقاء في منازلهم بحجة أنّها فتنة، القاعد فيها خير من القائم^(٣).

كيف يعتمد على تلك الرواية الشاذة مع أنّ ابن قتيبة، نقل خلافها في موضع آخر عند البحث عن ظهور المحكّمة، ونقلها الدكتور أيضاً في كتابه،

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ٢٤ - ٢٥.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٩٩ نقلًا عن الإمامة والسياسة: ١١٤.

٣. الطبري: التاريخ ٣ / ٤٩٧.

قال: اتّضحت معالم المسألة واضحة، و بدا لكل ذي عينين أنّ التحكيم لم يكن سوى خديعة لم ييغ من طلبها سوى العدول عن الطريق السوي، وصحّ كل ما توقّعه علي بن أبي طالب حتى حقّ له أن يقول وقد وقع ما وقع: «أما أنّي قد أخبرتكم أنّ هذا يكون بالأمس، و جهدت أن تبعثوا غير أبي موسى فأبيتم عليّ»^(١).

أفصح بعد هذا، قوله إنّ الأنصار أتوني بأبي موسى فقالوا: ابعث هذا فقد رضيناه ولا نريد سواه؟! مع أنّه لم يرده أبداً وإنّما فرض عليه من فرض.

ب - إنّ الكتاب الجدد لمّا واجهوا أنّ التحكيم سيئة من سيئات المحكّمة وأنّهم هم المسؤولون عن عواقبه الوبيلة، عمدوا إلى الروايات الشاذّة ومخالقات أعداء الإمام. قالوا: إنّ عليّاً ظلّ يكتب معاوية سرّاً من دون المسلمين، فكتب إلى معاوية: من عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: لو أعلم أنّك أمير المؤمنين لم أقاتلك، فامح اسم أمير المؤمنين، ففعل علي ذلك فبلغ ذلك المسلمين، فقالوا له: يا علي ما حملك أن تخلع نفسك من اسم سمّاك به المسلمون؟ ألسنت أمير المؤمنين ومعاوية أمير المخالفين؟ فتب عمّا صنعت...، ثمّ إنّهم يذكرون أنّه بعد أن تاب عدل عن توبته و أمضى الحكومة أي التحكيم^(٢).

إنّ ما ذكره من المكاتب السريّة ليس له مسحة من الحق ولا لمسة من الصدق ولا يوجد في كتب القصاصين فضلاً عن التواريخ والسير، وما ذكره ليس إلّا قصة التحكيم الذي شهد عليه الطرفان على وجه التفصيل، والإمام امتنع عن

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ١٠٢ نقلًا عن الإمامة و السياسة لابن قتيبة ١١٩.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ١١٢ نقلًا عن القلّهاني: الكشف والبيان: ٢ / ٢٣٧.

محو إمرة المؤمنين عن نفسه، وقد أمضى ملياً من النهار، وهو يدفع ذلك الاقتراح غير أنّ المحكّمة والطابور الخامس الذين فرضوا على عليّ نفس التحكيم، فرضوا عليه صيغته أيضاً، ولم يكن شيئاً خفياً من الناس بل كان على مشهد منهم، وقد ذكر الإمام ما جرى على النبي الأكرم في صلح الحديبية وأنه سيبتلي بما أبتلي به رسول الله، وأمّا قصة التوبة فقد مضى الكلام فيها.

ج - روى عن عليّ عليه السلام أنه بعد ما قتل الخوارج جعل يمرّ عليهم وهو يستغفر لهم و يقول: بئس ما صنعنا قتلنا خيارنا وفقهاءنا... فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين قتلنا المشركين. قال: من الشرك فرّوا. قال: أمن المنافقين؟ قال إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً و هؤلاء يذكرون الله كثيراً^(١).

إنّ ما ذكره أنما هو من مخاريق الخوارج، حاولوا أن يبرّروا أعمال أسلافهم فالقوم كانوا بغاة على الإمام المفترض طاعته، ومنّ حبّه إيمان وبغضه كفر^(٢) والقوم لم يكونوا مشركين ولا منافقين، ولكن كانوا بغاة، ولم يكونوا خيار القوم ولا فقهاءهم بل كانوا من أهل البادية الذين تسيطر عليهم السذاجة ويغترون بالظواهر من دون التعمّق في البواطن. وأسوأ من ذلك ما نقله في ذيل كلامه ونحن نطهر قلمنا عن ذكره والردّ عليه، فلم يكن الإمام نادماً من عمله لأنّه حقّق ما تنبأ به النبي الأكرم في حقّه وأنّه سيقا تل الناكثين والقاسطين و المارقين^(٣) وآية ذلك أنّه كانت للخوارج انتفاضات بعد وقعة النهروان، فلم يزل عليّ عليه السلام يبعث السرايا لإطفاء فتنهم، و اخماد ثائرتهم إلى أن أُغتيل

١. الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ١٢٥، نقلاً عن القلّهاتي في الكشف والبيان: ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٤.

٢. مرّ مصدره.

٣. مرّ مصدره.

بيد أشقاهم شقيق عاقر ناقة ثمود^(١).

١٠ - لا إمارة إلا لله:

هذا هو الوجه الثاني لتفسير شعارهم «لاحكم إلا لله» ولكن الخوارج رفضوه عملاً واختاروا عبد الله بن وهب خليفة لهم إلا أنه كانت توجد بين المتطرفين منهم تلك النظرية. يقول الكاتب المعاصر علي يحيى معمر:

«انعزل معارضوا التحكيم إلى جانب، واستمسكوا بموقفهم الذي كانت تعبّر عنه هذه الكلمة أصدق تعبير، ونشأ عن هذا الموقف موقف آخر متطرف كل التطرف، فإن الكلمة حينما أطلقت وقصد منها أنه لا يجوز للناس أن يحكموا فيما نزل فيه حكم الله، وذلك ما فهمه الإمام علي ورضي به، وفهمه المعارضون وعملوا به».

ولكن أناساً من المتطرفين فيما بعد زعموا أنه لا حاجة إلى الإمارة وأنه لا داعي لأن يكون للمسلمين حكومة وحملوا كلمة «لاحكم إلا لله» هذا المقصد الهدام، وهذا التطرف هو ما سخطته الأمة وردته عنهم، وتولى الإمام علي شرحه بأسهاب وإيضاح لا يبقى بعده اشكال.

قال الإمام علي وهو يردّ على أولئك المتطرفين الذين خرجوا بكلمة «لاحكم إلا لله» عن معناها الذي وضعت له: «كلمة حق يراد بها الباطل، نعم لاحكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمارة إلا لله، وأنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في امرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، يبلغ الله فيها الأجل، ويجمع بها الفيء، ويقاقل العدو، وتؤمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من

١. مرّ مصدره.

القوي حتى يستريح برّ و يستراح من فاجر»^(١).

الخوارج أنصار عليّ وشيعته؟!

إنّ الخوارج يعدّون أنفسهم شيعة الإمام عليّ عليه السلام وأنصاره وأنهم كانوا سواعده القويّة في قتال الناكثين والقاسطين، وأنهم هم الذين أعاروا جماعهم لعلّي في القتالين ثم يشكون عليّاً بأنّه ما أنصف في حق أنصاره وأعدائه، حيث قتلهم وهم براء من الذنب.

وممن صبّ الشكوى في قالب الشعر، هو أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم الرواحي يقول في قصيدة له:

ارقت دماء المؤمنين بريئة	لهن بزياء ^(٢) الحراء ^(٣) خير ^(٤)
عليّاً أمير المؤمنين بقيّة!	كأنّ دماء المؤمنين خمور
سمعناك تنفي شركهم و نفاقهم	فأنت على أيّ الذنوب نكير؟!
وما الناس إلّا مؤمن أو منافق	ومنهم جحود بالآله كفور
وقد قلت ما فيهم نفاق ولا بهم	جحود و هذا الحكم منك شهير
فهل أوجب الإيمان سفك دمائهم ؟	وأنت بأحكام الدماء بصير!
تركتهم جزر السباع، عليهم	لفايف من إيمانهم و ستور
مصاحفهم مصبوغة بدمائهم	عليهن من كتب السهام سطور
وكنّت حفيّاً يا بن عمّ محمّد	بحفظ دماء مالهن خطير

١. علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة: ٢٨٤.

٢. الزيزاء: الاكمة الصغيرة.

٣. الحراء: الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار.

٤. صوت الماء.

وكنْتَ حَفِيّاً أَنْ يَكُونُوا بَقِيَّةَ
أَمَّا وَ الَّذِي لَاحِكُمْ مِنْ فَوْقِ حَكْمِهِ
تَنَادَى: أَعِيرُونِي الْجِمَاجِمَ كَرَّةً
لَقَدْماً أَعَارُوكَ الْجِمَاجِمَ خَشَعاً
فَقَصَعْتَهَا إِذْ حَكَمْتَ حَكْمَ رَبِّهَا
لنصرك حيث الدائرات تدور
على خلقه ورد به و صدور
فقد قدموها و الوطيس سعي
عليهن من قرع الصفاح فتور
فما بقيت عارية و معير^(١)

والحقّ إنّ هذه الأبيات تثير العواطف العمياء ضدّ الإمام، ويتخيّل صاحبها أنّ الإمام قد جحد حقّهم و تساهل، و لكنّه إذا رجع إلى غضون التاريخ، سرعان ما يرجع عن قضائه و يلوم نفسه على التسرّع، وإن كنت في شكّ من ذلك فارجع إلى ما ذكرناه من تاريخهم و أعمالهم الإجرامية حين التحكيم وبعده، وهنا نشير إلى نكات:

١ - إنّ قوله: سمعناك تنفي شركهم ونفاقهم يشير إلى ما رواه عن علي أنّه قال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين قتلنا المشركين. قال: من الشرك فرّوا. قال: أمن المنافقين؟ قال إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلّا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً^(٢).

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ المروي عن علي عليه السلام في حقّ هؤلاء هو ما ذكره الطبري بقوله: بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين من غرّهم؟ قال: الشيطان، وأنفس بالسوء أمارة، غرّتهم بالأمان، وزيّنت لهم المعاصي وتبأتهم أنّهم ظاهرون^(٣).

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٢٧ - ١٢٨.

٢. الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٢٥، نقلاً عن القلّهاتي في الكشف والبيان: ٢ / ٢٥١ - ٢٥٤.

٣. الطبري ٤ / ٦٦.

ثانياً: نفترض صحّة الحديث ولكن القوم كانوا عصاة وبغاة، خارجين على الإمام المفترض عليهم طاعته، والعصاة عندكم كفّار، وعندنا فساق ولا حرمة للكافر، والفاسق يقتل في ظروف خاصّة، خصوصاً إذا بغى على الإمام الذي أصفقت الأُمّة على إمامته وخلافته، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تِ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

فقد برّر سفك دمائهم بغيهم و خروجهم على الإمام المفترض طاعته، و على ضوء ذلك فلا معنى لقوله: «فهل أوجب الإيمان سفك دمائهم؟...».

٢ - إنّ الشاعر في قوله: تركتهم جزر السباع...» يشير إلى أنّ الإمام قتلهم ثم تركهم مثل من تفتكه السباع وتتركه، ولكن التاريخ يشهد على خلافه. يقول الطبري:

«طلب عديّ بن حاتم ابنه طرفة فوجده فدفنه، ثمّ قال: الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك، و دفن رجال من الناس قتلاهم...»
بل الإمام قام بعطف إنساني قدير. يقول الطبري:

«و طلب من به رمق منهم فوجدوهم أربعمئة رجل، فأمر بهم عليّ فدفنوا إلى عشائهم، وقالوا: احملوهم معكم، فداووهم، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء، قال: وأمّا السلاح والدواب وما شهدوا عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأمّا المتاع و العبيد و الإماء فإنّه حين قدم ردّه على أهله»^(٢).

١. الحجرات: ٩.

٢. الطبري: التاريخ ٤ / ٦٦.

٣ - يشير الشاعر بقوله: «تنادي اعبروني الجماجم كزّة - فقد قدّموها والوطيس سكير» إلى ما خدموا عليّاً عليه السلام في الجمل وفي صفين قبل رفع المصاحف وهو صادق في هذا العزو و النسبة، ولكنهم يا للأسف بخلوا بها في الموقف الحاسم الذي كان بينه وبين النصر خطوة، وذلك عندما رفع أهل الشام المصاحف. قال الإمام: «عباد الله، إني أحق من اجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية و عمرو بن العاص و ابن أبي معيط و حبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً، و صحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال و شرّ رجال. إنّها كلمة حق يراد بها باطل. أنّهم و الله ما رفعوها أنّهم يعرفونها و يعملون بها، و لكنّها الخديعة والوهن و المكيدة. أعبروني سواعدكم و جماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعة، ولم يبق إلّا أن يقطع دابر الذين ظلموا» فجاء زهاء عشرين ألفاً مقنّعين في الحديد شاكي السلاح، سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدمهم مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، و إلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفّان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم فقال لهم: ويحكم، أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله و أوّل من أجاب إليه، وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني أنّما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنّهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون. قالوا: فابعث إلى الأشرليأتيك وقد كان الأشر صبيحة ليل الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله...

وقد بلغ بخلهم وضمنتهم باعارة جماجمهم إلى حدّ طلب منهم الأشر أن

يمهلوه فواقاً ناقة أو عدوة الفرس فما أمهلوه. قال لهم: امهلوني فواقاً فإنني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: فامهلوني عدوة الفرس، فإنني قد طمعت في النصر، قالوا: اذن ندخل معك في خطيئتك. قال: وحدثوني عنكم - وقد قتل أمثالكم وبقي أرواحكم^(١).

فالحق إن الخوارج كانوا أنصار علي في البداية وإلى أثناء حرب صفين ثم انقلبوا.

ومما يندى الجبين أن زيد بن حصين الطائي قد قدم إلى علي و معه عصابة من القرّاء فنادوه كما عرفت^(٢) لا بإمرة المؤمنين بل باسمه وفرضوا عليه قبول التحكيم، وهو بعد أيام قلائل كان المرشح الأول في أخذ البيعة لواحد من المحكّمة في الحروراء، يقول الطبري:

قال حمزة بن سنان الأسدي: إن الرأي ما رأيتم، فولّوا أمركم رجلاً منكم فإنه لا بدّ لكم من عماد وسنان، وراية تحفون بها وترجعون إليها، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، و عرضوها على حرقوص بن الزهير فأبى، وعلى حمزة بن سنان وشريح بن أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب، فقال: هاتوها...^(٣)

فالرجل ذو طبيعة متسرّعة في القضاء، فيوماً يفرض التحكيم على علي ويوماً آخر يستنكر التحكيم و يُرّشح لقيادة الثورة على علي لأجل قبول التحكيم!!

٤ - قد جادت قريحة العلامة الفقيه الشيخ محمود البغدادي - دامت معاليه - بقصيدة ضافية فنّد فيها ما جاء في الأبيات السابقة نكتطف منها ما يلي:

١. ابن مزاحم: وقعة صفين ٤٩٩.

٢. ابن مزاحم: وقعة صفين ٤٩٩.

٣. تاريخ الطبري: ٤ / ٥٥.

ترأت ^(١) فقلتُ الشمسُ حيثُ تنيرُ
ولستَ ترى في الخلق مثلَ عقيدةٍ
ادافع عنها من أراد مساءةً
وليس محباً من يُخلي عداته
أمثلُ عليّ في عدالةِ حكمه
عليّ عليّ بابُ علمِ محمدٍ
إن زار بالجيش العرمرم ثلّة
وقد فارقوه بعد نصر مؤزّر
وقدماً أعاروه الجماجم خُشعاً
وهل ينفع النصر القديم إذا امحى
همٌ قد أثاروا الحرب حين تنكبوا
وهم مرقوا كالسهم من دين أحمدٍ
لعمري لنعم الصخبُ كانوا لصاحب
إذا همٌ بعد الحبّ لُدّاً تآلبوا
إن رفع القرآنُ خدعةً خادع
فقال علي لا تجيئوه للتي
إن قد حملتم حملة حيدريّة
يُرذّكم للإذلال بعد تعزّز
أعيروني لله الجماجم ساعة
ألا تمهلوني - يا رفاق مسيرة -
إذا كنتُ بالأحكام أبصرَ باصر

ففي القلب منها لوعةٌ و سعيّرُ
جمالاً يرد الطرف و هو حسيّرُ
واقمع من قد صدّ و هو جَسورُ
تشنُّ على أحبابه وتُغير
يُرذّ... و عشاقُ الجمالِ حضور
و ذاك حديث كالبدور شهير
يُعَبّ زائر أو يُمدحن مَزورُ
ولم يُلف منهم بعد ذاك ظهير
و ماكلٌ من وافى الحروب يعير
بحقد، و فارت بالعداء قدور
سلاحاً كثيفاً والسلاحُ يثير
و ذلك أمرٌ ما عليه ستورُ
ولكنّما الدنيا الفتون غرور
و دارت رحاهم و الزمانُ يدور
أجيب صغيرٌ واشتُضِلَ كبيرُ
أراد فدعوى من دعاكم زور
و رفر ف لي نصر و قام بشير؟!
وهل عزّة كالنصر حين يمور
فإنّ عدويّ حين ذاك فَرور
فُواقٍ انتصار و الفواقُ يسير؟
دعوني و ما قد أرتاي و أشير

١. ضمير التانيث يرجع إلى العقيدة المعلومة من سياق القصيدة.

ولا خيرَ في نسلٍ بغيرِ بصيرةٍ
فقالوا أجبههم للتي قد دعوا لها
والّا تجبههم يا عليّ فإنّا
و ساروا إلى أرض الحروراء وأغْتَدُوا
فقال لهم هيّا أنيبوا إلى الهدى
أطيعوني ما كنت التبيع لأحمد
فقالوا له أنت الكفورُ فثُبُّ وثُبُّ
وحجّوني بالقرآن إنّ كنُتُم على
ولمّا تنادوا للقتال تقدّموا
فأرداهم صُنُو النبي محمّد
فياعجبا كيف ابن وهب ^(١) يثيرها
وكان قوؤلاً: خمّروا الرأي تُفلحوا
فإن له في عتبة بن ربيعة
الّا أنّها الأقدارُ إنّ حانَ حينها
ويا ربّ علمٍ مثل جهلٍ مركب
ويا ربّ علمٍ يُحمّدُ الجهلُ عندهُ

وأجدر من خاض الحروب بصير
فثمّ كتابٌ حاكم و أمير
عداءُ اشداءٍ عليك نسور
لحرب عليّ والزمان غُدور
وهيّا معي نحو العداة فسيروا
فإن أنا لم اتبع خُطاه فثوروا
فما قادنّا نحو الجهاد كفور
مقاطع حقّ فالحقيقة نور
كأساد خفان لهنّ زئير
بلا ندمٍ والعزمُ منه مريم
ولم تختصر و الرأي منه أسير
فأكرم آراء الرجال خمير ^(٢)
مشابه حال تلتقي و تجور ^(٣)
يُغلبُ فِكْيرُ ^(٤) بها و خطيرُ
قليلٌ به الإنسان و هو كثير
و تُعزى له تمجيدَةٌ وشُكورُ

١. المراد: عبد الله بن وهب الراسبي رأس المحكمة.

٢. إشارة إلى ما اثر عنه: دعوا الرأي حتى يختمر فلا خير في الرأي الفطير.

٣. تميل.

٤. فِكْير: كثر التفكير. خطير: عظيم الشأن.

٢ - حكم مرتكب الكبيرة من الجهات الثلاث

إنَّ أوَّل مسألة - بعد الإمامة - أثارت ضجةً كبرى بين المسلمين وفرقتهم إلى فرقتين بل إلى فرق: مسألة حكم مرتكب الكبيرة، فقد وقع البحث فيها في جهات ثلاث:

الجهة الأولى: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو مشرك؟

الجهة الثانية: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو كافر؟

الجهة الثالثة: هل مرتكب الكبيرة محكوم بالخلود في النار أو لا؟

و أساس المسألة هو أنَّ العمل هل هو جزء من الإيمان أو لا؟: فعلى الأوَّل فإذا أُخِلَّ بحكم من أحكام الإسلام كما إذا ارتكب الحرام أو ترك الواجب لا جاحداً لحرمته أو وجوبه، بل لغلبة هواه على عقله، يخرج عن دائرة الإيمان، و على الثاني يبقى مؤمناً و يوصف بالفسق و الخروج عن الطاعة، ولأجل ايضاح المقام نشير إلى الآراء المختلفة في هذا الباب:

ذهبت الأزارقة إلى أنَّ مرتكب المعاصي مشرك فضلاً عن كونه كافراً من

غير فرق بين الكبيرة والصغيرة، وذهبت النجدية إلى أن مرتكب الكبيرة مشرك، وأما الصغائر فلا، فهاتان الطائفتان من متطرفة الخوارج، تتفقان في كون ارتكاب الكبائر موجباً للشرك و الكفر، ويختلفان في الصغائر، فتراها الأزارقة مثل الكبائر دون النجدية. و ذهبت الاباضية إلى كون الارتكاب كفراً لا شركاً، و الكفر عندهم أعم، من كفر الجحود و كفر النعم، فمرتكبها من المؤمنين كافر كفر النعمة لا كفر الجحود.

و ذهبت المعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر فضلاً عن كونه مشركاً. نعم اتفقت المعتزلة و الخوارج على كونه مخلداً في النار إذا مات غير تائب، وذهبت الإمامية والأشاعرة و أهل الحديث إلى كون مرتكب الكبيرة مؤمناً فاسقاً غير مخلد في النار.

هذه هي الأقوال و الآراء البارزة في المقام، ولنركز البحث في الجهات الثلاثة ونجعل الجميع مسألة واحدة، فإن كل واحدة، وجه لعملة واحدة، وإن كان للعملة الرائجة وجهان:

الجهة الأولى - هل مرتكب المعاصي مشرك؟

قد عرفت أن الأزارقة ذهبت إلى أن المعاصي كلها شرك و مرتكبها مشرك^(١) ولأجل تحليل هذا القول نذكر ما هو حدّ الشرك و محققه، فنقول: لو افترضنا أن مرتكب الكبيرة كافر، لا يصحّ لنا توصيفه بالشرك، فإنّ للشرك معنىً محدداً لا ينطبق على مرتكب الكبيرة إلا في ظروف خاصة و هي خارجة عن موضوع البحث، وتوضيح ذلك بوجهين:

١. صالح أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٥٢.

١ - إنه سبحانه قسّم الكافر إلى مشرك وغيره و قال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(٢) كل ذلك يدل على أن للمشرك معنى محدداً لا ينطبق على الكافرين من أهل الكتاب فضلاً على المسلم المعتقد بكل ما جاء به الرسول، إذا ارتكب كبيرة لا لاستهانة بالدين بل لغلبة الهوى على العقل، فكيف يمكن أن نعدّ كل كافر مشركاً، فضلاً أن نعدّ المسلم المرتكب للكبيرة مشركاً؟

ثم لو افترضنا صحة كون أهل الكتاب مشركين في الحقيقة و في الواقع، كما هو غير بعيد لقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾^(٣) ولكنه اصطلاح ثانوي لا يكون منافياً لما جرى عليه القرآن من عدّ أهل الكتاب في مقابل المشركين. و يظهر ذلك من الروايات الواردة حول الرياء فإنّ المرائي، قد وصف بالشرك، ولكنه شرك خفي لاصلة له بالشرك المصطلح في القرآن الكريم.

روى علي بن إبراهيم في تفسيره عن أبي جعفر الباقر قال: سئل رسول الله عن تفسير قوله الله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٤) فقال من صلى مراعاة الناس فهو مشرك - إلى أن قال - ومن عمل عملاً ممّا أمر الله به مراعاة الناس، فهو مشرك، ولا يقبل الله عمل مرءٍ^(٥).

١. البينة: ١.

٢. المائدة: ٨٢.

٣. المائدة: ٧٣.

٤. الكهف: ١١٠.

٥. الحر العاملي: وسائل الشيعة ١، الباب الحادي عشر من أبواب مقدمات العبادات ١٣ - ٥٠.

ولكن ذلك مصطلح آخر، أو استعارة له للمورد لتأكيد الأمر لما عرفت من أنّ المشرك في القرآن الكريم يطلق على غير المعتنقين لاحدى الشرائع السماوية، من غير فرق بين اليهود والنصارى وغيرهم.

٢ - إنّ الشرك عبارة عن تصوّر ندّ وثان لله سبحانه في ذاته أو صفاته أو أفعاله، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات التي تشرح لنا حقيقة الشرك و خصوصياته^(٤).

ولأجل تصوّر الندّ و المثل لله سبحانه في الذات أو الصفات أو الأفعال، كانوا يعبدون الأصنام بحكم أنّها أنداد لله تبارك و تعالى، فكانوا يساوونها بالله تعالى في العقيدة و العبادة، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

فعلى ضوء ذلك فلا يصحّ لنا توصيف إنسان بالشرك و عدّه من المشركين إلّا إذا اعتقد بندّ لله تبارك و تعالى و لو في مرحلة من المراحل، ولأجل هذه العقيدة كان المشركون يفرّون من كلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لكونها على جانب النقيض من عقيدتهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَ يَقُولُونَ أَأَنَا لَنَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾^(٦).

١. البقرة: ٢٢.

٢. البقرة: ١٦٥.

٣. إبراهيم: ٣٠.

٤. لاحظ: سورة سبأ / ٣٣، الزمر / ٨، فصلت / ٩.

٥. الشعراء: ٩٧ - ٩٨.

٦. الصافات ٣٥ - ٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾^(٢).

فهذه الآيات تحدّد حقيقة الشرك و تُعرّف المشرك بمضامينها، فهل يمكن توصيف المسلم المؤمن الموحد، بالشرك مع أنّه لم يتّخذ أي ندّ و مثل في مجال الذات و الصفات و الأفعال، ولم يعبد غيره، وإنّما وحده في الذات، والصفات، والأفعال، و في مقام القيام بوظائف العبوديّة لم يعبد إلاّ الله سبحانه. نعم غلبت عليه - أحياناً - شقوته، وسيطرت عليه نفسه الأمّارة فركب الحرام مع وجل و خوف.

وبذلك ظهر أنّ الكفر أعم من الشرك، فمن لم يتّخذ ندّاً و مثلاً لله سبحانه، و لكنّه كفر برسله و كتبه و ما نزل الله سبحانه، فهو كافر لا مشرك، و أوضح منه من آمن بالله ولم يكفر بشيء ممّا أنزله و أرسله غير أنّه صار مقهوراً فارتكب شيئاً حرّمه الله أو ترك فريضة أوجبها الله سبحانه.

فاتضح بذلك بطلان قول الأزارقة من أنّ المعاصي كلّها شرك كبطلان قول النجدية بأنّ الكبائر كلّها شرك وأمّا الصغائر فلا، إذ لا ينطبق معيار الشرك على مجرد ارتكاب المعصية، صغيرة كانت أو كبيرة.

أدلة الأزارقة على أنّ المعاصي شرك:

استدلّت الأزارقة على أنّ المعاصي كلّها شرك بآيات و المهم فيها آيتان وإليك البيان:

١. الزمر: ٢٥.

٢. غافر: ١٢.

١ - ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١).

يلاحظ عليه: أنَّ ظاهر الآية أنَّ المشرك ممَّن «ضَلَّ ضلالاً بعيداً»، فلو فرضنا أنَّ مرتكب الكبيرة من مصاديق تلك الضابطة فلا تدلُّ الآية على أنَّه مشرك لأنَّ ظاهر الآية أنَّ المشرك من مصاديق «فَقَدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً» لا أنَّ «كُلَّ من ضَلَّ ضلالاً بعيداً فهو مشرك» إذ من المحتمل أن تكون الضابطة أعم من الشرك، فمثل الآية مثل قولنا: «كل جوز مدور لا أنَّ كل مدور جوز».

أضف إلى ذلك: أنَّ مرتكب الكبيرة إذا كان موحداً مؤمناً بما أنزل الله تعالى، ليس من جزئيات قوله: «ضَلَّ ضلالاً بعيداً» لأنَّ القرآن إنما يستعمله في المشرك والكافر الجاحد، لا المؤمن المعتقد الذي غلبه هواه، و يعلم ذلك بالتتبع في موارد وروده في الذكر الحكيم.

قال سبحانه ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾^(٥).

١. النساء: ١١٦.

٢. إبراهيم: ٢-٣.

٣. إبراهيم: ١٨.

٤. الحج: ١٢.

٥. سبأ: ٨.

و قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾^(١).

و قال ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ... وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾^(٢).

فظهر من ذلك أنَّ الضلال البعيد مفهوم ينطبق على الجاحد مشركاً كان أم كافراً غير مشرك، ولا ينطبق على المؤمن بكل ما أنزل الله غير أنَّه غلب عليه هواه فركب الكبيرة.

٢ - قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^(٣).

قالوا: إنَّ معنى الآية انكم إن أطعتموهم بأكل الميتة فأنتم أيضاً مشركون.

يلاحظ عليه: أنَّ المراد هو الإطاعة في استحلال الميتة لا في أكلها، ولا شك أنَّ المستحل لما حرّم الله مشرك و ذلك لما قرّرنا في محلّه أنَّ التقنين والتشريع من فعله سبحانه و ليس في عالم التشريع مشرّع سواه، فالمستحل للميتة يصوّر ندّاً لله سبحانه، لا في الذات و الصفات بل في الأفعال و يشرك الغير معه في اعطاء فعله لغيره.

ويوضحه قوله سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾^(٤) فقد ورد في تفسيره أنّهم ما صلّوا ولا صاموا للأحبار والرهبان، بل أطاعوهم في تحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال^(٥).

١. الشورى: ١٨.

٢. ق: ٢٦ - ٢٧.

٣. الأنعام: ١٢١.

٤. التوبة: ٣١.

٥. الطبرسي: مجمع البيان ٣ / ٢٣.

الجهة الثانية - هل مرتكب المعاصي مؤمن أو كافر؟:

قد عرفت أنَّ الأزارقة و النجدية قالوا إِنَّ المعاصي شرك، و خالفهم الاباضية، فوصفوها بالكفر، و مرتكبها بالكافر، و يقع الكلام في الجهة الثانية في هذا الجانب، و قبل الخوض في تحليل دلائلهم نذكر ما هو حقيقة الإيمان و الكفر، فنقول:

إِنَّ حقيقة الإيمان هو التصديق القلبي، والقلب هو مرتكز لوائه، و أمَّا العمل فهو من مظاهره لامن مقوماته و يظهر ذلك من غير واحد من الآيات. قال سبحانه:

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(١)، و قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢)، و قال تعالى: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٣).

وتؤكد آيات الطبع و الختم على أَنَّ محلَّ الإيمان هو القلب، قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٥) والختم على السمع و البصر لكونهما من أدوات المعرفة التي يستخدمها القلب.

نعم كون القلب مركزاً للإيمان و خروج العمل عن كونه عنصراً مقوماً للإيمان، لا يعني أَنَّ التصديق القلبي يكفي في نجات الإنسان في الحياة الأخروية بل يعني أَنَّهُ يكفي في خروج الإنسان عن زمرة الكافرين - الذين لهم خصائص

١. المجادلة: ٢٢.

٢. الحجرات: ١٤.

٣. النحل: ١٠٦.

٤. النحل: ١٠٨.

٥. الجاثية: ٢٣.

وأحكام - التصديق القلبي، فيحرم دمه وماله و تحلّ ذبيحته و تصحّ مناكحته إلى غير ذلك من الأحكام التي تترتب على التصديق القلبي إذا أظهره بلسانه أو وقف عليه الغير بطريق من الطرق، و أمّا كون ذلك موجباً للنجاة يوم الحساب فلا، فإنّ للنجاة في الحياة الأخروية شرائط أخرى تكفل ببيانها الذكر الحكيم و السنّة الكريمة.

وبذلك يفترق عن قول المرجئة الذين اكتفوا بالتصديق القلبي أو اللساني واستغنوا عن العمل، وبعبارة أخرى قدّموا الإيمان و أخروا العمل، فهذه الطائفة من أكثر الطوائف خطراً على الإسلام و أهله، لأنّهم بإذاعة هذا التفكير بين الشباب، يدعونهم إلى الإباحية و التجرد عن الأخلاق و المثل الاسلامية، ويعتقدون أنّ الوعيد خاص بالكفار دون المؤمنين، فالحجيم و نارها و لهيبها لهم دون المسلمين، ومعنى هذا أنّه يكفي في النجاة الإيمان المجرد عن العمل، وأيّ خطر أعظم من ذلك؟

و على ضوء ذلك يظهر المراد ممّا رواه البخاري عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، و اقامة الصلاة و ايتاء الزكاة والحج و صوم رمضان^(١) فإنّ المراد من الإسلام، ليس هو الإسلام المقابل للإيمان في قوله سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢) ولا الإسلام و الإيمان بأقل درجتهما الذي له أحكام خاصّة، بل الإيمان المنجي لصاحبه من العذاب الأليم. وهذا لا يضر بما قلنا من أنّ مقوم الإيمان، هو العقيدة القلبية. وإليه ينظر ما روي عن الإمام الصادق من

١. البخاري: الصحيح ١ / ١٤ كتاب الإيمان.

٢. الحجرات: ١٤.

أنَّ الإسلام يحقن به الدم و تؤدّي به الأمانة، و يستحلّ به الفرج، والثواب على الإيمان^(١).

و بالجملة انّ كون التصديق القلبي مقياساً للإيمان غير القول بأنّ التصديق القولي أو القلبي المجزّدين عن العمل كاف للنجاة، ولأجل ذلك تركّز الآيات على العمل بعد الإيمان و تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾^(٣) و قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤) فلو كان العمل عنصراً مقوّماً لحقيقة الإيمان فما معنى الامر بالتقوى بعد فرض الإيمان لأنّه يكون أشبه بطلب الأمر الموجود و تحصيل الحاصل.

أدلة الخوارج على أنّ ارتكاب المعاصي كفر:

هناك آيات تتمسك بها الخوارج على أنّ العمل عنصر مقوم لحقيقة الإيمان حتّى المرتبة الضعيفة، نشير إلى بعضها:

١ - ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٥) فسمّى سبحانه تارك الحج كافراً.

يلاحظ عليه: أنّ المراد كفر النعمة، حيث إنّ ترك فريضة الحج مع الاستطاعة كفران لنعمته سبحانه وقد استعمل الكفر في مقابل شكر النعم إذ قال

١. البرقي: المحاسن ١ / ٢٨٥.

٢. البيّنة: ٧.

٣. طه: ١١٢.

٤. التوبة: ١١٩.

٥. آل عمران: ٩٧.

سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١).

على أنه يحتمل أن يكون المراد من توصيف تارك الحج بالكفر، هو كونه كافراً لجحد وجوبه، فيرجع الأمر إلى جحد الرسالة و يؤيده صدر الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ فأنبأ عن الزوم ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بلزوم ذلك و من المعلوم أن من أنكر لزومه فهو كافر.

٢ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢) قيل: إنه سبحانه أقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون إلا بتحكيم النبي و التسليم بحكمه، و عدم وجدان الحرج في قضائه، والتحكيم غير التصديق بل هو عمل خارجي^(٣).

يلاحظ عليه: أن الآية وردت في شأن المنافقين، فإنهم كانوا يتركون النبي و يرجعون في دعاويهم إلى الأحبار، و هم مع ذلك يدعون الإيمان بالنبي و الإذعان والتسليم له ﷺ فنزلت الآية بأنه لا يقبل منهم ذلك الإدعاء حتى يرى أثر الإيمان في حياتهم، و هو تحكيم النبي، في المرافعات و المنازعات و التسليم المحض أمام قضائه، و عدم احساسهم بالحرج، و هذا هو الظاهر من الآية، لا أن التحكيم بما أنه عمل، جزء من الإيمان و هذا نظير ما إذا ادعى إنسان حباً لرجل فيقال له: إن كنت صادقاً فيجب أن يرى أثر الحب في حياتك، فاعمل له كذا وكذا.

٣ - ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) بادعاء أن الفاسق بفسقه

١. إبراهيم: ٧.

٢. النساء: ٦٥.

٣. ابن حزم الظاهري: الفصل ٣ / ١٩٥.

٤. يوسف: ٨٧.

واصراره عليه، آيس من روح الله فكان كافراً.

والجواب: إن المدعى ممنوع: فإن فساق المؤمنين ليسوا بأيسين بل يرجون رحمة ربهم بالتوبة أو الشفاعة، أضف إليه: المراد من «الروح» هذا، الفرج بعد الشدة، ومثل هذا اليأس من الكبائر الموبقة، ولكنّه لا يوجب كفراً، وذلك لأنّ النهي في الآية نهى تشريعي و معناه أنّ اليأس من روح الله شأن الكافر دون المؤمن، نظير قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾^(١) أي ليس شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا عن خطأ خارجاً عن اختياره لا أنّ المؤمن لا يقتل المؤمن عمداً أبداً، و على ضوء ذلك فلو حصل اليأس من مؤمن فهو ركب الكبيرة الموبقة، و مع ذلك فليس بكافر.

٤ - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

يلاحظ عليه: أنّه سبحانه وصف من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة:

أ - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

ب - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤).

ج - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٥).

والآيتان الأوليتان نزلتا في حق اليهود، كما هو لائح من صدريهما.

والآية الثالثة في مورد النصارى و مع ذلك لا يكون المورد مخصّصاً للآيات بهما و المقصود هو أنّ من لم يحكم بما أنزل الله سواء أكان من أهل الكتاب أو غيرهم، فهو ظالم و فاسق و كافر، أمّا كونه ظالماً، فلأنّه تعدّى عن

١. النساء: ٩٢.

٢. المائدة: ٤٤.

٣. المائدة: ٤٤.

٤. المائدة: ٤٥.

٥. المائدة: ٤٧.

الحق، فترك حكم الله، و حكم بحكم الجاهلية، فإنَّ الحكم حكمان أما إلهي وأما جاهلي، فإذا ترك الأول يكون من قبيل الثاني، قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ يُوقِنُونَ﴾^(١).

و أما كونه فاسقاً، فإنَّ الفسق هو الخروج عن طاعة الله، يقال: فسقت التمرة: إذا خرجت قشرتها، فالحاكم بغير ما أنزل الله خرج عن طاعة الله.

وأما كونه كافراً، فلأنَّ الآية حسب شأن نزولها وردت في قوم ينكرون الرجم في توراتهم، و لأجله يحكمون بغير ما أنزل الله، فيكون هذا قرينة على أنَّ الكفر لأجل انكار ما أنزل الله في الكتب السماوية، وإلى ذلك ينظر ما نقله الرازي عن بعضهم: أنَّ قوله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما مَنْ عرف بقلبه كونه حكم الله، وأقرَّ به بلسانه، إلاَّ أنَّه أتى بما يضاده، فهو حاكم بما أنزل الله تعالى و لكنَّه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية^(٢).

وعلى ضوء ذلك فالآية تختصُّ بالجاحد لحكم الله الوارد في كتابه، المستلزم لانكار رسوله الذي أتى به في الكتاب.

٥ - ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(٣).

وجه الاستدلال، أنَّ الآية تحصر الداخل في النار في الكافر، حيث يقول: ﴿إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾، فيما أنَّ المسلمين اتَّفَقوا على دخول الفاسق في النار، يلزم أن يكون الفاسق كافراً.

يلاحظ عليه: أنَّ الآية تحصر الخلود في النار و المقيم فيها في المكذب

١. المائدة: ٥٠.

٢. الرازي: مفاتيح الغيب ٣ / ٤٢١.

٣. الليل: ١٤ - ١٦.

المتولّي لامجرّد الداخل فيها و تقول: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ وذلك لأنّ قوله ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾، من قوله صلى الرجل النار، يصلّاها أي لزمها^(١) وهي عبارة أخرى عن الخلود في النار فالآية لاتدل إلّا على أنّ الخلود في النار من خصائص الكافر المكذب المتولّي وأما المؤمن الفاسق فخارج عن حدود و دلالة الآية.

هذا و ربّما يستدلّ بالآية على قول المرجئة القائلة بالنار للكافرين دون المؤمنين، وذلك لأنّه سبحانه يقول: لا يدخل النار إلّا الكافر، والمؤمن الفاسق ليس كافراً، وأجاب عنه القاضي المعتزلي على ما نقل عنه: بأنّ (ناراً) نكرة في سياق الاثبات، وإنّما تعمّ النكرة في سياق النفي نحو قولك: ما في الدار رجل، و غير ممتنع أن تكون في الآخرة نار مخصوصة لا يصلّاها إلّا الذين كذبوا و تولّوا ويكون للفساق نار أخرى غيرها^(٢).

وأوضحه الطبرسي في مجمعه و قال: إنّّه سبحانه نكّر النار المذكورة ولم يُعرّفها، فالمراد بذلك أنّ ناراً من جملة النيران لا يصلّاها إلّا من هذه حاله، والنيران درجات على ما بيّنه سبحانه في سورة النساء^(٣)، فمن أين عرف أنّ غير هذه النار لا يصلّاها قوم آخرون^(٤).

و لكن الاستدلال و الجواب مبنيان على أنّ «الصلي» بمعنى الدخول و لكنه غير صحيح لما عرفت من أنّه الدخول الملازم للبقاء.

أضف إلى ذلك: أنّه لودلّ على أنّ النار مختصة بالكافرين يلزم منه الاغراء بالمعاصي لأنّه بمنزلة أن يقول الله تعالى لمن صدّق بالله و رسوله ولم يكذب

١. يقال صلى فلاناً النار: أدخله إيّاها و أثواه فيها.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨ / ١١٥.

٣. النساء: ١٤٥: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾.

٤. الطبرسي: مجمع البيان ٥ / ٥٠٢.

ولم يتول: أي معصية اقدمت عليها فلن يضرّك. وهذا هو الاغراء الذي لا يصدر من الحكيم.

على أنه سبحانه يقول بعدها ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(١) و يحصر المجنب عن النار في الأتقى، و معلوم أنّ الفاسق ليس بأتقى لأنّ «أتقى» مبالغة في التقوى و من يرتكب عظام الكبائر لا يوصف بأنه أتقى .

٦ - ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٢).

قالوا: و الفاسق تحيط به جهنم فوجب أن يكون كافراً.

يلاحظ عليه: أنّه من غرائب الاستدلالات، فإنّه لم يقل سبحانه: و إنّ جهنم لا تحيط إلاّ بالكافرين، حتّى يلزم أن يكون الفاسق من أقسام الكافر، باعتبار كونها محيطة به أيضاً ولا يلزم من كونها محيطة بقوم، ألا تحيط بقوم سواهم.

٧ - ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٣).

وجه الاستدلال: إنّ الفاسق لا يجوز أن يكون ممّن ابيضّت وجوههم، فوجب أن يكون ممّن اسودّت و إذا دخل فيه يكون كافراً لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

يلاحظ عليه: أنّ الآية تخبر عن وجود صنفين: صنف تبيضّ وجوههم، و صنف تسودّ وجوههم، فالأول من سمات المؤمن الذي لم يخالط إيمانه بإثم، والثاني من سمات الكافر الذي لم يؤمن بالله أو صفاته أو أفعاله، في النبوة

١. الليل: ١٧ - ١٨.

٢. التوبة: ٤٩.

٣. آل عمران: ١٠٦.

والخاتمية. و أما أنه ليس هنا صنف ثالث و يحشرون بغير هاتين السمتين، فلا تدل الآية عليه، والمؤمن الذي ركب الكبيرة هو من هذا القسم الثالث الذي لم تتكفل الآية ببيان حكمه. والحاصل ان الآية تبحث عن المؤمن الخاص، و الكافر المطلق، وتذكر سماتهما وحالاتهما، و أما القسم الثالث فهو خارج عن تقسيم الآية و لعل له سمة و علامة أخرى غير بياض الوجه و سواده لم تذكرها الآية.

قال الطبرسي: استدلت الخوارج بذلك على أن من ليس بمؤمن فلا بد أن يكون كافراً فإن الله سبحانه قسم الوجوه إلى هذين القسمين.

ولا تعلق لهم به، لأنه سبحانه ذكر هنا قسمين من الوجوه متقابلين، وجوه المؤمنين (غير العاصين) و وجوه الكفار، ولم يذكر وجوه الفساق من أهل الصلاة، فيجوز أن يكون لها صفة أخرى بأن يكون عليها غبرة لاتغشاها قتره أو يكون عليها صفرة أو لون آخر^(١).

٨ - ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾^(٢).

والفاسق لابد أن يجازى، فوجب أن يكون كفوراً.

يلاحظ عليه: أن المراد من قوله ﴿وَهَلْ نُجْزِي﴾ ليس مطلق المجازاة، بل مجازاة الاستئصال، والآية وردت في قصة أهل سبأ و هم استؤصلوا بالعقوبة، فالمجازاة المقترنة بالاستئصال من خصائص الكفار، لا كل مجازاة.

١. الطبرسي: مجمع البيان ٥ / ٤٤١.

٢. سبأ: ١٦ - ١٧.

٩ - ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١).

وفسر الغاؤون في آية أخرى بالمشركين قال سبحانه ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٢).

وعلى ضوء هذا فمرتكب الكبائر من الغاوين لأجل سلطة الشيطان عليه و هو حسب تعبير الآية الثانية من المشركين فينتج أنَّ مرتكب الكبيرة مشرك

يلاحظ عليه: أنَّ الآية فسرت الغاوين بصنفين: صنف يتولونه، و صنف به مشركون، ومرتكب الكبيرة داخل في الصنف الأول لافي الصنف الثاني.

١٠ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٣).

وجه الدلالة أنه سبحانه جعل الفاسق مكذباً.

يلاحظ عليه: أنَّ الاستدلال مبني على تفسير الفاسق بالمعنى الرائج في أعصارنا أي المؤمن بالله و صفاته و رسالاته المرتكب لكبيرة، و هو غير صحيح إذ ليس كل فاسق بهذا المعنى مكذباً، فتعين أن يكون المراد من الفاسق في الآية من خرج عن الطاعة بتكذيبه، ومن المعلوم أنَّ مثله كافر، قال سبحانه ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (٤) وبالجمله: المقصود من الفاسق في الآية من عصي عن طريق التكذيب الذي يساوق الكفر، لا من فسق - و هو مؤمن بقلبه ولسانه - بالخروج عن الطاعة لارتكابه المعاصي.

١. الحجر: ٤٢.

٢. النحل: ١٠٠.

٣. السجدة: ٢٠.

٤. السجدة: ١٨.

١١ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾^(١).

وجه الدلالة أنّ من لم يكن مؤمناً فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن فوجب أن يكون كافراً. يلاحظ عليه: أنّ الفاسق، أي المسلم المعتقد بالله سبحانه ورسوله وكتبه، المرتكب لبعض المحرمات، مؤمن ليس بكافر، فقلوله: الفاسق ليس بمؤمن، ممنوع، فإنّ الفاسق على قسمين، قسم يخرج عن طاعة الله سبحانه بالتكذيب والانكار، وقسم يؤمن به، ولكن لا يقوم في مقام العمل ببعض الوظائف، فالأول كافر دون الثاني.

وأما الشارح ابن أبي الحديد فيما أنّه من المعتزلة، ومرتكب الكبيرة عندهم لامؤمن ولا كافر بل في منزلة بين المنزلتين، أجاب بأنّ (من) هاهنا للتبويض وليس في ذكر التبويض نفي الثالث (ولعلّ هنا من ليس بمؤمن ولا كافر)^(٢) وهو كما ترى، لأنّ الآية في مقام الحصر.

١٢ - ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَأْيَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣).

وجه الدلالة أنّ مرتكب الكبائر ظالم، والظالم بحكم الآية جاحد والجاحد كافر، وإلى ذلك يرجع استدلالهم حيث يقولون:

١. التغابن: ٢.

٢. ابن أبي الحديد: شرح النهج ٨ / ١١٨.

٣. الأنعام: ٣٣.

١٣ - الفاسق ظالم لغيره، أو لنفسه، وكلّ ظالم كافر، قال تعالى:

﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف / ٤٤ - ٤٥) ^(١).

يلاحظ عليه: أنّ الكبرى ممنوعة و هي أنّ كل ظالم جاحد بآيات الله كما استظهره المستدل من الآية الأولى أو أنّ كل ظالم كافر كما استظهره من الآية الثانية، وذلك لأنّ المراد من الظالمين في كلتا الآيتين ليس هو مطلق الظالم ولو بمجرد ارتكاب الكبيرة فقط، بل المراد هو المكذب بقاء الآخرة.

أمّا الآية الأولى: فيشهد على ذلك سياق الآية: قبلها وبعدها حيث جاء في الآية المتقدمة قوله ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...﴾ وجاء في الآية المتأخرة عنها: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وأمّا الآية الثانية: فذيلها شاهد على أنّ المراد هو الجاحد بالآخرة.

أضف إلى ذلك: أنّه كيف يمكن أن يعدّ كل ظالم و لو ظلم نفسه كافراً؟

هذا هو نبينا آدم يقول: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ ^(٢) وقال تعالى حكاية عن موسى: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ ^(٣) وقال حكاية عن يونس: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٤).

١٤ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِي * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي﴾ ^(٥)... إلى قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٦) والفاسق لا يؤتى كتابه بيمينه بل يؤتى بشماله، إذ لا ثالث فیدخل تحت قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ

١. صالح أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٥٣.

٢. الأعراف: ٢٣.

٣. القصص: ١٦.

٤. الأنبياء: ٨٧.

٥. الحاقة: ٢٥ - ٢٦.

٦. الحاقة: ٣٣.

لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي هو وصف عام لكل من أوتي كتابه بشماله، ولو أردنا صوغ الاستدلال في قالب علمي نقول: مرتكب الكبيرة يؤتى كتابه بشماله، وكل من كان كذلك فهو ممن لا يؤمن بالله العظيم، فينتج: إن مرتكب الكبيرة ممن لا يؤمن بالله العظيم.

يلاحظ عليه: أن الاستدلال مبني على أن المراد من الموصول في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ...﴾ كل من يؤتى كتابه بشماله سواء كان جاحداً أو غير جاحد ليشمل المسلم المؤمن المرتكب للكبيرة، ولكن المراد منه القسم الخاص من هذه الطائفة أعني الجاحد بالله العظيم، أي من لم يوحد الله سبحانه في دار التكليف، والدليل على ذلك هو التعليل الوارد في الآية الأخرى أعني قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ فذيل الآية قرينة على اختصاص الموصول مع صلته، بالجاحد، لا المؤمن المذعن بكل الشرائع، لوضوح أنه ليس كل مرتكب الكبيرة غير مؤمن بالله العظيم وليس ارتكاب الكبيرة دليلاً على عدم الإيمان به لقضاء الضرورة على بطلانه.

ويؤيد ذلك أنه علل دفع الكتاب إلى الظاهر في بعض الآيات الذي هو بمنزلة دفعه إلى شماله بأنه كان غير مؤمن بالآخرة قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً...إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(١) ومعنى قوله «لن يحور» إنه لا يرجع إلى الحياة في الآخرة.

١٥ - ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(٢).

١. الانشقاق: ١٠ - ١١ و ١٤.

٢. المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٥.

وجه الاستدلال أنّ الفاسق ممّن خفّت موازينه، و من خفّت موازينه فهو مكذب حسب ظاهر الآية، و المكذب كافر بالاتفاق.

يلاحظ عليه: أنّ المراد من الموصول في قوله «ومن خفّت موازينه» ليس كل من خفّت موازينه سواء كان مكذباً بآيات الله أم مصداقاً بها حتى يعمّ المؤمن الفاسق، بل المراد هو القسم الخاص أعني الذين خفّت موازينهم لأجل التكذيب، لأجل أمر آخر، أعني ارتكاب الكبيرة مع التصديق، و يوضّح هذا الجواب،

ما ذكرناه في الآية المتقدمة، فلاحظ^(١).

١٦ - ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).

يلاحظ عليه: أنّ الآية، دليل على أنّ كل كافر فاسق، ولا تدلّ على العكس كما هو واضح. ثم إنّ الإمام علي عليه السلام ردّ على قول الخوارج بأنّ المسلم بارتكاب المعصية يصير كافراً بكلام منه موضع الحاجة:

قال مخاطباً الخوارج: «فإن أبيتُم إلّا أن تزعموا أنّي أخطأتُ وضللتُ، فلم تُضِلُّونَ عامّة أمة محمّد ﷺ، بضاللي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفّرونهم بذنوبي! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أنّ رسول الله ﷺ رجم الزاني المحصن، ثمّ صلّى عليه، ثم ورّثه أهله، وقتل القاتل وورّث ميراثه أهله، وقطع السارق، وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكحاهن المسلمات، فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم، وأقام حقّ الله فيهم، ولم يمنعهم سبهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من

١. راجع الآية ٩ - ١١ من سورة القارة.

٢. النور: ٥٥.

بين أهله»^(١).

و حاصل كلام الإمام: أنه لو كان صاحب الكبيرة كافراً لما صلى عليه رسول الله ﷺ ولا ورثته من المسلم، ولا مكّنه من نكاح المسلمات، ولا قسّم عليه من الفيء ولا أخرج من لفظ الإسلام^(٢).

إلى هنا تمّ البحث عن كون مرتكب الكبيرة مؤمناً أو كافراً، فحان الآن البحث عن الجهة الثالثة وهي: انّ مرتكب الكبيرة هل هو مخلّد في النار - إن لم يتب - أو أنّه يخرج منها بعد دخوله فيها وإنّما التأييد للكافرين؟

الجهة الثالثة - صاحب الكبيرة و خلوده في النار:

ذهب جمهور المسلمين إلى أن الخلود يختصّ بالكافر دون المسلم وإن أثم وركب الكبيرة، وذهبت الخوارج و المعتزلة إلى خلوده في النار إذامات بلا توبة. وبما أنّ المقام مختصّ بدراسة أدلّة الخوارج في المسألة، نكتفي ببيان أدلّتهم وأمّا ما استدللّ به جمهور المسلمين على عدم الخلود فيطلب من محله. فنقول: استدّلوا بآيات:

١ - قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٣) ولا شكّ انّ الفاسق ممّن عصى الله و رسوله بترك الفرائض وإرتكاب المعاصي.

يلاحظ عليه: أنّ الموضوع ليس مطلق العصيان، بل العصيان المنضم إليه

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨ / ١١٣ - ١١٤.

٣. النساء: ١٤.

التعدي عن حدود الله، و من المحتمل جداً أن يكون المراد من التعدي، رفض أحكامه سبحانه و عدم قبولها.

بل يمكن أن يقال: إن قوله ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ ظاهر في تعدي جميع حدود الله و هذه صفة الكفار، فالآية خاصة بهم لا بمرتكب الكبيرة. وأمّا المؤمن الفاسق فإنما يتعدى بعض الحدود.

٢ - ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(١) فعّد قاتل المؤمن من المخلّدين في النار من غير فرق بين أن يكون القاتل مسلماً أو كافراً.

يلاحظ عليه: أن الآية ناظرة إلى القاتل المستحل قتل المؤمن أو قتله لأجل إيمانه و مثله كافر و يدلّ عليه ما قبلها، قال سبحانه: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾^(٢). ثم يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ...﴾^(٣).

ثم يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ...﴾ فالآية حسب السياق تختص بالمستحلّ الكافر، خصوصاً بالنظر إلى قوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ والنفي وإن كان نفيّاً تشريعياً (ليس شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) لا تكوينياً (لا يصدر من المؤمن قتل المؤمن) ولكنّه يصحّ أن يقع قرينة

١. النساء: ٩٣.

٢. النساء: ٩١.

٣. النساء: ٩٢.

على اختصاص الآية الثالثة بالكافر.

٣ - ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١).

يلاحظ عليه: أنَّ الموضوع للحكم بالخلود ليس مطلق من كسب السيئة، بل من اكتسب السيئة و أحاطت به خطيئته، والمسلم المؤمن مهما كان عاصياً لا تحيط به خطيئته، فإنَّ في قلبه نقاطاً بيضاء يشع منها إيمانه و اعتقاده بالله سبحانه و أنبيائه وكتبه.

٤ - ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢). بحجة أنَّ المجرم أعم من الكافر و المؤمن الفاسق، وقد حكم عليه على وجه الإطلاق، بالخلود في النار.

يلاحظ عليه: أنَّ الآية واردة في حق الكفار بشهادة سياقها، قال سبحانه قبل هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ثم يقول ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ فبحكم المقابلة مع قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالمقصود من المجرمين هو الكفار.

هذه هي الآيات استدلت بها الخوارج ثم المعتزلة على تأييد صاحب الكبيرة في النار .
فلنكتف بهذا المقدار، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محاضراتنا الكلامية (٣).

١. البقرة: ٨١

٢. الزخرف: ٧٤ - ٧٦.

٣. محاضرات الاستاذ العلامة جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن محمد مكي: الالهيات ٢ / ٩١٠ - ٩١٢.

(٤١٤)

المخالفون عند الخوارج:

إنّ الخوارج يعدّون جميع المسلمين كفاراً، لارتكابهم الكبائر و لا أقل لتصويبهم مبدأً التحكيم، و أكثرهم على أنّ الكفر كفر الملة، أي الخروج عن الدين إلّا القليل منهم، كالاباضية فإنّهم يعدّونه كفراً لنعمه مثلما مرّ في قوله سبحانه في مورد الحج: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فإذا كانت سائر الفرق محكومة بالكفر، فتكون دارهم دار الكفر، لا دار الإسلام وقد أوجبت بعض الفرق منهم (كالأزارقة) لزوم الهجرة عنها، للمعتنقين لمبادئ الخوارج. و على كلّ تقديره فهذه المسألة من شعب المسألة الثانية و هي أنّ مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق، أو كافر، ولما ذهبت الخوارج إلى كونه كافراً فيكون جميع المسلمين المخالفين لهم في المبادئ، كفّاراً.

و بما أنّك عرفت أنّ مقوّم الإيمان عنصر قلبي، فلا يضرّ ارتكاب الكبيرة بالإيمان، لا بمعنى أنّ الإيمان القلبي و إن لم يقترب بالعمل موجب للنجاة في الآخرة، بل بمعنى أنّه يكفي في خروج الانسان من عداد الكافرين والدخول في عداد المسلمين: الإيمان القلبي بوحداية الله سبحانه، وكتبه، ورساله، ولهذا الإيمان آثار في الدنيا و الآخرة، وكان النبي الأكرم ﷺ يكتفي بالحكم في إيمان الرجل باظهار الشهادتين و هناك روايات متواترة بل متضافرة تدل على ذلك. قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «قاتل أهل خيبر حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا منك دماءهم و أموالهم، إلّا بحقّها و حسابهم على الله»^(٢).

١. آل عمران: ٩٧.

٢. مسلم: الصحيح ٧ / ١٢١، ابن عساكر: ترجمة الإمام علي ١ / ١٥٩ ح ٢٢٢، النسائي: خصائص أمير المؤمنين: ٥٧.

روى الشافعي في كتاب الأم عن أبي هريرة: أن رسول الله قال: «لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

ثم قال: فأعلم رسول الله أن فرض الله أن يقاتلهم حتى يظهروا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها يعني بما يحكم الله عليهم فيها، وحسابهم على الله بصدقهم وكذبهم وسرائرهم، الله العالم بسرائرهم، المتولي الحكم عليهم، دون أنبيائه وحكام خلقه، وبذلك مضت أحكام رسول الله فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلمهم أن جميع أحكامه على ما يظهرون، وأن الله يدين بالسرائر^(١).

نعم ورد في بعض الروايات، إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة والحجّ و صوم رمضان: روى البخاري عن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، و أنّ محمداً رسول الله و اقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، والحجّ، و صوم رمضان»^(٢) ولكنها من مظاهر العلم بالإيمان لا من مقوماته لأنّ إيمان الانسان يتوقّف على مظهر له في حياته، و الواجبات الواردة فيها مظاهر لهذا الإيمان.

الإيمان يزيد وينقص:

ثم إنّ مع القول بأنّ العنصر المقوم للإيمان هو الاعتقاد القلبي - نقول: الإيمان يزيد و ينقص في كلا الجانبين: العقيدة، و العمل، أمّا من جانب العقيدة: فأين إيمان الأولياء و الأنبياء بالله و رسله من إيمان سائر الناس، وأمّا

١. الشافعي: الأم: ٦ / ٤ انظر موسوعة الإمام الشافعي: ٧ / ٢٤١.

٢. البخاري: الصحيح ١، كتاب الإيمان: ٩.

من جانب العمل، فأين إيمان من لا يعصي الله سبحانه طرفة عين بل لا يخطر بباله العصيان، من المؤمن التارك للفرائض والمرتكب للكبائر.

نعم لاننكر أنه ربّما يؤدّي ترك الفرائض، و ركوب المعاصي، مدّة طويلة إلى الالحاد و الانكار و التكذيب و الجحد قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(١).

إنّ وزان «العقيدة و العمل الصالح» وزان الجذور و السيقان في الشجرة فكما أنّ تقوية الجذور مؤثّرة في قوّة السيقان، و كمال الشجرة وجود ثمرتها، فكذلك تهذيب السيقان و رعايتها بقطع الزوائد عنها و تشذيبها، و تعرّضها لنور الشمس، مؤثّرة في قوّة الجذور، إنّها علاقة تبادليّة بين العمل و العقيدة كالعلاقة التبادليّة بين الجذور و السيقان.

أجل ذلك هو الحال بالنسبة إلى تأثير الإيمان في العمل، و هكذا الحال بالنسبة إلى تأثير العمل في الاعتقاد، فإنّ الذي ينطلق في ميدان الشهوة بلا قيد، ويمضي في اشباع غرائزه إلى أبعد الحدود، يستحيل عليه أن يبقى محافظاً على أفكاره و اعتقاداته الدينية و قيمه الروحية. إنّهُ كلّما ازداد توغّلاً في المفسد ازداد بعداً عن قيم الدين لأنّها تمنعه عن المضي في سبيله و التماذي في عصيانه، و هكذا يتحرّر عن تلك المعتقدات شيئاً فشيئاً و ينسلخ منها و ينبذها وراءه ظهرياً.

و قد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة أيضاً.

و بهذا يعتبر الفصل بين العمل، والكفر، بين العقيدة و السلوك، نظرية خاطئة ناشئة من الغفلة عن التأثير المتقابل بين هذين البعدين.

ولهذا يسعى المستعمرون دائماً إلى افساد الأجواء الاجتماعية بهدف افساد الأخلاق والسلوك تمهيداً لتغيير الأفكار والقضاء على المعتقدات^(١).

١. محاضرات الاستاذ جعفر السبحاني بقلم جعفر الهادي: الله خالق الكون ٦٣٦ - ٦٣٧.

٣- في الخروج على الحاكم الجائر

اتَّفقت الخروج على لزوم الخوارج على الحاكم الجائر، و جعلوه فرعاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بشرط القدرة و المنعة عليه، و يظهر ذلك من خطبهم و رسائلهم أوان قيامهم، و هذا عبد الله بن وهب الراسبي عندما غارد مع جماعته الحرورية، متواجهاً إلى النهروان، خطب قومه و قال «أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن، و ينيبون إلى حكم القرآن، أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها و الركون إليها و الإيثار إيها عناء و تبار- أثر عندهم من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، والقول بالحق، إلى أن قال: فاخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكبين لهذه البدع».

و قال حرقوص بن زهير: «إنَّ المتاع بهذه الدنيا قليل، و إنَّ الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها و بهجتها إلى المقام بها، و لا تُلَفْتَنكم عن طلب

الحق وإنكار الظلم، فإنَّ الله مع الَّذِينَ اتَّقَوْا و الَّذِينَ هم محسنون»^(١).

و هذا نافع بن الأزرق يقول لأصحابه عند خروجه: «إنَّ الله قد أكرمكم بمخرجكم، بصركم عمّا عمي عنه غيركم، أستم تعلمون أنما خرجتم تطلبون شريعته و أمره، فأمره لكم قائد، والكتاب لكم إمام، و إنما تتبعون سننه و أثره...»^(٢). إلى غير ذلك من كتب القوم و رسائلهم و خطبهم التي يرون فيها الخروج على الإمام غير العادل واجباً.

أقول: الكلام في الإمام الجائر يقع في مقامين:

الأول: في لزوم إطاعته و عدمه.

الثاني: في وجوب الخروج عليه و عدمه.

أما الأول: لاشكَّ أنَّ إطاعة الإمام العادل من صميم الدين فلا يشكَّ في وجوب إطاعته اثنان، إنَّما الكلام في إطاعة الحاكم الجائر، فقد ذهب أهل السنّة إلى وجوب طاعته مطلقاً سواء أمر بالمعروف أو أمر بالمنكر، أو في خصوص ما لم يأمر بالمعصية، ولكلٍّ من القولين قائل ونذكر بعض كلماتهم في المقام:

١ - قال أحمد بن حنبل في رسالة ألفها لبيان عقائد أهل السنّة: «السمع والطاعة للأئمّة وأمير المؤمنين البرّ والفاجر، ومنّ ولي الخلافة، فأجمع الناس و رضوا به، و من غلبهم بالسيف، ويُسمّى أمير المؤمنين»^(٣).

٢ - و قال الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي (م - ٣٢١) في رسالته المسمّاة ببيان السنّة و الجماعة، المشهورة بالعقيدة الطحاوية: «و نرى الصلاة

١. الطبري: التاريخ ٤ / ٥٤ - ٥٥.

٢. الطبري: التاريخ ٤ / ٤٣٩.

٣. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ٢ / ٣٢٢ نقلًا عن إحدى رسائل إمام الحنابلة، وكلامه مطلق يعم ما إذا أمر بالطاعة أو بالمعصية.

خلف كل برّ و فاجر من أهل القبلة.. إلى أن قال: ولا ننزع يداً من طاعتهم، و نرى طاعتهم من طاعات الله عزّوجلّ فريضة علينا مالم يأمرُوا بمعصية»^(١).

٣ - و قال أبو اليُسّر محمّد بن عبد الكريم البزدوي: «الإمام إذا جار أو فسق لا ينعزل عند أصحاب أبي حنيفة و أجمعهم، و هو المذهب المروي»^(٢).

إلى غير ذلك من الكلمات التي وقفت على بعضها في الجزء الأوّل - من هذه الموسوعة - عند البحث عن طاعة السلطان الجائر و هي بين مطلق و مقيد فيما إذا لم يأمر بمعصية.

وهذه النظرية حيكت على طبق الروايات الواردة في الصحاح والمسانيد، و إليك بعضها:

أ - روى مسلم في صحيحه: بسنده عن حذيفة بن اليمان قال: قلت: «يا رسول الله، إنّنا كنّا بشرّ فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شرّ؟ قال: نعم قلت: هل واء ذلك الشرّ خير؟ قال: نعم قلت: فهل وراء ذلك الخير شرّ؟ قال: نعم قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنّتي و سيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع و تطيع للأمر، وإن ضرب ظهرك و أخذ مالك فاسمع و أطع»^(٣).

ب - روى أيضاً عن سلمة بن يزيد الجعفي، أنّه سأل رسول الله، فقال: «يا نبيّ الله، أرايت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقّهم و يمنعوننا حقّنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثمّ سألّه فأعرض عنه، ثمّ سألّه في الثانية أو في الثالثة فجذبته

١. أبو جعفر الطحاوي: شرح العقيدة الطحاوية ١١٠ طبع دمشق.

٢. الإمام البزدوي (إمام الفرقة الماتريدية): أصول الدين ١٩٠ طبع القاهرة.

٣. مسلم: الصحيح ٣ / ١٤٧٦، كتاب الإمارة، الباب ١٣، الحديث ١٨٤٧.

(٤٢١)

الأشعث بن قيس و قال: «اسمعوا و أطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم»^(١).
و في رواية أخرى فيه: «فجذبه الأشعث بن قيس فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا و أطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم»^(٢).

ج - و روى عن عبادة بن الصامت «قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع و الطاعة في منشطنا و مكهرنا و عسرنا و يسرنا و ائره علينا و أن لا ننزع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»^(٣).

تحليل هذه النظرية:

إنّ هذه النظرية لا يصدقها الكتاب العزيز و لا السنّة النبويّة و لا سيرة أئمة المسلمين، كيف يجوز إطاعة أمر الجائر مطلقاً، أو فيما إذا لم يأمر بمعصيته، و قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٤) وقد نقل سبحانه اعتذار بعض أهل النار بقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾^(٥) وقد تضافر عن رسول الله أنه قال: «لا طاعة

١. مسلم الصحيح ٣ / ١٤٧٤، كتاب الامارة، الباب ١٢، الحديث ١٨٤٦.

٢. مسلم: الصحيح ٣ / ١٤٧٥، كتاب الامارة، الباب ١٢، ذيل حديث ١٨٤٦.

٣. مسلم الصحيح ٣ / ١٤٧٠، كتاب الامارة، الباب ٨ ذيل حديث ١٨٤٠ (الرقم ٤٢). ولاحظ في الوقوف على سائر الروايات في هذا المجال كتاب دراسات في فقه الدورة الإسلامية ١ / ٥٨٠ - ٥٨٧ فإنه بلغ النهاية في جمع الروايات و الكلمات الصادرة عن الفقهاء في المقام.

٤. الشعراء: ١٥١ - ١٥٢.

٥. الأحزاب: ٦٧.

لمخلوقٍ في معصية الخالق»^(١).

و روى الإمام الرضا عن آبائه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أرضى سلطاناً بما أسخط الله خرج عن دين الله»^(٢).

و روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر أنه قال: «على المرء المسلم السمع و الطاعة فيما أحبّ و كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة»^(٣).

إلى غير ذلك من الروايات الناهية عن إطاعة الإمام الجائر مطلقاً أو فيما يأمر بمعصية. و الإمامان فيها و في غيرها يعرب عن حرمة الاطاعة مطلقاً، كيف و روى المتقي الهندي في كنز العمال عن أنس قال: «لا طاعة لمن لم يطع الله»^(٤) نعم كل ما ذكرنا من حرمة الطاعة، مشروط بالقدرة و المنعة، وإلا ففيه كلام آخر ليس المقام محل تفصيله.

و أمّا السيرة فتظهر حالها عند الكلام في المقام الثاني:

الثاني: في لزوم الخروج على الحاكم الجائر:

١ - ذهب أكثر أهل السنّة إلى حرمة الخروج، وهذا هو إمام الحنابلة يقول في رسالته السابقة: «و الغزو ماضٍ مع الأمراء إلى يوم القيامة، البرّ و الفاجر، وإقامة الحدود إلى الأئمة، وليس لأحدٍ أن يطعن عليهم و ينازعهم»^(٥).

٢ - و قال الشيخ أبو جعفر الطحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمتنا ولا

١. الحر العاملي: الوسائل ١١، الباب الحادي عشر من أبواب الأمر بالمعروف ٧، و نقله الرضي في نهج البلاغة قسم الحكمة برقم ١٦٥.

٢. المصدر نفسه برقم ٩.

٣. مسلم: الصحيح ٣، كتاب الامارة، الباب الثامن، الحديث ١٨٣٩.

٤. المتقي الهندي: كنز العمال ٦ / ٦٧، الباب ١ من كتاب الامارة، الحديث ١٤٨٧٢.

٥. تقدم مصدره.

ولادة أمرنا و إن جاروا»^(١).

٣ - و قال الإمام الأشعري عند بيان عقيدة أهل السنّة: «و يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصّلاح و أن لا يخرجوا عليهم بالسيف»^(٢).

٤ - وقال الإمام البزدوي: «إذا فسق الإمام يجب الدعاء له بالتوبة، ولا يجوز الخروج عليه لأنّ في الخروج إثارة الفتن و الفساد في العالم»^(٣).

٥ - و قال الباقلاني بعدما ذكر فسق الإمام و ظلمه بغصب الأموال، و ضرب الأبدان، و تناول النفوس المحرّمة، و تضييع الحقوق، و تعطيل الحدود: «لا يخلع بهذه الأمور ولا يجب الخروج عليه، بل يجب و عظه و تخويفه، و ترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله»^(٤).

إلى غير ذلك من الكلمات التي فيما ذكرنا غنى عنها.

نعم هناك شخصيات لامعة أصحروا بالحقيقة و جاءوا بكلام حاسم، وإليك بعض من ذهب إلى وجوب الخروج على الحاكم الجائر:

١ - قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: «كان مذهب أبي حنيفة مشهوراً في قتال الظلمة وأئمة الجور، ولذلك قال الأوزاعي: احتملنا أبا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف - يعني قتال الظلمة - فلم نحتمله، وكان من قوله: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض بالقول، فإن لم يؤتمر له فبالسيف على ما روي عن النبي ﷺ .

وسأله إبراهيم الصائغ و كان من فقهاء أهل خراسان ورواة الأخبار

١. أشرنا إلى مصدره.

٢. أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين ٣٢٣.

٣. الإمام البزدوي: أصول الدين ١٩٠.

٤. الباقلاني: التمهيد ١٨٦ طبع القاهرة.

ونسألكم عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فقال: هو فرض، وحدّثه بحديث عن عكرمة عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال: «أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب و رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف و نهاه عن المنكر فقتل»^(١).

٢ - و قال ابن حزم: «والواجب إن وقع شيء من الجور و إن قلّ، أن يكلم الإمام في ذلك ويمنع منه، فإن امتنع و راجع الحقّ وأذعن للقود من البشارة أو من الاعضاء، و لإقامة حدّ الزنا و القذف والخمر عليه فلا سبيل إلى خلعه، و هو إمام كما كان، لا يحلّ خلعه. فإن امتنع من انفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع، وجب خلعه و اقامة غيره ممّن يقوم بالحقّ، لقوله تعالى: ﴿تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع»^(٢).

٣ - و قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا تقاتلوا الخوارج بعدي» قال:

«و عند أصحابنا أنّ الخروج على أئمة الجور واجب، و عند أصحابنا أيضاً أنّ الفاسق المتغلّب بغير شبهة يعتمد عليها، لا يجوز أن يُنصر على من يخرج عليه ممّن ينتمي إلى الدين، و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، بل يجب أن ينصر الخارجون عليه، وإن كانوا ضالّين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلت عليهم، لأنّهم أعدل منه و أقرب إلى الحقّ، و لا ريب في تلزم الخوارج بالدين، كما لا ريب في أنّ معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك»^(٣).

١. الجصاص: أحكام القرآن ١ / ٨١.

٢. ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤ / ١٧٥.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥ / ٧٨.

٤ - و قال إمام الحرمين: «إنَّ الامام إذا جار، وظهر ظلمه و غيَّه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه فلاهل الحل و العقد، التواطؤ على ردعه و لو بشهر السلاح ونصب الحروب»^(١).

إذا و قفت على هذه النقول، فالحق هو وجوب الخروج على الحاكم الجائر إذا كان في ركوبه منصّة الحكم خطراً على الإسلام و المسلمين.

و يكفي في ذلك ما ورد حول الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فإنَّ الخروج على السلطان الجائر من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يقوم به إلا أصحاب القدرة و المنعة، الذين لديهم امكانية الكفاح المسلح .

وأما الروايات فيكفي في ذلك ما نذكر:

١ - روى الطبري في تاريخه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال، إنني سمعت علياً عليه السلام يقول - يوم لقينا أهل الشام - «أيُّها المؤمنون، إنَّه من رأى عدواناً يعمل به و منكراً يُدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم و برئ، و من أنكره بلسانه فقد أجر، و هو أفضل من صاحبه، و من أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى و قام على الطريق و نور في قلبه اليقين»^(٢).

٢ - و في مسند أحمد عن رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّوجلَّ لا يعذب العامّة بعمل الخاصّة حتى يروا المنكر بين ظهرائهم، وهم قادرون على أن ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصّة و العامّة»^(٣).

١. التفتازاني: شرح المقاصد ٢ / ٢٧٢ نقلاً عن امام الحرمين.

٢. الحر العاملي: الوسائل ١١ / ٤٠٥، الباب ٣ من أبواب الأمر والنهي و... الحديث ٨، ورواه أيضاً في نهج البلاغة: فيض

١٢٦٢، عبدة ٣ / ٢٤٣، صالح ٥٤١، الحكمة ٣٧٣.

٣. أحمد المسند ٤ / ١٩٢.

والقدرة، فمنطق القوة يستعان به إذا لم تثمر المراتب السابقة، وفي بعض الروايات إلماعات إليه، و هي بين كونها نقيّة السند و ضعيفته، و لكن المجموع يفيد اليقين بالمقصود.

٣ - قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «فانكروا بقلوبكم و الفظوا بالسنتكم و صكّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم»^(١).

٤ - إنّ الحسين خطب أصحابه و أصحاب الحرّ، فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: «أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالاثم و العدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان و تركوا طاعة الرحمن، و أظهروا الفساد و عطّلوا الحدود، و استأثروا بالفيء، و أحلّوا حرام الله و حرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير»^(٢).

٥ - روى الصدوق باسناده عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله لا يعذب العامّة بذنب الخاصّة إذا عملت الخاصّة بالمنكر سرّاً من غير أن تعلم العامّة، فإذا عملت الخاصّة بالمنكر جهاراً فلم تغيّر ذلك العامّة، استوجب الفريقان العقوبة من الله - عزّ وجلّ - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ المعصية إذا عمل بها العبد سرّاً لم يضرّ إلاّ عاملها، فإذا عمل بها علانية ولم يغيّر عليه أضرت بالعامّة». و قال جعفر بن محمد عليه السلام: «و ذلك أنّه يذلّ

١. الحرّ العاملي: الوسائل ١١ / ٤٠٣، الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف ١.

٢. الطبري: التاريخ ٤ / ٣٠٤.

بعمله دين الله و يقتدي به اهل عداوة الله»^(١).

و فيما ذكرنا من الروايات كفاية.

أمّا السيرة فحدّث عنها ولا حرج، ففي ثورة الإمام الطاهر الحسين سيّد الشهداء، و ثورة أهل المدينة على زيد الطاغية، و ثورة أهل البيت في فترات خاصة، كفاية لطالب الحق و كلّها تؤيّد نظرية لزوم الخروج على الحاكم الجائر بشروط خاصة مبيّنة في الفقه.

و نكتفي في المقام بما ذكره صاحب المنار قال:

«و من المسائل المجمع عليها قولاً و اعتقاداً: «إنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنّما الطاعة في المعروف»، و إنّ الخروج على الحاكم المسلم إذا ارتدّ عن الإسلام واجب، وإنّ اباحة المجمع على تحريمه كالزنا و السكر واستباحة إبطال الحدود و شرع مالم يأذن به الله، كفر وردّة، وإنّه إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، و حكومة جائرة تعطله، و جب على كلّ مسلم نصر الأولى ما استطاع، و أنّه إذا بغت طائفة من المسلمين على أخرى، و جرّدت عليها السيف، و تعدّ الصلح بينهما، فالواجب على المسلمين قتال الباغية المعتدية حتى تفيء إلى أمر الله.

و ما ورد في الصبر على أئمة الجور إلّا إذا كفروا، معارض بنصوص أخرى، والمراد به اتّقاء الفتنة و تفريق الكلمة المجتمعة، وأقواها حديث: «و أن لا تنازع الأمر أهله إلّا أن تروا كفراً بواحا». قال النووي: المراد بالكفر هنا المعصية. و مثله كثير. و ظاهر الحديث أنّ منازعة الامام الحق في إمامته ننزعها منه لا يجب إلّا إذا كفر كفراً ظاهراً و كذا عمّاله و ولاته.

و أمّا الظلم و المعاصي فيجب إرجاعه عنها مع بقاء امامته و طاعته في

١. الحرّ العاملي: الوسائل ١١ / ٤٠٧، الباب ٤ من أبواب الأمر و النهي و... الحديث ١.

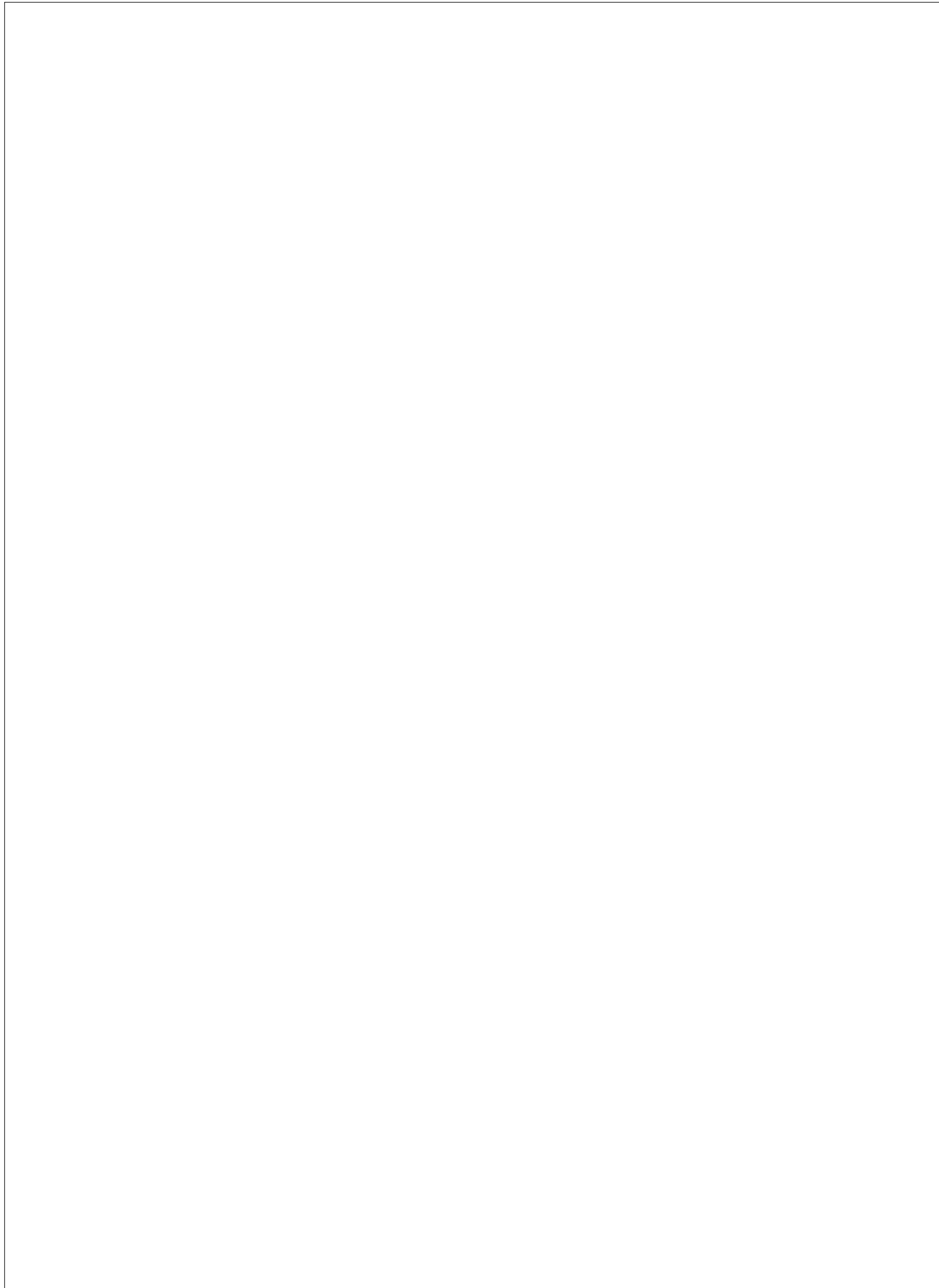
(٤٢٨)

المعروف دون المنكر، وإلاّ خلع و نصب غيره.

و من هذا الباب خروج الحسين سبط رسول الله ﷺ على امام الجور و البغي، الذي وليّ أمر المسلمين بالقوة والمكر: يزيد بن معاوية خذله الله، وخذل من انتصر له من الكرامية و النواصب الذين لايزالون يستحبون عبادة الملوك و الظالمين، على مجاهدتهم لإقامة العدل و الدين. وقد صار رأي الأمم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدّين المفسدين. وقد خرجت الأمة العثمانية على سلطانها عبد الحميد خان فسلبت السلطة منه و خلعتة بفتوى من شيخ الإسلام»^(١).

* * *

١. السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٦ / ٣٦٧، وياليت صاحب المنار (ت ١٣٥٤) يمشي على هذا الخط إلى آخر عمره والقصة ذو شجون، و من أراد التفصيل فليرجع إلى المناظرات التي دارت بينه وبين السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١) فقد أمارت الستر عن حياته و تلونه فيها، ولاحظ أيضاً كشف الارتباب ٦٤ - ٧٧.
(٤٢٩)



٤- التقية قولاً وعملاً

ذهبت الأزارقة إلى حرمة التقية في القول و العمل، بينما ذهبت النجدية إلى جوازها^(١) وربما تنسب حرمة التقية إلى جميع الخوارج وإن أكره المؤمن و خاف القتل^(٢).
يلاحظ عليه: أنَّ التقية تنقسم حسب انقسام الأحكام إلى خمسة، فمنها واجب، و منها حرام، فإنَّها تجب لحفظ النفوس، و الأعراس، و الأموال الطائلة، كما إنَّها تحرم إذا ترتبت عليها مفسدة أعظم كهدم الدين و خفاء الحقيقة على الأجيال الآتية.
قال الشيخ المفيد: التقية جائزة في الدين عند الخوف على النفس، وقد يجوز في حال دون حال للخوف على المال، و لضروب من الاستصلاح.

١. لاحظ فصل عقائد الخوارج وآرائهم.

٢. الامام عبده: المنار ٣ / ٢٨٠، بقلم تلميذه السيد محمد رشيد رضا، و ما ذكره إنما هو مذهب الأزارقة لا النجدية و ستعرف أنَّ التقية من تعاليم الاباضية وكانت هي السبب في بقائهم.

و أقول: إنها قد تجب أحياناً و يكون فرضاً، و تجوز أحياناً من غير وجوب، و تكون في وقت أفضل من تركها، و يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذوراً و معفواً عنه، متفضلاً عليه بترك اللوم عليها.

و أقول: إنها جائزة في الأقوال كلها عند الضرورة، و ربّما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح و ليس يجوز من الأفعال في قتل المؤمنين ولا فيما يُعلم أو يُغلب أنه استفساد في الدين، و هذا مذهب يخرج عن أصول أهل العدل و أهل الامامة خاصة دون المعتزلة و الزيدية و الخوارج و العامة المتسميّة بأصحاب الحديث^(١).

و يكفي في جواز ذلك:

١ - قوله سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

فقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾ استثناء من أهم الأحوال، أي أنّ ترك موالاة الكافرين حتم على المؤمنين في كلّ حال، إلا في حال الخوف من شيء يتقونه منهم، فللمؤمنين حينئذ أن يوالوهم بقدر ما يتقّى به ذلك الشيء لأنّ درء المفاصد مقدّم على جلب المصالح. والاستثناء منقطع، فإنّ التقرب من الغير خوفاً، بإظهار آثار التولّي، ظاهراً من غير عقد القلب على الحبّ والولاية، ليس من التولّي في شيء، لأنّ الخوف

١. الشيخ المفيد: أوئل المقالات ٩٦ - ٩٧. قوله «و العامة المتسميّة بأصحاب الحديث» يعرب عن أن غير المعتزلة من أهل السنّة كانوا معروفين في عصر الشيخ (٣٢٦ - ٤١٣) بأصحاب الحديث، وأمّا تسمية طائفة منهم بالأشاعرة فإنّما حدث بعد ذلك العصر.

٢. آل عمران: ٢٨.

والحب أمران قلبيان و متنافيان أثراً في القلب، فكيف يمكن اجتماعهما، فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

٢ - قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ * وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١) فتري انه سبحانه يجوز إظهار الكفر كرهاً و مجارة الكافرين خوفاً منهم، بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالايمان. فلو كانت مداراة الكافرين في بعض الظروف حراماً، فلماذا رخصه الإسلام و أباحه، وقد اتفق المفسرون على أن الآية نزلت في جماعة أكرهوا على الكفر، و هم عمار و أبوه «ياسر» وأمه «سمية»، و قتل أبو عمار و أمه، و أعطاهم عمار بلسانه، ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله، فقال قوم: كفر عمار، فقال ﷺ: «كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى رسول الله و هو يبكي، فقال: «ماوراءك؟» فقال: «شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، و ذكرت ألهتم بخير». فجعل رسول الله يمسح عينيه و يقول: «إن عادوا فعدلهم بما قلت» فنزلت الآية^(٢).

وبذلك يظهر، أن تحريم التقية على وجه الاطلاق اجتهد في مقابل النص، فإن الآية تصرح بأن من نطق بكلمة الكفر مكرهاً و قاية لنفسه من الهلاك، لا شارحاً بالكفر صدراً، ولا مستحسناً للحياة الدنيا على الآخرة، لا يكون كافراً، بل يعذر.

٣ - «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْ صَادِقًا

١. النحل: ١٠٦.

٢. الطبرسي: مجمع البيان ٣ / ٣٨٨ و نقله غير واحد من المفسرين.

(٤٣٣)

يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ»^(١) ويقول أيضاً:
«وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ»^(٢).

نعم لوجوب التقية أو جوازها شروط وأحكام ذكرها العلماء في كتبهم الفقهية ولأجل ذلك
حرّموا التقية في موارد، كقتل المؤمن تقية، أو ارتكاب محرّم يوجب الفساد الكثير، ولأجل ذلك
نرى أنّ كثيراً من عظماء الشيعة وأكابرهم رفضوا التقية في بعض الأحيان وتهيأً للشنق على
حبال الجور، والصلب على أخشاب الظلم. وكلّ من استعمل التقية أو رفضها، له الحسنى، وكلّ
عمل بوظيفته التي عيّنتها ظروفه.

إنّ التاريخ يحكي لنا عن الكثير من رجالات الشيعة الذين تركوا التقية وقدموا نفوسهم
المقدّسة قرابين للحق، ومنهم شهداء «مرج العذراء» وقائدهم الصحابي العظيم الذي أنهكته
العبادة والورع، حجر بن عدي الكندي، الذي كان من قادة الجيوش الإسلامية الفاتحة للشام.
و منهم ميثم التمار، ورشيد الهجري، وعبد الله بن يقطر الذين شقّهم ابن زياد في
كناسة الكوفة، هؤلاء والمئات من أمثالهم هانت عليهم نفوسهم العزيزة في سبيل الحق،
ونطحوا صخرة الباطل، بل وجدوا العمل بالتقية حراماً، ولو سكتوا وعملوا بها وأصبح دين
الإسلام ديناً معاوية ويزيد وزياد ودين المكر، ودين الغدر، ودين النفاق، ودين
الخداع، دين كل رذيلة، و أين هو من دين الإسلام الحق، الذي هو دين كل فضيلة، أولئك هم
أضاحي الإسلام وقرابين الحق.

١. غافر: ٢٨.

٢. القصص: ٢٠.

و فوق أولئك، امام الشيعة، أبو الشهداء الحسين و أصحابه الذين هم سادة الشهداء و قادة أهل الإباء.

وبذلك ظهر أنّ إيجاب التقية على الإطلاق و تحريمها كذلك، بين الإفراط والتفريط. والقول الفصل هو تقسيم التقية إلى الواجب والحرام، أو إلى الجائز - بالمعنى الأعم - والحرام. و بما أنّ الشيعة اشتهرت بالتقية بين سائر الفرق، و ربّما تُزرى بها و تُتهم بالنفاق فقد أشبعنا الكلام فيها، و بينّا، الفرق بين التقية و النفاق في أبحاثنا الكلامية^(١).

و هناك كلمة للعلامة المحقق السيد الشهرستاني تأتي بها هنا:

قال: المراد من التقية إخفاء امر ديني لخوف الضرر من إظهاره، و التقية بهذا المعنى، شعار كلّ ضعيف مسلوب الحرية، إلّا أنّ الشيعة قد اشتهرت بالتقية أكثر من غيرها، لأنّها منيت باستمرار الضغط عليها أكثر من أيّ أمة أخرى، فكانت مسلوقة الحرية في عهد الدولة الأموية كلّها، و في عهد العباسيين على طوله و في أكثر أيام الدولة العثمانية ولأجله استشعروا شعار التقية أكثر من أيّ قوم، ولما كانت الشيعة تختلف عن الطوائف المخالفة لها في قسم مهم من الاعتقادات في أصول الدين، و في كثير من المسائل الفقهية، و تستجلب المخالفة (بالطبع) رقابة و حزاة في النفوس، و قد يجرّ إلى اضطهاد أقوى الحزبين لأضعفه، أو اخراج الأعزّ منهما الأذلّ كما يتلوه علينا التاريخ و تصدّقه التجارب، لذلك أضحت شيعة الأئمة من آل البيت تضطرّ في أكثر الأحيان إلى الكتمان لصيانة النفس و النفيس، والمحافظة على الوداد و الأخوة مع سائر اخوانهم المسلمين،

١. لاحظ الإلهيات ٢ / ٩٢٥ - ٩٣٣ بقلم حسن محمد مكي العالمي .

(٤٣٥)

لئلاً تنشق عصا الطاعة، و لكيلا يحسّ الكفار بوجود اختلاف ما في الجامعة الاسلامية
فيوسّعوا الخلاف بين الأمة المحمّدية^(١).

١. محمّد علي الشهرستاني (ت ١٣٨٦): تعاليق أوائل المقالات ٩٦ نقلاً عن مجلة المرشد ٢٥٢ - ٢٥٦.

(٤٣٦)

٥- ما تجب معرفته بالتفصيل

إنّ هذه المسألة تفترق عن المسألة الثانية أعني تحديد حقيقة الإيمان و أنّ العمل هل هو مقوّم لأقلّ مراتب الإيمان أو لا (وجه الفرق)؟ إنّ روح البحث في المقام عن تحديد ما تجب معرفته في مجالي العقيدة و الشريعة، بخلاف المسألة السابقة فإنّ موضوعه تحديد مفهوم الإيمان و أنّه هل هو متقوّم بالعقيدة فقط، أو مركّب منها و من العمل؟ فالمسألتان مختلفتان جوهرًا فنقول:

الإسلام عقيدة و شريعة، و المطلوب من الأولى، المعرفة ثم الالتزام القلبي، كما أنّ المطلوب من الثانية المعرفة ثم الالتزام العملي، و هذا ممّا لم يختلف فيه اثنان، إلّا أنّه وقع الاختلاف في تحديد المقدار الذي تجب معرفته تفصيلاً مقدّمة للالتزام القلبي، كما وقع الخلاف في المقدار الأدنى الذي تجب معرفته تفصيلاً مقدّمة للالتزام العملي، و نحن نبحت عن كلا الأمرين.

الأمر الأول: ما تجب معرفته في مجال العقيدة:

الذي يظهر من الطائفة البيهسيّة من الخوارج، لزوم معرفة جميع العقائد الاسلامية تفصيلاً و أنّه لولا هذه المعرفة لما دخل الانسان في عداد المسلمين، قالوا: لأيسلم أحد حتى يُقر بمعرفة الله، و بمعرفة رسوله ﷺ و بمعرفة ما جاء به محمد ﷺ جملة، و الولاية لأولياء الله سبحانه، والبراءة من أعداء الله - جلّ وعلا - و ما حرّم الله سبحانه ممّا جاء فيه الوعيد فلا يسع الانسان إلّا علمه و معرفته بعينه وتفصيله^(١).

ويظهر هذا القول من بعض علمائنا الامامية. قال العلامة الحلّي: أجمع العلماء على وجوب معرفة الله و صفاته الثبوتية و ما يصحّ عليه و ما يمتنع عنه و النبوة و الامامة و المعاد بالدليل لا بالتقليد^(٢).

وفي الوقت نفسه هناك من قال منهم بكفاية الاقرار (الا المعرفة) بما جاء من عند الله جملة^(٣).

و يظهر هذا القول من الاباضية، قال محمد بن سعد الكدمي - وهو من علماء الاباضية في القرن الرابع - «اعلموا أنّ الجملة التي دعا إليها محمد ﷺ وكذلك من دعا إلى دين الله بعد موت رسول الله ﷺ ، ممّا لا يسع الناس جهله، و هو الاقرار بالله، أنّه واحد، و أنّه ليس كمثله شيء، وانّ محمداً عبده و رسوله، وانّ جميع ما جاء

١. يراجع الفصل التاسع: الفرقة الثالثة: البيهسية.

٢. العلامة الحلّي: الباب الحادي عشر ٢.

٣. لاحظ عقائد الفرقة البيهسية المنسوبة لأبي بيّس في هذا الفصل و يحتمل أن يكون المراد من «جملة» هو الاعتقاد الاجمالي بما جاء به الرسول فلا يدل على لزوم المعرفة التفصيلية و لكن يخالفه ذيله الصريح في لزومها.

(٤٣٨)

به محمد عن الله فهو الحق، فهذا الذي لا يسع جهله في حال من الاحوال^(١).
و أضاف البعض الآخر من الاباضية تبعاً لأهل الحديث ثم الأشاعرة، الإيمان بالقدر خيره
وشره (فيجب معرفتهما) قال ابن سلام: الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و
البعث و اليوم الآخر و الموت و القدر خيره و شره من الله عزوجل^(٢).
ولأجل وجود التطرف في القول الأول قال شيخنا المرتضى الأنصاري عند البحث عن
حجية الظن في أصول الدين:

«لقد ذكر العلامة رحمته في الباب الحادي عشر في ما يجب معرفته على كل مكلف من
تفاصيل التوحيد و النبوة و الامامة و المعاد أموراً لا دليل على وجوبها مطلقاً، مدعيّاً أنّ الجاهل
بها عن نظر و استدلال خارج عن ربقة الإسلام مستحق للعقاب الدائم و هو في غاية
الاشكال»^(٣).

و لأجل تحقيق الحال نبحت عن الموضوع على وجه الايجاز فنقول: إنّ المسائل
الأصولية التي لا يطلب فيها أولاً و بالذات إلا الاعتقاد، على قسمين:
الأول: ما وجب على المكلف الاعتقاد و التدّين به غير مشروط بحصول العلم، فيكون
تحصيل العلم من مقدّمات ذلك الواجب المطلق فيجب تحصيل مقدّمته (المعرفة).
الثاني: ما يجب الاعتقاد و الالتزام إذا اتّفق حصول العلم به، و هذا كبعض تفاصيل
المعارف الاسلامية الراجعة إلى المبدأ والمعاد.

أمّا القسم الأول: أعني ما يجب الاعتقاد به مطلقاً ولأجل كون وجوبه غير

١. أبو سعيد الكدومي: المعتبر ١ / ١٤٥ من منشورات وزارة التراث القومي و الثقافة لسلطنة عمان.

٢. ابن سلام (ت ٢٧٣): بدء الإسلام و شرائع الدين ٦٠.

٣. مرتضى الأنصاري: الرسائل ١٧٠.

مشروط بشيء يجب تحصيل مقدّمته. فهذا لا يتجاوز عن الاعتقاد بالشهادتين: بشهادة أن لا إله إلا الله و شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ و هذه الشهادة تتضمن الاعتقاد الاجمالي بصحة كلّ ما جاء به النبي في مجال العقيدة.

والدليل على كفاية ذلك مايلي:

إنّ النبي الأكرم ﷺ كان يقبل إسلام من أقرّ بالشهادتين لفظاً حاكياً عن الاعتقاد به، و هذا يدلّ على أنّه يكفي في دخول الانسان في عداد المسلمين، الاقرار بهما و لا تجب معرفة تفاصيل المعارف و العقائد.

قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام):

إنّ الله عزّوجل بعث محمداً ﷺ و هو بمكة عشر سنين^(١) ولم يمت بمكة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا اله إلا الله و أنّ محمداً رسول الله ﷺ إلا أدخله الله الجنة باقراره و هو إيمان التصديق^(٢).

فهذا الاستدلال يعطي أنّ حقيقة الإيمان التي يخرج الانسان بها عن حدّ الكفر، الموجب للخلود في النار، لم تتغير بعد إنتشار الشريعة، و بعد هجرة النبيّ إلى المدينة المنورة.

نعم ظهرت في الشريعة أمور صارت ضرورية الثبوت من النبي ﷺ فيعتبر في تحقّق الإسلام عدم انكارها (لا لزوم التصديق بها تفصيلاً) و لكن هذا لا يوجب التغيّر في ما يقوم الإيمان به، فإنّ المقصود أنّه لا يعتبر في الإيمان أزيد من التوحيد و التصديق

١. يريد الدعوة العلنية فإنّها كانت عشر سنين وكانت في السنين الثلاثة الأولى سرّية.

٢. الكليني: الكافي ٢ / ٢٩ برقم ١٥١٠.

بالنبي ﷺ و أنه كان رسولاً صادقاً فيها يبلغ، ولا تلزم معرفة تفاصيل ذلك و إلاّ لزم أحد الأمرين:

- ١ - أن لا يكون من آمن بمكة من أهل الجنة لعدم إيمانهم.
- ٢ - أن تكون حقيقة الإيمان بعد انتشار الشريعة تختلف عن صدر الإسلام و كلا الأمرين كما ترى.

نعم لما كان الاعتقاد بالمعاد و الحياة الآخرة بمثل البُنية التحتية للدعوة الاسلامية بل لجميع الشرائع السماوية على وجه لا تتّصف الدعوة بالالهية بدون الاعتقاد بها. لابدّ من الاعتقاد بها في إطار الشهادتين فإنّه ينطوي في طيّاتهما يوم بعث النبي الأكرم بالهداية. و يؤيّد ما ذكرنا ما رواه البخاري في ذلك المجال وإليك نصّه:

قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: لأُعطينَ غداً هذه الراية رجلاً يحبّ الله و رسوله يفتح الله على يديه. قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الامارة إلاّ يومئذ، قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه إياها و قال:

امش و لا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار علي شيئاً ثم وقف و لم يلتفت و صرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟

قال ﷺ: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله و أنّ محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم و أموالهم إلاّ بحقّها، و حسابهم على الله^(١).

فإذا كان الاقرار بالشهادتين كافياً في توصيف المقر مسلماً و مؤمناً، فيدل

١. مسلم: الصحيح ٧ / ١٢١، ابن عساكر: ترجمة الإمام علي ١ / ١٥٩ ح ٢٢٢، النسائي: خصائص أمير المؤمنين ٥٧.

بالملازمة على عدم لزوم معرفة ما سواهما.

و يوضح ذلك أيضاً ما رواه الامام الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام: قال النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ن فإذا قالوها فقد حرم عليّ دماءهم و أموالهم ^(١).
و روى أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إلا الله عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله ^(٢). و الاستدلال بالروايتين حسب مامر في غيرهما من الدلالة الالتزامية على عدم لزوم معرفة غيرهما.

وأما معرفة ما عدا ذلك من المعارف فلم يدل دليل على وجوب معرفتها بل الأصل المحكم عدم الوجوب إلا ما دلّ الدليل الثانوي على وجوبه ^(٣).

هذا كله في المعارف التي تجب معرفتها بلا قيد، ولأجل ذلك يجب تحصيل معرفتها.
أما القسم الثاني: أعني ما يجب الاعتقاد به لو وصل العلم به، فهذا كمعرفة صفات الرب و أوصافه و المعرفة التفصيلية للمعاد و الحياة الآخروية، كلّ ذلك يجب الاعتقاد به إذا حصل العلم و المعرفة و لكن لا يكون ذلك دليلاً على اعتباره في الإسلام أو الإيمان بأدنى مراتبه.

١. المجلسي: البحار ٦٨ / ٢٤٢.

٢. المجلسي: البحار ٦٨ / ٢٤٢ نقله عن مشكاة المصابيح في التعليقة.

٣. كمعرفة الامام التي دلت الأدلة على وجوب معرفته. نعم إن ما رواه البخاري: الصحيح: ١ / ١٤ كتاب الإيمان عن النبي الأكرم من بناء الإسلام على خمس و أضاف بعد الشهادتين: اقامة الصلاة و ايتاء الزكاة و الحج، و صوم شهر رمضان، فهو خارج عن موضوع البحث و داخل في البحث الآتي: «ما يجب تعلّمه في مجال الشريعة».

(٤٤٢)

ما يجب تعلّمه في مجال الشريعة:

هذا كلّ في مجال العقيدة و أمّا مجال الشريعة فتجب معرفة ما يبتلى به المكلف في حياته من الأحكام الفرعية.

فالحق، التفصيل بين ما تعم البلوى بها و غيره، أمّا الأوّل فتجب معرفة أحكامه فلا يجوز للمكلف الدخول في العمل مع الظن بالابتلاء بما لا يعلم حكمه كأحكام الخل، الشائع وقوعه في الصلاة. و أمّا الثاني أعني ما لا يتفق الابتلاء به إلّا نادراً فلا يجب تعلّم حكمه قبل الابتلاء للوثوق بعدم الابتلاء به غالباً و على ذلك جرت السيرة بين المسلمين مضافاً إلى أنّ إيجاب معرفة جميع الأحكام تفصيلاً ممّا يوجب العسر و الحرج و يوجد الفوضى في الحياة.

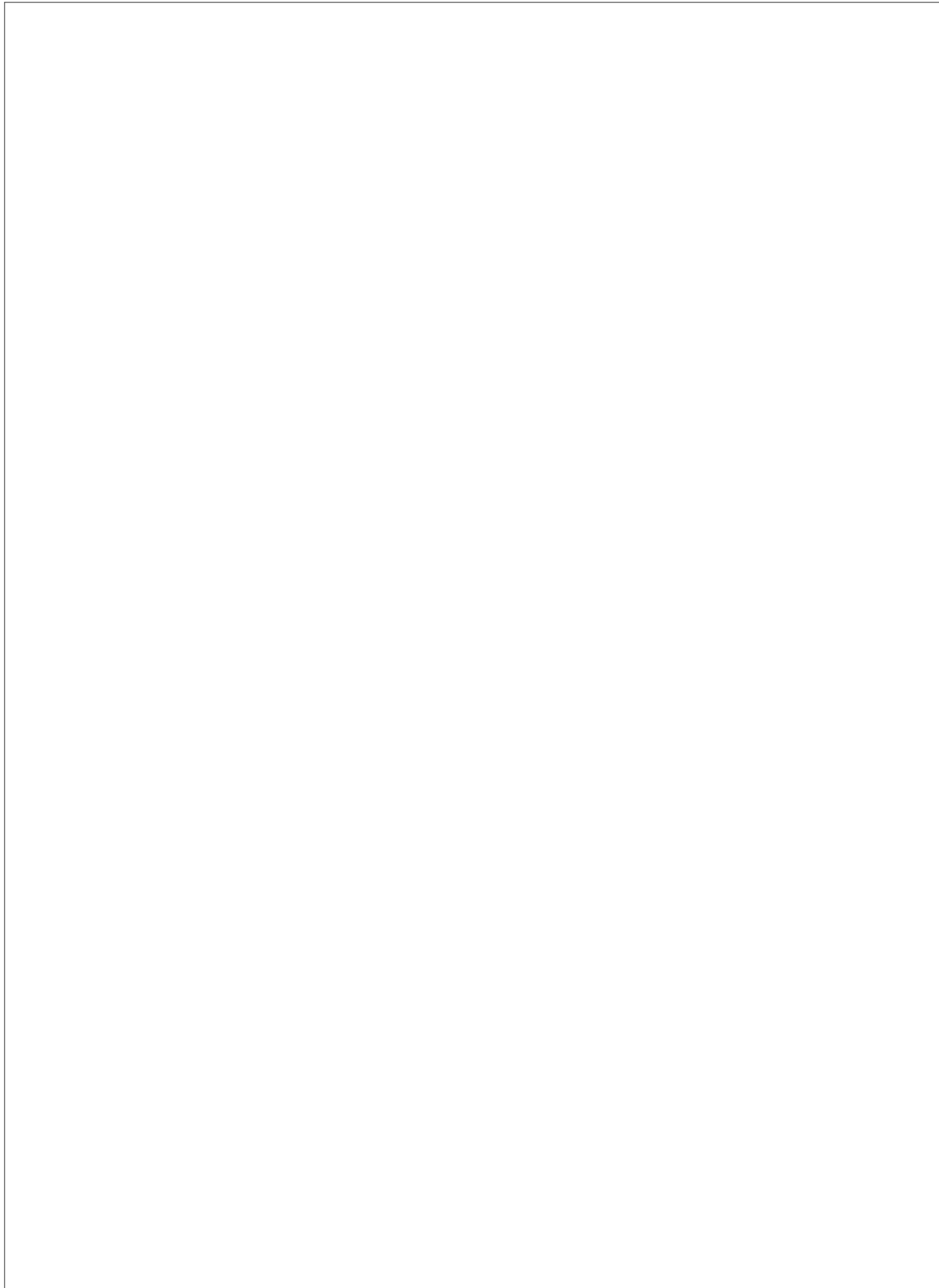
و هذا هو الظاهر أيضاً من بعض علماء الإباضية: قال: إذا لزمه شيء من ذلك ممّا يفوت مثل الصلاة، و الصوم، أو ممّا يفوت وقته من جميع الفرائض اللازمة له، ممّا يفوت وقته ويبطل و حضر وقته و وجب العمل به، فمعنى أنّه قيل إنّ عليه طلب العلم، من جميع ما جهل من ذلك^(١).

فما ورد في الشريعة الإسلامية من الحقّ الأكيد على تحصيل العلم كآية أهل الذكر (النحل: ٤٦). و الأخبار الدالة على وجوب طلب العلم و التفقّه كلّها منصرفه إلى الموارد المبتلى بها، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى محله^(٢).

١. أبو سعيد الكدّمي: المعتبر ١ / ٧٠.

٢. لاحظ الرسائل للشيخ مرتضى الأنصاري ١٤٠٠ آخر مبحث الاشتغال.

(٤٤٣)



٦- حكم الدار

وصف الدار بكونها دار اسلام أو إيمان، أو دار كفر، هو من جهة لحقوق بعض الأحكام الشرعية بالمقيمين فيها، مثل جواز المناكحة و التوارث إذ لم يعرف حاله، و الصلاة خلفه أو عليه إذا مات، و الدفن في مقابر المسلمين، و مولاته و معاداته، إلى غير ذلك من الأحكام، و قد اختلفت الآراء في الأمر الذي يصير سبباً لوصف الدار بكونها دار إسلام أو كفر. منهم من اعتبر الكثرة، فإذا كان الأكثر من أهل الدار على دين الإسلام فهي دار إسلام و إلا فدار كفر.

و منهم من اعتبر مع الكثرة، الغلبة أيضاً، بأن يكون غالبين قاهرين على الأمور. و منهم من اعتبر زوال التقية، فمتى لم يكن أهل الدار في تقيّة من السلطان في اظهار شعائر الدين فهي دار إسلام.

و منهم (كثير من الزيدية و المعتزلة) ذهب إلى أنّ المناطق في ذلك، بما

يظهر في الدار و يوجد المقيم بها من الحال، فإذا كانت الدار بحيث يظهر فيها الشهادتان ظهوراً، لا يمكن المقام فيها إلا بإظهارهما أو الكون في ذمة و جوار من مظهرهما، ولا يتمكن المقيم من اظهار خصلة من خصال الكفر فهي دار إسلام، وإن لم تكن الدار بهذا الوصف الذي ذكرناه فهي دار كفر. ولا اعتبار عندهم مع ذلك بما يكون عليه أهلها من المذاهب المختلفة بعد تحقّق ما ذكرناه^(١).

و قال شيخنا المفيد: إنّ الحكم في الدار على الأغلب فيها، و كلّ موضع غلب فيه الكفر فهو دار كفر، و كلّ موضع غلب فيه الإيمان فهو دار إيمان، و كلّ موضع غلب فيه الإسلام فهو دار إسلام، قال الله تعالى في وصف الجنة: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) وإن كان فيها أطفال و مجانين^(٣).

وقال في وصف النار: ﴿سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٤) و إن كان فيها ملائكة الله مطيعون. فحكم على كلتا الدارين حكم الأغلب فيها^(٥).

هذه هي الأقوال الدارجة في حكم الدار، و المعروف عن الخوارج رأيان:

١ - كلّ بلد ظهر فيه الحكم بغير ما أنزل الله فهو دار كفر.

٢ - إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعيّة، الغائب منهم و الشاهد^(٦).

و في الرأي الثاني تطرّف واضح، إذ كيف يكون كفر الإمام سبباً لكفر الرعيّة، أما سمعوا

قول الله سبحانه: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٧). وكان يقول

١. العلامة الزنجاني: التعليقة على أوائل المقالات ٧٠.

٢. النحل: ٣٠.

٣. فيه و ما بعده تأمل واضح.

٤. الأعراف: ١٤٥.

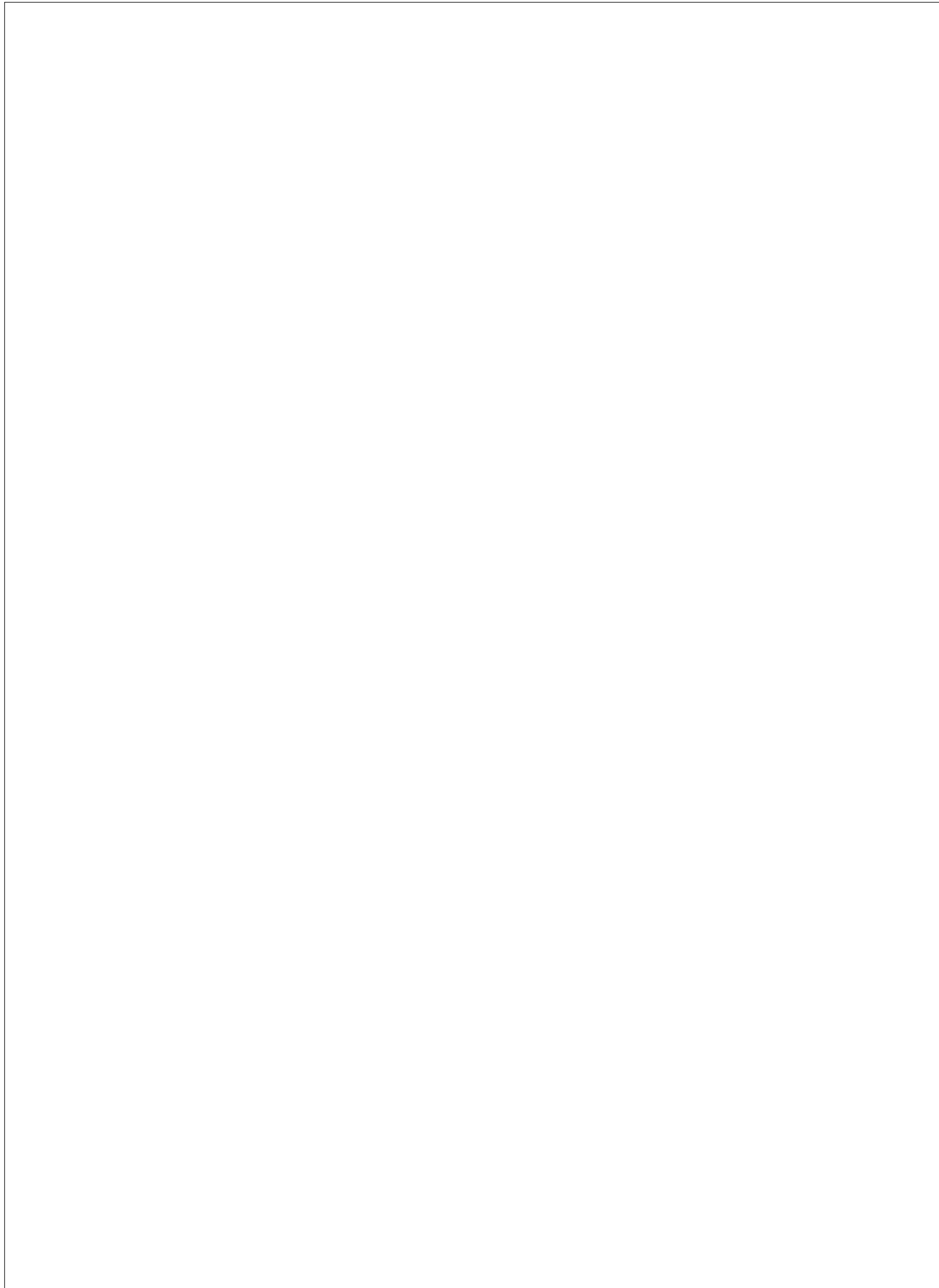
٥. المفيد: أوائل المقالات ٧٠ - ٧١.

٦. لاحظ ما ذكرناه في حقّ البيهسيّة.

٧. النجم: ٣٨.

عليه السلام في هذا الشأن مخاطباً الخوارج: فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت، وضللت، فلم تُضللون عامة أمة محمد ﷺ بضاللي و تأخذونهم بخطئي، و تكفرونهم بذنوبي^(١).

١. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.



٧- في حكم الزاني المحصن

قد عرفت أنّ الأزارقة لا تقول برجم الزاني إذا كان محصناً بحجة أنّه ليس في ظاهر القرآن، و لا في السنّة المتواترة، و لكن المسألة من المسائل الفقهية، و اتّفق الفقهاء، على رجم الزاني المحصن بلا فرق بين الرجل و المرأة، و إنّما اختلفوا من جهة أخرى.

١ - قال داود و أهل الظاهر عليهما الجلد و الرجم من غير فرق بين الشابّ و الشيخ، و الشابة و الشيخة، و هو احدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، كما في «المغني» لابن قدامة.

٢ - قالت الإمامية - بالتفصيل و هو أنّه - إذا كان المحصن شيخاً أو شيخة فعليهما الجلد و الرجم، وإن كانا شابّين فعليهما الرجم بلا جلد.

٣ - قال فقهاء أهل السنّة: ليس عليهما إلّا الرجم دون الجلد، و به قال بعض الامامية^(١).

١. الشيخ الطوسي: الخلاف ج ٣، كتاب الحدود، المسألة ١ و ٢، ابن قدامة: المغني ٩ / ٥ كتاب الحدود.

ولسنا بصدد تحقيق المسألة من حيث السعة و الضيق و إنما نبحث عن ثبوت الرجم في الإسلام على وجه الاجمال، و ذلك لثبوته بفعل النبي و الخلفاء و الصحابة، أما النبي ﷺ فقد زنى ما عزر فرجمه رسول الله ﷺ، و رجم العامرية، كما رجم يهوديين زنيا^(١)، و روي عن عمر، أنه قال: «إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأتها و عقلتها و وعيتها، و رجم رسول الله ﷺ و رجمنا بعده، فأخشي إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، فالرجم حق على من زنى إذا أحصن من الرجال و النساء إذا قامت البيّنة، أو كان الحبل أو الاعتراف و قد قرأ بها» الشيخ و الشيخة إذا زنيا فأرجموهما البتة نكالا من الله و الله عزيز حكيم»^(٢).

نحن لا نوافق الخليفة على كون آية الرجم من كتاب الله العزيز، فكيف يمكن لنا أن نعدّ كلاماً تعلو عليه الصناعة البشرية - و قد سرق جزءاً من الذكر الحكيم الوارد في حد السرقة و ركبّه مع كلامه فعاد كلاماً مغسولاً عن الفصاحة - من كلام الله العزيز، لكننا نوافق الخليفة على ثبوت الرجم في الإسلام، هذا هو الامام علي بن أبي طالب جلد سراجة يوم الخميس و رجمها يوم الجمعة و قال: جلدتها بكتاب الله، و رجمتها بسنة رسول الله.

وأما قوله سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٣).

١. لاحظ تفسير قوله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ - المائدة: ٤٣ -.

٢. ابن قدامة: المغني ٩ / ٤.

٣. النور: ٢.

فلا ينافي ثبوت الرجم مع الجلد في بعض الموارد، فإنه لا ينفى غير الجلد من سائر العقوبات، هذا إذا قلنا بثبوت الجلد و الرجم مطلقاً على المحصن، و أما إذا خصصنا الجمع بالشيخ و الشيخة، و أخرجنا الشاب و الشابة، فتكون السنّة مخصّصاً لآية الجلد، فإنّ عموم القرآن يخصّص بالدليل القطعي، و ليس هذا نسخاً بل تخصيصاً، وكم من فرق بين التخصيص و النسخ يقف عليه المعنّيون بعلم الأصول.

وأما الخوارج فقالوا بالجلد دون الرجم و احتجّوا بالوجهين التاليين:

- ١ - قوله سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ قالوا: لا يجوز ترك كتاب الله الثابت بطريق القطع و اليقين لأخبار آحاد يجوز الكذب فيها.
- ٢ - إنّ هذا يفضي إلى نسخ الكتاب و السنّة و هو غير جائز^(١).

يلاحظ على كلا الوجهين: أمّا الأوّل: فلأنّ القول بالرجم مضافاً إلى الجلد لا يستلزم ترك كتاب الله، لأنّ اثبات الشيء أي الجلد لا يكون دليلاً على نفي غيره، فأبى مانع من أن تكون العقوبة في مطلق الزنا هي الجلد، و في خصوص المحصن، الجلد مع الرجم؟ هذا إذا قلنا بجلد المحصن مطلقاً، و أما إذا خصصنا الجمع بالشيخ و الشيخة، و قلنا بكفاية الرجم في غير الشاب و الشابة، فأقصى ما يلزم تخصيص الكتاب بالسنّة القطعية و هو ليس بأمر شاذ، كيف لا يكون كذلك و قد اشتهر «و ما من عام إلّا و قد خصّ».

أمّا الثاني: فلأنّه خلط بين نسخ حكم الكتاب و تخصيصه، و الفرق بينهما واضح لا يخفى.

هذا وقد نقل ابن قدامة: أنّ رسل الخوارج جاءوا عمر بن عبد العزيز فكان من جملة ما عابوا عليه الرجم و قالوا: ليس في كتاب الله إلّا الجلد، و قالوا: الحائض أوجبتم عليها قضاء الصوم دون الصلاة، و الصلاة أوكد. فقال لهم عمر: وأنتم لا تأخذون إلّا بما في كتاب الله؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن عدد الصلوات المفروضات و عدد أركانها، و ركعاتها، و مواقيتها، أين تجدونه في كتاب الله تعالى؟ و أخبروني عمّا تجب الزكاة فيه و مقاديرها و نُصُبها؟ فقالوا: انظرنا، فرجعوا يومهم ذلك فلم يجدوا شيئاً ممّا سألهم عنه في القرآن، فقالوا: لم نجده في القرآن. قال: فكيف ذهبتم إليه؟ قالوا: لأنّ النبي ﷺ فعله، و فعله المسلمون بعده، فقال لهم: فكذلك الرجم و قضاء الصوم فإنّ النبي ﷺ رجم و رجم خلفاؤه بعده والمسلمون، وأمر النبي ﷺ بقضاء الصوم دون الصلاة، و فعل ذلك نساؤه ونساء أصحابه^(١).

* * *

١. ابن قدامة: المغنى ٩ / ٥.

خاتمة المطاف

إلى هنا قد تعرّفت على عقائد الخوارج معتدليهم و متطرّفيهم، غير أنّ هناك مسائل فقهيّة ثلاث نطرحها في المقام:

١ - حكم أولاد المشركين.

٢ - حكم تزويج المشركات.

٣ - حكم تزويج الكافرة غير المشرقة.

و لعل القارئ الكريم يتعجّب من طرح هذه المسائل في الموسوعة التاريخية للعقائد قائلاً بأنّ البحث عن مثل هذه الموضوعات من واجبات الفقيه لا مؤرّخ العقائد، ولكنّه يزول تعجّبه إذا وقف على أنّ الخوارج المتطرّفين، يزعمون أنّ مخالفيتهم من المسلمين مشركون أو كافرون، لا رتكاب الكبيرة من المعاصي، وبما أنّ للمشرك و الكافر الواقعيين أحكاماً خاصّة في الفقه الإسلامي من حيث صيانة الدماء وإراقتها و جواز تزويجهم و حرمتهم، فهؤلاء كانوا يرتّبون على المسلمين و أولادهم، أحكام المشركين و الكافرين و أولادهم، فيبيحون

قتل أولاد المخالفين، و يحرمون مناكرتهم بحجة أنهم مشركون، فناسب البحث عن هذه الأحكام الكلية مع غض النظر عن عدم الموضوع في المقام لأن أهل القبلة والقرآن كلهم موحدون لامشركون، مؤمنون لا كفرون، إلا من قام الدليل على شركه وكفره كالغلاة والنواصب. و بما أن الأزارقة و أمثالهم أخطأوا في حكم المسألة حتى في موارد الواقعية فجوزوا قتل أولاد المشركين و حرّموا انكاح الكافر غير المشرك، فلأجل ايلاف القارئ على مضان خطأهم في هذه المسائل نوالي البحث فيها واحدة بعد أخرى و نقول:

١- أولاد المشركين:

إن الأصل الرصين في الدماء هو الحرمة، و لزوم صيانتها من الازاقة، فالانسان - على وجه الاطلاق - هو خليفة الله في أرضه يحرم دمه و عرضه و ماله للغير، فلا يجوز التعدي على شيء منها إلا بدليل، ولأجل ذلك يقول سبحانه حاكياً عن نبيه موسى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿فَطَوَّعْتُ لَهُ نَفْسَهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٣) و قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^(٤) و قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٥) و: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

١. الكهف: ٧٤.

٢. المائدة: ٣٠.

٣. الأنعام: ١٤٠.

٤. الأنعام: ١٥١.

٥. الأنعام: ١٥١.

النَّاسَ جَمِيعًا^(١)، إلى غير ذلك من الآيات الناصّة على أنّ الأصل القويم والمرجع، في الدماء هو الحرمّة، فلا يجوز قتل الانسان على الاطلاق إلاّ بمسوّغ شرعي ورد النص بجواز قتله في الذكر الحكيم والسنة النبوية.

و على ضوء ذلك فالاسلام حرّم دم المسلم، و دم الذمّي، و الكافر المهادن، و من يمّثّ إليهم بصلّة، فإنّ أولادهم و إن كانوا غير محكومين بشيء من التكاليف إلاّ أنّ الولد يتبع الوالدين في الأحكام، و هذا ممّا لا يختلف فيه اثنان من الفقهاء.

وأما الكافر الحربي فهو مهدور الدم لا دم أطفاله و ذراريه، إلاّ في مواضع خاصّة. قال ابن قدامة: إنّ من أسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب: النساء و الصبيان، فلا يجوز قتلهم و يصيرون رقيقاً للمسلمين بنفس السبي، لأنّ النبي ﷺ نهى عن قتل النساء، والولدان، (متفق عليه) و كان ﷺ يسترقّهم إذا سباهم^(٢).

هذا فقيه أهل السنة، و أما الشيعة، فقال الشيخ الطوسي: الأدميون على ثلاثة أضرب: نساء و ذريّة و مشكل و بالغ غير مشكل، فأما النساء و الذرية فإنّهم يصيرون ممالك بنفس السبي^(٣).

و قال المحقّق الحلي: الطرف الرابع في الأسارى و هم ذكور و اناث، فالاناث يملكن بالسبي و لو كانت الحرب قائمة، وكذا الذراري^(٤).

١. المائدة: ٣٢.

٢. ابن قدامة الحنبلي: المغني ١٠ / ٤٠٠.

٣. الطوسي: المبسوط ٢ / ١٩.

٤. المحقق: شرائع الإسلام ١ / ٣١٧.

إلى غير ذلك من الفتاوى المستفيضة من فقهاء الإسلام، وهم يتبعون في ذلك، النصوص الواردة عن النبي و خلفائه.

روى الكليني عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله قال: كان رسول الله إذا أراد أن يبعث سرية، دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم الله و بالله وفي سبيل الله و على ملة رسول الله، لا تغلوا، و لا تُمثلوا و لا تغدروا، و لا تقتلوا شيخاً فانياً، و لا صبيّاً، و لا امرأة، و لا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها^(١).

وقد تضافرت الروايات عن أئمة الشيعة في ذلك.

روى البيهقي بسنده عن ابن عمر: أجلي رسول الله بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة بعد ذلك فقتل رجالهم، و قسم نساءهم، و أولادهم، و أموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا برسول الله فأمنهم وأسلموا^(٢).

و روى أيضاً النافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله مقتولة، فانكر رسول الله قتل النساء والصبيان^(٣).

هذا هو حكم الإسلام في صبيان الكفار و المشركين و نسائهم، فهلهم معي ندرس فتوى الأزارقة في نساء الكفار و أولادهم فقد استحلّ زعيمهم قتل الأطفال... قائلاً: إنّ نوحاً نبى الله كان أعلم بأحكام الله قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٤) فسمّاهم بالكفار و هم أطفال، و قبل أن يولدوا، فكيف ذلك في قوم

١. الحر العاملي: الوسائل ١١، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو، الحديث ٢.

٢. البيهقي: السنن ٦ / ٣٢٣، كتاب قسم الفئ والغنيمة.

٣. المصدر نفسه: ٩ / ٧٧ كتاب السير.

٤. نوح: ٢٦ - ٢٧.

ولا في قومنا؟ والله تعالى يقول: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾^(١) وهؤلاء كمشركي العرب، لا يقبل منهم جزية و ليس بيننا و بينهم إلاّ السيف أو الإسلام^(٢).
عزب عن المسكين، أولاً: إنّ تسميتهم بالكفار ليس باعتبار أنّهم في حال كونهم معدومين كفّاراً فإنّ ذلك باطل بالاتّفاق، إذ كيف يوصف الشيء المعدوم بوصف من الأوصاف الوجودية، بل المراد أنّ الأبناء بعد خروجهم إلى عالم الوجود سيصيرون كفّاراً لنشوئهم في أحضان آبائهم الكافرين و أمّهاتهم الكافرات، فللوراثة و البيئة تأثيرهما في الأولاد، فلا يلدون في المستقبل إلاّ أناساً يصيرون كفّاراً نظير توصيف الأشجار بالثمرة في فصل الشتاء، والمراد: المثمرة في فصل الثمر.

و ثانياً: إنّ الذراري و النساء و إن كانت محكومات بالكفر و لكن علمت أنّ النبي الأكرم حرّم دماءهم وأنما سوّغ سبيهم و استرقاقهم، فليس كلّ كافر يجوز قتله. فما ذكره من الاستدلال أوهن من بيت العنكبوت.

و ثالثاً: إنّ كلّ ذلك في حقّ المشركين و الكفار الحقيقيين، فما معنى تسرية هذه الأحكام إلى أهل القبلة و المسلمين الذين يشهدون بتوحيده و رسالة نبيّه و يقيمون الصّلاة و يعطون الزكاة و يصومون شهر رمضان و يحجّون البيت. أفصح لنا تسمية هؤلاء كفّاراً، بحجّة ارتكابهم معصية كبيرة؟!

١. القمر: ٤٣.

٢. لاحظ رسالة ابن الأزرقي في جواب رسالة نجدة بن عامر، وقد مرّت في الفصل التاسع.

(٤٥٧)

٢- في نكاح المشركات:

قد تعرّفت على أنّ الخوارج يعدّون مخالفيتهم مشركين و كافرين، فعلى قول الأزارقة جماهير المسلمين رجالاً و نساءً مشركون و مشركات، و على قول غيرهم فهم كفرون و كافرات، فحكم تزويج حرائرهم حكم تزويج الوثنيات و الكتابيات، ولأجل ذلك نذكر بعض كلماتهم ثم نعرض المسألة على الكتاب والسنة.

كتب ابن الأزرقي إلى عبد الله بن صفار و عبد الله بن اباص كتاباً جاء فيه:

و قال تعالى ﴿لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ فقد حرّم الله ولايتهم و المقام بين أظهرهم و اجازة شهادتهم و أكل ذبائحتهم و قبول علم الدين عنهم و مناكحتهم و مواريتهم^(١). و قد تقدّم في بيان عقائد الصفرية أنّه نقل عن الضحاك الذي هو منهم أنّه جوّز تزويج المسلمات من كفّار قومهم في دار التقيّة دون دار العلانية. و يريد من المسلمات: الحرائر من الخوارج. ومن «كفّار قومهم»: رجال سائر الفرق الاسلامية.

و يظهر من الخلاف الذي حدث بين الابراهيمية و الميمونية أنّه يجوز بيع الجارية المؤمنة (الخارجية) من الكفرة أي المسلمون من سائر الفرق.

هذا ما وقفنا عليه من كلماتهم و نبحت عن المسألة بكلتي صورتها:

الأولى - نكاح المشركة:

اتّفق علماء الإسلام على تحريم تزويج المشركات. قال ابن رشد: «و اتّفقوا على أنّه لا يجوز للمسلم أن ينكح الوثنية لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا

١. الطبري: التاريخ ٤ / ٤٣٨ - ٤٤٠.

بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ^(١) واختلّفوا في نكاحها بالملك^(٢).

و قال الشيخ الطوسي في المبسوط: «الضرب الثاني، الذين لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب، و هم عبدة أوثان فلا يحلّ نكاحهم و لا أكل ذبائهم و لا يقرّون على أديانهم ببذل الجزية و لا يعاملون بغير السيف أو الإسلام بلا خلاف»^(٣).

هذا كلّه حول المشركات، فلو صحّ كون جماهير المسلمات من الفرق الاسلامية مشركات عند الأزارقة، لصحّ ما قال و لكنّه لم يصح - وإن صحّت الأحلام - لما عرفت أنّ للشرك حداً منطقياً في القرآن الكريم، و ابن الأزرق و أتباعه و إن كانوا قراء و لكنّه لم يتجاوز القرآن - حسب تنصيص النبي الأكرم ﷺ عن تراقيهم ولم يصل إلى دماغهم و مراكز أفكارهم، فكيف يصحّ تسمية من ارتكب الكبيرة مشركاً و لو صحّ لما و جد في أديم الأرض مسلماً إلا إذا كان معصوماً.

٣- نكاح الكافرة غير المشركة:

اختلف كلمة فقهاء الإسلام في نكاح الكافرة غير المشركة و يراد منها الكتابية لأنّها كافرة غير مشركة، قال ابن رشد: اتّفقوا على أنّه يجوز أن ينكح الكتابية الحرّة^(٤).
هذا مالدي السنّة و أمّا ما لدى الشيعة فالمشهور عدم الجواز دواماً. قال الشيخ الطوسي:
عند المحصّلين من أصحابنا لا يحلّ أكل ذبائح أهل الكتاب

١. الممتحنة: ١٠، و الأولى أن يستدل بآية صريحة أعني قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ

يُؤْمِنَ...﴾ - البقرة: ٢٢١ -.

٢. ابن رشد: بداية المجتهد ٢ / ٤٣.

٣. الطوسي: المبسوط ٤ / ٢١٠.

٤. ابن رشد: بداية المجتهد ٢ / ٤٣.

كاليهود و النصارى، و لا تزوّج حرائرهم، بل يقرّون على أديانهم إذا بذلوا الجزية، وفيه خلاف بين أصحابنا، و قال جميع الفقهاء (أهل السنّة): يجوز أكل ذبائحهم و نكاح حرائرهم^(١). و قال في الخلاف: المحصلون من أصحابنا يقولون لا يحلّ نكاح من خالف الإسلام، لا اليهود، و لا النصارى، و قال قوم من أصحاب الحديث من أصحابنا: يجوز ذلك، و أجاز جميع الفقهاء التزويج بالكتابات و هو المروي عن عمر و عثمان و طلحة و حذيفة، و جابر، و روي أنّ عمّاراً نكح نصرانية، و نكح حذيفة يهودية، و روي عن ابن عمر كراهة ذلك و إليه ذهب الشافعي^(٢).

قال ابن قدامة: ليس بين أهل العلم - بحمد الله - اختلاف في حلّ حرائر نساء أهل الكتاب، و ممّن روى عنه ذلك، عمر و عثمان و طلحة و حذيفة و سلمان و جابر و غيرهم^(٣). و على ضوء ذلك إنّ فقهاء أهل السنّة ذهبوا إلى الجواز، وأمّا الشيعة فهم بين مانع و مجوّز، و نحن نعرض المسألة على الكتاب.

استدلّ المانع بآيات:

١ - قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَآئِمَةً مُّؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

١. الطوسي: المبسوط ٤ / ٢١٠.

٢. الطوسي: الخلاف ٢ / ٢٨٢، المسألة ٨٤ من كتاب النكاح، و قد نسب إلى فقهاء الشيعة أقوال أخرى ذكرناها في محاضراتنا الفقهية في النكاح، لاحظ: الحلّي، مختلف الشيعة: ٨٢.

٣. ابن قدامة: المغني ٥ / ٥٢.

٤. البقرة: ٢٢١.

٢ - قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَاَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

استدل بالآية على المنع بوجهين:

أ - إنَّ الآية تأمر من لم يجد ما يتزوَّج به الحرائر المؤمنات من المهر و النفقة، أن ينكح الإماء المؤمنات فإنَّ مهور الإماء أقلّ و معونتتهنَّ أخف عادة، فلو جاز نكاح الكافرة في هذه الحالة لزم جواز نكاح الأمة المؤمنة مع الحرّة الكافرة، و لم يقل به أحد، لأنّه من قبيل الجمع بين الحرّة و الأمة.

ب - إنَّ التوصيف بالمؤمنات في قوله: ﴿مِّنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يقتضي أن لا يجوز نكاح الفتيات الكافرات مع انتفاء الطول، و ليس إلّا لامتناع نكاحهنَّ مطلقاً، للاجماع على انتفاء الخصوصية بهذا الوجه^(٢).

يلاحظ على الوجه الأوّل: أنَّ أقصى ما يستفاد من الآية على القول بمفهوم الوصف أنّه لا يجوز عند عدم الطول، نكاح الأمة الكافرة مع وجود الأمة المسلمة، و أمّا عدم جواز تزويج الحرّة الكافرة مع الطول أو عدمه، فلا تدلّ عليه الآية، لأنّ المفهوم ينفي الحكم عن الموضوع الفاقد للوصف لا عن موضوع آخر، والموضوع للجواز هو ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، فمقتضى المفهوم عدم جواز نكاح الأمة الكافرة في هذه الحال، و أمّا الحرّة الكافرة، فهو خارج عن موضوع البحث نفيّاً و اثباتاً.

و يلاحظ على الوجه الثاني: أنَّ التوصيف بالمؤمنات يقتضي أن لايجوز نكاح الكافرة من الاماء مع انتفاء الطول و لكن لم يعلم انّ وجه حرمتها هو امتناع

١. النساء: ٢٥.

٢. الشيخ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام ٣ / ٢٨.

نكاحها مطلقاً، سواء كانت أمة أم حرة، و من أين يدعى الاجماع على انتفاء خصوصية في الأمة؟ إذ من الممكن أن لا يجوز نكاح الأمة الكافرة مع وجود الأمة المسلمة دون الكافرة الحرة فيجوز نكاحها حتى مع التمكن من الأمة المسلمة.

٣ - قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (١).

يلاحظ عليه: أن الآية واردة في حق الضعفاء من المسلمين، و لا صلة لها بالكفرة، فهؤلاء كانوا يوالون اليهود و يفشون إليهم أسرار المؤمنين، و يجتمعون معهم على ذكر مساءة النبي وأصحابه، ففي هذه الظروف نزل قوله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان، أي موالاتهم بما هم كفار، وأمّا حبهم لأجل أمور أخرى فلا صلة له بالآية، و لا يتزوج المسلم من الكافرة لأجل موالاة الكافرة، بل لأجل دفع الشهوة أو تعبئة وسائل الحياة.

و أضعف منه الا استدلال بقوله سبحانه:

٤ - قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (٢) إذ لاصلة بين الآية و موضوع البحث فإنها تنفي كون المؤمن و الكافر عند الله سيان، وأمّا عدم جواز المعاملة و المناكحة فلا تدلّ عليه .

٥ - استدلل أيضاً: أنّ أهل الكتاب مشركون لقوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ

١. المجادلة: ٢٢.

٢. الحشر: ٢٠.

الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ^(١) حيث جعلوا الابن المزعوم شريكاً للأب في الالهية، و قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(٢).
و قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣) فهذه الآيات تثبت الصغرى، أي كونهم مشركين، وأما ما يدل على الكبرى أي عدم جواز نكاح المشركات، فقد مر في كلام المانع.

يلاحظ عليه أن هنا أمرين:

- أ - كون النصارى و اليهود مشركين في عقيدتهم، و هذا لا كلام فيه.
- ب - كون المشرك الوارد في قوله ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ عاماً يعم الوثنيين و غيرهم، و لكنّ هذا غير ثابت فإنّ عنوان المشرك في القرآن يختصّ بغير أهل الكتاب بشهادة المقابلة في كثير من الآيات بينهم وبين أهل الكتاب، وإليك بعضها:
﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤)، وقد عرفت تحقيق ذلك عند البحث عن حدّ الشرك و الإيمان، فلانعيد^(٥).
فهذه الآية و غيرها تثبت أنّ الشرك المتخذ موضوعاً لكثير من الأحكام

١. التوبة: ٣٠.

٢. المائدة: ٧٣.

٣. التوبة: ٣١.

٤. البقرة: ١٠٥.

٥. لاحظ الآيات: آل عمران ١٨٦. المائدة ٨٢ و غيرهما أيضاً.

(٤٦٣)

لا يشمل أهل الكتاب في مصطلح القرآن و إن كانوا مشركين حسب الواقع، فالكلام في سعة موضوع الحكم (تحريم نكاح المشركات) وضيقة حسب اصطلاح القرآن.

٦- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَلُّوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١).

وجه الاستدلال ان الكوافر جمع كافرة، و العصمة المنع، وسمي النكاح عصمة لأن المنكوحة تكون في حبال الزوج و عصمته، و يكون اطلاقها دليلاً على حرمة عقد الكافرة مشركة أو ذمية.

يلاحظ عليه: أن الآية ظاهرة في الوثنية بشهادة سياق الآيات، و سبب نزولها فإنها نزلت بعد التصالح في الحديبية حيث تصالح رسول الله أن يرد كل من أتى من قريش إلى جانب المسلمين من دون عكس، و بعد ما ختم الكتاب جاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية و قد أسلمت، فأقبل زوجها في طلبها و كان كافراً، فنزلت الآية، فكان رسول الله يرد من جاءه من قريش من الرجال، ولا يرد من جاءته من النساء قائلاً بأن التصالح لا يشمل إلا الرجال.

على أن ظاهر الآية هو المنع من الإقامة مع الزوجة الكافرة و هذا لا يتم في الذمية لصحة نكاحهن استدامة إذا أسلم أحد الزوجين، اجماعاً و إن لم نقل بالصحة ابتداءً، و هذا قرينة على انصراف الآية عن الذمية إلى الوثنية، و بذلك يظهر ضعف ما أفاده الطبرسي حيث ادعى دلالة الآية على عدم جواز العقد

١. الممتحنة: ١٠.

على الكافرة مطلقاً، بحجة أنّ الآية عامّة وليس لأحد أن يخصّ الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأنّ المعتبر عموم اللفظ، لا السبب^(١).

إلى هنا تمّ ما يمكن الاستدلال به من الآيات على تحريم نكاح الكافرات، وإليك ما استدللّ به القائل بالجواز من الذكر الحكيم أعني قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾^(٢).

الآية صريحة في جواز نكاح المحصنات من أهل الكتاب، والمتيقن منها هو الذمّية أو من هو في حكمها كالمهادنة، لا الحرية.

و حمل الآية على النكاح الموقت بقرينة ورود لفظ «الأجور» في الآية مكان «المهور» ليس بتام لأنها وردت في غير موضع من القرآن، و أريد منه المهر في النكاح الدائم. قال سبحانه في تزويج الاماء عند عدم الطول: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣) و قال تعالى و هو يخاطب النبي: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾^(٤) ومن المعلوم أنّ المراد هو التزويج الدائم إذ لم يكن بين أزواج النبي من تزوّج بها متعة. نعم المراد من قوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾^(٥) هو النكاح الموقت، بقرينة قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ مضافاً إلى الروايات المتضافرة في المقام.

و ربّما يحتمل كون الآية منسوخة لما ورد من النهي في آيتي البقرة

١. الطبرسي: مجمع البيان ٥ / ٢٧٤.

٢. المائدة: ٥.

٣. النساء: ٢٥.

٤. الأحزاب: ٥٠.

٥. النساء: ٢٤.

و الممتحنة، و لكن قد عرفت عدم دلالة الآيتين على مورد البحث فضلاً عن كونهما ناسختين.

على أنّ سورة المائدة آخر ما نزل على رسول الله، فهي تنسخ ما قبلها، و لا تُنسخ، روى العياشي عن علي قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً و إنّما يؤخذ من أمر رسول الله بآخره، و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ما قبلها و لم ينسخها شيء^(١).

إلى هنا تمّ ما يرجع إلى المسألة من القرآن الكريم، و أمّا البحث عنها من جانب السنّة فهو موكل إلى محلّه، و قد أوضحنا الكلام فيها في مسفوراتنا الفقهية.

هذا آخر الكلام في عقائد الخوارج و أصولهم. بقى الكلام في التعرّف على شخصياتهم في العصور الأولى و هذا ما يوافيك في البحث الآتي الذي عقدناه بعنوان «خاتمة المطاف».

١. الحويضي: نور الثقلين ١ / ٤٨٣.

خاتمة المطاف:

رجال الخوارج في العصور الأولى

قد تعرّفت فيما سبق على الشخصيات البارزة للاباضية، ولا بد من التطرّق إلى رجال الخوارج من غيرهم، و نذكر في المقام المعروفين منهم، وإن كان الحكم بكونهم من الخوارج يحتاج الى تتبّع وافر، فإنّ الشهرة في المقام لاتفيد إلاّ الظن. و ربّما يكون رميهم بأنّهم منهم صدر من غير أهله تعتناً و حقداً، و على كل تقدير فقد ذكر ابن ابي الحديد لفيفاً ممّن كان يرى رأي الخوارج، و نذكر بعض ما ذكر^(١):

١ - عكرمة البربري (ت / ١٠٥):

و صفه الذهبي بقوله «أحد أوعية العلم، تُكلّم فيه لرأيه لالحفظه، فاتّهم

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥ / ٧٦.

برأي الخوارج، وقد وثّقه جماعة و اعتمده البخاري، و أمّا مسلم فتجنّبّه و روى له قليلاً مقروناً بغيره، و أعرض عنه مالك، و تحايدّه إلّا في حديث أو حديثين. و عن عمرو بن دينار، قال: رُفِعَ إلى جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة، فجعل جابر بن زيد يقول: هذا مولى ابن عباس، هذا البحر فسّله. و قد وصفه شهر بن حوشب و جابر بن زيد بأنّه حبر هذه الأمة و أعلم الناس، و مع ذلك فقد ضعّفه يحيى بن سعيد الأنصاري و أيّوب و ذكرّا عكرمة، فقال يحيى: كذاب، و قال أيّوب، لم يكن بكذاب. و عن زيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: دخلت على علي بن عبد الله فإذا عكرمة في وثاق عند باب الحش، فقلت له: ألا تتق الله، فقال: إنّ هذا الخبيث يكذب على أبي. و قال محمد بن سيرين عن عكرمة، فقال: ما يسوءني أن يكون من أهل الجنة و لكنّه كذاب. و قال ابن أبي ذئب: رأيت عكرمة، و كان غير ثقة. و قال محمد بن سعد: كان عكرمة كثير العلم و الحديث، بحرّاً من البحور، و ليس يُحتجّ بحديثه، و يتكلّم الناس فيه.

هذه أقوال الناس في حقّه، وإليك قول نفسه في حقّه:

قال: كان ابن عباس يضع في رجلي الكَبَل على تعليم القرآن و الفقه، و قال: طلبت العلم أربعين سنة، و كنت أفتي بالباب و ابن عباس في الدار.

و هذا قوله في حقّ نفسه، و لا يحتجّ بقول الإنسان في حقّه إذا كان مدحاً، و يؤيّد كون الرجل خارجياً ما رواه خالد ابن أبي عمران قال: كنّا بالمغرب و عندنا عكرمة في وقت الموسم فقال: وددت أنّ بيدي حربة فأعترض بها من شهد الموسم يميناً و شمالاً، و عن يعقوب الحضرمي عن جدّه قال: وقف عكرمة على باب المسجد فقال: ما فيه إلّا كافر، قال: و كان يرى رأي الاباضيّة. و عن يحيى بن بكير قال: قدم عكرمة مصر و هو يريد المغرب، قال: فالخوارج

الذين هم بالمغرب عنه أخذوا.

قال ابن المديني: كان يرى رأي نجدة الحروري. و قال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأي الخوارج. قال: وادّعى على بن عباس أنه كان يرى رأي الخوارج.

و عن خالد بن نزار: حدثنا عمر بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح: انّ عكرمة كان اباضياً، و عن أبي طالب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان عكرمة من أعلم الناس، ولكنه كان يرى رأي الصفرية، ولم يدع موضعاً إلا خرج إليه: خراسان و الشام و اليمن و مصر و إفريقيا، كان يأتي الأمراء فيطلب جوائزهم، وأتى الجند إلى طاوس، فأعطاه ناقه.

و قال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأي الخوارج فطلبه متولي المدينة فتغيب عند داود بن الحصين حتى مات عنده. و روى سليمان بن معبد السنجي قال: مات عكرمة وكثير عزة في يوم، فشهد الناس جنازة كثير، و تركوا جنازة عكرمة. و قال عبد العزيز الدراوردي: مات عكرمة وكثير عزة في يوم، فما شهدهما إلا سودان المدينة. و عن إسماعيل بن أبي أويس، عن مالك، عن أبيه، قال: أتى بجنازة عكرمة مولى ابن عباس و كثير عزة بعد العصر، فما علمت أنّ أحداً من أهل المسجد حلّ حبوته إليهما. و قال جماعة: مات سنة خمس و مائة، و قال الهيثم وغيره: سنة ست، و قال جماعة: سنة سبع و مائة. و عن ابن المسيب أنه قال لمولاه بُرد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. و يروى ذلك عن ابن عمر قاله لنافع^(١).

وقد روي شيء كثير منه في التفاسير و هي مليئة بأقواله، و يظهر ممّا نقل عنه أنه يرى الحلف بالطلاق باطلاً، روى الذهبي عن عاصم الأحول، عن عكرمة

١. الذهبي: ميزان الاعتدال ٣ / ٩٣ - ٩٧ برقم ٥٧١٤.

في رجل قال لغلّامه: إن لم أجلك مائة سوط فامرأتى طالق. قال: لا يجلد غلامه و لا تطلق امرأته، هذه من خطوات الشيطان^(١).

و ترجمه أبو حاتم الرازي في الجرح و التعديل بذكر نقول مختلفة عنه^(٢).

و قد ترجمه ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب مفصلاً، و ذكر أيضاً الأقوال المتضاربة في حقّه^(٣). و ممّا قال فيه، قال علي بن المديني: كان عكرمة يرى رأي نجدة، و قال يحيى بن معين: إنّما لم يذكر مالك بن أنس عكرمة لأنّ عكرمة كان ينتحل رأي الصفرية، و قال عطاء: كان اباضياً، و قال الجوزجاني: قلت لأحمد: عكرمة كان اباضياً؟ فقال: يقال إنّّه كان صفرياً. و قال خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبي عمران: دخل علينا عكرمة أفريقيا وقت الموسم فقال: وددت أنّي اليوم بالموسم بيدي حربة أضرب بها يميناً و شمالاً. قال: فمن يومئذ رفضه أهل أفريقيا، و قال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأي الخوارج وزعم أنّ مولاه كان كذلك، و قال أبو خلف الخزاز عن يحيى البكاء: سمعت ابن عمر يقول لنافع: اتق الله ويحك يا نافع، و لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس^(٤).

٢- قطري بن الفجاءة (ت / ٧٨):

أبو نعام: قطري بن الفجاءة، واسمه جعونة، المازني الخارجي، خرج

١. الذهبي: ميزان الاعتدال ٣ / ٩٧ برقم ٥٧١٤، إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ - البقرة: ٢٠٨.

٢. أبو حاتم الرازي: الجرح و التعديل ٦ / ١١.

٣. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٧ / ٢٣٤ - ٢٤٢ برقم ٤٧٦، و لكنّه لم يترجمه في لسان الميزان مع وروده في الميزان للذهبي كما عرفت.

٤. المصدر نفسه: ٧ / ٢٣٧.

في زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق نيابة عن أخيه: عبد الله بن الزبير، وكانت ولاية مصعب في سنة ست و ستين للهجرة، قيل: بقي قطري عشرين سنة يقاتل و يسلم عليه بالخلافة و هو يستظهر عليهم. و لم يزل إلى أن توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبى فظهر عليه و قتله في سنة ثمان و سبعين للهجرة.

و هو معدود في جملة الخطباء العرب المشهورين بالبلاغة و الفصاحة^(١).

نقل الجاحظ خطبة واحدة منه، و التأمل فيها يعرب أنه كان منطقاً ذلق اللسان، قال فيها: أما بعد فإنني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفَّت بالشهوات، و راقَت بالقليل، و تحببت بالعاجلة، و حُلِيَتْ بالآمال، و تزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضرارة، خوانة غدارة^(٢).

روي أن الحجاج قال لأخيه: لأقتلنك، فقال: لم ذلك؟ قال: لخروج أخيك، قال فإن معي كتاب أمير المؤمنين (يريد عبد الملك) أن لا تأخذني بذنب أخي، قال: هاته، قال: فمعي ما هو أوكد منه، قال: ما هو؟ قال: كتاب الله عزوجل يقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»^(٣) فعجب منه و خلى سبيله^(٤).

و ترجمه خير الدين الزركلي في الأعلام^(٥) و يظهر فيما نقله من تاريخ الطبري أنه توفي سنة ٧٧ هـ و الله العالم.

٣- عمران بن حطان السدوسي البصري (ت / ٨٤):

عمران بن حطان السدوسي البصري الخارجي، روى عن عائشة، و عنه

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤ / ٩٤ - ٩٥.

٢. الجاحظ: البيان والتبيين ٢ / ١١٢.

٣. الأنعام: ١٦٤.

٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤ / ٩٤ - ٩٥.

٥. الأعلام: ٥ / ٢٠٠.

صالح بن سرج، لا يتابع على حديثه، قاله العقيلي، قال: و كان خارجياً. روى موسى بن إسماعيل عن عمرو بن العلاء ولقيه جرز، حدثنا صالح بن سرج، عن عمران بن حطان، عن عائشة في حساب القاضي العادل. قلت كان الأولى أن يلحق الضعف في هذا الحديث بصالح أو بمن بعده، فإنَّ عمران صدوق في نفسه، قد روى عنه يحيى بن أبي كثير، و قتادة، و محارب بن دثار. و قال العجلي: تابعي ثقة. و قال أبو داود: ليس في أهل الأهواء، أصحَّ حديثاً من الخوارج، فذكر عمران بن حطان و أبا حسان الأعرج. و قال قتادة كان لا يهتم في الحديث. و روى يعقوب بن شيبه أنَّه بلغه أنَّ عمران بن حطان كانت له بنت عم كانت ترى رأي الخوارج فتزوجه ليردها عن ذلك فصرفته إلى مذهبها. و كان عمران من نظراء جرير و الفرزدق في الشعر، و هو القائل:

حتى متى تُسقى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاهٍ ترتع
الآيات.

مات سنة أربع و ثمانين^(١).

و ترجمه ابن حجر في تهذيب التهذيب و قال: ذكر أبو زكريا الموصلي في تاريخ الموصل عن محمد بن بشر العبدي الموصلي قال: لم يمت عمران بن حطان حتى رجع عن رأي الخوارج انتهى، هذا أحسن ما يعتذر به عن تخريج البخاري له، و أمّا قول من قال: إنّه خرج ما حمل عنه قبل أن يرى ما رأى ففيه نظر، لأنّه اخرج له من رواية يحيى بن أبي كثير عنه، و يحيى إنما سمع منه في حال هربه من الحجاج و كان الحجاج يطلبه ليقنتله من أجل المذهب، و قصته في هربه مشهورة. و قال العقيلي: عمران بن حطان لا يتابع و كان يرى رأي الخوارج يحدث عن عائشة و لم يتبين سماعه منها.

١. الذهبي: ميزان الاعتدال ٣ / ٢٣٥ - ٢٣٦ برقم ٦٢٧٧.

و قال ابن حبان في الثقات: كان يميل إلى مذهب الشراة. و قال ابن البرقي: كان حرورياً. و قال الدارقطني: متروك لسوء اعتقاده و خبث مذهبه. و قال المبرد في الكامل: كان رأس القعد من الصفرية و فقيهمهم و خطيبهم و شاعرهم، و القعدة: الخوارج، كانوا لا يرون بالحرب بل ينكرون امراء الجور حسب الطاقة و يدعون إلى رأيهم و يزيّنون مع ذلك الخروج و يحسّنونه. لكن ذكر أبو الفرج الاصبهاني انه إنما صار قعدياً لما عجز عن الحرب والله أعلم، قلت: وكان من المعروفين في مذهب الخوارج، و كان قبل ذلك مشهوراً بطلب العلم و الحديث ثم ابتلي، و أنشد له من شعره:

لا يعجز الموت شيء دون خالقه و الموت يفني إذا ما ناله الأجل
و كل كرب أمام الموت منقشع و الكرب و الموت ممّا بعده جلل^(١)

و في الأغاني إنما صار ابن حطان من القعدية لأن عمره طال وكبر و عجز عن الحرب و حضورها، فاقصر على الدعوة و التحريض بلسانه، و كان أولاً مشمراً بطلب العلم و الحديث ثم بلي بذلك المذهب، وقد أدرك صدرًا من الصحابة و روى عنهم و روى عنه أصحاب الحديث. وله شعر في مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي - لعنه الله - قاتل أمير المؤمنين و قائد الغر المحجلين زوج البتول و صهر الرسول ﷺ :

لله در المرادي الذي سفكت كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته معطى مناه من الآثام عريانا
يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

١. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٨ / ١١٣ - ١١٤ برقم ٢٢٣. راجع الاصابة ٣ / ١٧٨.

و قد أجابه عنها السيد الحميري الشيعي و هي:

قل لابن ملجم والأقدار غالبية هدمت و يهلك للإسلام أركاننا
 قتلت أفضل من يمشي على قدم و أول الناس إسلاماً وإيماناً
 و أعلم الناس بالإيمان ثم بما سنّ الرسول لنا شرعاً و تبياناً
 صهر الرسول و مولاه و ناصره أضحت مناقبه نوراً و برهاناً
 الايات^(١).

و قد ناضله أصحاب الولاء لآل الرسول باشعار كثيرة مضت بعضها فلا حظ .
 و في الختام: من أراد التبسط في ترجمة الرجال فليرجع إلى «الخوارج في العصر الأموي»
 للدكتور نايف معروف فقد ذكر قسماً كثيراً من أشعاره و حياته قبل أن يلحق بالخوارج فلاحظ.

٤- الطرماح بن حكيم (ت ١٢٥):

الطرماح بن حكيم الطائي الخارجي. و صفه الجاحظ في البيان و التبيين أنه كان خارجياً
 من الصفرية، ولد ونشأ في الشام، و انتقل إلى الكوفة، فكان معلماً فيها. و اتصل بخالد بن عبد
 الله القصري فكان يكرمه و يستجيد شعره، و كان هجاءً، معاصراً للكميت صديقاً له لا يكادان
 يفترقان، و ذكر شيخنا في الذريعة أن المرزباني عمل كتاباً باسم «أخبار الطرماح» كما عمل كتاباً
 آخر باسم «أخبار أبي تمام»^(٢).

١. البغدادى: خزنة الأدب ٢ / ٤٣٦ - ٤٣٧.

٢. الزركلي: الأعلام ٣ / ٢٢٥، وأغابزرك الطهراني: الذريعة ١ / ٢٣٨ برقم ١٧٦٤.
 (٤٧٤)

٥- الضحّاك بن قيس:

الضحّاك بن قيس مذكور في التاريخ بما أنّه قائد عسكري قد دوّخ الدولة الأموية في عصره، ولم يوصف بشيء من العلم والشعر والأدب سوى القيادة، وقد نقل ابن الأثير حروبه مع الأمويين وإليك خلاصة ما ذكره في تاريخه على نحو يوقفه على ترجمة الرجل على نحو الاجمال:

أرسل مروان بن محمد - آخر الخلفاء الأمويين - جيشاً لحرب الضحّاك سنة سبع و عشرين و مائة، فالتقوا بالنخيلة فاقتتلوا قتالاً شديداً و انتصر الضحّاك عليهم، و دخل ضحّاك الكوفة مستولياً عليها^(١).

ثم سار الضحّاك من الكوفة إلى واسط يريد حرب فلول المنهزمين، و كانوا قد استعدّوا لحربه، فتحاربوا شعبان و شهر رمضان و شوال و القتال بينهم متواصل.

ثم اصطالحوا و ذهب الضحّاك إلى الكوفة^(٢)، و كاتب أهل الموصل ليقدم عليهم ليملكه منها فسار بجماعة من جنوده بعد عشرين شهراً حتى انتهى إليها ففتح أهل البلد، فدخلها الضحّاك و قتل الوالي عليها من قبل مروان و عدّة يسيرة كانوا معه و ذلك بعد أن حاربوه.

و بلغ مروان خبره و هو محاصر حمص، مشغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبد الله و هو خليفته في الجزيرة، يأمره أن يسير إلى نصيبين في من معه يمنع الضحّاك من توسّط الجزيرة، فسار إليها في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، و سار الضحّاك و معه ما يزيد على مائة ألف. و وجّه قائدين من قواده إلى السرقة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فقاتله بها، فوجّه إليهم مروان من بعدهم عن

١. ابن الأثير: الكامل ٥ / ٣٣٢ - ٣٣٦.

٢. ابن الأثير: الكامل ٥ / ٣٤٩.

السرقعة.

و سار مروان إلى الضحاك فالتقوا بنواحي كفر قوتا من اعمال ماردين فقاتله يومه أجمع، فلمّا كان عند المساء ترجّل الضحاك و معه من ذوي الثبات والبصائر نحو من ستّة آلاف، ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان، فأحدثت بهم خيول مروان و ألحوا عليهم في القتال حتى قتلوهم عند العتمة.

و انصرف من بقي من أصحاب الضحاك عند العتمة إلى معسكرهم و لم يعلموا بقتل الضحاك و لم يعلم به مروان أيضاً، و جاء بعض من عاينه من أصحابه فبكوا وناحوا عليه، و جاء قائد من قواده إلى مروان فأخبره بقتله فأرسل معه النيران و الشمع، فطافوا عليه فوجدوه قتيلاً و في وجهه و رأسه أكثر من عشرين ضربة فكبروا فعرف عسكر الضحاك أنّهم قد علموا بقتله. و بعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها^(١).

٦- معمر بن المثنى (١١٠-٢١٣):

أبو عبدة، التيمي^(٢) البصري، يصفه الخطيب في تاريخه بالنحويّ العلامة، يقال: إنّّه ولد سنة ١١٠ في الليلة التي ولد فيها الحسن البصري، و نقل عن الجاحظ أنّه قال: لم يكن في الأرض خارجي و لاجماعيّ أعلم بجميع العلوم منه^(٣).

قال ابن قتيبة: كان الغريب^(٤) أغلب عليه و اخبار العرب و أيامها، وكان

١. ابن الاثير: الكامل ٥ / ٣٤٩.

٢. كان تيمياً بالولاء.

٣. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ برقم ٧٢١٠.

٤. المراد غريب اللغة أو غريب القرآن و الحديث.

(٤٧٦)

مع معرفته ربّما لا يقيم البيت إذا أنشده، حتى يكسره، و كان يخطأ إذا قرأ القرآن الكريم نظراً، و كان يبغض العرب، و ألف في مثالبها كتباً، و كان يرى رأي الخوارج^(١).

و نقل ابن خلكان عن بعضهم: أنّ هارون الرشيد أقدمه من البصرة إلى بغداد سنة ١٨٨، و قرأ عليه بها أشياء من كتبه، و أسند الحديث إلى هشام بن عروة و غيره و روى عنه علي بن المغيرة الأثرم، و أبو عبيد القاسم بن سلام، و أبو عثمان المازني، و أبو حاتم السجستاني و عمر بن شبة و غيرهم.

و لأجل إمام القارئ على نموذج من تفسيره نأتي بما يلي:

سأله رجل عن قوله سبحانه: ﴿أَذِلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبَطُونُ﴾^(٢).

سأله عن قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ و قال: إنّما يقع الوعد و الإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف فأجاب: إنّما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول أمريء القيس:

أَيَقْتَلَنِي وَ الْمَشْرِقِيُّ مُضَاجِعِي وَ مَسْنُونَةُ زَرْقُ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ

و هم لم يروا الغول قطّ، و لكّته لَمَّا كان أمر الغول يهولهم، أو عدوا به.

ثم يقول: و أزمعت منذ ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن لمثل هذا و أشباهه و لما يحتاج إليه من علمه، ولَمَّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سمّيته المجاز^(٣).

١. ابن قتيبة: المعارف ٢٤٣.

٢. الصافات: ٦٢ - ٦٦.

٣. ابن خلكان: وفيات الاعيان ٥ / ٢٣٦ تحقيق الدكتور احسان عباس. ولا حظ: مجاز القرآن لأبي عبيدة ج ٢.

(٤٧٧)

و قد ذكر ابن خلّكان أنّه لم يزل يصنّف حتّى مات، و تصانيفه تقارب مائتي تصنيف، فمنها كتاب «مجاز القرآن الكريم» و كتاب «غريب القرآن» و كتاب «معاني القرآن» و كتاب «غريب الحديث»...^(١) و يبدو من فهرس تصانيفه أن أكثرها يدور بين اللغة و الشعر و التاريخ و ما يشابهها، و الذي أثار عواطف الأُمّة العربية ضدّه أنّه ألّف كتاب «لصوص العرب» و كتاب «فضائل الفرس»، و من المعلوم أنّ العصبية العمياء لاحتجّ كلا التأليفين.

يقول ابن خلّكان: لما جمع كتاب المثالب، و لعلّ مراده هو «لصوص العرب»، قال له رجلٌ مطعون النسب: بلغني أنّك عبت العرب جميعها، فقال: «و ما يضرك، أنت من ذلك بريء!» يعني أنّه ليس منهم، و يذكر ابن خلّكان أيضاً: أنّه لا يقبل أحد من الحكّام شهادته لأنّه كان يتّهم بالميل إلى الغلمان. قال الأصمعي: دخلت أنا و أبو عبيدة يوماً المسجد فإذا على الاسطوانة التي يجلس إليها أبو عبيدة مكتوب على نحو من سبعة أذرع.

صلى الإله على لوطٍ و شيعة
أبا عبيدة قل بالله آمينا

فقال لي: يا أصمعي! امحُ هذا، فركبت على ظهره ومحوته بعد أن أثقلته إلى أن قال: أثقلتني و قطعت ظهري، فقلت له: قد بقي الطاء. فقال: هي شرّ حروف هذا البيت!^(٢)

أقول: إنّ الأصمعي كان ممّن ينصب العدا على عليّ، و أبا عبيدة كان من الخوارج، و الجنس إلى الجنس يميل «والمرء على دين خليله و قرينه» و قال سبحانه حاكياً عن المجرمين ﴿يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾^(٣) و قال

١. ابن خلّكان: وفيات الاعيان ٥ / ٢٣٨ تحقيق الدكتور احسان عباس.

٢. المصدر نفسه: ٢٤٢.

٣. الفرقان: ٢٨.

سبحانه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، و مع ذلك كله فيحتمل أن تكون القصة مختلقة من جانب الأعداء لأنهم كانوا يرون أمثال أبي عبيدة من المبتدعة الذين تجوز مباهتهم إيعاداً للناس عن ضلالهم.

مجاز القرآن لأبي عبيدة:

لم يصل إلينا من كتب أبي عبيدة مع كثرتها غير كتاب مجاز القرآن، و قد عرفت أن ابن خلكان ذكر له أسماء كتب ثلاثة حول القرآن و زاد ابن النديم كتاب «اعراب القرآن» و هل ألف أبو عبيدة كتاباً بهذه الأسماء أو هي أسماء متعدّدة و المسمّى واحد؟ فقد رجّح محقق كتاب مجاز القرآن الثاني و قال: «و الذي نظّنه أن ليس هناك لأبي عبيدة غير كتاب المجاز»، و أن هذه الأسماء أخذت من الموضوعات التي تناولها «المجاز» فهو يتكلّم في معاني القرآن، و يفسّر غريبه، و في أثناء هذا يعرض لأعرابه، و يشرح أوجه تعبيره، و ذلك ما عبّر عنه أبو عبيدة بمجاز القرآن، فكلّ سمّى الكتاب بحسب أوضح الجوانب التي تولّى الكتاب تناولها، و لفتت نظره أكثر من غيرها، ولعلّ ابن النديم لم ير الكتاب، و سمع هذه الأسماء من أشخاص متعدّدين فذكر لأبي عبيدة في موضوع القرآن هذه الكتب المختلفة الأسماء.

ثم إنّ التأليف في غريب القرآن كثير، و ربّما يعبر عن بعضه بمعاني القرآن، كما هو الحال في كتاب الفراء، و ربما يعبر عنه بمجازات القرآن كما هو الحال في تأليف الشريف الرضي، و أمّا الفرق بين كتاب أبي عبيدة و كتاب الرضي و قد اشتهر الأوّل بمجاز القرآن، و الثاني بمجازات القرآن، هو أن الأوّل يستعمل لفظ المجاز بمعنى مفهوم الكلمة و الآية، بخلاف الثاني فإنّه يستعمله في الجامع بين

المجاز اللغويّ و الكناية و الاستعارة، و لكل مزية، و على كلّ تقدير فآثر أبي عبيدة أثر متقن مفيد جدّاً، و قد قام بتحقيقه الدكتور محمّد فؤاد سزكين في جزئين، و قد طبع للمرّة الثانية في سنة ١٤٠١ هـ .

و قد اختلفت الأقوال في تاريخ و فاته، فنقل الخطيب عن بعضهم أنّه مات سنة ٢٠٩ هـ ، و عن آخر سنة ٢١١ هـ ، و عن ثالث ٢١٠ هـ و قيل سنة ٢١٣ هـ ، و الله العالم.

و لنكتف بما ذكر من رجال الخوارج في العصور الأولى و قد تعرّفت على عدّة من رجالهم في ثنايا الكتاب لاسيّما القادة العسكريين.

بقيت هنا كلمة و هي أن نعطف نظر القارئ إلى ما روي عن النبي الأكرم في حقّ المحكّمة الأولى و أثر في حقّهم عن الصحابة و التابعين لهم باحسان، و قد جميعها إمام الحنابلة أحمد بن حنبل و رواه عنه ابنه عبد الله في كتاب «السنة»^(١) واليك متونها مع أسانيدها:

بما أنّ الاباضية لا يرون أنفسهم خوارج و نحن أيضاً نربئ بهم عن كونهم منهم على الشروط التي قدّمناها في الكتاب، فلا أراهم متضايقين من هذه الآثار التي لو تدبّر فيها القارئ يراها من قسم المتواتر المعنوي و لا يحقّ لأحد أن يشكّ في ما يهدف إليه جمعها:

المأثور حول الخوارج:

١ - حدثني أبي، حدثنا وكيع جرير بن حازم و أبو عمرو بن العلاء، عن ابن سيرين سمعاه عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج قوم فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، و لولا أن تبطروا لأنبأتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان نبيّه» قال عبيدة: قلت لعلي:

١. عبد الله بن أحمد بن حنبل: السنة ٢٦٧ - ٢٨٦.

أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة، أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم سمعته من النبي ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع.

٢ - حدثني أبو محمد بن عبد الرحيم البزار، قال: و أنا شبابة أخبرني أبو عمرو بن العلاء، حدثنا ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي، قال: و الله لولا أن تبطروا لحدثتكم على لسان نبيكم، الذين يقتلونهم علامتهم رجل مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد، قال: فقلت: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم سمعته من النبي ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع.

٣ - حدثني عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، قال ذكر علي أهل النهروان فقال: فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد، أو مخدج اليد، لولا أن تبطروا لتبأتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ قال قلت: أنت سمعته منه؟ قال: أي ورب الكعبة.

٤ - حدثني إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، حدثنا وكيع، حدثنا جرير بن حازم، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (إنه سيخرج قوم فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، و لولا أن تبطروا لأنبأتكم بما وعد الذين يقتلونهم على لسان نبيّه، قال عبيدة: قمت إلى علي فقلت: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة. قال وكيع: مودن اليد: ناقص اليد، و المخدج: ضامره، و مثدون اليد: فيها شعرات زائدة.

٥ - حدثني أبي و أبو خيثمة قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم،

حدثنا أيوب، عن محمد، عن عبيدة، عن علي قال: ذكر الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد، لولا أن تبطروا لحدّثتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان محمد، قلت: أنت سمعته من محمد ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة.

٦ - حدثني أبي، حدثني وكيع، حدثنا جرير بن حازم وأبو عمرو بن العلاء سمعاه من ابن سيرين، فذكر الحديث إلا أنه قال: مثدون.

٧ - حدثني سويد بن سعيد، حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، عن أيوب، عن محمد، عن عبيدة، عن علي قال: لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما أعد الله لمن قتلهم، فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، قال عبيدة: أنت سمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة ثلاثاً.

٨ - حدثني محمد بن أبي بكر بن علي المقدمي، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب و هشام، عن محمد، عن عبيدة: إن علياً ذكر أهل النهروان فقال: فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، لولا أن تبطروا لنبأتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد، فقلت لعلي: أنت سمعته؟ قال: أي ورب الكعبة.

٩ - حدثني أبي، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، قتالهم حق على كل مسلم».

١٠ - حدثني أبي، حدثنا محمد بن أبي عدي أبو عمرو دكين من الرجال ما أشبهه بالشيوخ، عن ابن عون، عن محمد قال: قال عبيدة: لا أحدثك إلا ما

سمعت منه، قال محمد: فحلف لي عبدة ثلاث مرار و حلف له علي قال: لولا أن تبطروا لنبأتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان محمد. قلت أنت سمعته منه؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة، فيهم رجل مخدج اليد أو مثدون اليد، قال: قال محمد: فطلب ذاك الرجل فوجدوه في القتلى رجل عند أحد منكبيه كهيئة الشدي عليه شعرات.

١١ - حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي: قال حماد بن يحيى - يعني الأبح - قال: حدثنا ابن عون، عن محمد، عن عبدة، قال: لما قتل علي أهل النهروان، قال: التمسوا في القتلى رجلاً مخدج اليد، فالتمسوه فوجدوه في حفرة تحت القتلى فاستخرجوه، فأقبل علي على أصحابه، فقال: لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما وعد الله من يقتل هؤلاء على لسان محمد، قلت: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة ثلاث مرات.

١٢ - حدثني أبي، حدثنا محمد بن أبي عدي، عن سليمان، عن التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد: إن النبي ﷺ ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحالق و هم شرّ الخلق أو من شرّ الخلق يقتلهم أذى الطائفتين من الحق، قال: ف ضرب لهم النبي ﷺ مثلاً أو قال قولاً: الرجل يرمي الرميّة أو الغرض فينظر في الفصل فلا يرى بصيرة، و ينظر في النضي فلا يرى بصيرة، و ينظر في الفوق فلا يرى بصيرة قال: قال أبو سعيد: و أنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

١٣ - حدثني أبو معمر الهذلي إسماعيل بن إبراهيم بن معمر الهروي، حدثنا عبد الله بن إدريس، أنا عاصم بن كليب، عن أبيه، قال كنت جالساً عن علي إذ جاء رجل عليه ثياب السفر فاستأذن علي و هو يكلم الناس فشغل

عنه، فأقبلنا فسألناه من أين قدمت؟ ما خبرك؟ قال: خرجت معتمراً فلقيت عائشة، فقالت ما هؤلاء الذين خرجوا من بلادكم يسمّون حروراً؟ قال: قلت: خرجوا من أرضنا إلى مكان يسمّى حروراء به يدعون، قالت طوبى لمن قتلهم، أما والله لو شاء ابن أبي طالب لخبرهم خبرهم، قال: فأهلّ علي و كبر ثم أهلّ و كبر ثم أهلّ و كبر، فقال لي: إني دخلت على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فقال لي «كيف أنت و قوم كذا وكذا» قال عبد الله بن ادريس: وصف صفتهم، قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «قوم يخرجون من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فيهم رجل مخدج اليد كأنّ يده ثدي حبشية، أنشدكم الله هل أخبرتكم أنّه فيهم فاتيتموني فأخبرتكموني أنّه ليس فيهم، فحلفت بالله لكم أنّه فيهم، فاتيتموني تسحبونه كما نعت لكم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فأهلّ علي و كبر.

١٤ - حدثني أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، قال: كنت جالساً عن علي و هو في بعض أمر الناس إذ جاء رجل عليه ثياب السفر، ثم قال علي: كنت عند رسول الله ﷺ وليس عنده إلا عائشة فقال: «يا علي» كيف، مرتين أو ثلاثة، فذكر الحديث بطوله.

١٥ - حدثني زهير بن حرب أبو خيثمة، حدثنا القاسم بن مالك المزني، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، قال:

كنت جالساً عند علي فقال: إني دخلت على رسول الله ﷺ وليس عنده أحد إلا عائشة، فقال: «يا ابن أبي طالب كيف أنت و قوم كذا وكذا» قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «قوم يخرجون من المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فيهم رجل مخدج اليد كأنّ يده ثدي حبشية».

١٦ - حدثني علي بن حكيم الأودي، حدثنا شريك، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، قال: خطبنا علي، فقال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان شباب أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فمن لقيهم فليقتلهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم عند الله يوم القيامة».

١٧ - حدثني أبي و أبو خيثمة قالا: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة قال: قال علي: ما حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فلأن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه و إذا حدثتكم عن غيره فإنما أنا محارب و الحرب خدعة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة».

١٨ - حدثني محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني، حدثنا يعلى و وكيع، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، عن علي، قال: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً، سمعت رسول الله يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان قوم أحداث الاسنان»، فذكر الحديث.

١٩ - حدثني أبو كامل الجحدري فضيل بن الحسين بن كامل، حدثنا إبراهيم بن حميد الكوفي الرواسي بالبصرة جاء إلى عبادان، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة قال: علي: إذا حدثتكم فيما بيني و بينكم فإن الحرب خدعة، و إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فإنني و الله لأن آخر من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بي الريح في مكان سحيق أحب إلي من أن أكذب عليه، وإنني سمعته يقول: «سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث

الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية ثم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فمن لقيهم فليقتلهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة.

٢٠ - حدثني أبو كريب محمد بن العلاء الهمداني، حدثنا إبراهيم بن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن أبي إسحاق عن أبي قيس الأودي، عن سويد بن غفلة، عن علي عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية قتالهم حق على كل مسلم».

٢١ - حدثني أبي، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، قتالهم حق على كل مسلم».

٢٢ - حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش: قال أبي و عبد الرحمن، عن سفيان، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة قال: قال علي: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً فلائن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه و إذا حدثتكم فيما بيني و بينكم فإن الحرب خدعة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء»، و قال عبد الرحمن في آخر حديثه: أسفاه الأحلام، فذكر الحديث بطوله إلى آخره.

٢٣ - حدثنا أحمد بن جميل أبو يوسف، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن حميد بن أبي غنية، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن زيد بن وهب قال: لما خرجت الخوارج بالنهروان قام علي في أصحابه فقال: إن هؤلاء القوم قد سفكوا الدم الحرام، و أغاروا في سرح الناس، و هم أقرب العدو

إليكم و إن تسيروا إلى عدوكم فأنا أخاف أن يخلفكم هؤلاء في أعقابكم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج خارقة من أمتي ليس صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، و لا قرآنكم إلى قرآنهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم و هو عليهم، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، و آية ذلك إن فيهم رجلاً له عضد و ليس له ذراع عليها مثل حلمة الثدي عليها شعرات بيض، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم مالههم على لسان نبيهم، لا تكلوا عن العمل فسيروا على اسم الله و الله إنني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، قال: فما زال أبو سليمان يسيّرنا منازل على منزلاً منزلاً حتى قال: أخذنا على قنطرة الديزجان، قال فلما التقينا قام فيهم أميرهم عبد الله بن وهب الراسبي قال: إنني أذكركم بالله ألا القيتم رماحكم و أشرعتم السيوف و حملتم حملة رجل واحد لا تناشدوا كما تناشدتم يوم حروراء فترجعوا، قال: فحملوا علينا حلمة رجل واحد فشجرهم الناس برماحهم فقتلوا بعضهم قريباً من بعض و لم يقتل من الناس يومئذ إلا رجلاً، فقال علي: التمسوا هذا الرجل، قال فالتمسوه فلم يجدوه، قال: فقام علي وأنا لنرى على وجهه كآبة حتى أتى كبكبة منهم قد ركب بعضهم بعضاً، فأمر بهم ففرجوا يميناً و شمالاً فوجدوه ممّا يلي الأرض فقال: الله أكبر، صدق الله و بلغ رسوله، فقام إليه عبيدة السلطان فاستحلفه ثلاثة إيمان: أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ و كل ذلك يحلف له علي.

٢٤ - حدثني محمد بن عبيد بن محمد المحاربي بالكوفة، حدثنا أبو مالك الختلي عمرو بن هاشم، عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني عمرو بن قيس، عن المنهال بن عمرو، عن زر بن حبیش أنه سمع علياً يقول: أنا فقأت عين الفتنة، و لولا أنا ما قوتل أهل النهر و لا أهل الجمل، و لولا أني أخشى أن

تتركوا العمل لأخبرتكم بالذي قضى الله على لسان نبيكم لمن قاتلهم مبصراً لضلالتهم عارفاً للهدى الذي نحن فيه.

٢٥ - حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن معاوية بن قرة، قال: هلك الخوارج والأهواء.

٢٦ - حدثني أبي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب قال: لما كان يوم النهر لعن علي الخوارج، فلم يبرحوا حتى شجروا بالرماح، فقتلوا جميعاً، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت أطلبوا ذا الثدية، قال: فطلبوه فلم يجدوه، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت أطلبوه، فوجدوه في وهدة من الأرض عليه ناس من القتلى، فإذا رجل على ثديه مثل سبلة السنور، قال: فكبر علي وأعجبه ذلك والناس. و قال أبو معاوية مرة: وكبر علي وكبر الناس.

٢٧ - حدثني عباد بن زياد بن موسى الأسدي، حدثنا شريك، عن محمد بن قيس، عن أبي موسى شيخ لهم شهد مع علي قال: قال علي يوم النهر: اطلبوا ذا الثدية، فطلبوه فلم يجدوه، فجعل يعرق جبينه ويقول: والله ما كذبت ولا كذبت، قال: فوجد فاستخرج من ساقية من تحت قتلى فسجد سجدة الشكر.

٢٨ - حدثني أبي، حدثنا القاسم بن الوليد الهمداني، حدثنا إسرائيل، حدثنا إبراهيم - يعني ابن عبد الأعلى - عن طارق بن زياد قال: خرجنا مع علي إلى الخوارج فقتلهم، ثم قال: انظروا فإن نبي الله ﷺ قال: سيخرج قوم يتكلمون بالحق ولا يجوز حلقهم، يخرجون من الحق كما يخرج السهم من الرمية، سيماهم أن منهم رجلاً أسود مخدج اليد، في يده شعرات سود، إن كان هو فقد قتلتم شر الناس، وإن لم يكن هو فقد قتلتم خير الناس، فبكينا، ثم قال: اطلبوا، فوجدنا المخدج فخررنا سجوداً و خر علي معنا

ساجداً غير أنه قال: يتكلمون بكلمة الحق.

٢٩ - حدثني عبد الله بن عمر القواريري، حدثنا عبد الرحمن بن العريان الحارثي، حدثنا الأزرق بن قيس، عن رجل من عبد القيس قال: شهدت علياً يوم قتل أهل النهروان قال: قال علي حين قتلوا: عليّ بذي الثدية أو المخدوج، ذكر شيئاً من ذلك لا أحفظه قال: فطلبوه فإذا هم بحبشي مثل البعير في منكبه مثل ثدي المرأة عليه. قال عبد الرحمن: أراه شعراً و لو تخرج روح انسان من الفرح لخرج روح علي يومئذ، قال: صدق الله و رسوله من حدثني من الناس أنه رآه قبل مصرعه هذا فإنه كذاب.

٣٠ - حدثني علي بن حكيم الأودي، حدثنا شريك، عن عثمان بن أبي زرعة، عن زيد بن وهب، قال قدم علي على قوم من أهل البصرة من الخوارج فيهم رجل يقاله له الجعد بن بعجة، فقال له: أتق الله يا علي فإنك ميت، فقال علي: بل مقتول قتلاً ضربة على هذا يخضب هذه - يعني لحيته من رأسه - عهد معهود و قضاء مقضي و قد خاب من افتري، و عاتبه في لباسه، فقال: مالكم و للباسي هو أبعد من الكبر و أجدر أن يقتدي بي المسلم.

٣١ - حدثني أبي حدثنا يزيد بن هارون، أنا هشام عن محمد، عن عبيدة، قال: قال علي لأهل النهر: فيهم رجل مثنون اليد، أو مخدج اليد، و لولا أن تبطروا لأنبأتكم بما قضى الله على لسان نبيه لمن قتلهم، قال عبيدة: فقلت لعلي: أنت سمعته؟ قال: نعم ورب الكعبة، يحلف عليها ثلاثاً.

٣٢ - حدثني أبي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن عاصم الأحول، عن عون بن عبد الله، قال: بعثني عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج أكلّمهم فقلت لهم: هل تدرون ما علامتكم في وليكم التي إذا لقيكم بها أمن بها عندكم و كان بها وليكم، و ما علامتكم في عدوكم التي إذا لقيكم بها خاف عندكم و كان بها

عدوكم؟ قالوا: ما ندري ما تقول؟ قلت: فإنّ علامتكم عند وليكم التي إذا لقيكم بها أمن بها عندكم و كان بها وليكم أن يقول: أنا نصراني أو يهودي أو مجوسي، و علامتكم عند عدوكم التي إذا لقيكم بها خاف بها عندكم و كان بها عدوكم أن يقول: أنا مسلم.

٣٣ - حدثني وهب بن بقية الواسطي، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن ميسرة، قال: قال أبو جحيفة: إنّ عليّاً حين فرغ من الحرورية قال: إنّ فيهم رجلاً مخدج اليد ليس على عضده عظم، في عضده حلمة كحلمة الثدي عليها شعرات طوال عقف، فالتمس فلم يوجد، ثمّ التمس فلم يوجد، قال: و أنا فيمن يلتمس فما رأيت عليّاً جزع قط أشدّ من جزعه يومئذ، قالوا: ما نجده يا أمير المؤمنين. قال: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: النهروان. قال كذبتم أنّه فيهم فالتمسوه، قال: فثورنا القتل فلم نجده، فعدنا إليه فقلنا: يا أمير المؤمنين ما نجده، فسأل عن المكان، فأخبر، فقال: صدق الله و رسوله و كذبتم أنّه لفيهم فالتمسوه، فالتمسناه فوجدناه في ساقية فجئنا به فنظرت إلى عضده ليس فيها عظم عليها حلمة كحلمة ثدي المرأة عليها شعرات طوال عقف.

٣٤ - حدثني أبي، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني أبو عبيدة بن محمّد بن عمار بن ياسر، عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال خرجت أنا و تليد بن كلاب الليثي حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص و هو يطوف بالبيت معلّقاً نعله بيده فسألته: هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلّمه التميمي يوم حنين؟ قال: نعم، أقبل رجل من بني تميم يقال له ذي الخويصرة فوقف على رسول الله ﷺ و هو يعظ الناس، فقال: يا محمّد قد رأيت ما

صنعت في هذا اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «و كيف رأيت؟» قال: لم أرك عدلت. قال: فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: «ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا نقتله؟ قال: «لا، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، فينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القدح فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء سبق الفرث الدم».

٣٥ - حدثني أبي، حدثني يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، قال: و حدثني محمد بن علي بن الحسين أبو جعفر مثل حديث أبي عبيدة و سمّاه ذا الخويصرة.

٣٦ - حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن ابن أبي إسحاق، عن رجل: أنّ عائشة لما بلغها قتل المخدج، قالت: لقد قتل شيطان جان الردهة. قال و قال سعد ابن أبي وقاص: لقد قتل جان الردهة.

٣٧ - حدثني أبو الربيع الزهراني سليمان بن داود، حدثنا داود العطار المكي، حدثنا موسى بن عقبة، عن نافع، قال: خرج ابن عمر من المدينة يريد الحج، ف قيل له: إنّ الحرورية قد خرجت، فقال: أشهدكم أنّي قد جعلتها عمرة، فلما انتهى إلى البيداء، قال: أشهدكم أنّي قد كنت جعلتها عمرة و أنّي قد أضفت إليها حجة.

٣٨ - حدثني أبي، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا حرام بن إسماعيل العامري، عن أبي إسحاق الشيباني، عن يسير بن عمرو، قال: دخلت على سهل بن حنيف بالمدينة فقلت: حدثني بما سمعت من رسول الله ﷺ في الحرورية، فقال: أحدثك ما سمعت من رسول الله ﷺ في الحرورية لا أزيدك عليه: سمعت رسول الله ﷺ

يذكر قوماً يخرجون من هاهنا: و أشار بيده نحو العراق - يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، قال: قلت: هل ذكر لهم علامة؟ قال: هذا ما سمعته لا أزيدك .

٣٩ - حدّثني أبي، حدّثنا أبو كامل، حدّثنا حماد - يعني ابن سلمة - حدّثني سعيد ابن جمهان، قال: كانت الخوارج تدعوني حتى كدت أن أدخل معهم، فرأت أخت بلال في النوم أنّ أبا بلال كلب أسود عيناه تذرفان، فقالت: بابي أنت يا أبا بلال ما شأنك أراك هكذا؟ قال: جعلنا بعدكم كلاب النار، و كان أبو بلال من رؤوس الخوارج.

٤٠ - حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن أبي زائدة، عن عكرمة بن عمار، حدّثني عاصم بن شميخ الغيلاني، قال: رأيت أبا سعيد الخدري يصليّ عند الزوال و هو معتمد على جريدة إذا قام اعتمد عليها و إذا ركع أسندها إلى الحائط و إذا سجد اعتمد عليها.

٤١ - حدّثنا هذبة بن خالد الأزدي، حدّثنا ديلم أبو غالب، عن ميمون الكردي، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: تمرق مارقة من فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق.

٤٢ - حدّثني أبي حدّثنا وكيع، حدّثنا عكرمة بن عمار، عن عاصم بن شميخ، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حلف باليمين قال: «و الذي نفس أبي القاسم بيده ليخرجنّ قوم تحقرون أعمالكم عند أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» قالوا: فهل من علامة يعرفون بها؟ قال: «فيهم رجل ذو ثدية محلقي رؤوسهم» قال أبو سعيد: فحدّثني عشرون أو بضع و عشرون من

أصحاب النبي ﷺ: أن علياً ولي قتلهم، قال فرأيت أبا سعيد بعد ما كبر و يدها ترتعشان يقول: إن قتلهم أجلّ عندي من قتال عدّتهم من الترك.

٤٣ - حدّثني أبي، حدّثنا إسحاق بن يوسف - يعني الأزرق - عن الأعمش، عن ابن أبي أوفى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخوارج هم كلاب النار».

٤٤ - حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نصره، عن أبي سعيد - أو قال: سمعت أنا سعيد الخدري يحدث - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان دعواهما في الدين واحدة، تمرق بينهما مارقة، يقتلها أولاهما بالحق».

٤٥ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثني سويد بن عبيد العجلي، عن أبي مؤمن الوائلي، قال: شهدت علياً حين فرغ من قتالهم، قال: انظروا فإنّ فيهم رجلاً مخدج اليد، فطلبوه فلم يجدوه، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت، قال: فقام علي فأخرجه من تحت ساقية، فخرّ علي ساجداً.

٤٦ - حدّثني أبي حدّثنا وكيع، حدّثنا بسام، عن أبي الطفيل، قال: سأل ابن الكواء علياً عليه السلام عن الأخسرين أعمالاً، قال: منهم أهل حروراء.

٤٧ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع حدّثنا حسن - يعني ابن صالح - عن أبي نعامه الأسدي، عن خال له، قال: سمعت ابن عمر يقول: إنّ نجدة و أصحابه عرضوا لعيرلنا و لو كنت فيهم لجاهدتهم.

٤٨ - حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن أيوب، عن نافع: أخبرني ابن عمر أنّ نجدة لاقاه فحلّ شرح سيفه فأشرجته، ثم مرّ به فحلّه أيضاً

فأشرجته، ثم مرّ به الثالثة، فقال: من أشرح هذا كأنه ليس في أنفسكم ما في أنفسنا؟

٤٩ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا عثمان الشحام أبو سلمة، حدّثني مسلم ابن أبي بكرة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سيخرج قوم أحذاء أشداء، ذلقة ألسنتهم بالقرآن، يقرأونه لا يجاوز تراقيهم، إذ ليقتموهم فاقتلوهم، فإنّه يؤجر قاتلهم».

٥٠ - حدّثني أبي، حدّثنا بهز و عفان قالوا: حدّثنا حماد - يعني ابن سلمة - حدّثني سعيد بن جمهان، قال: كنّا مع عبد الله بن أبي أوفى نقاتل الخوارج و قد لحق غلام لابن أبي أوفى بالخوارج فناديناه يا فيروز هذا ابن أبي أوفى فقال: نعم الرجل لو هاجر، قال: ما يقول عدوّ الله؟ قال: يقول: نعم الرجل لو هاجر، فقال: أهجرة بعد هجرتي مع رسول الله ﷺ؟ قال بهز في حديثه، يردّها ثلاثاً: سمعت رسول الله ﷺ (يقول): «طوبى لمن قتلهم»، و قال عفان و يونس: «لمن قتلهم و قتلوه» ثلاثاً.

٥١ - حدّثني أبي، حدّثنا روح بن عبادة، حدّثني عثمان الشحام، حدّثنا مسلم بن أبي بكرة: و سأله هل سمعت في الخوارج شيئاً، فقال: سمعت والدي أبا بكرة يقول عن نبي الله: «ألا أنّه سيخرج من أمّتي أقوام أشداء أحذاء، ذليقة ألسنتهم بالقرآن لا يجاوز تراقيهم، ألا فإذا رأيتموهم ثمّ إذا رأيتموهم فأنيتموهم فالماجور قاتلهم».

٥٢ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن زياد بن طارق، قال: رأيت عليّاً حين أخرج المخدج - على يده ثلاث شعرات - خرّ ساجداً، قال عبد الله بن طارق بن زياد: و لكن كذا قال وكيع.

٥٣ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا سفيان، عن محمّد بن قيس الهمداني، عن شيخ لهم يكنى أبا موسى قال: رايت علياً سجد حين أتني بالمخدج.

٥٤ - حدّثني أبي، حدّثنا يزيد بن هارون، انا حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب، قال: الذي يقتله الخوارج له عشرة أنور، فضّل ثمانية أنور على غيره من الشهداء.

٥٥ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا ابن أبي خالد، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: ذكر عنده الخوارج قال: هم قد زاغوا فأزاع الله قلوبهم.

٥٦ - حدّثني أبي، حدّثنا حماد بن مسعدة، عن يزيد - يعني ابن أبي عبيد - قال: لما ظهر نجدة الحروري أخذ صدقات، قيل لسلمة: ألا تباعد منهم؟ قال: فقال: و الله لا أباعه و لا أتبعه أبداً، قال: و دفع صدقته إليهم.

٥٧ - حدّثني أبي، حدّثنا عفان، حدّثنا جويرية بن أسماء، قال: زعم نافع أنّ ابن عمر كان يرى قتال الحرورية حقاً واجباً على المسلمين.

٥٨ - حدّثني أبي، حدّثنا محمّد بن بشر، حدّثنا عبيد الله، عن نافع: أنّ ابن عمر أراد أن نقاتل نجدة حين أتى المدينة يغير على ذراريهم، ف قيل له: إنّ الناس لا يبايعونك على هذا، قال: فتركه.

٥٩ - حدّثني أبي، حدّثنا محبوب بن الحسن، حدّثنا خالد - يعني الحذاء - عن أبي اياس معاوية بن قرّة، قال: خرج حروري محكّم، فخرج إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ من مزينة بأسيا فهم منهم عائذ بن عمرو.

٦٠ - حدّثني أبي، حدّثنا عفان، حدّثنا يزيد بن زريع، حدّثنا خالد الحذاء، عن معاوية بن قرّة: خرج محكّم في زمان أصحاب

رسول الله ﷺ فخرجوا عليه بالسيف رهط من أصحاب رسول الله ﷺ منهم عائذ بن عمرو.

٦١ - حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا سلام أبو المنذر، عن عاصم بن بهدلة قال: خرج خارجي بالكوفة، فقيل: يا أبا وائل هذا خارجي خرج فقتل، فقال: والله ما أعزّ هذا الله من دين و لا دفع عن مظلوم، هذا و أهلك الخير.

٦٢ - حدثني أبي، حدثنا أبو كامل مظفر بن مدرك، حدثنا حماد بن سملة، عن الأزرق بن قيس، قال: كنّا بالأهواز نقاتل الخوارج و فينا أبو برزة الأسلمي فجاء إلى نهر فتوضّأ ثمّ قام يصلي.

٦٣ - حدثني أبي، حدثنا يزيد بن هارون، أنا ابن إسحاق، عن أبي الزبير، عن أبي العباس مولى بني الديل، عن عبد الله بن عمرو، قال: ذكر عند رسول الله ﷺ قوم يجتهدون في العبادة اجتهداً شديداً، فقال: «تلك ضراوة في الإسلام و شرّه و لكلّ شرّه فترة، فمن كانت فترته إلى الاقتصاد فلاوم^(١) ما هو و من كانت فترته إلى غير ذلك فأولئك هم الهالكون».

٦٤ - حدثني أبي، حدثنا هشيم، أنا حصين، عن مصعب بن سعد، عن سعد في قوله: «يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»^(٢) قال: قلت له: أهم الخوارج؟ قال: لا، و لكنّهم أصحاب الصوامع، و الخوارج الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.

٦٥ - حدثني أبي، حدثنا هشيم، أنا العوام، حدثنا أبو غالب، عن أبي أمامة: زاغوا فأزاغ الله قلوبهم. قال: هم الخوارج.

٦٦ - حدثني أبي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن حصين - و كان صاحب شرطة علي - قال: قال علي: قاتلهم الله أي حديث

١. كذا في الأصل، وفي أصل آخر: فلا ذم، ولعله: لازم.

٢. الكهف: ١٠٤.

شانوا، يعني الخوارج.

٦٧ - حدّثني أبي، حدّثنا ابن نمير، انا عبيدالله، عن نافع، قال: لمّا سمع ابن عمر بنجدة قد أقبل و أنّه يريد المدينة و أنّه يسبي السباء و يقتل الولدان، قال: إذاً لا ندعه و ذاك، وهمّ بقتاله و حرّض الناس، فقليل له: إنّ الناس لا يقاتلون معك و تخاف أن تترك فتقتل، فتركه.

٦٨ - حدّثني أبي، حدّثنا أبو بكر بن عياش، قال: سمعت أبا إسحاق، عن أبي الأحوص، قال: خرج خوارج فخرج إليهم، فقتلوه.

٦٩ - حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، أخبرني عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عباس: إنّ عليّاً أخرجه إلى الخوارج فكلّمهم، ففرّق بينهم، فقالت الخوارج: بل هم قوم خصمون.

٧٠ - حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، أخبرني عاصم الأحول، عن عون بن عبدالله: إنّ عمر بن عبد العزيز أخرجه إلى الخوارج فكلّمهم.

٧١ - حدّثني أبي، حدّثنا يزيد - يعني ابن هارون - انا هشام بن حسان، حدّثني أبو الوضي القيسي، قال كنت في أصحاب علي لمّا فرغ من أهل النهر، قال: اطلبوا فيهم ذا الثدية، فطلبوه فلم يجدوه، فأتوه فقالوا: لم نجده. قال: اطلبوه فإنّه فيهم. قال فطلبوه فوجدوه فأتني به فإنّي لأنظر إليه وله في أحد منكبيه مثل ثدي المرأة ليس له يد غيرها عليها شعرات.

٧٢ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، عن حماد بن سلمة، عن أبي غالب، عن أبي أمامة: أنّه رأى رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار - ثلاثاً - شر قتيل تحت أديم السماء، خير قتل من قتلوه، ثمّ

قرأ: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» (١) قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعته إلا مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو ستاً أو سبعمائة ما حدثتكم به.

٧٣ - حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال: سمعت أبا غالب يقول: لما أتني برؤوس الأزارقة فنصبت على درج دمشق، جاء أبو أمامة فلما رآهم دمعت عينه، قال: كلاب النار، كلاب النار، كلاب النار - ثلاث مرّات - هؤلاء شرّ قتلى قتلوا تحت أديم السماء، و خير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء، قلت: فما شأنك دمعت عينك؟ قال: رحمة لهم لأنهم كانوا من أهل الإسلام قلت: أبرأيك قلت هم كلاب النار أو شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: إني إذا لجري بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرّة ولا مرتين ولا ثلاثة، قال: فعّد مراراً قال ثم تلا هذه الآية «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» حتى بلغ «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ثم ذكر الحديث إلى آخره.

٧٤ - حدثني أبو خيثمة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي غالب سمع أبا أمامة قال: خرجت معه فرأى رؤوساً من هؤلاء الخوارج على درج دمشق، فقال كلاب النار، كلاب النار، شرّ قتلى، و خير قتلى من قتلوه، فقلت: يا أبا أمامة سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم غير مرّة.

٧٥ - حدثني أبو خيثمة زهير بن حرب، حدثنا عمّار بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمّار، حدثنا شداد بن عبد الله، قال: وقف أبو أمامة و أنا معه على رؤوس الحرورية بالشام عند باب مسجد حمص أو دمشق، فقال لهم: كلاب النار - مرتين أو ثلاثاً - شرّ قتلى تظل السماء، و خير قتلى من قتلوهم

- و دمعت عينا أبي أمانة - قال رجل: أرأيت قولك لهؤلاء القوم شرّ قتلى تظلّ السماء، و خير قتلى قتلوهم، شيء من قبل رأيك أو شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: من قبل رأيي إنني إذا لجريّ لولم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين - حتى عدّ سبع مرار - ما حدّثكم، فقال له رجل: رأيك دمعت عينك؟ فقال: رحمة رحمتهم كانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾^(١) الآية.

٧٦ - حدّثنا أبي، حدّثنا أنس بن عياض و هو أبو ضمرة المديني، قال: سمعت صفوان بن سليم يقول: دخل أبو أمانة الباهلي دمشق فرأى رؤوس حروراء قد نصبت فقال: كلاب النار - ثلاثاً - شرّ قتلى تحت ظلّ السماء من خير قتلى من قتلوه، ثم بكى، فقام إليه رجل فقال: يا أبا أمانة هذا الذي تقول من رأيك أو سمعته؟ فقال: إنني إذا لجريّ كيف أقول هذا عن رأيي و لكن قد سمعته غير مرة و لا مرتين. قال: فما يبكيك؟ قال أبكي لخروجهم من الإسلام هؤلاء الذين تفرّقوا و اتخذوا دينهم شيعاً.

٧٧ - حدّثني أبي، حدّثنا إسماعيل - يعني ابن علية - انا سليمان التيمي، حدّثنا أنس بن مالك، قال: ذكر لي أنّ نبي الله قال: إنّ فيكم قوماً يعبدون و يدينون حتّى يعجبوا الناس وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة.

٧٨ - حدّثني أبي، حدّثنا إبراهيم بن خالد، حدّثنا رباح، عن معمر، عن قتادة عن أنس بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يكون

١. آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦.

في أمتي اختلاف و فرقة يخرجون فيهم قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، سيماهم الحلق و التسييت، فإذا رأيتموهم فأيتموهم» - قوله التسييت يعني استئصال الشعر - .

٧٩ - حدثني أبو بشر بكر بن خلف ختن أبي عبد الرحمن المقرئ و سأله محمد بن غيلان، عن هذا الحديث بمكة قال: حدثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي قوم يقرأون القرآن لا يجاز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم».

٨٠ - حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري، قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «و يلك و من يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتأذن لي أن أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلاته مع صلاته، و صيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في نصيبه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، و قد سبق الفرث و الدم، آيتهم رجل أسود في إحدى يديه أو قال إحدى ثدييه كثدي المرأة، و مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية^(١) قال أبو سعيد: فأشهد أنني سمعت هذان رسول الله، و أشهد أن علياً حين قتلهم و أنا معه جيئ بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله.

٨١ - حَدَّثَنِي أَفْطَرُ بْنُ حَمَادٍ بْنُ وَقْدٍ، حَدَّثَنَا مَهْدِي بْنُ مَيْمُونٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ مَعْدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِيُخْرِجَ قَوْمٌ بِالْمَشْرِقِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ عَلَى فَوْقِهِ» قَالَ: قِيلَ: مَا سِيْمَاهُمْ؟ قَالَ: «سِيْمَاهُمُ الْحَلْقُ أَوْ التَّسْبِيتُ».

٨٢ - حَدَّثَنِي نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا غَسَارُ بْنُ مَضَرَ حَدَّثَنَا أَبُو مُسْلِمَةَ سَعِيدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَرُوقُ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، إِنَّ الرَّجُلَ لِيَرْمِي رَمِيَّتَهُ فَيَنْفِذُهَا سَهْمَهُ فَتَنْطَلِقُ الرَّمِيَّةُ حَائِطَةً، قَالَ: فَيَتَحَرَّكُ هَنْبِيهَةٌ ثُمَّ يَقَعُ فِيهِ فَيَتَبَعُ سَهْمَهُ فَيَنْظُرُ فِي النِّصْلِ فَلَا يَجِدُ بَيِّنَةً قَالَ: فَيَحْدِثُ نَفْسَهُ لَئِنْ كُنْتُ أَصَبْتُ لِأَجِدَنَّ بَيِّنَةً فِي الْقَذِذِ وَ الْفَوْقَتَيْنِ، قَالَ: فَيَنْظُرُ فِي الْقَذِذِ وَ الْفَوْقَتَيْنِ فَلَا يَجِدُ بَيِّنَةً، قَالَ: فَلَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا كَمَا يَلْقَى ذَلِكَ السَّهْمُ مِنْ رَمِيَّتِهِ، قَالَ: وَ لَا يَعُودُونَ فِيهِ، ثُمَّ يَقْرَأُونَ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَعُدُّو تَرَاقِيَهُمْ، قَالَ: يَحْتَقِرُ أَوْ يَزْدَرِي عَمَلَهُ عِنْدَ عَمَلِهِمْ، سِيْمَاهُمُ التَّحْلِيقُ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَ الْخَلِيقَةِ - مَرَّتَيْنِ - يَتَوَلَّى قَتْلَهُمْ أَقْرَبُ الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ - يَعْنِي أَصْحَابَ النَّهْرَوَانِ - فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَلَّى قَتْلَهُمْ أَهْلَ الْعِرَاقِ.

٨٣ - حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا حِشْرُ بْنُ نَبَاتَةَ الْعَبْسِيُّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جَمْهَانَ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَ هُوَ مُحْجُوبُ الْبَصَرِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ جَمْهَانَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالدَّكْ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَتَلْتَهُ الْأَزَارِقَةَ. قَالَ لَعَنَ اللَّهُ الْأَزَارِقَةَ، لَعَنَ اللَّهُ الْأَزَارِقَةَ.

٨٤ - حدّثنا رسول الله ﷺ: أنّهم كلاب النار، قال: قلت: الأزارقة وحدهم أم الخوارج كلّها؟ قال: لا، بل الخوارج كلّها.

و آخر دعوانا
أن الحمد لله ربّ العالمين

* * *

فهرس المواضيع

المقدمة	٥
الفصل الأول: بداية الاختلاف بعد رحلة الرسول ﷺ	٩
أسباب الثورة في خلافة عثمان	١٦
١ - تعطيل الحدود الالهية:	١٦
٢ - عطياته الهائلة لبني أمية من بيت المال:	١٦
٣ - تأسيس حكومة أموية:	١٧
٤ - مواقفه العدائية تجاه الصحابة:	١٨
٥ - ايواؤه طريد رسول الله:	١٨
قتل الخليفة عثمان:	١٩
اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعة علي:	٢١

٢٥	الفصل الثاني: حوادث وطوارئ مريرة في عصر الخلافة العلوية.....
٣١	١ - قتال الناكثين (حرب الجمل)
٣٢	خروج عائشة إلى مكة.....
٣٣	مغادرة الشيخين وعائشة مكة.....
٣٥	مسير علي إلى جانب البصرة.....
٣٩	على أعتاب حرب الجمل.....
٤٠	خطبة علي يوم الجمل.....
٤٣	٢ - قتال القاسطين (حرب صفين).....
٤٤	الخلافة كانت الامنية القصوى لمعاوية:.....
٤٦	مخططات معاوية.....
٤٦	١- الاتصال بعمر بن العاص:.....
٤٧	٢- قميص عثمان المخضب بالدم:.....
٤٧	٣- الاستنصار بالشخصيات المرموقة:.....
٤٩	٤- رسائل معاوية إلى الشخصيات:.....
٥٠	جهود علي ومساغيه لإخماد الفتنة:.....
٥٢	خروج معاوية إلى صفين:.....
٥٢	استعادة الشريعة من جيش معاوية:.....
٥٩	فرض التحكيم أولاً، وفرض المحكم ثانياً:.....
٦١	صياغة اتفاقية الصلح:.....
٦٢	اتفاقية الصلح أو وثيقة التحكيم:.....
٦٥	صورة أخرى لوثيقة التحكيم:.....

٦٧	الفصل الثالث: نشوء الخوارج عند مخالفتهم لمبدأ التحكيم
٧٣	تنبؤ النبي ﷺ بفتنة الخوارج:
٧٤	تحليل لكارثة التحكيم:
٧٤	الأول: لماذا اغتر المحكّمة بظواهر الأمر...
٧٦	الثاني: لماذا رجعوا عن التحكيم بعد فرضه على علي عليه السلام ؟
٨٣	الفصل الرابع: تحركاتهم السياسية بعد مبدأ التحكيم
٨٥	التظاهر ضد علي عليه السلام
٨٥	تكفير علي عليه السلام وأصحابه
٨٩	الإمام يبيّن موقفه من التحكيم
٨٩	التعامل معهم كسائر المسلمين
٩٠	بعث الشخصيات لإرجاعهم عن غيهم:
٩٣	الفصل الخامس: موقف الإمام ورأي الحكمين
٩٨	المواضيع التي كان على الحكمين دراستها
١٠٠	تدخل الحكمين فيما لم يحوّل اليهما
١١١	الفصل السادس: تحركاتهم العسكرية بعد صدور رأي الحكمين
١٢٠	الحرص على صيانة نفوسهم
١٢٢	فقاء عين الفتنة.
١٢٣	تنبؤ للإمام بعد استئصال الخوارج
١٢٥	كلمة أخيرة للإمام في حقّ الخوارج

- ١٢٧ الفصل السابع: انتفاضات الخوارج بعد حرب النهروان في العهد العلوي
- ١٢٩ خروج الخريت بن راشد الناجي و.....
- ١٣٢ جريمتهم الكبرى أو آخر سهم في كنانة الخوارج.....
- ١٣٧ خاتمة المطاف: ماهي أسباب النكسة في أعقاب حرب صفين
- ١٣٨ سيادة نزعة الاعتراض على قراء الكوفة.....
- ١٤٥ وجود العملاء في جيش الإمام.....
- ١٥١ هل العصبية القبلية دفعت الأشعث إلى المخالفة؟
- ١٥٣ الفصل الثامن: الخوارج في عصر معاوية بن أبي سفيان.....
- ١٥٨ خروج فروة بن نوفل
- ١٥٩ خروج شبيب بن بجرة
- ١٦٠ الخوارج والمغيرة بن شعبة والي معاوية في الكوفة.....
- ١٦١ خروج معين الخارجي
- ١٦١ خروج أبي مريم مولى بني الحرث بن كعب
- ١٦١ خروج أبي ليلي
- ١٦٢ خروج المستورد.....
- ١٦٥ خروج الموالي لصالح الخوارج.....
- ١٦٥ خروج حيان بن ظبيان السلمي.....
- ١٦٦ الخوارج في البصرة
- ١٦٦ خروج الخطيم الباهلي وسهم بن غالب الهجيني.....
- ١٦٧ خروج قريب بن مرة وزخّاف الطائي.....

١٦٧	خروج زياد بن خراش العجلي
١٦٨	خروج معاذ الطائي
١٦٨	خروج طواف بن غلاق
١٦٩	خروج عروة بن اديّة
١٦٩	خروج مرداس به أدية
١٧٣	مخطّط زياد لاستئصال الخوارج
١٧٧	الفصل التاسع: ألقاب الخوارج وفرقهم
١٨٣	الفرقة الأولى: الازارقة
١٨٣	أتباع نافع بن الأزرق المقتول سنة ٦٥
١٨٤	استغلال الخوارج الظروف الحرجة
١٨٨	كتاب نجدة إلى نافع
١٨٩	اجابة نافع عن كتاب نجدة
١٩١	رسالة نافع إلى محكمة البصرة
١٩٦	آراء الازارقة وعقائدهم
١٩٩	الفرقة الثانية: النجدية
٢٠٥	الفرقة الثالثة: البيهسية
٢٠٨	العوفية
٢٠٨	أصحاب التفسير
٢٠٩	أصحاب السؤال
٢١١	الفرقة الرابعة: الصفرية
٢١٤	أصول الفرق للخوارج
٢١٦	الخوارج قد شوّهوا محاسن الدين

- الفرقة الخامسة: الاباطية (أتباع عبد الله بن اباض) ٢١٧
- الاباضية في كتب المقالات والتاريخ : ٢١٨
- أوهام حول مؤسس المذهب: ٢٢٠
- الاباضية في كتب أعلامهم ٢٢٣
- هل الاباضية من الخوارج؟: ٢٢٤
- نظرنا في الموضوع: ٢٢٩
- نظرية أخرى في مفهوم الخوارج : ٢٤٣
- الفصل العاشر: عقائد الاباضية وأصولهم الثمانية ٢٤٧
- صفات الله ليست زائدة على ذاته ٢٤٨
- امتناع رؤية الله سبحانه في الآخرة: ٢٥١
- القرآن حادث غير قديم: ٢٥٤
- الشفاعة: دخول الجنة بسرعة: ٢٥٨
- مرتكب الكبيرة كافر نعمة لا كافر ملّة: ٢٦٠
- الخروج على الإمام الجائر: ٢٦٤
- التولي والتبري والوقوف: ٢٦٦
- اكمال: ٢٧٤
- آراء الاباضية في الصحابة: ٢٧٥
- الفتاوى الشاذة عن الكتاب والسنة ٢٧٩

٢٨٧	خاتمة المطاف
٢٨٧	مسالك الدين عند الباضية:
٢٩١	العزّابة: تعريف العزّابة، اشتقاق كلمة العزّابة
٢٩١	معنى كلمة الحَلَقَة
٢٩٢	مقرّ العزّابة
٢٩٣	عدد أعضاء الحَلَقَة
٢٩٤	شروط العضوية
٢٩٥	واجبات الحلقة
٢٩٦	أين تنشأ حَلَق العزّابة
٢٩٨	اختيار أعضاء الحَلَقَة
٢٩٩	عقوبة العزّابي:
٣٠٠	كيف تكون نظام العزّابة:
٣٠٢	نصيحة للاباضية
٣٠٩	الفصل الحادي عشر: مؤسس المذهب الاباضي ودعاته
٣١١	١ - عبدالله بن اباض، مؤسس المذهب:
٣١٢	ظهور خط الاعتدال بعد مقتل الإمام:
٣١٦	رأى آخر في المؤسس :
٣٢٠	٢ - جابر بن زيد العماني الأزدي:
٣٢٢	كلمات الاباضية في حقّ جابر:
٣٢٧	فقه جابر بن زيد:

- ٣ - أبو عبدة مسلم بن أبي كريمة ٣٢٨
- شيوخه: ٣٢٩
- تلاميذه: ٣٢٩
- ٤ - أبو عمرو ربيع بن حبيب الفراهيدي: ٣٣٠
- الثلاثيات: ٣٣١
- انطباعات عن الجامع الصحيح: ٣٣٢
- ٥ - أبو يحيى عبدالله بن يحيى الكندي (طالب الحق): ٣٣٥
- أئمة الاباضية في القرون الأولى: ٣٣٧
- القرن الأول: ٣٣٧
- القرن الثاني: ٣٣٧
- القرن الثالث: ٣٣٨
- القرن الرابع: ٣٣٩
- دول الاباضية: ٣٣٩
- رسالة عبدالله بن أباض إلى عبدالملك بن مروان ٣٤٠
- الفصل الثاني عشر: في عقائد فرق الخوارج ومخططاتهم في الحياة ٣٥٧
- ١ - حكم التحكيم في حرب صفين ٣٦١
- التحكيم والتدخل في موضوع له حكم سماوي: ٣٦٢
- غيري جنى وأنا المعاقب فيكم! ٣٦٥
- روايات شاذة في أمر التحكيم: ٣٨٠
- اكمال: الخوارج أنصار علي وشيعته؟! ٣٨٤
- ٢ - حكم مرتكب الكبيرة من الجهات الثلاث ٣٩١

الجهة الأولى - هل مرتكب المعاصي مشرك ؟	٣٩٢
أدلة الأزارقة على أنّ المعاصي شرك:	٣٩٥
الجهة الثانية - هل مرتكب المعاصي مؤمن أو كافر؟:	٣٩٨
أدلة الخوارج على أنّ ارتكاب المعاصي كفر:	٤٠٠
الجهة الثالثة - صاحب الكبيرة و خلوده في النار:	٤١٢
المخالفون عند الخوارج:	٤١٥
الإيمان يزيد و ينقص:	٤١٦
٣ - في الخروج على الحاكم الجائر:	٤١٩
في لزوم إطاعة الحاكم الجائر:	٤٢٠
تحليل هذه النظرية:	٤٢٢
في لزوم الخروج على الحاكم الجائر:	٤٢٣
٤ - التقية قولاً و عملاً:	٤٣١
٥ - ما تجب معرفته بالتفصيل:	٤٣٧
الأمر الأول: ما تجب معرفته في مجال العقيدة:	٤٣٨
ما يجب تعلّمه في مجال الشريعة:	٤٤٣
٦ - حكم الدار:	٤٤٥
٧ - في حكم الزاني المحصن:	٤٤٩
خاتمة المطاف:	٤٥٣
أولاد المشركين:	٤٥٤
في نكاح المشركات:	٤٥٨
نكاح المشركة:	٤٥٨

- ٤٥٩ نكاح الكافرة غير المشركة:
- ٤٦٧ خاتمة المطاف: رجال الخوارج في العصور الأولى
- ٤٦٧ ١ - عكرمة البربري أبو عبد الله المدني مولى ابن عباس
- ٤٧٠ ٢ - قطري بن الفجاءة
- ٤٧١ ٣ - عمران بن حطان
- ٤٧٤ ٤ - الطرماح بن حكيم الطائي
- ٤٧٥ ٥ - الضحّاك بن قيس
- ٤٧٦ ٦ - معمر بن المثنى
- ٤٧٩ مجاز القرآن لأبي عبيدة
- ٤٨٠ المأثور حول الخوارج

فهرس المصادر

حرف الألف

- ١ . الاباضية بين الفرق الإسلامية: علي يحيى معمر، عمان - ١٤٠٦ هـ .
- ٢ . الاباضية في مصر والمغرب: دكتور رجب محمد عبد الحليم، مسقط - ١٤١٠ هـ .
- ٣ . الاباضية في موكب التاريخ: علي يحيى معمر، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٤ هـ .
- ٤ . الاتقان: السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) تحقيق الدكتور مصطفى، دار ابن كثير، بيروت .
- ٥ . أحكام القرآن: الجصاص: أحمد بن علي (ت ٣٧٠ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - ١٤٠٦ هـ .
- ٦ . الاخبار الطوال: الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) دار احياء الكتب العربية، القاهرة - ١٩٦٠ م .
- ٧ . الإصابة: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٣٥٨ هـ .
- ٨ . أصول الدين: البزودي: أبو اليسر محمد بن عبد الكريم (٤٢١ - ٤٩٣ هـ)

دار احياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٨٣ هـ .

٩ . الاعلام: خير الدين الزرگلي (ت ١٣٩٦ هـ) دار العلم للملايين، بيروت - ١٤٠٤ هـ
الطبعة السادسة.

١٠ . الأغاني: أبو الفرج الاصفهاني: علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) دار إحياء التراث العربي،
بيروت.

١١ . الله خالق الكون: جعفر الهادي (المعاصر) من محاضرات العلامة الاستاذ جعفر
السبحاني، دار الأضواء، بيروت - ١٤٠٦ هـ .

١٢ . الإلهيات: محمد مكي العاملي من محاضرات العلامة الاستاذ جعفر السبحاني، الدار
الإسلامية، بيروت - ١٤١٠ هـ .

١٣ . الأمالي: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) ايران، طبعة حجر.

١٤ . الإمام جابر بن زيد العماني: الصوافي: الدكتور صالح بن أحمد، عمان ١٤٠٩ هـ الطبعة
الثانية.

١٥ . الإمامة والسياسة: الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)
مطبعة مصطفى محمد - مصر.

١٦ . الأنساب: البلاذري: أحمد بن يحيى (من اعلام القرن الثالث الهجري) مؤسسة
الاعلمي، بيروت - ١٣٩٤ هـ .

١٧ . أوائل المقالات: الشيخ المفيد: محمد بن محمد النعمان (٣٣٦ - ٤١٣ هـ)، مكتبة
الحقيقة، تبريز - ١٣٧١ هـ .

حرف الباء

١٨ . الباب الحادي عشر: العلامة الحلي: حسن بن يوسف بن مطهر (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ)

ط طهران.

١٩ . بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ - ١١١٠ هـ) مؤسسه الوفاء، بيروت - ١٤٠٣

هـ .

٢٠ . بدء الإسلام وشرائع الدين: ابن سلام الاباضي (ت ٢٧٣ هـ).

٢١ . بداية المجتهد: ابن رشد القرطبي (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٣ هـ .

٢٢ . البيان والتبيين: الجاحظ: أبو عثمان عمرو (ت ٢٥٥ هـ) دار الفكر للجميع، بيروت -

١٩٦٨ م .

حرف التاء

٢٣ . تاج العروس: الزبيدي: محمد مرتضى، بيروت.

٢٤ . تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) المكتبة السلفية،

المدينة المنورة.

٢٥ . تاريخ الخلفاء: السيوطي: جلال الدين (٨٤٩ - ٩١١ هـ) مطبعة المدني، الأعلمي،

بيروت.

٢٦ . تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله (٥٠٠ - ٥٧٣ هـ) دار

التعارف، بيروت - ١٣٩٥ هـ .

٢٧ . تاريخ المذاهب الإسلامية: محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٦ هـ) ط القاهرة.

٢٨ . تاريخ المغرب الكبير: محمد علي دبوز.

٢٩ . تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (من علماء القرن الثالث)

- المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٤ هـ .
- ٣٠ . تحفة الأعيان: أبو إسحاق السالمي.
- ٣١ . تذكرة الخواص: سبط ابن الجوزي (٥٨١ - ٦٥٤ هـ) مؤسسة أهل البيت، بيروت - ١٤٠١ هـ .
- ٣٢ . تفسير المنار: محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) دار المنار، مصر ١٣٧٣ هـ .
- ٣٣ . تقريب التهذيب: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (٧٣٣ - ٨٥٢ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٣٩٥ هـ .
- ٣٤ . التمهيد: القاضي أبو بكر: محمد بن الطيب الباقلائي (٤٠٣ هـ)، طبع القاهرة - ١٣٦٦ هـ .
- ٣٥ . تنقيح المقال: عبد الله المامقاني، إيران، طبعة حجر.
- ٣٦ . تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا النووي (ت ٦٧٦ هـ) دار الكتب العلمية بيروت.
- ٣٧ . تهذيب التهذيب: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٤٠٤ هـ .
- حرف الجيم
- ٣٨ . الجامع الصحيح (مسند الربيع بن حبيب الأزدي): تقديم عبد الله بن حميد السالمي، ط دمشق - ١٣٨٨ هـ .
- ٣٩ . الجرح والتعديل: أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٣٧١ هـ .
- ٤٠ . جواهر الكلام: النجفي: محمد حسن (ت ١٢٦٦ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٩٨١ م .
- ٤١ . الجواهر: المنتقا: البرادي، طبع القاهرة - ١٨٨٤ م .

حرف الحاء

٤٢ . الحور العين: الحميري: سعيد بن نشوان، طهران - ١٣٩٤ هـ - بالأفسيت.

حرف الخاء

٤٣ . خزنة الأدب: البغدادي: عبد القادر بن عمر (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ) دار صادر، بيروت.

٤٤ . الخصائص: النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف - ١٣٨٨ هـ.

٤٥ . الخطط: تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥ هـ) دار صادر، بيروت.

٤٦ . الخلاف: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) دار الكتب العلمية، قم -

ايران.

٤٧ . الخوارج في العصر الأموي: الدكتور نايف معروف، دار الطليعة، بيروت - ١٤٠١ هـ.

حرف الذال

٤٨ . الذريعة: آقا بزرك الطهراني (ت ١٢٩٣ - ١٣٨٩ هـ) دار الأضواء، بيروت ١٤٠٣ هـ.

حرف الراء

٤٩ . الرسائل: مرتضى الأنصاري (م ١٢٨٢ هـ) مطبعة بيروت، قم - ١٣٩٠ هـ.

حرف السين

٥٠ . سنن ابن ماجه: ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ)

دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٣٩٥ هـ .

٥١ . السنن الكبرى: البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ) دار المعرفة بيروت - ١٤٠٦ هـ .

٥٢ . سير أعلام النبلاء: الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) مؤسّسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٩ هـ .

٥٣ . السيرة الحلبية: الحلبي: برهان الدين علي بن إبراهيم (ت ١٠٤٤ هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت.

٥٤ . السيرة النبوية: ابن هاشم: أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) دار التراث العربي، بيروت.

٥٥ . السير والجوابات: لبعض فقهاء الاباضية، تحقيق الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، طبع وزارة التراث القومي، سلطنة عمان.

حرف الشين

٥٦ . شذرات الذهب: ابن عماد الحنبلي (١٠٣٢ - ١٠٨٩ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٣٩٩ هـ .

٥٧ . شرائع الإسلام: المحقق الحلبي: أبو القاسم جعفر بن الحسن (٦٠٢ - ٦٧٦ هـ) دار الأضواء، بيروت - ١٤٠٣ هـ .

٥٨ . شرح العقيدة الطحاوية: صدر الدين علي بن أبي العز الحنفي (من أعلام القرن الثامن) المكتب الإسلامي، بيروت - ١٤٠٤ هـ .

٥٩ . شرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ) ط مصر .

٦٠ . شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٧٨ هـ .

حرف الصاد

٦١. صحيح البخاري: البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر - ١٣١٤ هـ.
٦٢. صحيح مسلم: أبو الحسين: مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

حرف الضاد

٦٣. الضعفاء والمتروكين: عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٦ هـ.

حرف العين

٦٤. العقد الفريد: ابن عبد ربّه الأندلسي (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٤ هـ.

٦٥. العقود الفضية: الحارثي، طبع دار الیقظة.

حرف الغين

٦٦. الغارات: ابن هلال الثقفي (ت ٢٨٣ هـ) دار الكتاب الإسلامي، قم - ١٤١١ هـ.
٦٧. الغدير: الأميني: عبد الحسين أحمد النجفي (١٣٢٠ - ١٣٩٠ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - ١٣٨٧ هـ.

حرف الفاء

٦٨. الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ)

دار المعرفة، بيروت - ١٣٩٥ هـ .

٦٩ . الفرق بين الفرق: البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩ هـ) دار المعرفة، بيروت.

٧٠ . فقه الإمام جابر بن زيد: يحيى محمد بكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٧ هـ .

حرف الكاف

٧١ . الكافي: الكليني: محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩ هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران - ١٣٨٨ هـ .

٧٢ . الكامل في اللغة والأدب: المبرّد النحوي: ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) مكتبة المعارف، بيروت.

٧٣ . الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري: محمد بن محمد (ت ٦٣٠ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت .

٧٤ . الكشف والبيان: القلّهاتي: تحقيق د. سيدة الكاشف - ١٩٨٠ م .

٧٥ . كنز العمال: المتقي الهندي (ت ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٥ هـ .

حرف اللام

٧٦ . لسان الميزان: العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت.

حرف الميم

٧٧ . المبسوط: الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) طبع

- طهران - ١٣٨٧ هـ .
- ٧٨ . مجمع البيان: الطبرسي: الفضل بن الحسن (٤٧١ - ٥٤٨ هـ) مطبعة العرفاني صيدا - ١٣٥٤ هـ .
- ٧٩ . مجمع الزوائد: الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر (٧٣٥ - ٨٠٧ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - ١٤٠٢ هـ .
- ٨٠ . المحاسن: البرقي: أحمد بن محمد (ت ٢٧٤ هـ) طبع طهران .
- ٨١ . المستدرک: النوري الطبرسي: الحسين بن محمد تقي (١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ) مؤسسة آل البيت، قم ١٤٠٧ هـ .
- ٨٢ . مسند أحمد: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) دار الفكر، بيروت .
- ٨٣ . المسند: الطيالسي: سليمان بن داود الجارود (م ٢٠٤ هـ) دار المعرفة بيروت .
- ٨٤ . مروج الذهب: المسعودي: علي بن الحسين (ت ٣٤٥ هـ) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت - ١٩٦٥ م .
- ٨٥ . المعارف: ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٧ هـ
- ٨٦ . المعتمد: محمد بن سعيد الكدومي، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان .
- ٨٧ . المعيار والموازنة: أبو جعفر الاسكافي (ت ٢٤٠ هـ) تحقيق محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ .
- ٨٨ . المغني: عبد الله بن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) مطبعة الإمام، مصر .
- ٨٩ . مفاتيح الغيب: الرازي: فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) طبع مصر .
- ٩٠ . مفاهيم القرآن: السبحاني: جعفر بن محمد حسين (مؤلف هذا الكتاب) قم - ١٤٠٤ هـ

٩١ . مقالات الإسلاميين: الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٢٤ هـ) الطبعة الثالثة - ١٤٠٠ هـ .

٩٢ . الملل والنحل: الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٢ هـ .

٩٣ . مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: أبوجعفر رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ - ٥٨٨ هـ) المطبعة العلمية، قم - إيران .

٩٤ . ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) دار المعرفة، بيروت .

حرف النون

٩٥ . نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي: أبو الحسن محمد بن الحسن (٣٥٩ - ٤٠٤ هـ) بيروت - ١٣٨٧ هـ .

٩٦ . نور الثقلين: العروسي الحويزي: عبد علي بن جمعة (ت ١١١٢ هـ) مطبعة الحكمة، قم - إيران .

حرف الواو

٩٧ . وسائل الشيعة: الحر العاملي: محمد بن الحسين (١٠٣٣ - ١١٠٤ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٣ هـ .

٩٨ . وفيات الأعيان: ابن خلّكان: أحمد بن محمد (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) منشورات الرضي، قم - ١٣٦٤ هـ .

٩٩ . وقعة صفين: نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٦٥ هـ .